غيث المواهب

الجزء الاول

من شرح العالم العلامة والبحر الفهامة
وحيد دهره وفريد عصره محمد بن
ابراهيم المعروف بابن عباد النفزى
الرندى على متن الحكم للامام المحقق
أبى الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم
ابن عطاء الله السكندرى تغمدهما الله
بالرحمة والرضوان وأسكنهما أعلى
الجنان آمين



ولاجل تمام النفع وضع على هامش
هذا الشرح شرح المحقق شيخ الاسلام
الشيخ عبد الله الشرقاوى تغمده الله
برحمته وأسكنه فسيح جنته آمين

الطبعة الاولى

بالمطبعة الخيريه بحوش عطى بجمالية
مصر المعزيه سنة ١٣٠٣ هجريه

(غنيم سالم)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير الى الله تعالى المعتمد فى غفران ذنوبه على الله محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم بن عباد النفزى الرندى لطف الله به الحمد لله المنفرد بالعظمة والجلال المتوحد باستحقاق نعوت الكمال المنزه عن الشركاء والنظراء والامثال المقدس عن سمات الحدوث من التغير والانتقال والاتصال والانفصال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادى من الضلال وعلى آله وأصحابه الذين خلصت لهم الاعمال وصفت منهم الاحوال وعلى جميع من اتبعهم فيما لهم من محامد الصفات ومحاسن الخلال *(أما بعد)* فانا لما رأينا كتاب الحكم المنسوب الى الشيخ الامام المحقق العارف المكاشف الولى الربانى أبى الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه ونفعنا به من أفضل ما صنف فى علم التوحيد وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد لكونه صغير الجرم عظيم العلم ذا عبارات رائقة ومعان حسنة فائقة قصد فيها الى ايضاح طريق العارفين والموحدين وابانة مناهج السالكين والمتجردين أخذنا فى وضع تنبيه يكون كالشرح لبعض معانيه الظاهرة وكالكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة ولا قدرة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب وما تضمنه من لباب اللباب لان كلام الاولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة وجواهر حكم مكنونة لا يكشفها الا هم ولا تتبين حقائقها الا بالتلقى عنهم ونحن فى هذه الكلمات التى نوردها والمناحى التى نعتمدها غير مدعين لشرح كلام المؤلف ولا أن ما نذكره فيه هو حقيقة مذاهبهم حسبما يفعله كل مصنف فانا ان ادعينا ذلك كان منا اساءة أدب تؤل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (أما بعد) فيقول المرتجى غفر المساوى عبد الله ابن حجازى الخلوتى المشهور بالشرقاوى هذه تقييدات لطيفة على حكم العارف بالله سيدى أحمد بن عطاء الله قدس سره وقصده بها فى الغالب خطاب المريدين الصادقين وترقيهم الى مقام العرفان فينبغى لنا أن نقتصر على بيان مقصوده بحسب الامكان * قال رضى الله عنه

بنا والعياذ بالله الى العطب وكنا قد تعرضنا للخطر والضرر فى تعاطى ما لا يليق بنا من شرح كلام السادة من أهل الله تعالى من غير خوف ولا حذر وانما نورد ذلك على حسب ما فهمناه من كلامهم وما انتهى الينا علمه من مذاهبهم فان وافقنا فيه حقيقة الامر وعثرنا على مكنون السر كان ذلك من النعم التى لا نحصى لها شكرا ولا نقدر لها قدرا وان خالفنا ذلك ولم نهتد الى تلك المسالك أحلناه على نقصنا وجهلنا وانتفى عنا التعزير بقولنا وفعلنا واقتصر الامر فى ذلك علينا وكانوا هم مبرئين مما قلنا ونوينا فلا جرم اذ كان هذا مقصدنا لوجود السلامة التى جعلناها معتمدنا فينبغى لنا أن نقدم أولا كلام المؤلف رحمه الله تعالى مستوفى ثم نتبعه كلامنا بصيغة الخبر والدعوى ونأتى فيه بعبارة أبسط من عبارته واشارة أجلى من اشارته ليفهم بذلك ما عندنا فى تفسير ما ذكره لا أنه تفسيره حقيقة مقررة ونذكر فى أثناء ذلك كثيرا مما ناسب عندى من الكلام المنبه عليه لتتم بذلك الفائدة فى الغرض المتوجه اليه وما ظهر لنا فى كلامه من تكرار معان وتداخل فروع ومبان رأينا التنبيه عليه كالفرض وأحلنا بعضه على بعض وعلى الناسخ لهذا المجموع أن يتبع فيه ما رسمناه ويكتب نص كلام المؤلف بصبغ يخالف لونه لون ما يكتب به سواه أو يكتبهما بقلمين مختلفين فى الغلظ والرقة ويوفى من ذلك كلا منهما حقه ليكون ذلك أقرب الى حصول المرام فى استخراج فائدة ترتيب الكلام والله الموفق لا رب غيره ولا خير الا خيره والذى حملنى على وضعه وتكلف تصنيفه وجمعه بعد تقدم ارادة الله تعالى التى لا تغلب وتقديره الذى ليس للعبد منه منجى ولا مهرب ثم الرأى الذى رأيناه من المطالب والمقاصد المعظمة ونبهنا عليه فى صدر هذه المقدمة الحاح بعض الاصحاب فى ذلك على وترددهم بالمسئلة الى لكونهم على اعتقاد صحيح فى هذه الطريقة ومحبة خالصة لاهل الحقيقة فأسعفتهم بما طلبوه وحققت لهم الامل فيما رغبوه كما شاء الله تعالى وحكم وقضى به علينا وحتم نفعنا الله واياهم بما يجرى منه على يدينا ولا جعله حجة عليهم ولا علينا ونحن نستغفر الله تعالى مما تعاطيناه من الامر العظيم واقتحمناه من الخطر الجسيم ونستعيذ به من الوقوع فى حبائل العدو الرجيم ونسأله توفيقا يقف بنا على جادة الاستقامة ويصرفنا عن العمل بما يعقب ملامة أو ندامة ونرجوه مع هذا اذ من علينا بالانتماء الى مذاهبهم والانتساب الى كريم مناسبهم والتعلق بأذيالهم ومحاولة النسج على منوالهم ورزقنا شيأ من تعظيمهم وحبهم وقسطا من تكريمهم وبرهم أن لا يحرمنا من شفاعتهم ولا يخرجنا من كنفهم ولا يتهم ولا يطردنا عن بابهم الكريم ولا يصرفنا عن منهجهم القويم فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم

لى سادة من عزهم * أقدامهم فوق الجباه

ان لم أكن منهم فلى * فى حبهم عز وجاه

اللهم انا نتوسل اليك بحبهم فانهم أحبوك ولم يحبوك حتى أحببتهم فبحبك اياهم وصلوا الى حبك ونحن لم نصل الى حبهم فيك الا بحظنا منك فتمم لنا ذلك حتى نلقاك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين وسلم عليهم تسليما كثيرا * وهذا حين أبتدئ وبالله التوفيق ومنه الهداية الى سواء الطريق * قال المؤلف قدس الله سره *(من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل)* أقول الاعتماد على الله تعالى نعت العارفين الموحدين

(من علامة الاعتماد على العمل) أى عمل الجوارح من صلوات وأوراد وأذكار وغيرها والمعتمد على ذلك العباد والمريدون فالاولون يعتمدون عليها فى دخول الجنة والتنعم فيها والنجاة من عذاب الله تعالى والآخرون يعتمدون عليها فى الوصول الى الله تعالى وكشف الاستار عن القلوب وحصول الاحوال القائمة بها والمكاشفات والاسرار كلاهما مذموم وناشئ من رؤية النفس ونسبة الاعمال اليها حتى ينتج ما ذكر * أما العارفون فلا يرون لانفسهم شيأ حتى يعتمدوا عليه بل يشاهدون أن الفاعل الحقيقى هو الله تعالى وأنهم محل لظهور ذلك فقط * وأشار المصنف رحمه الله تعالى الى علامة يعرف بها العبد نفسه فمن علامة كونه من القسمين الاولين (نقصان الرجاء) أى رجائه فى الله تعالى أن يدخله الجنة وينجيه من العذاب ان كان من العباد وأن يوصله الى مطلوبه للتقدم ان كان من المريدين (عند وجود الزلل) بأن تصدر منه معصية كزنا وغفلة عن الله تعالى وترك أوراد ومن علامة كونه من العارفين فناؤه عن نفسه فاذا وقع فى زلة أو أصابته غفلة شهد تصريف الحق فيه وجريان قضائه عليه كما أنه اذا صدر منه طاعة أو لاح له مشاهدة قلبية لم ير فى ذلك حوله وقوته فلا فرق عنده بين الحالين لانه غارق فى بحار التوحيد قد استوى خوفه ورجاؤه فلا ينقص العصيان خوفه ولا يزيد الاحسان رجاءه فمن لم يجد هذه العلامة فيه فليجاهد نفسه بالرياضة

والاذكار حتى يصل الى مقام العرفان ومراد المصنف بهذه الحكمة تنشيط السالك ورفع همته عن الاعتماد على شئ سوى

مولاه لا التزهيد فى الاعمال لانها سبب عادى فى الوصول الى الله تعالى ولا تحقير ما تنتجه من الاحوال وغيرها لان ذلك منة من الله تعالى لا ينبغى رده (ارادتك التجريد) أى ميل نفسك أيها المريد الصادق الى التجريد عن الاسباب الظاهرية أى خروجك عنها وعدم معاناتها (مع اقامة الله اياك فى الاسباب) وعلامة ذلك أن يهيئها لك وأن تجد السلامة فى دينك عند معاناتها وينقطع بها طمعك عما بأيدى الناس ولا يشغلك عما أنت فيه من وظائف العبادات الظاهرة والاحوال الباطنة (من الشهوة) أى من شهوات النفوس التى تدعو اليها (الخفية) وكانت شهوة لعدم وقوفك على مراد سيدك وموافقتك مرادنفسك وخفية لان ظاهر ذلك أن مرادك بالتجرد الانقطاع الى الله تعالى والتقرب اليه وباطنه أن مرادك الشهرة بالولاية لتقصدك الناس بالاعتقاد والتقرب اليك فتنقطع عما أنت بصدده فقد قال العارفون اقبال الناس على المريد قبل كماله سم قاتل وربما انقطعت بذلك عن وظائفك وأورادك وصرت تتطلع لما بأيدى الناس (وارادتك الاسباب) أى التسبب والاكتساب (مع اقامة الله اياك فى التجريد) أى بأن يسر لك القوت من حيث لا تحتسب وجعل نفسك

طمئنة عند تعذره متعلقة بمولاها ودمت على الاشتغال بوظائف العبادات (انحطاط عن الهمة العلية) لارادتك الاسباب

والاعتماد على غيره وصف الجاهلين الغافلين كائناما كان ذلك الغير حتى علومهم وأعمالهم وأحوالهم أما العارفون الموحدون فانهم على بساط القرب والمشاهدة ناظرون الى ربهم فانون عن أنفسهم فاذا وقعوا فى زلة أو أصابتهم غفلة شهدوا تصريف الحق تعالى لهم وجريان قضائه عليهم كما أنهم اذا صدرت عنهم طاعة أولاح عليهم لائح من يقظة لم يشهدوا فى ذلك أنفسهم ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم لان السابق الى قلوبهم ذكر ربهم فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنواره ولا فرق عندهم بين الحالين لانهم غرقى فى بحار التوحيد فقد استوى خوفهم ورجاؤهم فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان ولا يزيد فى رجائهم ما يأتون به من الاحسان * قال شارح المجالس العارفون قائمون بالله قد تولى الله أمرهم فاذا ظهرت منهم طاعة لم يرجوا عليها ثوابا لانهم لم يروا أنفسهم عمالا لها وان ظهرت منهم زلة فالدية على القاتل لم يشاهدوا غيره فى الشدة والرخاء فقيامهم بالله ونظرهم اليه وخوفهم هيبته ورجاؤهم الانس به اه وأما غيرهم فبقوا مع نفوسهم فى نسبة الاعمال والافعال اليها وطلبوا الحظ لها وعليها فاعتمدوا على أعمالهم وسكنوا الى أحوالهم فاذا وقعوا فى زلة نقص بذلك رجاؤهم كما أنهم اذا عملوا طاعة جعلوها من أعظم عددهم وأقوى معتمدهم فتعلقوا بالاسباب وحجبوا بتفرقهم بها عن رب الارباب فمن وجد هذه العلامة فى نفسه فليعرف منزلته وقدره ولا يتعد طوره فيدعى مقامات الخاصة من المقربين وانما هو من عامة أصحاب اليمين وستأتى اشارات الى هذا المعنى فى موضع من كلام المؤلف قدس الله سره * وقد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى والحافظ أبو نعيم الاصفهانى عن يوسف بن الحسين الرازى رضى الله عنهم قال عارضنى بعض الناس فى كلام وقال لى لا تستدرك مرادك من عملك الا أن تتوب فقلت مجيبا لوأن التوبة تطرق بابى ما أذنت لها على أنى أنجو بها من ربى ولو أن الصدق والاخلاص كانا عبدين لى لبعتهما زهدا منى فيهما لانى ان كنت عند الله فى علم الغيب سعيدا مقبولا لم أتخلف باقتراف الذنوب والمآثم وان كنت عنده شقيا مخذولا لم تسعدنى توبتى واخلاصى وصدقى وان الله خلقنى انسانا بلا عمل ولا شفيع كان لى اليه وهدانى لدينه الذى ارتضاه لنفسه فقال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين فاعتمادى على فضله وكرمه أولى بى ان كنت حرا عاقلا من اعتمادى على أفعالى المدخولة وصفاتى المعلولة لان مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة معرفتنا بالكريم المتفضل * قلت وهذه الحكاية وأمثالها ربما تفرغ سمع من لا حقيقة عنده من طريق القوم فينكر معناها ولا يعتقده أو يسلمه ويدعيه مقاما لنفسه وكلتا الحالتين مؤدية بصاحبها الى ضرر وخطر فليتق الله تعالى عبد ليس له بصر فى هذه الطريقة أن ينكر ما ذكرناه فيقع فى الاعتراض على السادة والاولياء وفى ذلك بعده من الله تعالى أو يدعيه مقاما لنفسه من غير أن يستظهر عليها ويتوثق منها ويزنها بالمعيار الذى نبهنا عليه ومحال وجود ذلك ممن لم يصحح مقام الفناء عن النفس فيرتكب حينئذ مساخط الله تعالى ويتعدى حدوده ويجعل ذلك حجة لنفسه غلطا وجهلا وهذا باب من الزندقة والعياذ بالله سبحانه وتعالى * (ارادتك التجريد مع اقامة الله اياك فى الاسباب من الشهوة الخفية وارادتك الاسباب مع اقامة الله اياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية) *

الاسباب ههنا عبارة عما يتوصل به الى غرض ما ينال فى الدنيا والتجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الاسباب لاجل ذلك فمن أقامه الحق تعالى فى الاسباب وأراد هو الخروج منها فذلك من شهوته الخفية وانما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به وارادته هو خلاف ذلك وانما كانت خفية لانه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل وانما قصد بذلك التقرب الى الله تعالى بكونه على حال هى أعلا بزعمه لكن فاته الادب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من اقامته اياه فيما أقامه فيه وتطلعه الى مقام رفيع لا يليق به فى الوقت وعلامة اقامته اياه فى الاسباب أن يدوم له ذلك وأن تحصل له ثمرته ونتيجته وذلك بأن يجد عند تشاغله بالاسباب سلامة فى دينه وقطعا للمطمعة عن غيره وحسن نيته فى صلة رحم أو اعانة فقير معدم الى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين ومن أقامه الحق تعالى فى التجريد وأراد الخروج منه الى الاسباب فذلك من انحطاط همته وسوء أدبه وكان وافقا مع شهوته الجلية لان التجريد مقام رفيع أقام الحق تعالى فيه خواص عباده من الموحدين والعارفين فاذا أقامه الحق تعالى فى مقام الخواص فلم يحط عن رتبتهم الى منازل أهل الانتقاص * قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه من لم يأنف من مشاركة الاضداد فى الاسباب فهو خسيس الهمة وعلامة اقامته اياه فى التجريد ما ذكرناه من الدوام ووجدان الثمرة ومن ثمرات ذلك طيب وقت المتجرد وصفاء قلبه ووجدان راحته من ملابسة الخلق ومخالطتهم والهمة حالة للقلب وهى قوة ارادة وغلبة انبعاث الى نيل مقصود ما وتكون عالية ان تعلقت بمعالى الامور وسافلة ان تعلقت بأدانيها قال الشاعر وأجاد

وقائلة لم علتك الهموم * وأمرك ممتثل فى الامم
فقلت ذرينى على حالتى * فان الهموم بقدر الهمم

وقال الآخر

اذا أعطشتك أكف اللئام * كفتك القناعة شبعا وريا
فكن رجلا رجله فى الثرى * وهامة همته فى الثريا
فان اراقة ماء الحياة * دون اراقة ماء المحيا

وما ذكرته من معانى الاقامة فى نوعى الاسباب والتجريد هو شئ فهمته مما يقوله بعد هذا من علامة اقامة الحق لك فى الشئ ادامته اياك فيه مع حصول النتائج والله أعلم وقد ذكر فى التنوير هذه المسئلة بنصها حاكيا عن هذا الكتاب وقال بازره وافهم رحمك الله ان من شأن العدو أن يأتيك فيما أنت فيه مما أقامك الله فيه فيحقره عندك لتطلب غير ما أقامك الله فيه فيتشوش عليك قلبك ويتكدر وقتك وذلك أنه يأتى للمتسببين فيقول لهم لو تركتم الاسباب وتجردتم لأشرقت لكم الانوار ولصفت منكم القلوب والاسرار قائلا وكذلك صنع فلان وفلان ويكون هذا العبد ليس مقصودا بالتجريد ولا طاقة له به انما صلاحه فى الاسباب فيتركها فيتزلزل ايمانه ويذهب ايقانه ويتوجه الى الطلب من الخلق والى الاهتمام بأمر الرزق فيرمى فى بحر القطيعة وذلك قصد العدو منه لانه انما يأتيك فى صورة ناصح كما أتى أبويك فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله تعالى وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين كما تقدم بيانه وكذلك يأتى المتجردين ويقول لهم الى متى تتركون الاسباب ألم تعلموا أن ترك الاسباب تتطلع معه

الرجوع الى الخلق بعد التعلق بالحق ولو لم يكن الا مخالطة أبناء الدنيا فيما هم فيه لكان كافيا فى دناءة الهمة فالواجب على السالك أن يمكث فيما أقامه الحق فيه ويرضى به حتى يتولى الله اخراجه منه ولا يخرج بنفسه وارادته وتسويل الشيطان فيقع فى بحر القطيعة والعياذ بالله تعالى

القلوب الى ما في أيدي الناس ويفتح باب الطمع ولا يمكنكم الاسعاف والايثار ولا القيام بالحقوق وعوض ما تكون منتظرا لما يفتح به عليك من الخلق فلو دخلت في الاسباب بقي غيرك منتظرا ما يفتح به عليه منك الى غير ذلك ويكون هذا العبد قد طاب وقته وانبسط نوره ووجد الراحة بالانقطاع عن الخلق فلا يزال به حتى يعود الى الاسباب فتصيبه كدورتها وتغشاه ظلمتها ويعود الدائم في سببه أحسن حالا منه لان ذلك ما سالك طريقا ثم رجع عنها ولا قصد مقصدا ثم انعطف عنه فافهم واعتصم بالله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم وانما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضا عن الله تعالى فيما هم فيه وأن يخرجهم عن مختار الله لهم الى مختارهم لانفسهم وما أدخلك الله فيه تولى اعانتك عليه وما دخلت فيه بنفسك وكلك اليه وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا فالمدخل الصدق أن تدخل فيه لا بنفسك والمخرج الصدق أيضا كذلك فافهم والذي يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى اخراجك كما تولى ادخالك وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب * قال بعضهم تركت السبب كذا كذا مرة فعدت اليه ثم تركني السبب فلم أعد اليه ودخلت على الشيخ رضي الله عنه وفي نفسي العزم على التجريد قائلا في نفسي ان الوصول الى الله تعالى على هذه الحالة بعيد من الاشتغال بالعلوم الظاهرة ووجود المخالطة للناس فقال لي من غير أن أسأله صحبني انسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها فذاق من هذه الطريق شيأ فجاء الي فقال يا سيدي أخرج عما أنا فيه وأتجرد لصحبتك فقلت له ليس الشأن ذا ولكن امكث فيما أنت فيه وما قسم الله لك على أيدينا فهو اليك واصل ثم قال الشيخ ونظر الي وهكذا شأن الصديقين لا يخرجون من شئ حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى اخراجهم فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي ووجدت الراحة بالتسليم الى الله تعالى ولكنهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم القوم لا يشقى بهم جليسهم اه كلامه في التنوير في هذا المعنى وهو كلام حسن وانما أثبتناه ههنا على طوله لانه تولى فيه بيان مسئلته التي ذكرها في هذا الكتاب بنفسه بيانا شافيا فنقلناه بلفظه ووددنا لو أن جميع مسائله تكون هكذا * (سوابق الهمم لا تخرق أسوار الاقدار) الهمم السوابق هي قوى النفس التي تنفعل عنها بعض الموجودات باذن الله تعالى وتسميها الصوفية همة فيقولون أحال فلان همته على أمر ما فانفعل له ذلك وهذه الهمم السابقة لا تنفعل الاشياء عنها الا بالقضاء والقدر وهو معنى قولنا باذن الله تعالى فهي على حال سبقيتها ونفوذها لا تخرق أسوار الاقدار ولا تنفذها وهذه الهمم قد تكون للاولياء كرامات وقد تكون لغيرهم استدراجا ومكرا كما تكون للعائن والساحر وقد ثبت أن العين حق والسحر حق ومعناه ما ذكرناه وحاصل ذلك أنه يجب أن تعتقد أنها أسباب لا تأثير لها ولا فاعلية وأن الفاعل هو الله تعالى وحده عندها لا بها * وكأن المؤلف رحمه الله انما أورد هذه المسئلة بين يدي كلامه في التدبير ليعرفك بذلك أن وجود التدبير لا جدوى له ولا فائدة لان الهمة الفعالة اذا لم تفد في خرق أسوار الاقدار شيأ كيف يفيد في ذلك التدبير وما لا فائدة فيه فضول لا ينبغي أن يتشاغل به ويتعب فيه ذووا العقول ولذلك قال * (أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك

(سوابق الهمم لا تخرق أسوار الاقدار) هذه الحكمة كالتعليل لما قبلها وتصلح أيضا لما بعدها كأنه قال ارادتك أيها المريد خلاف ما أراده مولاك لا تجدي نفعا لانه اذا كانت سوابق الهمم أي الهمم السوابق أي سريعة التأثير في الاشياء وهي قوى النفس التي تنفعل عنها الاشياء وتكون للولي كرامة يقال نعل كذا بهمته اذا وجهها اليه فوجد ولغيره كالساحر والعائن اهانة لا تنفعل عنها الاشياء الا بتقدير الله تعالى أي باذنه سبحانه فالهمم غير السوابق كهمتك أيها المريد لا أثر لها من باب أولى ففي هذا تبريد نار الحرص المشتعلة في قلبه حتى يتخيل له أن ذلك الشئ طوع يده وأنه يدركه لا محالة والاضافة في قوله سوابق الهمم من اضافة الصفة الى الموصوف كما تقرر وفي قوله أسوار الاقدار من اضافة المشبه به للمشبه ثم قال (أرح نفسك) أيها المريد (من التدبير) لامر دنياك وهو أن يقدر الشخص في نفسه أحوالا يكون عليها على ما تقتضيه شهوته ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال ويهتم لاجل ذلك وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه ولعل أكثر ما يقدره لا يقع فيخيب ظنه وفي تعبيره أرح اشارة الى أن المطلوب تركه للمريد هو ما فيه تعب ومعاناة كالتدبير أمور معاشه على وجه يهل يستعين به على مطلوبه لا بأس به ولذا ورد التدبير نصف المعيشة (فما قام به غيرك عنك

لا تقم به لنفسك) تدبير الخلق لامور دنياهم على الوجه الذي نقوله مذموم لان الله تعالى قد تكفل لهم بذلك وقام به عنهم وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه ويقوموا بحق عبوديته ووظائف تكليفاته فقط وهو أن يقدر العبد لنفسه شؤنا يكون عليها من أمر دنياه على ما تقتضيه شهوته وهواه ويدبر لها ما يليق بها من أحوال وأعمال ويستعد لذلك ويهتم لاجله وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه ولعل أكثر ما يقدره لا يقع فيخيب ظنه ويبطل سعيه ثم فيه من ترك العبودية ومضادة أحكام الربوبية ومنازعة القدر واضاعة العمر ما يحمل العاقل على تركه واجتنابه وقطع مواده وأسبابه * قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه ذروا التدبير والاختيار فانهما يكدران على الناس عيشهم * وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي ان كان ولا بد أن تدبروا فدبروا أن لا تدبروا وهذه المسئلة أساس طريق القوم بل هي جملته وكليته والكلام فيها طويل عريض وانما اقتصرنا فيها على هذا القدر اليسير من التنبيه لان المؤلف رحمه الله أفرد في هذا المعنى كتابا سماه التنوير في اسقاط التدبير أحسن فيه غاية الاحسان وقرب الامر فيه بحيث يستغني به عما صنف في هذه الطريقة من ديوان فتحصيله متعين على كل مريد نجيب * (اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك) الشئ المضمون للعبد هو رزقه الذي يحصل له به قوام وجوده في دنياه ومعنى كونه مضمونا أن الله تعالى تكفل بذلك وفرغ العباد عنه ولم يطلب منهم الاجتهاد في السعي فيه ولا الاهتمام له والشئ المطلوب من العبد هو العمل الذي يتوصل به الى سعادة الآخرة والقرب من الله تعالى من عبادات وطاعات ومعنى كونه مطلوبا أنه موكول الى اكتساب العبد له واجتهاده فيه ومراعاة شروطه وأسبابه وأوقاته بهذا جرت سنة الله تعالى في عباده قال الله عز وجل في المعنى الاول الذي ضمنه للعبد وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وقال تعالى في المعنى الثاني الذي طلبه منه وأن ليس للانسان الا ما سعى وقد روي في بعض الآثار أن الله تعالى يقول عبدي أطعني فيما أمرتك ولا تعلمني بما يصلحك وذكر في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما بال أقوام يشرفون المترفين ويستخفون بالعابدين ويعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم وما خالف أهواءهم تركوه فعند ذلك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض يسعون فيما يدرك بغير سعي من القدر المقدور والاجل المكتوب والرزق المقسوم ولا يسعون فيما لا يدرك الا بالسعي من الجزاء الموفور والسعي المشكور والتجارة التي لا تبور * وقال ابراهيم الخواص العلم كله في كلمتين لا تتكلف ما كفيت ولا تضيع ما استكفيت فمن قام بهذا الامر على ما ينبغي له من الوجه الذي ذكرناه من الاجتهاد في الامر المطلوب منه وتفريغ القلب عن الامر المضمون له نفذا انفتحت بصيرته وأشرق نور الحق في قلبه وحصل على غاية المقصود ومن عكس هذا الامر فهو مطموس البصيرة أعمى القلب وفعله دليل على ذلك * والبصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر العين وناظر القلب انما ينظر الى العاقبة والعاقبة للمتقين فالتقوى هي التي يجب على العبد أن يجتهد فيها ولا يتوانى ويقصر عما يمنع منها وتعبير المؤلف رحمه الله بالاجتهاد اشعار بأن طلب الرزق من غير اجتهاد فيه غير مقصود بالكلام وهو كذلك لانه مباح ومأذون فيه

لا تقم به لنفسك) يعني أن الامر مفروغ منه اذ قد قام به غيرك وهو الله تعالى وما قام به غيرك لا فائدة في قيامك به فيكون قيامك به فضولا لا ينبغي أن يتلبس به ذوو العقول وأيضا فيه ترك العبودية ومضادة لاحكام الربوبية ومنازعة القدر وانما خاطب المريد بذلك لانه اذا توجه لحضرة الرب واشتغل بأوراد الطريق وأعماله تعطلت عليه أسباب معاشه في الغالب فيأتيه الشيطان ويوسوس له ويصير يدبر في نفسه أمورا لا يقع أكثرها وذلك يشغله عما هو بصدده فيرجع عما هو متوجه له ودواء ذلك كثرة الذكر والرياضة حتى يرجع عنه الشيطان وتحصل له الراحة من تعب التدبير ولذا قال (اجتهادك فيما ضمن لك) أي تكفل الله لك به وهو الرزق تفضلا منه واحسانا قال تعالى وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم الى غير ذلك من الآيات (وتقصيرك فيما طلب منك) وهو العمل الذي تتوصل به عادة الى مولاك من أذكار وصلوات وأوراد وغير ذلك من أنواع الطاعات قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون الآية فالمطلوب من المريد السعي في قوت الارواح وهو ذكر المولى وفعل ما يقرب اليه لا قوت الاشباح لانه قائم به غيره وهو مولاه (دليل على انطماس) أي عمى (البصيرة منك) وهي عين في القلب تدرك الامور المعنوية كما أن البصر يدرك الامور المحسوسة وفي تعبيره بالاجتهاد اشارة الى أن طلب الرزق من غير اجتهاد لا باس به للمريد ولا يدل على انطماس بصيرته * ثم قال

فلا يدل ذلك على انطماس بصيرة صاحبه الا أن اقترن به تقصير فيما أمر به قال في التنوير في قوله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك أي قم بخدمتنا ونحن نقوم لك بقسمتنا وهما شيآن شئ ضمنه الله لك فلا تتهمه وشئ طلبه منك فلا تهمله فمن اشتغل بما ضمن له عما طلب منه فقد عظم جهله واتسعت غفلته وقل أن يتنبه لمن يوقظه بل حقيق على العبد أن يشتغل بما طلب منه عما ضمن له اذا كان الله سبحانه وتعالى قد رزق أهل الجحود كيف لا يرزق أهل الشهود واذا كان سبحانه قد أجرى رزقه على أهل الكفران كيف لا يجرى رزقه على أهل الايمان فقد علمت أيها العبد أن الدنيا مضمونة لك أي مضمون لك منها ما يقوم بأودك والآخرة مطلوبة منك أي العمل لها لقوله سبحانه وتعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة واهتمامك فيما ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك بما طلب منك من أمر الآخرة حتى قال بعضهم ان الله تعالى ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا اهـ * (لا يكن تأخر أمد العطاء مع الالحاح في الدعاء موجبا ليأسك فهو ضمن لك الاجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد) حكم العبد أن لا يتخير شيأ على مولاه ولا يجزم بصلاحية حال من الاحوال له لانه جاهل من كل وجه فقد يكره الشئ وهو خير له ويحب الشئ وهو شر له * قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لا تختر من أمرك شيأ واختر أن لا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شئ الى الله عز وجل وربك يخلق ما يشاء ويختار ودخل رجل على سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه وهو يتألم لما به فقال ذلك الرجل عافاك الله ياسيدي فسكت ولم يجاوبه ثم سكت ذلك الرجل ساعة وقال الله يعافيك ياسيدي فقال له الشيخ أبو العباس وأنا ما سألت الله العافية فقد سألته العافية والذي أنا فيه هو العافية هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سأل الله العافية وقد قال مازالت أكلة خيبر تعاودني والآن قد قطعت أبهري وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مسموما وسيدنا عمر رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مطعونا وسيدنا عثمان رضي الله عنه سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مذبوحا وسيدنا علي رضي الله عنه سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مقتولا فاذا سألت الله تعالى العافية فاسأله من حيث يعلم أنها لك عافية اهـ فعلى العبد أن يسلم نفسه الى مولاه ويعلم أن الخيرة له في جميع ما به يتولاه وان خالف ذلك مراده وهواه فاذا دعا وطلب من مولاه شيأ يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالاجابة لا محالة قال الله عز وجل وقال ربكم ادعوني أستجب لكم وقال تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان وعن جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من أحد يدعو بدعاء الا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من داع يدعو الا استجاب الله له دعوته أو صرف عنه مثلها سوأ أو حط من ذنوبه بقدرها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم فاذا الاجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق الا أن الاجابة أمرها الى الله تعالى يجعلها متى شاء وقد يكون المنع وتأخر العطاء اجابة وعطاء لمن فهم عن الله تعالى ذلك فلا ييأس العبد من فضل الله تعالى اذا رأى منعا

(لا يكن تأخر أمد) أي زمن (العطاء) بتأخر ما يقع فيه (مع الالحاح في الدعاء) بزوال أوصاف بشريتك ورفع الحجاب عنك ووصولك الى مولاك (موجبا ليأسك) أي من اجابة الدعاء (فهو ضمن لك الاجابة) بنحو قوله ادعوني أستجب لكم (فيما يختار لك لا فيما تختار لنفسك وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد) فقد يكون دوام الحجاب على المريد خيرا له ليجتهد في الاعمال ويدوم خوفه من مولاه لكن الشيطان ربما أتى له وقال له لو كنت من أهل الارادة لاجابك مولاك وأزال أوصاف بشريتك وحصل لك مقصودك وجهل أن عدم اجابته قد يكون خيرا له وقد تكون بشريته غليظة فلا تنقطع الا بعد مدة طويلة وما أتى به من المجاهدات والرياضات لا يفيد ذلك في تلك المدة * وقد شبه بعض العارفين الطبيعة بأرض ذات شوك فقد يكون الشوك غليظا كثيرا لا ينقطع الا بعد مدة ومعاناة تامة وقد يكون قليلا ضعيفا أدنى شئ يزيله وكذلك أوصاف النفوس قد تكون خبيثة كثيرة فتحتاج الى مدة طويلة وشدة معاناة في قطعها فاذا حصل المقصود ولو في آخر نفس من عمره كان هو الغاية القصوى وكان ما تعب فيه حقيرا بالنسبة لذلك وقد تكون بضد ذلك فلا تحتاج الى طول مدة وكثرة معاناة

أو تأخيرا وان ألح في دعائه وسؤاله وقد يكون تأخير ذلك الى الآخرة خيرا له فقد جاء في بعض الاخبار يبعث عبد فيقول الله تعالى له ألم آمرك برفع حوائجك الي فيقول نعم وقد رفعتها اليك فيقول الله تعالى ما سألت شيأ الا أجبتك فيه ولكن نجزت لك البعض في الدنيا وما لم أنجزه في الدنيا فهو مدخر لك تجده الآن حتى يقول ذلك العبد ليته لم يقض لي حاجة في الدنيا وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى النهي عن الاستعجال في اجابة الدعاء في قوله يستجاب لاحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي وقد دعا موسى وهرون عليهما السلام على فرعون فيما أخبر الله به عنهما حيث قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالى قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون قالوا وكان بين قول الله تعالى لهما قد أجيبت دعوتكما وهلاك فرعون أربعون سنة (قال) سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في قوله تعالى فاستقيما أي على عدم استعجال ما طلبتما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون هم الذين يستعجلون الاجابة وناهيك شرفا وحظا ما يحصل له بسبب مداومة الدعاء من محبة الله تعالى وموافقة رضاه فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله يحب الملحين في الدعاء وقد جاء في الحديث قال جبريل عليه السلام يارب عبدك فلان اقض له حاجته فيقول دعوا عبدي فاني أحب أن أسمع صوته رواه أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتضى هذا أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته وقد روى هذا المعنى أيضا منصوصا فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل اجابة دعائه قال أبو محمد عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه كل من لم يكن في دعائه تاركا لاختياره وراضيا باختيار الحق فهو مستدرج وهو ممن قيل له اقضوا حاجته فاني أكره أن أسمع صوته فاذا كان في دعائه مع اختيار الحق تعالى لا مع اختياره لنفسه كان مجابا وان لم يعط والاعمال بخواتيمها اهـ وقد تكون الاجابة مرتبة على شروط لا علم للداعي بها فتتأخر لعدم وقوع ذلك أو بعضه وذلك مثل وجود الاضطرار قال الله تعالى أمن يجيب المضطر اذا دعاه فرتب الاجابة على الاضطرار وقال بعض العارفين اذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد رزقه الاضطرار في الدعاء والاضطرار لا يحققه العبد من نفسه في جميع حالاته قال بعضهم المضطر الذي اذا رفع الى الله تعالى يديه لم ير لنفسه عملا وهذا حال شريف ومقام منيف يعسر على أكثر الناس الوصول اليه فكيف يتحقق مما ينبني عليه وفي المسئلة التي بأثر هذا تنبيه على هذا المعنى * (لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود وان تعين زمنه لئلا يكون ذلك قدحا في بصيرتك واخمادا لنور سريرتك) الحق سبحانه لا يخلف الميعاد فمن وعده مولاه شيأ وان كان معين الزمن ثم لم يقع ذلك الموعود فلا ينبغي أن يشككه ذلك في صدق وعده به لجواز أن يكون وقوع ذلك الوعد معلقا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد فعلى العبد أن يعرف قدره ويتأدب مع ربه ويسكن اليه فيما وعده به ويطمئن اليه ولا يتشكك في ذلك ولا يتزلزل اعتقاده فيه فمن كان على هذا الوصف فهو عارف بالله تعالى سالم البصيرة منور السريرة والا فعلى العكس

(لا يشككنك في الوعد) الذي وعدك به مولاك في منام أو على لسان ملك أو بالهام رحماني (عدم وقوع الموعود وان تعين زمنه) أي وان كان زمنه معينا بأن ألهمت انه يحصل لك في الوقت الفلاني فتح أو يحصل في العام رخاء أو غير ذلك (لئلا يكون ذلك) الشك (قدحا في بصيرتك واخمادا لنور سريرتك) فمن وعده مولاه شيأ وان كان معين الزمان ثم لم يقع ذلك الموعود فلا ينبغي أن يشككه ذلك في صدق وعده به لجواز أن يكون وقوع ذلك الموعود معلقا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد لحكمة يريدها ومن هذا القسم ما يقع لبعض الاولياء أن يخبر بأنه يحصل في هذا العام كذا ثم لا يحصل فيقع بعض الناس في أعراضهم ومنه ما وقع له صلى الله عليه وسلم عام الحديبية من اخباره للصحابة بالفتح ثم لم يحصل في ذلك العام بل في عام بعده فاذا خطر للمريد خاطر رحماني أو ملكي ثم لم يحصل مقتضاه لا ينبغي أن يشك في حصول الموعود بل ينبغي أن يعرف قدره ويتأدب مع ربه ويسكن اليه فيما وعده به ولا يتشكك في ذلك ولا يتزلزل اعتقاده فمن كان كذلك فهو عارف بالله سالم البصيرة منور السريرة والا فعلى العكس من ذلك

(اذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قل) بفتح الهمزة (عملك) أى بقلة عملك اعلم أن السالك لابد له فى سلوكه من كثرة الاعمال ليقطع عقبات النفوس ويصل الى حضرة الرب فاذا شرع فى المجاهدة وطالت عليه المدة ربما كسل عن بعض أنواع العبادات والاوراد التى رتبت عليه فيحصل عنده شدة الهم والغم وربما تسوّل له نفسه الترك بالكلية مع كونه قد حصل عنده نوع من معرفة الله تعالى فارشده الشيخ رضى الله عنه الى أنه اذا فتح له وجهة من التعرف أى نوعا من المعرفة كأن عرف بطريق الذوق ان الله تعالى حاضر معه مطلع على حاله أو عرف ذوقا أنه لا فاعل الا الله بان حصل له تجلى الافعال الذى هو أوّل التجليات عندهم فلا يبالى حينئذ بقلة العمل لان القصد من العمل القرب من حضرة الرب وفتح تلك الوجهة دليل على ذلك وعلى انه معتنى به وأنه سيصير من أهل ودّه وقد تكون قلة العمل بسبب مرض يعوقه عنه فاذا حصل عنده نوع من المعرفة بان عرف أن نزول المرض به خير من الصحة لما فيه من ترقيه وأن الله يفعل به ما يريد فلا يبالى حينئذ بقلة العمل (فانه ما فتحها) أى تلك الوجهة (لك الا وهو يريد أن يتعرف اليك) أى يواجهك بفضله ويقرب منك ويتجلى عليك بصفاته وأسمائه ولاشك أن ذلك أعظم من كثرة الاعمال الظاهرة (ألم تر أن التعرف هو مورده عليك) أى محصله لك بطريق التفضل (والاعمال أنت مهديها اليه وأين ما تهديه اليه مما هو مورده عليك) فان هدية العبيد وان كانت جليلة هى حقيرة بالنسبة الى هدية السيد وان كانت قليلة على أن هدية العبد هنا نفعها عائد عليه لا على السيد وحاصل ما ذكر أن قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بدونها فاذا حصل للسالك بعض المعرفة ينبغى له أن يوجه قلبه الى حضرة مولاه ليزيده من معرفته وقربه ويهتم بذلك أكثر من اهتمامه بالاعمال الظاهرة ولذا كانت أعمال العارفين الظاهرة قليلة فى أواخر أمرهم وما زالوا يحنون الى البداية لما فيها من كثرة الانوار بسبب كثرة الاعمال ثم قال ولقد

* (اذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قل عملك فانه ما فتحها لك الا وهو يريد أن يتعرف اليك ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك والاعمال أنت مهديها اليه وأين ما تهديه اليه مما هو مورده عليك) معرفة الله تعالى هى غاية المطالب ونهاية الآمال والمآرب فاذا واجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها وفتح له باب التعرف له منها وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها فذلك من النعم الجزيلة عليه فينبغى أن لا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر وما يترتب عليها من جزيل الاجر وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقربين المؤدى الى حقائق التوحيد واليقين من غير اكتساب من العبد ولا تعمل والاعمال التى من شأنه أن يتلبس بها هى باكتسابه وتعمله فلا تسلم من دخول الآفات عليها والمطالبة بوجود الاخلاص فيها وقد لا يحصل له ما يريد من الثواب عند مناقشة الحساب وأين أحدهما من الآخر ومثاله ما يصاب به الانسان من البلايا والشدائد التى تنغص عليه لذات الدنيا وتمنعه من تكثير أعمال البر فان مراده أن يستمر بقاؤه فى دنياه طيب العيش ناعم البال ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفين المتورعين فلا تستخف نفسه الا بالاعمال الظاهرة التى لا كبير مؤنة عليه فيها ولا مشقة ولا تقطع عليه لذته ولا تفوته شهوته ومراد الله منه أن يطهره من أخلاقه اللئيمة ويحول بينه وبين صفاته الذميمة ويخرجه من أسر وجوده الى متسع شهوده ولاسبيل له الى الوصول الى هذا المقام على غاية الكمال والتمام الا بما يضاد مراده ويشوّش عليه معتاده ويكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن ولا مناسبة بينها وبين الاعمال الظاهرة فاذا فهم هذا علم أن اختيار الله له ومراده منه خير له من اختياره لنفسه ومراده لها وقد روى أن الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه أنزلت بعبدى بلاء فدعانى فماطلته بالاجابة فشكانى فقلت عبدى كيف أرحمك من شئ به أرحمك وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى اذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى الى عوّاده أنشطته من عقالى وبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ويستأنف العمل وروى عن سعيد المقبرى قال سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال الله تبارك وتعالى انى ابتلى عبدى المؤمن فاذا لم يشك الى عوّاده حللت عنه عقدى وبدلت له لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ثم قلت له استأنف العمل قال أبو عبد الله محمد بن على الترمذى رضى الله عنه

(تنوّعت أجناس الاعمال) على العاملين (لتنوّع واردات الاحوال) أى الواردات التى تنتج أحوالا قائمة بقلوبهم تقتضى ميلهم الى تلك الاعمال أو واردات هى الاحوال فان الوارد قد يسمى حالا كما سيأتى يعنى أن بعض المريدين تجده مشتغلا بالصلاة وبعضهم بالصيام وهكذا وسبب ذلك وارد الهى اقتضى ميل هذا الى كذا وهذا الى كذا وينبغى لكل أحد أن يعمل بمقتضى ميله المذكور ان لم يكن تحت تربية شيخ والا فلا يشتغل بشئ الا باذنه وارادته وحاصل ذلك أن تنوّع الاوراد فى حق المريدين الصادقين ناشئ عن تنوع الواردات على قلوبهم فينبغى لكل مريد أن يعمل بمقتضى وارده بالشرط المتقدم ولا يعمل بمقتضى وارد غيره ولا يعترض على ذلك الغير فى عدم اشتغاله بما اشتغل به هو ثم قال (الاعمال) الظاهرة (صور قائمة) أى كالاشخاص التى ليس فيها أرواح فلا نفع بها (وأرواحها) التى بها حياتها ونفعها (وجود سر الاخلاص) أى سره هو الاخلاص (فيها) والاخلاص يختلف باختلاف الناس فاخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلى والخفى وكل ما فيه حظ للنفس فلا يعملون العمل الا لله تعالى طلبا للثواب وهربا من العقاب مع نسبة العمل اليهم والاعتماد عليه فى تحصيل ما ذكروا خلاص المحبين هو العمل لله اجلالا وتعظيما لانه تعالى أهل لذلك لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب ولذا قالت رابعة العدوية ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك فتثبت العبادة اليها واخلاص العارفين شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لانفسهم فى ذلك حولا ولا قوة فلا

ولقد مرضت فى سالف أيامى مرضة فلما شفانى الله تعالى منها مثلت فى نفسى ما دبر الله تعالى لى من هذه العلة فى مقدار هذه المدة وبين عبادة الثقلين فى قدر أيام علتى فقلت لو خيرت بين هذه العلة وبين أن تكون لى عبادة الثقلين فى مقدار مدتها الى أيهما يميل اختيارى فصح عزمى ودام يقينى ووقفت بصيرتى أن مختار الله تعالى أكثر شرفا وأعظم خطرا وأنفع عاقبة وهى العلة التى دبرها لى ولا شوب فيه اذا كان فعله فشتان بين فعله بك لتنجو به وبين فعلك لتنجو به فلما رأيت ذلك دق فى عينى عبادة الثقلين فى مقدار تلك المدة فى جنب ما آتانى فصارت العلة عندى نعمة وصارت النعمة منة وصارت المنة أملا وصار الامل عطفا فقلت فى نفسى بهذا كانوا يستمرون فى البلاء على طيب النفوس مع الحق وبهذا الذى انكشف كانوا يفرحون بالبلاء اه فهذه هى وجهة التعرف التى فتحها الله تعالى له وحصلت له الغبطة بها وآثرها على عبادة الثقلين والله أعلم فاذا أنزل الله تعالى على العبد شيأ من البلايا فليستشعر ما ذكرناه وليجعله نصب عينيه وليجدّد تذكاره على نفسه حتى يحصل له من السكون والطمأنينة ما يحمل عنه أثقال ذلك ويزيل عنه مرارته ويوجده حلاوته وعند ذلك يكون حاله فى بلائه حال الشاكرين من الفرح والاغتباط به فيرى من حق شكره أن يأتى بما يمكنه من أعمال بره واعتبر جميع ما قلناه فى هذه المسئلة بالحكاية التى ذكرها أبو العباس بن العريف رحمه الله فى كتابه مفتاح السعادة ومنهاج سلوك طريق الارادة قال فيه كان بالمغرب عمره الله بالاسلام رجل يدعى أبا الخيار رحمه الله ونفعنا بذكره أصله من صقلية وموطنه بغداد وجاوز سنه التسعين وهو فى الرق لم يعتقه مولاه وذلك منه عن قصد واختيار وعم جسده الجذام ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة قال الذى حدثنى رأيته يصلى على الماء ثم لقيت بعده محمدا الاسفنجى فاذا هو الابرص فقلت له يا سيدى كان الله تعالى لم يجد للبلاء محلا من أعدائه حتى أنزله بكم وأنتم خاصة أوليائه قال فقال لى اسكت لا تقل ذلك انه لما أشرفنا على خزائن العطاء لم نجد عند الله شيأ أشرف ولا أقرب اليه من البلاء فسألناه اياه فكيف بك لو رأيت سيد الزهاد وقطب العباد وامام الاولياء الاوتاد بغار فى أرض طرسوس وجبالها لحمه يتناثر وجلده يسيل قيحا وصديدا وقد أحاط به الذباب والنمل فاذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة وأسكن جسده من العافية حتى يشد نفسه بالحديد ويستقبل القبلة عامة ليله حتى يطلع الفجر اه وسيأتى شئ من كلام المؤلف رحمه الله فى هذا المعنى والتنبيه عليه والله ولى التوفيق * (تنوّعت أجناس الاعمال لتنوّع واردات الاحوال) واردات الاحوال هى ما يرد على القلوب من المعارف الربانية والاسرار الروحانية وهى التى توجب لها أحوالا جديدة فمنها وارد يوجب هيبة ومنها وارد يوجب أنسا ومنها وارد يوجب قبضا ومنها وارد يوجب بسطا الى غير ذلك من مختلفات الاحوال ولما كانت هذه الواردات أيضا متنوعة كانت أجناس الاعمال التى تقتضيها هذه الواردات أيضا متنوعة والاعمال الظاهرة أبدا تبع لاحوال القلوب الباطنة كما سيقوله المؤلف بعد هذا فى قوله حسن الاعمال نتائج حسن الاحوال * (الاعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها) اخلاص كل عبد فى أعماله على حسب رتبته ومقامه فاما من كان منهم من الابرار فمنتهى درجة اخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجلى والخفى وقصد موافقة أهواء النفس طلبا

لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب وحسن المآب وهربا مما أوعد به المخلطين من أليم العذاب وسوء الحساب وهذا من التحقيق بمعنى قوله تعالى اياك نعبد أى لا نعبد الا اياك ولا نشرك فى عبادتنا غيرك وحاصل أمره اخراج الخلق عن نظره فى أعمال بره مع بقاء رؤيته لنفسه فى النسبة اليها والاعتماد عليها وأما من كان منهم من المقربين فقد جاوز هذا الى عدم رؤيته لنفسه فى عمله فاخلاصه انما هو فى شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه فى ذلك حولا ولا قوة ويعبر عن هذا المقام بالصدق الذى به يصح مقام الاخلاص وصاحب هذا مسلوك به سبيل التوحيد واليقين وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى واياك نستعين أى لا نستعين الا بك لا بأنفسنا وحولنا وقوتنا فعمل الاول هو العمل لله تعالى وعمل الثانى هو العمل بالله فالعمل لله يوجب المثوبة والعمل بالله يوجب القربة والعمل لله يوجب تحقيق العبادة والعمل بالله يوجب تصحيح الارادة والعمل لله نعت كل عابد والعمل بالله نعت كل قاصد والعمل لله قيام بأحكام الظواهر والعمل بالله قيام بالضمائر وهذه العبارات للامام أبى القاسم القشيرى رضى الله عنه وبهذا يتبين الفرق بين المقامين وتباينهما فى الشرف والجلالة فاخلاص كل عبد هو روح أعماله فبوجود ذلك تكون حياتها وصلاحيتها للتقرب بها ويكون فيها أهلية وجود القبول لها وبعدم ذلك يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار وتكون اذ ذاك أشباحا بلا أرواح وصورا بلا معان قال بعض المشايخ صحح عملك بالاخلاص وصحح اخلاصك بالتبرى من الحول والقوة * ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى الحالة التى اذا كان العبد عليها كان مخلصا بالمعنيين فقال *(ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه) لا شئ أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت لان ذلك من أعظم حظوظه التى هو مأمور بتركها ومجاهدة النفس فيها وقد تسمح نفس المريد بترك ماسوى هذا من الحظوظ ومحبة الجاه وايثار الاشتهار مناقض للعبودية التى هو مطالب بها قال ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ما صدق الله من أحب الشهرة وقال بعضهم طريقتنا هذه لا تصلح الا لاقوام كنست بأرواحهم المزابل وقال أيوب السختيانى رضى الله عنه والله ما صدق الله عبد الا سره أن لا يشعر بمكانه وقال رجل لبشر بن الحرث رضى الله عنه أوصنى فقال أخمل ذكرك وأطب مطعمك وقال بعضهم رضى الله عنه ما أعرف رجلا أحب أن يعرف الا ذهب دينه وافتضح وقال أيضا لا يجد حلاوة الآخرة من أحب أن يعرفه الناس وقال الفضيل رضى الله عنه بلغنى أن الله عز وجل يقول فى بعض ما يمن به على عبده ألم أنعم عليك ألم أسترك ألم أخمل ذكرك ثم ان تلك الاشياء الراجعة الى محبة الاشتهار والاستعلاء مما يقدح فى اخلاص العبد على اختلاف مراتبه لانه اما بسقوط الناس عن النظر اليهم أو بسقوط النفس عن النظر اليها ولا يثبت للمريد جميع ذلك الا بالخمول وسقوط المنزلة عند نفسه وعند الناس لانه ان لم يكن بهذه المثابة لم ينفك عن الاغراض التى تبعثه على استمالة قلوب الخلق لما يرى لنفسه عليهم من الحق فتدعوه نفسه الى ذلك دعاء خفيا فينصبغ عمله بالرياء انصباغا لا يتفطن له كما سيأتى عند قوله ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق اليك وبقدر تحققك بوصف الخمول يتحقق لك مقام الاخلاص حتى تتخلص بذلك من رؤية اخلاصك وبهذا يتبين لك افلاس جميع الناس الا من رحم الله تعالى وأن الاخلاص فى غاية الصعوبة على النفس وأنه أعز الاشياء فى الوجود وقيل لسهل بن عبد الله رضى الله

يعملون العمل الا بالله لا بحولهم ولا قوتهم وهذا أرفع مما قبله ثم ذكر رحمه الله ما يعين على الاخلاص ويحصله بقوله (ادفن وجودك فى أرض الخمول) أى فى الخمول وهو عدم الشهرة الشبيه بالارض ودفن وجودك فيه أن لا تتعاطى أسباب الشهرة بأن تعرض نفسك للمناصب وغيرها مما فيه انتشار الصيت فان سلكت الطريق بعد شهرتك فالواجب عليك التواضع وأن لا ترى لنفسك مقاما ولا ترى ما أنت فيه من المناصب وغيرها شيأ عظيما بل ترى أن الخير فى تركه لكن لا تتركه الا باشارة أستاذك أو باذن الهى ثم ضرب لذلك مثلا بقوله (فما نبت) من الحب (مما لم يدفن لا يتم نتاجه) بل يخرج ضعيفا مصفرا لا ينتفع به الانتفاع التام واذا لم ينبت فالغالب أن يلتقطه الطائر فلا ينتفع به أيضا وكذلك السالك اذا تعاطى أسباب الشهرة فى بدايته قل أن يفلح فى نهايته وبقدر تحققه بوصف الخمول يتحقق له مقام الاخلاص فينبنى أمره فى الابتداء على الفرار من الخلق واخمال الذكر وعدم حب الشهرة حتى اذا فنيت أوصافه وبقى بربه كان مع مولاه ان شاء أظهره وان شاء أخفاه قال سيدى أبو العباس قدس الله سره من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه اهـ

(ما توقف) أى تعسر (مطلب) من مطالب الدنيا والآخرة (أنت طالبه بربك) أى ملاحظا فى حال طلبه ربك حاضر القلب معه معتمدا عليه فى تيسير ذلك المطلب (ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك) بأن كنت غافلا عنه معتمدا على حولك وقوتك فمن أنزل حوائجه بالله والتجأ اليه وتوكل فى أمره كله عليه كفاه كل مؤنة وقرب عليه كل بعيد ويسر له كل عسير ومن سكن الى علمه وعقله واعتمد على حوله وقوته وكله الله تعالى الى نفسه وخذله فلم تنجح مطالبه ولم تتيسر مآربه ولما كان من أشرف المطالب وأقربها للقواطع والمعاطب أخذ المريد فى سلوك الطريق خصصه من العموم ٣٧ لزيادة الاعتناء به فقال (من علامات النجح فى النهايات الرجوع الى الله فى البدايات) بداية المريد حال سلوكه ونهايته حال وصوله فمن صحح بدايته بالرجوع الى الله والتوكل عليه والاستعانة به ان يوصله اليه لا على أعماله المعلولة نجح فى نهايته أى حصل له الوصول وأمن عليه من الرجوع من الطريق ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه انقطع ورجع من حيث جاء قال بعض العارفين من ظن أنه يصل الى الله بغير الله قطع به ومن استعان على عبادة الله بنفسه وكل الى نفسه ثم قال (من أشرقت بدايته) بأن عمر أوقاته بأنواع الطاعات والاوراد وثابر على ذلك كل المثابرة (أشرقت نهايته) بافاضة الانوار والمعارف عليه وزوال كدورات النفس الحائلة بينه وبين مولاه على وجه أتم وعكسه بعكسه فمن كان قليل الاجتهاد فى بدايته لم يحصل له اشراق فى نهايته ولو فرض أنه فتح عليه كان على وجه أضعف من غيره ويحتمل أن المعنى من أشرقت بدايته بالرجوع الى الله تعالى والالتجاء اليه أشرقت نهايته بحصول الوصول اليه فتكون هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما قبلها وما قلناه أولا أولى وأظهر (ما استودع فى غيب السرائر) أى فى القلوب الغائبة أى غير المشاهدة بالابصار من المعارف والانوار الالهية (ظهر فى شهادة الظواهر) أى فى الظواهر الشاهدة أى الحاضرة فما استودعه الله تعالى فى القلوب والسرائر من المعارف والانوار لابد أن يظهر أثره على الوجه والجوارح وهذه علامة يعرف بها حال المريد السالك لان الظاهر مرآة الباطن فيستدل بذلك من أراد صحبته والاجتماع به لينتفع به

*(ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك) من أنزل حوائجه بالله تعالى والتجأ اليه وتوكل فى أمره كله عليه كفاه كل مؤنة وقرب عليه كل بعيد ويسر عليه كل عسير ومن سكن الى علمه وعقله واعتمد على قوته وحوله وكله الله الى نفسه وخذله وحرمه توفيقه وأهمله فلم تنجح مطالبه ولم تتيسر مآربه وهذا معلوم على القطع من نصوص الشريعة وأنواع التجارب قلت وكلام المؤلف رحمه الله تعالى فى هذه المسئلة عام يتناول كل مطلب من المطالب الدينية والدنيوية التى مآل أمرها الى الدين وأشرف تلك المطالب وأكثرها قواطع ومعاطب أخذ المريد فى سلوك سبيل التوحيد ففيه التعلق بالله تعالى أحق وأصوب وفى جميع جزئياته الرجوع الى الله تعالى أولى وأوجب فلا جرم كان من الرأى السديد والامر الاكيد أن يخصصه من ذلك العام وأن يفرده عقيب هذه المسئلة بمزيد من الكلام فلذلك قال *(من علامات النجح فى النهايات الرجوع الى الله تعالى فى البدايات) للمريد بداية ونهاية فبدايته حال سلوكه ونهايته حال وصوله فمن صحح بدايته بالرجوع الى الله تعالى والتوكل عليه والاستعانة به كما ذكرنا أفلح وأنجح فى نهايته وكان وصوله الى الله تعالى فأمن عليه من الرجوع والانقطاع قال بعض المشايخ ما رجع من رجع الا من الطريق ولو وصلوا ما رجعوا ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه من تعلقه بالحق وتبريه من نفسه والخلق انقطع ورجع من حيث جاء قال بعض العلماء من ظن أنه يصل الى الله تعالى بغير الله قطع به ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكل الى نفسه فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله تعالى على ما هو بسبيله ولا يرى حول نفسه ولا قوتها فى كثير من عمله ولا قليله فهذا هو أساس السلوك الذى بنى عليه قواعده *(من أشرقت بدايته أشرقت نهايته) هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ما تقدم فاشراق بداية المريد برجوعه الى الله تعالى فى مهماته وثقته به فى ملماته واشراق نهايته الوصول الى قربته والحصول فى حضرته *(ما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر) هذا بيان علامة يعرف بها حال المريد السالك وما تعمر به باطنه من المزيد المتدارك لان الظاهر مرآة الباطن كما قيل الاسرة تدل على السريرة وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره فما استودعه الله القلوب والاسرار من المعارف والانوار لابد وأن تظهر آثار ذلك على الجوارح فيستدل بشاهد العبد على غائبه من أراد صحبته والوصلة به وما أشبه هذا من الاغراض والمقاصد

(شتان) أى بعدما (بين من يستدل به) على الاشياء وهم المرادون المجذوبون اليه الذين هم من أهل الشهود اما ابتداء واما بعد السلوك وهم العارفون فانهم لا يشهدون غير مولاهم و يستدلون به على الاشياء (أو) بمعنى الواو (يستدل عليه) وهم المريدون السالكون الى الله تعالى فأهل الله تعالى على قسمين مرادين ومريدين وان شئت قلت مجذوبين وهم أهل الشهود وسالكين فالمريدون السالكون فى حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الاغيار والآثار والاكوان ظاهرة لهم وموجودة لديهم والحق غيب عنهم فلم يروه فهم يستدلون بها عليه فى حال ترقيهم والمرادون وهم المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم وتعرف اليهم فعرفوه وانحجبت عنهم الاغيار فهم يستدلون به عليها فى حال تدليهم ان جذبوا ابتداء أو بعد سلوكهم ان كانوا من أهله وهم العارفون فانهم من أهل الجذب أيضا لكن لشدة تمكنهم فى أحوالهم لا يظهر عليهم ولذا قيل نهاية السالك بداية المجذوب و ورد أعظم الناس جذبا الانبياء والمرسلون فهذا هو حال الفريقين وشتان ما بينهما أى بعد ما بينهما وذلك ان (المستدل به) على غيره (عرف الحق) وهو الوجود الواجب (لاهله) وهو الله تعالى أى لم يثبت الوجود الا له سبحانه وتعالى وأما الحوادث فهم عدم محض (فأثبت الامر) وهم الحوادث العدمية (من وجود أصله) وهو الله تعالى أى جعل وجودهم مستفادا من وجود الله تعالى الذى قابلهم وظهر فيهم فوجدوا والا فهم عدم محض فى نظر أرباب الشهود (والاستدلال عليه من عدم

الوصول

قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن فان النبى صلى الله عليه وسلم قال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه وقيل لما ورد أبو حفص العراق جاء اليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون بأمره لا يخطئ أحدمنهم فقال يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك فقال لا يا أبا القاسم ولكن حسن الادب فى الظاهر عنوان أدب الباطن قلت وآكد من ذلك أن يعرف المريد نفسه و يكون من أمرها على بصيرة ولا ينخدع بما يتوهمه من صلاح سريرته دون علانيته فمن ادعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبته ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك وآثاره من اللهج بذكره والمسارعة الى اتباع أمره والاغتباط بوجوده والاستبشار عند يقين شهوده والفرار من القواطع الشاغلة عنه والاضراب عن الوسائط المبعدة منه فهو كذاب فى دعواه متخذ الهه هواه فان كان موصوفا بأضداد هذه الخصال منحرفا بظاهره عن جادة الاعتدال فهو فى دعواه أكذب وحاله للنفاق والشرك أقرب قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه قد جعل الله تعالى وصف الكافرين أنهم اذا ذكر الله وحده فى شئ انقبضت قلوبهم واذا ذكر غيره فى شئ فرحوا وجعل من نعوتهم أنهم اذا ذكر الله تعالى بتوحيده وافراده بشئ غمطوا ذلك وكرهوه واذا أشرك غيره فى ذلك صدقوا به فقال تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون وقال أيضا ذلكم بانه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا والكفر التغطية والشرك الخلط أى انه يخلط بذكره ذكر سواه ثم قال فالحكم لله العلى الكبير يعنى لا يشركه خلق فى حكمه لانه العلى فى عظمته الكبير فى سلطانه لا شريك له فى ملكه وعطائه ولا نظير له من عباده ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب أن المؤمنين اذا ذكر الله بالتوحيد والافراد فى شئ انشرحت صدورهم واتسعت قلوبهم واستبشروا بذكره وتوحيده واذا ذكرت الوسائط والاسباب التى دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم وهذه علامة صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك لتستدل بها على حقيقة التوحيد فى القلب أو وجود خفى الشرك فى السران كنت عارفا اه قلت وهذه المسئلة التى تضمنها كلام الشيخ أبى طالب المكى رضى الله عنه من أعظم المسائل على صدق الصادق وكذب الكاذب ومن أوضح الدلائل ولما كان قصدنا فى هذا التنبيه اغتنام ذكر الفوائد العجيبة والحرص على رسم المقاصد الغريبة لغربة الدين فى هذا الزمان الرذل واستيلاء الغرة والجهل على المنسوبين الى العلم والفضل حسن منا ايراد هذه الكلمات على جهة ضرب المثل والاكتفاء بالنهل عن العلل ليعمل بمقتضى ذلك مريد سالك و ينتهج من مناصحة ربه فى دينه وقلبه أوضح المسالك واحمل على هذا الاسلوب كل كلام لم تظهر لك مطابقته ولم يتم فى نظرك مناسبته لتسلم بذلك من الاعتراض وتعلو همتك عما تولع به أصحاب القلوب المراض عافانا الله من ذلك بمنه وفضله * (شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه

المستدل به عرف الحق لاهله فأثبت الامر من وجود أصله والاستدلال عليه من عدم

الوصول اليه) فالمستدل بغيره عليه على العكس مما ذكر لانه استدل بالمجهول على المعلوم وبالعدم على الوجود وبالامر الخفى على الظاهر الجلى وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الاسباب (والا) نقل انه من عدم الوصول (فمتى غاب) أى فلا يصح لانه متى غاب (حتى يستدل عليه) بالاشياء الحاضرة (ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل اليه) أى يستدل بها عليه لانها لا وجود لها معه عند أهل الشهود حتى توصل اليه أما المحجوبون فلا يرون الا الاكوان ويستدلون بها عليه وهم قسمان عامة وسالكون لم يصلوا الى مقام الشهود والمراد باستدلال المجذوب الذى حصلت له افاقة انه حينئذ يلاحظ الغير فيثبت وجوده بوجوده سبحانه وثبوته باثباته وليس المراد انه يستدل حينئذ بالدليل العقلى والنظر الفكرى (لينفق ذو سعة من سعته الواصلون اليه) أى اشارة الى حال الواصلين اليه تعالى فانهم لما خرجوا من سجن رؤية الاغيار الى فضاء التوحيد وكمال الاستبصار اتسعت مسافة نظرهم وأفيض عليهم علوم وأسرار الهية فصاروا يمدون الغير و يتصرفون فى عوالمهم الباطنية كيف شاؤا (ومن قدر عليه رزقه السائرون اليه) أى اشارة الى حال السائرين اليه فهم مقدور عليهم فى أرزاق العلوم والفهوم محبوسون فى مضيق الخيالات والرسوم ينفقون مما آتاهم الله من فضله من الرزق المقدر الضيق على غيرهم ويتصرفون فى عوالمهم على قدر ما أعطاهم الله عز وجل (اهتدى الراحلون) أى السائرون (اليه بانوار التوجه) أى الانوار الحاصلة من العبادات والرياضات التى توجهوا بها الى حضرة

الوصول اليه والا فمتى غاب حتى يستدل عليه ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل اليه) بنو آدم فى أول نشأتهم ومبدأ خلقهم وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل وعدم العلم قال الله تعالى والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ ثم ان الله تعالى اختص بعضهم بخصوصية عنايته واختارهم من أهله لولايته وما ذاك الا لحصول العلم الذى تضمنه قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار والافئدة الذى يحقق لهم النسبة و يوجب لهم الزلفى والقربة المشار الى ذلك بقوله تعالى لعلكم تشكرون وجعلهم على قسمين مرادين ومريدين وان شئت قلت مجذوبين وسالكين وكلاهما مراد ومجذوب على التحقيق قال الله تعالى الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب فالمريدون السالكون الى الله تعالى فى حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الاغيار والآثار والاكوان ظاهرة لهم وموجودة لديهم والحق تعالى غيب عنهم فلم يروه فهم يستدلون بها عليه فى حال ترقيهم والمرادون المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم الاكرم وتعرف اليهم فعرفوه به فلما عرفوه على هذا الوجه انحجبت الاغيار عنهم فلم يروها فهم يستدلون به عليها فى حال تدليهم فهذا هو حال الفريقين وشتان ما بينهما أى بعد ما بينهما وذلك ان المستدل به على غيره عرف الحق الذى هو الوجود الواجب لاهله وهو المختص بوصف القدم وأثبت الامر المشار الى الآثار العدمية من وجود أصله المشار به الى المؤثر المتحقق وجوده والمستدل بغيره عليه على عكس ما ذكرناه لانه استدل بالمجهول على المعلوم وبالمعدوم على الموجود وبالامر الخفى على الظاهر الجلى وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الاسباب وعدم احتظائه بالوصول والاقتراب والا فمتى غاب حتى يستدل عليه بالاشياء الحاضرة ومتى بعد حتى تكون الآثار القريبة هى التى توصل اليه أو فقد حتى تكون الآثار الموجودة هى التى تدل عليه وأنشد

عجيب لمن يبغى عليك شهادة * وأنت الذى أشهدته كل مشهد

قال فى لطائف المنن واعلم أن الادلة انما تنصب لمن يطلب الحق لا لمن يشهده لان الشاهد غنى بوضوح الشهود عن أن يحتاج الى دليل فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل اليها كسبية ثم تعود الى نهايتها ضرورية واذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن اقامة دليل فالمكون أولى بغناه عن الدليل منها ثم قال ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة اليه فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل اليه أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المظهرة له وان كانت الكائنات موصلة اليه فليس لها ذلك من حيث ذاتها لكن هو الذى ولاها رتبة التوصيل فوصلت فما وصل اليه غير الهيته ولكن الحكيم هو واضع الاسباب وهى لمن وقف عندها ولم تنفذ قدرته عين الحجاب * (لينفق ذو سعة من سعته

الواصلون اليه ومن قدر عليه رزقه السائرون اليه) هذه اشارة منه الى حال الفريقين فالواصلون الى الله تعالى لما خرجوا من سجن رؤية الاغيار الى فضاء التوحيد وكمال الاستبصار اتسعت مسافة نظرهم فأنفقوا من سعتهم وتصرفوا فى عوالمهم كيف شاؤا والسالكون اليه مقدور عليهم فى أرزاق العلوم والفهوم محبوسون فى مضيق الخيالات والرسوم ينفقون مما آتاهم الله من الرزق المعلوم المقدر المضيق * (اهتدى الراحلون اليه بانوار التوجه

والواصلون لهم أنوار المواجهة فالاوّلون للانوار وهؤلاء الانوار لهم لانهم لله لا لشئ دونه قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أنوار التوجه هو ماصدر منهم الى الله تعالى من عبادات ومعاملات ومكابدات ومجاهدات وأنوار المواجهة هو ماصدر من الله لهم من تعرّف وتقرّب وتودّد وتحبب فالاوّلون عبيد الانوار لوجود حاجتهم اليها فى الوصول الى مقصودهم والآخرون الانوار لهم لوجود غناهم عنها بربهم فهم لله لا لشئ دونه وسيأتى هذا المعنى عند قوله أنت مع الاكوان مالم تشهد المكوّن فاذا شهدته كانت الاكوان معك قال الله تعالى قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون افراد التوحيد بعدم ملاحظة الاغيار هو حق اليقين ورؤية ماسوى الله خوض ولعب وهما من صفات الكاذبين والمنافقين قال الله عز وجل اخبارا عنهم وكنا نخوض مع الخائضين وقال الله تعالى بل هم فى شك يلعبون وقال رضى الله تعالى عنه * (تشوفك الى مابطن فيك من العيوب خير من تشوفك الى ماحجب عنك من الغيوب) حكم المريد أن يتشوف الى معرفة ماغاب عنه من معايب نفسه ويتطلبها ويبحث عنها فان ذلك هو حق الحق تعالى منه فينبغى أن يحرص عليه ويصرف عنها عنان اعتنائه اليه ليحصل له صفاء أعماله من الآفات ونقاء أحواله من الكدورات وينتفى عنه الجهل والغرور وتنقطع من باطنه موادّ الشرور وقد ذكر الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه فى كتابه رياضة النفس فصلا فى الطريق الذى به يتعرف الانسان عيوب نفسه فلينظر فيه المريد وقد جعل حاصله أربعة أوجه أحدها أن يجلس بين يدى شيخ بصير بالعيوب والآفات فيحكمه فى نفسه ويتبع اشارته فيما يشير به عليه والثانى مصاحبة صديق صدوق يجعله رقيبا على أحواله وأعماله لينبهه على مايخفى عليه من مذام خلاله والثالث أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه اذ لابد من جريان ذلك على ألسنتهم عند ثلبهم وغيبتهم والرابع أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس اذ يطلع بذلك على مساويهم فاذا اطلع عليها منهم علم انه لاينفك هو عن شئ منها لان الطباع البشرية فى ذلك متقاربة وقد يظهر له فى نفسه ماهو أعظم مما يراه فى غيره فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها والتنزه عنها فهذا ملخص ماذكره ثم قال وهذه كلها حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا فى الدين فارغا من تهذيب نفسه مشغولا بتهذيب عباد الله ناصحا لهم فمن وجد الطبيب فليلازمه فهو الذى يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده اه وأما طلبه للغيوب المحجوب عنه من خفايا القدر ولطائف العبر فانه حظ نفسه لاحق عليه فيه للحق تعالى فليطب عنها نفسا ولايشغل بها عقلا ولاحسا وماظهر له منها لايسكن اليه ولايعول عليه فان ذلك من المعايب القادحة فى عبوديته ولهذا قالوا كن طالبا للاستقامة ولاتكن طالبا للكرامة فان نفسك تحرك وتطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة ولأن تكون بحق مولاك أولى بك من أن تكون بحظ نفسك * ومن الحكايات فى هذا المعنى الذى ذكرناه ماروى فى الاسرائيليات عن وهب بن منبه رضى الله تعالى عنه ان رجلا من بنى اسرائيل صام سبعين سنة يفطر فى كل سنة أيام فسأل الله تبارك وتعالى أن يريه كيف تغوى الشياطين على الناس فلما طال ذلك عليه ولم يجب قال لو اطلعت على خطيئتى وذنبى

الرب فان المجاهدة بحسب العادة يحصل ٣٠ منها أنوار فى القلوب يهتدون بها الى الله تعالى حتى يصلوا اليه (والواصلون لهم أنوار المواجهة) أى الانوار التى واجهتهم من حضرة الرب أى أفيضت عليهم حتى عرفوه سبحانه وتعالى (فالاولون للانوار) أى عبيد لها ومحتاجون اليها للتوسل بها الى مطلوبهم (وهؤلاء) أى الواصلون (الانوار لهم) أى ثابتة لهم من غير معاناة ومشقة مع فنائهم عنها بربهم (لانهم لله لا لشئ دونه) قال تعالى (قل الله) أى توجه اليه ولاتمل الى أنوار ولاغيرها (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) فافراد التوحيد بعد فناء الاغيار هو حق اليقين ورؤية ماسوى الله خوض ولعب وذلك من صفات المحجوبين (تشوفك) أيها المريد (الى مابطن فيك من العيوب) النفسانية كالرياء وسوء الخلق والمداهنة وحب الرياسة والجاه أى توجه همتك الى زوال ذلك بالرياضة والمجاهدة وطلبك التخلص منه ولا يكون فى الغالب الاعلى يد شيخ كامل ناصح (خير من تشوفك الى ماحجب عنك من الغيوب) من خفايا القدر ولطائف العبر والاسرار الالهية والمعارف اللدنية والكرامات الكونية لان ذلك حظ نفسك وليس لمولاك شئ معه فلا تقصدها بأعمالك ولاتشغل قلبك بها ولا تركن الى ماظهر لك منها فان ذلك يقدح فى عبوديتك ولذا قالوا كن طالب الاستقامة ولاتكن طالب الكرامة فان نفسك تحرك وتطلب الكرامة ومولاك يطلبك بالاستقامة ولان تكون بحق مولاك أولى بك من أن تكون بحظ نفسك ثم قال

بنى

عنه أى شئ أشد على النفس قال الاخلاص لانها ليس لها فيه نصيب وقال يوسف بن الحسين رضى الله عنه أعز شئ فى الدنيا الاخلاص وكم أجتهد فى اسقاط الرياء عن قلبى فكأنه ينبت فيه على لون آخر قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه والاخلاص عند المخلصين اخراج الخلق عن معاملة الخالق وأوّل الخلق النفس والاخلاص عند المحبين أن لايعمل عملا لاجل النفس والادخل عليه مطالبة العوض أو تشوف الى حظ طبع والاخلاص عند الموحدين خروج الخلق عن النظر اليهم فى الافعال وترك السكون والاستراحة بهم فى الاحوال اه فاذا أخمل العبد نفسه وألزمها التواضع والمذلة واستمر على ذلك حتى صار له خلقا وجبلة بحيث لايجد لضعته ألما ولا لمذلته طمعا فحينئذ تتزكى نفسه ويستنير بنور الاخلاص قلبه وينال من ربه أعلى درجات الخصوصية ويحصل على أوفر نصيب من المحبة الحقيقية قال الشيخ أبو طالب ومتى ذل فى نفسه واتضع عند نفسه فلم يجد لذلته طعما ولا لضعته حسا فقد صار الذل والتواضع كونه فهذا لايكره الذم من الخلق لوجود النقص فى نفسه ولايحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة فى نفسه فصارت الذلة والضعة صفة له لاتفارقه لازمة لزوم الزبالة للزبال والكساحة للكساح وهما صنعتان له كسائر الصنائع وربما افتخروا بهما لعدم النظر الى نقصهما فهذه ولاية عظيمة له من ربه قد ولاه على نفسه وملكه عليها فقهرها بعزه وهذا مقام محمود محبوب وبعده مقام المكاشفات باسرار الغيوب ثم قال ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه كما يطلب المتكبر العز ويستحليه اذا وجده فان فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله كما أن المتعزز اذا فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه لان ذلك حياة نفسه اه فاذا لابد للمريد من اسقاط جاهه واخمال ذكره وفراره عن مواضع اشتهاره وتعاطيه أمورا مباحة تسقطه من أعين الناس كقصة السائح الذى سمع به ملك زمانه فجاء اليه فلما علم بذلك السائح استدعى بقلا وجعل يأكله أكلا عنيفا بمرأى من الملك فلما رآه على تلك الحالة استحقره واستصغره وانصرف عنه ذاماله وسيأتى نص هذه القصة بعد هذا عند قوله ربما دخل الرياء عليك حيث لاينظر الخلق اليك وقد بالغ أئمة الصوفية رضى الله عنهم فى مداواة علة الجاه الذى علق بالقلوب حتى استعملوا فى ذلك أشياء منكرة فى ظاهر الشرع ورأوا ذلك جائزا لهم أن يفعلوه ويأمروا به وذلك مثل قصة الرجل الذى دخل الحمام ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه بحيث تظهر ومشى بذلك متحيرا بحيث يرى ويظن به السرقة فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه ونزعوا الثياب عنه واشتهر عندهم بالسرقة حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام فحينئذ وجد قلبه ومثله ماروى عن أبى يزيد رضى الله عنه فى قصة الشاهد الذى أمره بحلق رأسه ولحيته وتعليق مخلاة الجوز فى عنقه واعطائه لمن يصفعه من الصبيان وطوافه على تلك الحالة فى المحافل والمحاضر والحكايتان مشهورتان ذكرهما الامام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه وغيره قال بعض المصنفين واذا جاز لمن غص بلقمة من طعام حلال أن يسيغها بجرعة من الخمر اذا لم يجد غيره مع أن تحريمه مقطوع به ولايفوته الا حياة فانية فلان يجوز مثل هذا اذا تعين أولى اذ يفوته بذلك الحياة الباقية والقرب من الله تعالى فاذا التزم العبد هذه الطرق من الرياضات ماتت نفسه وحى قلبه وقرب من حضرة ربه واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام وتلك الثمرة أخلاق الايمان التى تكيفت بها نفسه وصارت كصفات

ذا نية له وهى نتيجة الحكمة التى أنبتها الله فى قلوب عباده المتواضعين ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا قال عيسى عليه الصلاة والسلام لاصحابه أين تنبت الحبة قالوا فى الارض فقال عيسى عليه الصلاة والسلام كذلك الحكمة لا تنبت الا فى قلب مثل الارض قلت وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى مدح الخمول وذم الشهرة أحاديث كثيرة منها ما روى أبو أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله عز وجل ان أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر وكان غامضا فى الناس لا يشار اليه بالاصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك ثم نفض يده فقال عجلت منيته قلت بواكيه قل تراثه وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لابره وروى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان يسيرا من الرياء شرك وان من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وان الله يحب الاتقياء الاخفياء الذين اذا غابوا لم يفتقدوا واذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الذى نوه فيه باسم أويس القرنى وأشاد بذكره ونبه على عظيم أمره رضى الله عنه أنه قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حلقة من أصحابه اذ قال ليصلين معكم غدا رجل من أهل الجنة قال أبو هريرة فطمعت أن أكون ذلك الرجل فغدوت فصليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم فاقمت فى المسجد حتى انصرف الناس فبقيت أنا وهو صلى الله عليه وسلم فبينما نحن كذلك اذ أقبل رجل أسود متزر بخرقة مرتد برقعة فجاء حتى وضع يده فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال يا نبى الله ادع الله لى بالشهادة فدعا النبى صلى الله عليه وسلم له بالشهادة وانا لنجد منه ريح المسك الاذفر فقلت يا رسول الله أهو هو قال نعم انه لمملوك بنى فلان قلت أفلا تشتريه فتعتقه يا نبى الله فقال وأنى لى بذلك ان كان الله تعالى يريد أن يجعله من ملوك الجنة يا أبا هريرة ان لاهل الجنة ملوكا وسادة وان هذا الاسود أصبح من ملوك الجنة وساداتهم يا أبا هريرة ان الله عز وجل يحب من خلقه الاصفياء الاخفياء الابرياء الشعثة رؤسهم المغبرة وجوههم الخمصة بطونهم من كسب الحلال الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم وان خطبوا المتنعمات لم ينكحوا وان غابوا لم يفتقدوا وان حضروا لم يدعوا وان طلعوا لم يفرح بطلعتهم وان مرضوا لم يعادوا وان ماتوا لم يشهدوا قالوا يا رسول الله كيف لنا برجل منهم قال ذلك أويس القرنى قالوا وما أويس القرنى قال أشهل ذو صهوبة بعيد ما بين المنكبين معتدل القامة آدم شديد الادمة ضارب بذقنه الى صدره رام بنظره الى موضع سجوده واضع يمينه على شماله يتلو القرآن يبكى على نفسه ذو طمرين لا يؤبه له متزر بازار صوف ورداء صوف مجهول فى أهل الارض معروف فى أهل السماء لو أقسم على الله لابر قسمه ألا وان تحت منكبه الايسر لمعة بيضاء ألا وانه اذا كان يوم القيامة قيل للعباد ادخلوا الجنة ويقال لاويس القرنى قف فاشفع فيشفعه الله فى مثل عدد ربيعة ومضر يا عمر ويا على اذا أنتما لقيتماه فاطلبا اليه يستغفر لكما يغفر الله لكما وذكر باقى الحديث وفى حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون فى أمتى رجل يقال له أويس القرنى يدخل فى شفاعته عدد ربيعة ومضر لو أقسم على الله لابره فمن لقيه بعدى فليقرئه منى السلام ثم

سئل

سئل عن علامته فقال هو رجل أصهب أشهل ذو طمرين أبيضين له أم وقد كان به بياض فدعا الله عز وجل فاذهبه عنه الا مقدار الدينار أو الدرهم لا يؤبه له مجهول فى الارض معروف فى السماء وكان قد بلغ من شدة خموله ونهاية ضعفه أن الناس كانوا يسخرون منه ويستهزؤن به ويؤذونه ويرون فيه أهلية الخداع والتلصص وينسبونه الى ذلك فقد روى فى ذلك أنه دفع اليه بعض فقهاء الكوفة ثوبين وكان يجالسه فانقطع عن مجلسه لاجل العرى فردهما عليه بعد أن أخذهما منه وقال ان الناس يقولون من أين له هذان الثوبان ترى من خدع عليهما وكان فى ذلك الوقت يجالس الفقهاء ويظهر للناس وذلك قبل أن يعرف برفعة القدر وجلالة الخطر وتنويه عمر رضى الله عنه به على المنبر فلما رأى أن الناس عرفوا حاله هرب عنهم واستخفى منهم ولبس أمره عليهم برعاية الابل وغير ذلك وقيل لعمر رضى الله عنه لما سأل عنه قومه ما فينا أخمل منه ذكرا فلما لقيه هو وعلى رضى الله عنهما وسأله من هو فقال له راعى غنم وأجير قوم وستر ذكر أويس فلما سأله عن اسمه قال له عبد الله فلما سأله عن اسمه الذى سمته به أمه امتنع أن يجيبه عن ذلك فلما أخبراه بوصف النبى صلى الله عليه وسلم له وأنهما عرفاه بذلك قال لهما عسى أن يكون ذلك غيرى فلما قالا له أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحت منكبك الايسر لمعة بيضاء وطلبا منه أن يوضحها لهما لم يجد بدا من أن يوضحها لهما وذلك والله أعلم ليريهما رؤية عين صحة قول النبى صلى الله عليه وسلم وصدقه فى اخباره بالغيب وذلك أمر واجب عليه والا فلعله كان يتعلل لهما كما فعله فى كل ما سئل عنه ثم بعد ذلك لما سأله عمر رضى الله عنه أن يلتقى معه ويجعل ذلك الموضع ميعادا بينه وبينه قال له يا أمير المؤمنين لا ميعاد بينى وبينك ولا أعرفك ولا تعرفنى بعد اليوم ثم دفع الابل الى أصحابها وخلا عن الرعاية وكذلك فعل مع هرم بن حيان رضى الله عنه لما لقيه بشاطئ الفرات ووقع بينهما التعرف قال له حدثنى بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحفظه عنك فقال له لا أحب أن أفتح هذا الباب على نفسى لا أحب أن أكون محدثا ولا مفتيا ولا قاضيا فلما فرغا من الكلام الذى كانا بصدده سأله مداومة الاجتماع به فأبى وامتنع وقال له لا أراك بعد اليوم تطلبنى ولا تسأل عنى انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا ثم بعد ذلك اجتهد فى طلبه والبحث عنه فلم يقع له على خبر ومن عجيب أمره أن حقق الله تعالى له هذا الحال من التخفى والتستر وأتمه له بعد موته مع ما أظهره بسببه من الآيات والعبر حينئذ قال عبد الله بن سلمة غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومعنا أويس القرنى رضى الله عنه فلما رجعنا مرض فمات فنزلنا فاذا قبر محفور وماء مسكوب وكفن وحنوط فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه فقال بعضنا لبعض لو رجعنا فعلمنا قبره فرجعنا فاذا لا قبر ولا أثر قلت والحكايات والآثار فى مدح الخمول وذم الاشتهار أكثر من أن يأتى عليها الحصر وقد أورد كثيرا منها الائمة المصنفون فى هذا العلم فليطالع ذلك المريد مستمدا من الله تعالى أحسن التوفيق والتأييد وتعبير المؤلف رحمه الله تعالى ههنا بالدفن والارض والنبات والنتاج من ملح الاستعارات

(ما نفع القلب شئ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة) مداواة أمراض القلب واجبة على المريد وأمراضه انما تكون من غلبة أحكام الطبع عليه من صحبته للاضداد ووقوفه مع المعتاد وانقياده الى هوى النفس وأنسه بعالم الحس ومداواة هذا المرض تأتى من وجوه

(ما نفع القلب) أى قلب المريد فى التطهر من غفلاته والقرب الى حضرة مولاه (شئ مثل عزلة) أى اعتزال عن الناس (يدخل بها ميدان فكرة) أى فكرة شبيهة بالميدان لتردد القلب فيها كتردد الخيول فى الميدان فالمريد اذا كان مخالطا للناس اشتغل نظره بالمحسوسات فلا يتفكر قلبه الا فيها ولا يزال ناظرا الا لعالم الشهادة فاذا اعتزلهم انعكس الحال وجال قلبه فى عالم الغيب وقد جاء فى الخبر تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة وقيل لام الدرداء ما كان أفضل أعمال أبى الدرداء قالت التفكر وذلك لانه يصل به الى معرفة حقائق الاشياء والى تعظيم الله وتعظيم كل ما يرضيه فيفعله وتحقير كل ما يسخطه فيجتنبه ويطلع به على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويتعرف به وجوه الحيل فى التباعد عنها ويسلم به من الآفات الناشئة عن مخالطة أهلها وبالعزلة المذكورة يحصل التمرن على الخلوة التى هى أحد أركان الطريق الاربعة بالنسبة للمريدين وباقيها الصمت والجوع والسهر وبهذه الاربعة تصير الابدال ابدالا وهذا كله فى حق المريد الذى يسلك بنفسه فان كان تحت تربية شيخ فلا بد من

كثيرة وأبلغها فى ذلك وأنفعها العزلة عن الناس المصحوبة بالفكرة فبالعزلة يتقيد الظاهر عن مخالطة من لا تصلح مخالطته ومن لا يأمن دخول الآفات عليه بصحبته فيتخلص بذلك المعتزل من المعاصى التى تعرض له بالمخالطة مثل الغيبة والمداهنة والرياء والتصنع ويحصل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الرديئة والاخلاق الدنيئة ويستفيد بذلك أيضا صيانة دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع الشرور وآفات فان للنفس تولعا وتسارعا الى الخوض فى مثل هذا فواجب على المعتزل أن يكف لسانه عن السؤال عن أخبار الناس وما هم مشغولون به ومنهمكون فيه ومنكبون عليه ويصون سمعه عن الاصغاء الى أراجيف البلدان وما اشتملت عليه من الاحوال التى ذكرناها وليحرص على أن لا يغشاه فى خلوته وعزلته من شأنه التطلع لذلك والبحث عنه وليجتنب صحبة من لا يتورع فى منطقه ولا يضبط لسانه عن الاسترسال فى دقائق الغيبة والوقيعة والتعريض بالطعن على الناس والقدح فيهم فان ذلك مما يكدر صفاء القلب ويؤديه الى ارتكاب مساخط الرب فليهجره المعتزل وليفر منه فراره من الاسد ولا يجتمع معه فى مكان البتة وليتنكر الى كل من يتعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين الى الدين فضلا عن غيرهم كما قال بعضهم انكر من تعرف ولا تتعرف الى من لا تعرف وفى الخبر مثل الجليس السوء كمثل الكير ان لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه وفى الاخبار السالفة أن الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام يا ابن عمران كن يقظانا وارتد لنفسك اخوانا وكل أخ أو صاحب لا يوازرك على مبرتى فهو لك عدو وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام فقال له يا داود مالى أراك منتبذا وحدانيا فقال الهى قليت الخلق من أجلك فقال يا داود كن يقظانا وارتد لنفسك أخدانا وكل خدن لا يوافقك على مبرتى فلا تصحبه فانه لك عدو يقسى قلبك ويباعدك منى وما أحسن قول أبى اسحق ابراهيم بن مسعود الالبيرى فى هذا المعنى

تخف أبناء جنسك واخش منهم * كما تخشى الضراغم والسبنتى
وخالطهم وزايلهم حذارا * وكن كالسامرى اذا لمستا

وبالعزلة أيضا يجتمع همه ويقوى فى ذات الله عزمه بخلاف الخلطة فانها تفرق الهم وتضعف العزم فقد قيل ان العبد ليعقد فى خلوته على خصال من الخير يعملها فاذا خرج الى الناس حلوا عليه ذلك عقدة عقدة حتى يرجع الى بيته وقد انحلت العقد كلها وروى عن عيسى عليه السلام لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم قيل ومن الموتى قال المحبون للدنيا الراغبون فيها وفى الخبر المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين وضعف اليقين انما يكون من رؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة قال أبو طالب المكى رضى الله عنه وأضر ما ابتلى به العبد وأدخله وأعمله فى هلاكه وأشده لحجبه وابعاده ضعف يقينه لما وعد من الغيب وتوعد عليه بالشهادة وقوة اليقين أصل كل عمل صالح وقال بعض هذه الطائفة قلت لبعض الابدال المنقطعين الى الله كيف الطريق الى التحقيق والوصول الى الحق قال لا تنظر الى المخلوقات فان النظر اليهم ظلمة قلت لا بد لى منهم قال فلا تسمع كلامهم فان كلامهم قسوة قلت لا بد لى منهم قال فلا تعاملهم فان معاملتهم خسران ووحشة وحسرة قلت أنا بين أظهرهم ولا بد لى من معاملتهم قال فلا تسكن اليهم فان السكون اليهم هلكة قلت هذا لعله قال يا هذا تنظر الى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل

مخالطته ومخالطة الاخوان الذين يعينونه على سلوك الطريق فاذا ذهبت رعونات نفسه وصار من العارفين فلا تضره مخالطة الخلق أجمعين لانه حينئذ لا يرى غير الله تعالى واعلم أن الفكرة هى المقصود والعزلة وسيلة لها ومعينة عليها ثم بين الامور التى تصيب القلب اذا لم يحصل له تطهير بعزلة ولا فكرة بقوله

البطالين وتسكن الى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله عز وجل هيهات هذا لا يكون أبدا وبالعزلة أيضا يتكف بصره عن النظر الى زينة الدنيا وزهرتها وينصرف خاطره عن الاستحسان الى ما ذمه الله تعالى من زخرفها فتمتنع بذلك النفس عن التطلع اليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها فيها قال الله تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم الآية ولا ينبغى لاحد أن يستحقر هذا فانه يؤدى الى أمراض عظيمة فى القلب ومن اعتزل الناس سلم باذن الله تعالى منها قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فارباب المجاهدات اذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا الى المستحسنات قال وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدات فى أحوال الرياضات اهـ وقال محمد بن سيرين رضى الله عنه اياك وفضول النظر فانه يؤدى الى فضول الشهوة وقال بعض الادباء من كثرت لحظاته دامت حسراته وقالوا ان العين سبب الحين ومن أرسل طرفه اقتنص حتفه وان النظر الى الاشياء بالبصر يوجب تفرقة القلب وقد أنشدوا فى هذا المعنى

وانك ان أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وبذلك ينقطع طمعه عن الناس ويحصل له منهم الاياس وذلك من أعظم فوائد العزلة عند العقلاء الاكياس ولا تتم له منفعة العزلة الا باشتغال القلب بالفكرة وهى المقصودة ههنا وكانت العزلة مقدمة لها ومعينة عليها وذلك بعد تقديم ما يحتاج اليه من علوم الشرع الظاهرة والقيام بمراعاة آدابه الباطنة وقد ذكر منها الشيخ أبو حامد الغزالى جملة شافية فى كتاب العزلة من الاحياء فلينظر هنالك وقد جاء فى الخبر تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة وكذا هو والله أعلم وكان عيسى بن مريم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام يقول طوبى لمن كان قوله ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة ان أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وقال كعب من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر وقيل لام الدرداء ما كان أفضل عمل أبى الدرداء قالت التفكر وذلك لانه يصل به الى معرفة حقائق الاشياء وتبين الحق من الباطل والنافع من الضار ويطلع به أيضا على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويتعرف به وجوه الحيل فى التحرز عنها والطهارة منها قال الحسن البصرى رضى الله عنه الفكرة مرآة تريك حسنك من قبحك ويطلع بها أيضا على عظمة الله تعالى وجلاله اذا تفكر فى آياته ومصنوعاته ويطلع بها أيضا على آلائه الجلية والخفية فيستفيد بذلك أحوالا سنية يزول بها مرض قلبه ويستقيم بسببها على طاعة ربه قلت والعزلة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى تتضمن وجود الخلوة وهى أحد الاركان الاربعة التى هى أساس المريدين ويلزم عنها من الثلاثة الباقية الصمت اذ لا يتأتى من أكثر الناس الا بالخلوة والعزلة فان أضاف اليها المريد الركنين الباقيين وهما الجوع والسهر فقد حصل على كيمياء الدواء والتحق بزمرة الاولياء والبدلاء قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه اجتمع الخير كله فى هذه الاربع خصال وبها صار الابدال أبدالا اخماص البطون والصمت والخلوة والسهر وقال الشاعر وجمعها فى نظمه

يا من يروم منازل الابدال * من غير قصد منه للاعمال
لا تطمعن فيها فلست من اهلها * ان لم تزاحمهم على الاحوال

(كيف يشرق قلب صور الاكوان) أى المكونات من الآدميين وغيرهم (منطبعة فى مرآته) باعتقاده أنها تضر وتنفع وتطلعه لها فى حصول أمر مّا من الامور وتعلقه بها (أم كيف يرحل) أى يسير (الى الله وهو مكبل) أى مقيد (بشهواته) النفسية والمقيد لا يمكنه السير (أم كيف يطمع أن يدخل) ذلك القلب (حضرة الله) بان يشاهده (وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته) أى من غفلاته الشبيهة بالجنابة فكما يمنع الجنب من دخوله المسجد كذلك يمنع من استولت عليه الغفلة من دخوله حضرة الرب (أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الاسرار) وهى العلوم الدقيقة التى ترد على قلوب العارفين (وهو لم يتب من هفواته) وهى ما يصدر منه من المعاصى لا عن قصد وانما تعجب المصنف من ذلك لما فيه من الجمع بين الاضداد وهو محال وهذه الاشياء المذكورة متضادة فان اشراق القلب بنور الايمان واليقين مضاد للظلمة التى استولت عليه بالركون الى الاغيار والاكوان واعتماده عليها والمسير الى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال فى حبس الهوى والشهوات ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة القلب ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة الغفلات التى مقتضاها الابعاد وفهم دقائق الاسرار المستفاد من التقوى مضاد للاصرار على المعاصى والهفوات واليه الاشارة بقوله تعالى واتقوا الله ويعلمكم الله وبما روى فى بعض الاخبار من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم وكل واحد من هذه الاربعة سبب فيما بعده فانطباع صور الاكوان فى مرآة القلب سبب فى تكبله بالشهوات والتكبل بها سبب فى الغفلة وهى السبب فى كل هفوة والهفوة سبب فى عمى القلب ثم شرع رحمه الله يتكلم على شئ من المعارف لينشط المريد حتى يدرك ذلك بالنظر ذوقا فتكلم على وحدة الوجود التى أفردت بالتأليف فقال (الكون) أى المكونات أى الموجودات باسرها (كله ظلمة) أى عدم محض لا وجود له فى نظر أرباب الشهود (وانما أناره) أى أوجده (ظهور الحق) أى الله (فيه) كظهور الشمس فى الكوة ذات الزجاج فليس هناك الا وجود واحد وهو وجود الحق وبظهوره فى الاشياء وجدت على حسب ما تقتضيه طباعها وليس لها وجود فى ذاتها واذا كان كذلك (فمن رأى الكون) أى شيأ منه (ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه) أى فاته (وجود الانوار) الالهية التى يدرك بها مشاهدة الله على أى وجه من الوجوه المذكورة (وحجبت عنه شموس المعارف) أى المعارف التى كالشموس (بسحب الآثار) أى بالآثار وهى الاكوان التى كالسحب جمع سحاب بجامع أن كلا يحجب ما وراءه

بيت الولاية قسمت أركانه * ساداتنا فيه من الابدال
ما بين صمت واعتزال دائم * والجوع والسهر النزيه العالى

*(كيف يشرق قلب صور الاكوان منطبعة فى مرآته أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الاسرار وهو لم يتب من هفواته) الجمع بين الضدين محال كاجتماع الحركة والسكون والنور والظلمة وهذه الاشياء التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى اضداد لا تجتمع فان اشراق القلب بنور الايمان واليقين مضاد للظلمة التى استولت عليه من ركونه الى الاغيار والاكوان واعتماده عليها والمسير الى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال فى حبس الهوى والشهوات ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة الداخل ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة غفلاته التى مقتضاها الاقصاء والابعاد وفهم دقائق الاسرار المستفاد من التقوى مضاد للاصرار على المعاصى والهفوات واليه الاشارة بقوله عز من قائل واتقوا الله ويعلمكم الله وبما روى فى بعض الاخبار من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم قال يحيى بن معين رحمه الله تعالى التقى أحمد بن حنبل وأحمد بن أبى الحوارى فقال ابن حنبل لابن أبى الحوارى يا أحمد حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبى سليمان فقال يا أحمد قل سبحان الله بلا عجب فقال ابن حنبل سبحان الله وطولها بلا عجب فقال ابن أبى الحوارى سمعت أبا سليمان يقول اذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام جالت فى الملكوت وعادت الى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى اليها عالم علما قال فقام أحمد بن حنبل ثلاثا وجلس ثلاثا وقال ما سمعت فى الاسلام بحكاية أعجب الىّ من هذه ثم ذكر الحديث الذى ذكرناه من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم ثم قال لاحمد بن أبى الحوارى صدقت يا أحمد وصدق شيخك ولاجل كون هذه الاشياء اضدادا عجب المؤلف رحمه الله تعالى ممن يعتقد صحة اجتماعها وممن طمع فى نيل مراتب الرجال مع كونه على أقبح الخلال *(الكون كله ظلمة وانما أناره ظهور الحق فيه فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الانوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار) العدم ظلمة والوجود نور فالكون

وأشار المصنف رحمه الله بذلك الى اختلاف أحوال أرباب المشاهدة فى شهودهم فمنهم من يشاهد المكوّن قبل الاكوان فاذا وقع بصره على شئ كحيوان شاهد قيام الحق به وظهوره فيه وأنه المحرك والمسكن له قبل أن يخطر له كونه آدميا أو شاة طويلا أو قصيرا الى غير ذلك ومنهم من يشاهد ذلك بعد كونه حيوانا ومنهم من يشاهده معه ومنهم من يشاهده فيه وهو ظرف متسع وهذا تقريب للافهام والا فهذا أمر لا يدرك الا بالذوق وما كان كذلك تقصر عنه العبارة (مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه) خطاب لعامة الناس (بما ليس بموجود معه) اتفقت مقالات العارفين واشاراتهم ومواجيدهم على ماذكر من أن ما سوى الله عدم محض من حيث ذاته لا يوصف بوجود مع الله تعالى قال بعض العارفين أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية واحاطة الديمومية اذ ومع كون ماذكر عدما فهو حجاب عن الله تعالى فان الناس لا يشهدون عند نظرهم للاكوان الا هى ولا يشاهدون مكونها مع أنها لا وجود لها والوجود انما هو له سبحانه فهذا مما يقضى منه العجب ثم ذكر أدلة تدل على أنه لا ينبغى أن يحتجب بتلك الاكوان وأن الاحتجاب بها انما هو للعوام فقال

بالنظر الى ذاته عدم مظلم وباعتبار تجلى نور الحق عليه وظهوره فيه وجود مستنير ثم اختلف أحوال الناس ههنا فمنهم من لم يشاهد الا الاكوان وحجب بذلك عن رؤية المكوّن فهذا تائه فى الظلمات محجوب بسحب الآثار الكائنات ومنهم من لم يحجب بالاكوان عن المكوّن ثم هم فى مشاهدتهم اياه فرق فمنهم من شاهد المكوّن قبل الاكوان وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار ومنهم من شاهده بعد الاكوان وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على المؤثر ومنهم من شاهده مع الاكوان والمعية ههنا اما معية اتصال وهو شهوده فى الاكوان واما معية انفصال وهو شهوده عند الاكوان وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولا مكانية لان الزمان والمكان من جملة الاكوان والاتصال والانفصال المذكوران ليسا على ما يفهم من معانيهما فانهما أيضا من جملة الاكوان ومعرفة تفصيل هذه الامور والتفرقة بين هذه الحقائق على ما هى عليه موكول الى أربابه فلنقتصر على ماذكرناه فههنا زلت اقدام كثير من الناس فتكلموا بكلمات موهمة وعبروا بعبارات منكرة فى الشرع فكفروا بذلك وبدعوا فاعتقد كمال التنزيه وابطال التشبيه وتمسك بقوله عز وجل ليس كمثله شئ وهو السميع البصير سبحانه لا اله غيره *(مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه) اتفقت مقالات العارفين والمحققين واشاراتهم ومواجيدهم على ماذكرناه قبيل هذا من أن ما سوى الله تعالى عدم محض من حيث ذاته لا يوصف بوجود مع الله سبحانه وتعالى اذ لو وصف به لكان ذلك شركا وتثنية وهو مناقض لاخلاص التوحيد قال الله تعالى كل شئ هالك الا وجهه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر

ألا كل شئ ما خلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل

قال بعض العارفين أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية واحاطة الديمومية وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه انا لننظر الى الله ببصر الايمان والايقان فاغنانا ذلك عن الدليل والبرهان ونستدل به على الخلق هل فى الوجود شئ سوى الواحد الحق فلا نراهم وان كان ولا بد فنراهم كالهباء فى الهواء ان فتشتهم لم تجدهم شيأ وقال أيضا رضى الله عنه قوى علىّ الشهود مرة فسألته أن يستر ذلك عنى فقيل لى لو سألته بما سأله موسى كليمه وعيسى روحه ومحمد صفيه صلوات الله عليهم أجمعين لم يفعل ولكن سله أن يقويك فسألته فقوّانى قال ابن عطاء فى التنوير فما سوى الله تعالى عند أهل المعرفة لا يوصف بوجود ولا فقد اذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحديته ولا فقد لغيره لانه لا يفقد الا ما وجد ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الاعيان ولاشرق نور الايقان فغطى وجود الاكوان وهذا الكلام هو بسط ماذكره فى هذا الكتاب وقال بعضهم لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فانه لا غير معه حتى أشهده معه وقال الشاعر

مذ عرفت الاله لم أر غيرا * وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمعت ما خشيت افتراقا * وأنا اليوم واصل مجموع

وقال آخر

الله قل وذر الوجود وما حوى * ان كنت مرتادا بلوغ كمال

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى أظهر كل شئ) بما أشرق عليه من نور الوجود وقد كان فى ظلمة العدم كما تقدم فبظهوره فى الاشياء ظهرت واذا كان ظهور الاشياء متوقفا عليه فيستحيل أن تحجبه حتى يكون خفيا غير ظاهر فان الاظهار انما يفيد ظهور المظهر لا خفاءه (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر بكل شئ) حتى استدل عليه المستدلون بالاشياء كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق وذلك لان الاثر يدل على المؤثر ويعرف به فهذا مقام المستدلين الضعفاء (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر فى كل شئ) بذاته كما يقوله أهل الشهود أو بمحاسن صفاته وأسمائه كما يقوله أهل الحجاب فالاشياء كلها مجالى ومظاهر لظهور معانى أسمائه التى هى تفاصيل معانى صفاته فيظهر فى أهل العزة كونه معزا وفى أهل الذلة كونه مذلا وفى الاحياء معنى اسمه المحيى وعند سلب الارواح معنى اسمه المميت وعند العطاء معنى اسمه المعطى وعند المنع معنى اسمه المانع وعند افاضة الفضل معنى اسمه الكريم وعند اجابة الدعاء معنى اسمه المجيب وعند تسليطه المضار وجلب المنافع معنى اسمه الضار النافع الى غير ذلك (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر لكل شئ) أى تجلى لكل شئ حتى عرفه ولذا كان ساجدا له ومسبحا بحمده ولكن لا تفقه ذلك فكل شئ عارف به على قدر تجليه له وان كان فى الاشياء من لا يقدر الله حق قدره لنقص معرفته وقصورها لا لانتفاء أصلها (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الظاهر قبل وجود كل شئ) لتحقق هذا الاسم له أزلا وأبدا كل
فظهوره تعالى ذاتى له غير مكتسب ولا مستفاد ولا معلول وظهور الاكوان ناشئ من تجليه عليها بصفة الظهور فكيف تكون حاجبة له (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أظهر من

فالكل دون الله ان حققته * عدم على التفصيل والاجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها * لولاه فى محو وفى اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته * فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا بأن لم يشهدوا * شيأ سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا * فى الحال والماضى والاستقبال

وقد صنفوا فى بيان هذا الامر تصانيف وتفننوا فى الكلام فى هذا المعنى نظما ونثرا وكل عبر على حسب شربه وذوقه جزاهم الله عنا خيرا فاذا تقرر هذا ووجدنا أكثر الناس قد حجبوا عن الله تعالى بشهواتهم الدنيوية ودرجاتهم الاخروية ومقاماتهم العلوية فكل ذلك من الاغيار العدمية والوجودات الوهمية علمنا بذلك وجود قهره اذ من أسمائه تعالى القهار ولو ارتفع الحجاب عنهم لفنوا عن أنفسهم واراداتهم وبقوا بربهم وكانوا عباد الله حقا وقد سئل أبو سعيد ابن الاعرابى رضى الله عنه عن الفناء فقال الفناء أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والاحوال والدرجات والمقامات والاذكار وتفنيه عن كل شئ وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الاشياء وعن فنائه عن الفناء لانه يغرق فى التعظيم عقله اه قالوا والفناء على ثلاثة أوجه فناء فى الافعال ومنه قولهم لا فاعل الا الله وفناء فى الصفات أى لا حى ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة الا الله وفناء فى الذات أى لا موجود على الاطلاق الا الله تعالى وأنشدوا فى ذلك

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى * فكان فناؤه عين البقاء

وقال سيدى محيى الدين من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز ومن شهدهم عين العدم فقد وصل وأنشدوا فى هذا المعنى

من أبصر الخلق كالسراب * فقد ترقى عن الحجاب
الى وجود يراه رتقا * بلا ابتعاد ولا اقتراب
ولم يشاهد به سواه * هناك يهدى الى الصواب
فلا خطاب به اليه * ولا مشير الى الخطاب

• (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى أظهر كل شئ) بما أشرق عليه من نور الوجود وقد كان فى ظلمة العدم كما تقدم (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر بكل شئ) حتى استدل عليه المستدلون بالاشياء كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر فى كل شئ) اذ هو المتجلى فيها بمحاسن صفاته وأسمائه (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر لكل شئ) فى طور ذلك الشئ ولذلك كان ساجدا له ومسبحا بحمده ولكن لا تفقه ذلك (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الظاهر قبل وجود كل شئ) لتحقق هذا الاسم له أزلا وأبدا (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أظهر من

كل شئ) لان الوجود أظهر من العدم على كل حال ولان الظهور الذاتى أقوى من العرضى والظهور المطلق أقوى من المقيد والدائم أقوى من المنصرم وانما لم يدرك للعقول مع شدة ظهوره لان شدة الظهور لا يطيقها الضعفاء كالخفاش يبصر بالليل دون النهار لا لخفاء النهار واستنارته بل لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا أشرقت فيكون شدة ظهور النهار مع ضعف بصره سببا لامتناع ابصاره فلا يرى شيأ الا اذا امتزج الظلام بالضوء وضعف ظهوره فكذلك العقول ضعيفة وجمال الحضرة الالهية فى غاية الاشراق والاستنارة فصارت شدة ظهوره سببا لخفائه (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الواحد الذى ليس معه شئ) اذ كل شئ سواه عدم لا وجود له على التحقيق فليس ثم شئ يحجبه اذ الوجود الحقيقى كله له ولا شئ منه لغيره (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أقرب اليك من كل شئ) لثبوت احاطته بك وقيومته عليك قال تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد فهو قريب لنا بذاته عند أهل الشهود وأما أهل الحجاب فيقولون هو قريب بعلمه وقدرته وارادته الى غير ذلك (كيف يتصور أن يحجبه شئ) ولولاه ما كان وجود كل شئ حتى استدل به المشاهدون على الاشياء قال تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ولو اسقط لفظ كل لكان أظهر فى افادة العموم والقصد بهذا الكلام المبالغة فى نفى الحجاب فلا يضر كون هذا الوجه بمعنى الوجه الاول وبعضهم أثبت التغاير بينهما بما فيه كلفة (يا عجبا كيف يظهر الوجود فى العدم) لان العدم ظلمة والوجود نور وهما ضدان لا يجتمعان (أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم) لان الحادث باطل والله تعالى حق والباطل لا يثبت مع ظهور الحق قال تعالى وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا فالظاهر والثابت هو الحق تعالى لا الكون وما بدا الا وجه الحق فهو المظهر والظاهر والموجود دون كل المظاهر والتعجب المذكور ناشئ من غلبة الشهود فانه اذا قوى على العبد اضمحلت الاكوان فى نظره وفنى عنها بالمرة (ما ترك من الجهل شيأ من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه) فاذا كان المريد فى حال بدنى أو قلبى لا يذمه الشرع لزمه حسن الادب فى اختيار بقائه عليه ورضاه به حتى ينقله الله عنه فاذا كان متجردا وتعلق قلبه بالتكسب أو كان فى صنعة وأراد الانتقال عنها لغيرها كان قليل الادب مع مولاه جاهلا بما يناسب حضرته وكذا ان كان فى حال قبض وأراد الانتقال عنه الى البسط قال بعضهم لى منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ولا نقلنى الى غيره فسخطته وهذا من نتائج العلم بالله ومعرفة ربوبيته فان سخط تلك الحال وتشوف الى الانتقال عنها بنفسه وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى فقد بلغ غاية الجهل بربه واساءة الادب فى حضرته وهذا من معارضة حكم الوقت الذى تشير اليه الصوفية وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة

كل شئ) لان الوجود أظهر من العدم على كل حال (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الواحد الذى ليس معه شئ) اذ كل ما سواه عدم لا وجود له على التحقيق (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أقرب اليك من كل شئ) لثبوت احاطته بك ووجود قيوميته عليك (كيف يتصور أن يحجبه شئ ولولاه ما كان وجود كل شئ) حتى استدل به الشاهدون على الاشياء كما قال الله تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد (يا عجبا كيف يظهر الوجود فى العدم) لان العدم ظلمة والوجود نور وهما ضدان لا يجتمعان (أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم) لان الباطل لا يثبت مع ظهور الحق كما قال تعالى وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وقال عز من قائل بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق (قلت) وهذا الفصل من قوله الكون كله ظلمة الى هنا أبدع فيه المؤلف غاية الابداع وأتى فيه بما تقر به الاعين وتلذ به الاسماع فانه رضى الله عنه ذكر جميع متعلقات الظهور وأبطل حجابية كل ظلام ونور وأرانا فيه الحق رؤية عيان وبرهان ورفعنا من مقام الايمان الى أعلى مراتب الاحسان كل ذلك فى أوجز لفظ وأفصح عبارة وأتم تصريح وألطف اشارة فلو لم يكن فى هذا الكتاب الا هذا الفصل لكان كافيا شافيا فجزاه الله عنا خيرا ثم قال رضى الله عنه

• (ما ترك من الجهل شيأ من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه) اذا أقام الله تعالى العبد فى حال من الاحوال التى لا يذمها الشرع فليلتزم حسن الادب فى اختيار بقائه عليها ورضاه بها وليراقب الله تعالى فى مراعاة آدابها وليوافق مراد الله تعالى فى ذلك حتى يكون هو الذى ينقله عنها قال أبو عثمان رضى الله تعالى عنه منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ولا نقلنى الى غيره فسخطته وقد تقدمت حكاية المؤلف رحمه الله تعالى مع شيخه أبى العباس المرسى حين عزم على التجرد وترك ما كان عليه من الاشتغال بالعلم الظاهر وما أجابه به الشيخ رضى الله تعالى عنه وهذا من نتائج العلم بالله تعالى ومعرفة ربوبيته فان سخط تلك

 فاذا كان المريد مشتغلا بحال من أحوال دنياه وكان

الحال وتشوف الى الانتقال عنها بنفسه وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى فقد بلغ غاية الجهل بربه وأساء الادب فى حضرة مولاه عز وجل وهذا من معارضة حكم الوقت الذى تشير اليه الصوفية وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة فالواجب على العبد الاستسلام لحكم الله تعالى فى ذلك الوقت فهو أدب العبودية ومقتضى العلم بالله تعالى وهذا هو أحد معانى لفظ الوقت فى اصطلاحهم قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه وقد يريدون بالوقت ما يصادمهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لانفسهم ويقولون فلان بحكم الوقت أى انه مستسلم لما يبدو من الغيب من غير اختيار وهذا فيما ليس لله عز وجل عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحق شرع اذ التضييع لما أمرت به واحالة الامر فيه على التقدير وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين ومن كلامهم الوقت سيف أى كما أن السيف قاطع فالوقت بما يقضيه الحق ويجريه غالب وقيل السيف لين مسه قاطع حده فمن لاينه سلم ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى وأنشدوا

وكالسيف ان لاينته لان مسه * وحداه ان خاشنته خشنان

ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت هذا كلام الامام أبى القاسم وهو موافق لما ذكره صاحب الكتاب والله الموفق * (احالتك الاعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس) اذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه وكان له فيها شغل عنه من العمل بالاعمال الصالحة وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الاشغال وقال اذا تفرغت عملت فذلك من رعونة نفسه والرعونة ضرب من الحماقة وحماقته من وجوه الاول ايثار الدنيا على الآخرة وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين وهو خلاف ما طلب منه قال الله تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى والثانى تسويفه بالعمل الى أوان فراغه وقد لا يجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله لان أشغال الدنيا يتداعى بعضها الى بعض كما قيل

فما قضى أحد منها لبانته * ولا انتهى أرب الا الى أرب

والثالث أنه ان يفرغ منها فما الذى يؤمنه من تبدل عزمه وضعف نيته ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوة فى جميع الاحوال ما يستحقر فى جنبه جميع هذا بل الواجب عليه أن يبادر الى الاعمال على أى حال كان وأن ينتهز فرصة الامكان قبل مفاجأة الموت وحلول الفوت وأن يتوكل على الله تعالى فى تيسيرها عليه وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه وما أحسن قول ابن الفارض فى هذا المعنى

وعد من قريب فاستجب واجتنب غدا * وشمر عن الساق اجتهادا بنهضة
وكن صارما كالوقت فالمقت فى عسى * واياك مهلا فهى أخطر علة
وسر زمنا وانهض كسيرا فحظك البـ * ـطالة ما أخرت عزما لصحة
وجد بسيف العزم سوف فان تجد * تجد نفسا فالنفس ان جدت جدت

(لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها فلو أرادك لاستعملك من غير اخراج)

ذلك يمنعه من الاعمال التى يتوصل بها الى حضرة مولاه وأحال ذلك على فراغه من تلك الاشغال فقال اذا تفرغت عملت كان ذلك دليلا على رعونة نفسه والرعونة ضرب من الحماقة وذلك لتسويفه العمل الى فراغ أوانه وقد لا يجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك ويزداد شغله لان أشغال الدنيا يتداعى بعضها الى بعض ولو فرض أنه تفرغ منها فقد يتبدل عزمه وتضعف نيته فالواجب عليه النهوض الى ما يوصله الى مولاه قبل الفوات ولذا قيل الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك (لا تطلب منه أن يخرجك من حالة) دنيوية كصناعة أو دينية كطلب علم (ليستعملك فيما سواها) لتوهمك أن ما أنت فيه عائق عن توصلك لحضرته (فلو أرادك) أى أحبك وكنت من أهل الارادة (لاستعملك) استعمالا محبوبا عنده بان يوفقك للاعمال الصالحة ويشغل قلبك به (من غير اخراج) أى مع بقائك على حالتك التى أنت عليها فاذا كان المريد على حالة لا توافق غرضه وكانت مباحة فى الشرع لا ينبغى له أن يروم الخروج منها بنفسه ويعارض حكم الوقت كما مر فى قوله ما ترك من الجهل شيأ الخ وكذا لا ينبغى له أن يعارض حكم الوقت

ويطلب من مولاه أن يخرجه منها ويستعمله فيما سواها لان هذا من التخيير على الله ولا خيرة له فى ذلك بل كما ينبغى أن يطلب حسن الادب معه وبناء مراده على اختياره فاذا علم منه مولاه ذلك استعمله استعمالا محبوبا عنده مع بقائه على

ما هو عليه فيكون اذ ذاك عبد الله لا عبد لنفسه وهو خير له مما اختاره ولو قال لحصل لك المطلوب من غير اخراج لكان أولى أما لو كان على حالة لا توافق الشرع فيجب عليه المسارعة الى الانتقال والطلب من مولاه أن ينقله الى ما يرضيه

كما أنه اذا كان المرء على حالة لا توافق غرضه كانت متعلقة بالدين أو بالدنيا لا ينبغى له أن يروم الخروج منها بنفسه ويعارض حكم وقته فيحدث فيه غير ما أظهره الله فيه كما تقدم فى قوله ما ترك من الجهل شيأ من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه مع الشرط المتقدم وهو أن لا يكون فى ذلك مخالفة أمر أو ارتكاب نهى فينبغى له أيضا أن لا يعارض حكم الوقت ويطلب من مولاه أن يخرجه منها ويستعمله فيما سواها لان هذا من التخيير على الله تعالى ولا خيرة له فى ذلك بل ينبغى له حسن الادب معه وبناء مراده على اختياره هو وحينئذ يتحقق بحال يتعرف فيها محبة الله تعالى له وارادته له فيستعمله استعمالا محبوبا عنده مع بقائه على حالته التى هو عليها فيكون اذ ذاك عبد الله تعالى لا عبد لنفسه وهو خير له مما اختاره قال فى التنوير يحكى عن بعضهم أنه كان يقول وددت لو أنى تركت كل الاسباب وأعطيت كل يوم رغيفين يريد بذلك أن يستريح من تعب الاسباب قال فسجنت ثم كنت فى السجن يؤتى الى كل يوم برغيفين فطال ذلك على حتى ضجرت ففكرت يوما فى أمرى فقيل لى انك طلبت منا كل يوم رغيفين ولم تطلب منا العافية فاعطيناك ما طلبت فاستغفرت من ذلك ورجعت الى الله تعالى فاذا بباب السجن يقرع فخلصت وخرجت قال فيه فتأدب بهذا أيها المؤمن ولا تطلب أن يخرجك من أمر ويدخلك فيما سواه اذا كان ما أنت فيه مما يوافق لسان العلم فان ذلك من سوء الادب مع الله تعالى فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك فتعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه فرب تارك شيأ ودخل فى غيره لتجد الثروة والراحة فيتعب وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار اهـ كلامه فى التنوير وهو كالتفسير لما ذكره ههنا فلذلك أوردته * (ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها الا ونادته هواتف الحقيقة الذى تطلب أمامك ولا تبرجت ظواهر المكونات الا ونادتك حقائقها انما نحن فتنة فلا تكفر) السائر الى الله تعالى يتجلى له فى أثناء سلوكه أنوار وتبدو له أسرار فان أرادت همته أن تقف عند ما كشف لها من ذلك لاعتقاده أنه وصل الى الغاية القصوى والنهاية من المعرفة نادته هواتف الحقيقة المطلوب الذى تطلب أمامك فجد فى السير ولا تقف فان تبرجت له ظواهر المكونات بزينتها فمال الى حسنها وجمالها نادته حقائقها الباطنة انما نحن فتنة فلا تكفر وغض عينيك عن ذلك ولا تلتفت اليه ودم على سلوكك وسيرك واعلم أنه ما دام لك همة وارادة فانت بعد فى الطريق لم تصل فلو فنيت عنها لوصلت وما أحسن قول الشيخ أبى الحسن التسترى فى هذا المعنى

ولا تلتفت فى السير غيرا فكل ما * سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه انه * حجاب فجد السير واستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلى * عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلب * فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

وقد رأيت لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه كلاما حسنا مناسبا لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ههنا من الترقى فى الاحوال وظهور النقص فى رؤية الكمال فرأيت أن أذكره ههنا بنصه لما فيه من سنى الفوائد وشريف المقاصد قال رضى الله عنه اعلم أنك اذا أردت

(ما أرادت همة سالك) أى سائر الى الله تعالى (أن تقف عند ما كشف لها) فى أثناء السلوك من المعارف والاسرار والانوار بان يرى أن ما وصل اليه من المعرفة وذوق الاحوال ومنازلة المقامات هو الغاية القصوى والنهاية فتقف همته عنده وتعتنقه ويحبسه أو يرى أن ما فوقه أعظم منه لكنه يقنع بذلك ويرى أن فيه الكفاية فلا يوفى بهمته أو يرى قصور همته عن الرقى لما فوقه (الا ونادته هواتف الحقيقة) أى الهواتف التى تهتف على قلبه من جهة الحقيقة الالهية ويحتمل أن المعنى الا ناداه لسان حال الحقيقة التى كشفت له بسر وجدت فى السير لا تقف فان (الذى تطلب) ه وهو وصولك الى المولى وعدم ركون قلبك الى شئ سواه (أمامك) فلا تقف عند ما كشف لك (ولا تبرجت) أى أظهرت لك محاسنها (ظواهر المكونات) كتسخير الخلق لك واقبالهم عليك والتوسعة فى الدنيا وظهور خوارق العادات كتسخير الحيوانات والمشى على الماء والتربع فى الهواء والاطلاع على أسرار الخلائق وخواص الموجود وتكثير القليل من الطعام وطى الارض ونحو ذلك مما تميل النفس له (الا ونادتك حقائقها) أى بواطنها نداء معنويا

وان لم تسمعه به (انما نحن فتنة) أى ابتلاء واختبار (فلا تكفر) أى فلا تفتتن بنا ولا تقف عندنا ولا تجعل نفسك رقا لنا فتحجب بنا عن الله لان ذلك كفر لحق المنعم وشكر النعم بالاقبال على المنعم والاعراض عنه بالوقوف مع النعم عكس المطلوب

(طلبك منه اتهام له) يعنى أن المريد ينبغى له أن يشتغل فى حال سلوكه بما يقربه من مولاه من الاعمال الصالحة ولا يشغل قلبه بالطلب لشئ من الاشياء لان ذلك مذموم قاطع عن الله فان طلبك منه أن يرزقك بالقوت الذى يعينك على سيرك وأن يوسع عليك الرزق تهمة منك له بانه لا يرزقك ٢٤ اذ لو وثقت به فى ايصال منافعه اليك من غير سؤال وتيقنت أنه عالم بحاجتك قادر على ايصالها لك لما طلبت منه شيأ (وطلبك له) بان تطلب قربك منه وزوال الحجاب عنك حتى تشاهده بعين قلبك (غيبة منك عنه) اذ الحاضر لا يطلب (وطلبك لغيره) من الاعراض الدنيوية وزخارفها ومناصبها ومن المكاشفات والكرامات والاحوال والمقامات (لقلة حيائك منه) اذ لو حصل لك حياء منه لما التفت الى غيره وطلبت شيأ سواه (وطلبك من غيره) بان توجهت الى بعض الناس لتطلب منه شيأ من أعراض الدنيا غافلا فى حال الطلب عن مولاك (لوجود بعدك عنه) اذ لو كنت قريبا منه لكان غيره بعيدا عنك ولو كنت مشاهدا القربه منك لاكتفيت به عن سائر خلقه لكن وجود البعد قضى عليك بالشعور بالغير حتى توجهت اليه وطلبت منه فالطلب كله من المريدين معلول سواء كان متعلقا بالحق أو الخلق الا ما كان على وجه التعبد والتأدب واتباع الامر واظهار الفاقة أما العارفون فلا يرون غير الله تعالى فطلبهم ليس من المخلوق فى الحقيقة وان كان منه بحسب الظاهر (ما من نفس) بفتح الفاء وهو جزء من الهواء يخرج من باطن البدن فى جزء من الزمن والمعنى أن كل نفس من أنفاسك (تبديه) أى تظهره بقدرة الله تعالى لا تبديه (الاوله) تعالى (فيك قدر) أى أمر مقدر عليك من طاعة أو معصية أو نعمة أو بلية (يمضيه) أى يبرزه بقدرته فى ذلك النفس فكل نفس يبدو منك ظرف لقدر من أقدار الحق ينفذ فيك كائنا ما كان فينبغى لك الادب معه ومراقبته فى كل نفس من أنفاسك فتكون فى كل نفس سالكا طريقا الى الحق سبحانه وتعالى وهو معنى قولهم الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق

أن يكون لك نصيب مما الاولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة الا من يدلك على الله تعالى باشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة وأعرض عن الدنيا بالكلية ولا تكن ممن يعرض عنها ليعطى شيأ على ذلك بل كن فى ذلك عبد الله أمرك أن ترفض عدوه فان أتيت بهاتين الخصلتين الاعراض عن الناس والزهد فى الدنيا فاقم مع الله بالمراقبة والتزام التوبة بالرعاية والاستغفار والانابة والخضوع للاحكام بالاستقامة وتفسير هذه الوجوه الاربعة أن تقوم عبد الله فيما تأتى وما تذر وتراقب قلبك أن لا يرى فى المملكة شيأ لغيره فان أتيت بهذا نادتك هواتف الحق من أنوار العزائك قد عميت عن طريق الرشد من أين لك القيام مع الله تعالى بالمراقبة وأنت تسمع قوله وكان الله على كل شئ رقيبا فهنا لك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك أن لا يشهد ذلك منك بحال فتعود الى ما خرجت عنه فان صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضا من قبل الحق تعالى التوبة منه بدت والانابة منه تتبعها واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك فهنالك تظهر أوصافك فتستعيذ بالله منها وتأخذ فى الاستغفار والانابة والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع الى أوصافه فان كنت بهذه الصفة أعنى الاستغفار والانابة نادتك عن قرب اخضع لاحكامى ودع عنك منازعتى واستقم مع ارادتى برفض ارادتك وانما هى ربوبية تولت عبودية وكن عبدا مملوكا لا تقدر على شئ فى رأيت منك قدرة وكلتك اليها وأنا بكل شئ عليم فان صح لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هنالك على أسرار لا تكاد تسمع من أحد من العالمين * (طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة منك عنه وطلبك لغيره لقلة حيائك منه وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه) الطلب الذى يتصور من العبد على أربعة أوجه وكلها مدخولة معلولة طلبه من الله وطلبه له وطلبه لغيره وطلبه من غيره فطلبه من الله تهمة له اذ لو وثق به فى ايصال منافعه اليه من غير سؤال لما طلب منه شيأ وطلبه له غيبة عنه اذ الحاضر لا يطلب وطلبه لغيره قلة حياء منه اذ لو استحيا منه انقبض عما يكرهه له من طلبه لغيره ومن حق الحياء منه أن لا يذكر معه غيره ولا يؤثر عليه سواه وطلبه من غيره لوجود بعده عنه اذ لو كان قريبا منه لكان غيره بعيدا عنه فلا يطلب منه فالطلب كله عند الموحدين العارفين معلول سواء كان الطلب متعلقا بالحق أو بالخلق الا ما كان من الطلب على وجه التأدب والتعبد واتباع الامر واظهار الفاقة والفقر فحينئذ تزول العلة عنه * (ما من نفس تبديه الا وله قدر فيك يمضيه) الانفاس أزمنة دقيقة تتعاقب على العبد ما دام حيا فكل نفس يبدو منه ظرف لقدر من أقدار الحق تعالى ينفذ فيه كائنا ما كان فاذا كانت جزئيات العبد ودقائقه قد استغرقتها أحكام الله تعالى وأقداره وكان جميع ذلك يقتضى منه حقوقا لازمة من حقوق الله تعالى يقوم بها وهو مطالب بذلك ومسؤل عنه وعن أنفاسه التى هى أمانة للحق عنده لم يبق له اذ

ذلك مجال لتدبير أمور دنياه ولا محل لمتابعة شهوته وهواه * (لا تترقب فروغ الاغيار فان ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه) اذا أقام الله تعالى عبدا فى سبب من الاسباب فالواجب عليه أن يوفيه حقه ويلتزم فيه الادب ولا يترقب وقتا ثانيا يكون فيه فارغا منه فان تأميله للوقت الثانى يمنعه من القيام بحق الوقت الاول فيما أقيم فيه وتوفيته بما يجب له وهو خلاف الامر المطلوب منه فليجتنب ذلك المريد قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه الفقير الصادق هو الذى يكون فى كل وقت بحكمه فاذا ورد عليه وارد يشغله عن حكم وقته يستوحش منه وينفيه وقال سهل بن عبد الله رضى الله تعالى عنه اذا جنك الليل فلا تؤمل النهار حتى تسلم ليلتك تلك وتؤدى حق الله فيها وتنصح فيها لنفسك واذا أصبحت فكذلك وسئل سهل رضى الله تعالى عنه متى يستريح الفقير فقال اذا لم يرو قتا غير الوقت الذى هو فيه قال البغوى فى تفسيره عند قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير الشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وقيل بما تحبون وما تكرهون لننظر شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون * (لا تستغرب وقوع الاكدار ما دمت فى هذه الدار فانها ما أبرزت الا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها) جعل الله تعالى الدنيا دار فتنة وابتلاء ليعمل كل أحد فيها على مقتضى ما سبق له ويوفى جزاءه فى الدار الآخرة قال الله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وعمل كل واحد فيها انما هو مخالفة شهوات نفسه أو موافقتها وذلك لا محالة يستدعى وجود محبوب أو مكروه بفعل أو بترك فمن ضروريات الدنيا وجدان المكاره والمشاق فيها فتقع الاكدار بسبب ذلك أيضا فحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت طباع الناس اليها وهى لا تفى بجميع مطالبهم لضيقها وقلتها وسرعة تقضيها وتقلتها فتجاذبوها بينهم فتكدر عيشهم ولم يحصلوا على كلية أغراضهم كما قيل فى المعنى

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها * على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وان كانت تحب كأنها * سحابة صيف عن قريب تقشع

فلا تستغرب وقوع أمثال هذا فانه ما ظهر منها الا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها من وجدان المكاره التى هى ذاتية لها قال بعض الحكماء لولا أن الدنيا مبنية على المكاره لجعلت منفعة الاهليلج فى اللوزينج وسيأتى التنبيه على الحكمة فى هذا عند قوله انما جعلها محلا للاغيار ومعدنا لوجود الاكدار تزهيدا لك فيها وفى بعض الحكايات المنقولة عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه أنه قال من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل له وما ذاك قال الراحة فى الدنيا وفى معناه أنشدوا

تطلب الراحة فى دار العنا * خاب من يطلب شيأ لا يكون

وقال بعض البلغاء ملتمس السلامة فى دار المتالف والمعاطب كالمتمرغ على مزاحف الحيات ومداب العقارب وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه الدنيا كلها غموم فما كان منها فى سرور فهو ربح وقال الامام الجنيد رضى الله تعالى عنه لست أستبشع ما يرد على من العالم لانى قد أصلت أصلا وهو أن الدنيا دار هم وغم وبلاء وفتنة وأن العالم كله شر ومن حكمه أن يتلقانى بكل ما أكره فان تلقانى بكل ما أحب فهو فضل والا فالاصل هو الاول وقال أبو تراب رضى الله تعالى عنه يا أيها الناس أنتم تحبون ثلاثة أشياء وليس هى لكم تحبون

(لا تترقب) أيها المريد (فروغ الاغيار) الواردة على قلبك وهى ظلمات تحدث فيه تحول بينه وبين شهود المولى والحضور معه (فان ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه) من الاعمال التى تتوصل بها اليه فالمطلوب منك المواظبة على ما أنت فيه ومراقبة المولى فى ذلك ولا تشتغل بما يورده على قلبك من ظلمة أو نور ولو قال فان ذلك يقطعك عما هو مقيمك فيه لكان أولى ووجه كونه قاطعا أن نفسك تسول لك وتقول لو كنت من أهل الارادة لما وردت هذه الاغيار عليك مع كثرة عبادتك فيشتغل قلبك بهذه الوساوس وربما سولت لك الرجوع عما أنت قاصده وترك الاعمال الصالحة وسبب هذه الاغيار غالبا ما يرد عليك من أكدار الدنيا وذلك أمر لا بد منه ولذا قال (لا تستغرب وقوع الاكدار) الموجبة للاغيار بل الاغيار فى ذاتها أكدار (ما دمت فى هذه الدار فانها ما أبرزت الا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها) أى وصفها المستحق ونعتها الواجب أى اللازم من ضرورياتها وجود المكاره والمشاق فيها وسيأتى التنبيه على حكمة ذلك بقوله وانما جعلها محلا للاغيار ومعدنا لوقوع الاكدار تزهيدا لك فيها ومن كلام جعفر الصادق رضى الله عنه من طلب ما لم

النفس وهي لهواها وتحبون الروح والروح لله وتحبون المال والمال للورثة وتطلبون اثنين ولا تجدونهما الراحة والفرح وهما في الجنة فالواجب على العبد أن لا يوطن على الراحة في الدنيا نفسا ولا يركن فيها الى ما يقتضي فرحا وأنسا وأن يعمل على قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه الدنيا سجن المؤمن فتوطين العبد على المحن في دنياه يهون عليه ما يلقاه ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه كما قيل في المعنى

يمثل ذو اللب في لبه * شدائده قبل أن تنزلا
فان نزلت بغتة لم ترعه * لما كان في نفسه مثلا
رأى الامر يفضي الى آخر * فصير آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه * وينسى مصارع من قد خلا
فان دهمته صروف الزمان * ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم في نفسه * لعلمه الصبر عند البلا

فليتلق المريد ما يرد عليه من ذلك بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضا فعن قريب ان شاء الله ينجلي الامر ويستوجب من الله تعالى جزيل الاجر والله تعالى ولي التوفيق قال أحمد بن أبي الحواري رضي الله تعالى عنه قال لي أبو سليمان الداراني جوع قليل وعري قليل وذل قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا واعلم أن ما ذكرناه من الصبر هو جماع كل فضيلة وملاك كل فائدة جزيلة ومكرمة نبيلة قال الله تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال الله تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وقال عز من قائل انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وفي وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما ان استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكرهه خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل ان صبرت مضى أمر الله وكنت مأجورا وان جزعت مضى أمر الله وكنت مأزورا وقال علي رضي الله عنه الصبر مطية لا تكبو وسيف لا ينبو وقال ابن عباس رضي الله عنهما أفضل العدة الصبر عند الشدة وفي بعض الاخبار انتظار الفرج بالصبر عبادة وقد قال الشاعر

ان الامور اذا انسدت مسالكها * فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبه * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب أن يلجا

فمن جعل الصبر معتمده في نوازله واعتده من أعظم عدده ووسائله فهو مصيب في رأيه منجح في سعيه ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب كان عاملا فيما يزيده ضرا ويكسبه وزرا ويفوته أجرا وناهيك به خسرا كما قيل

واذا تصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

وكما قيل أيضا

وعوضت أجرا من فقيد فلا تكن * فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

يخلق أتعب نفسه ولم يرزق قيل له وماذاك قال الراحة في الدنيا فينبغي للمريد الصادق أن لا يلتفت لذلك ويجد في السير حتى تطلع عليه شمس المعرفة فينمحي عنه وجود الاغيار وتزول عنه الاكدار بمشاهدة العزيز الغفار ثم قال

(ماتوقف

(الحق) تعالى (ليس بمحجوب) أي ليس الحجاب وصفا له سبحانه (وانما المحجوب) أي المتصف بالحجاب (أنت) بصفاتك النفسانية (عن النظر اليه) فان أردت الوصول اليه والدخول في حضرته فابحث عن عيوب نفسك وعالجها تصل اليه وتشاهده ببصيرتك ثم استدل على نفي الحجاب عن الرب بقوله (اذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه) ودفع بذلك ما يتوهم من عدم استحالة الحجاب في حقه تعالى لان الحجاب انما تتخذه العظماء والرؤساء فهو ينبئ عن الرفعة ويشعر بالعظمة فمن أين جاء النقص وحاصل الدفع أنه لو حجبه شيء كما هو شأن العظماء لستره (ولو كان له ساتر لكان لوجوده) أي ذاته (حاصر) لاستلزام الستر انحصار المستور فيه (وكل حاصر لشيء فهو له قاهر) لانه يمنعه مما وراءه ويقصره على محله ويجعله في أسر قبضته وتحت حكمه وذلك لا يصح في حقه تعالى لقوله في كتابه (وهو القاهر فوق عباده) فوقية مكانة وجلالة لا مكان ان قلت ٣١ كيف جعل الحجب ملزوما والستر لازما مع ان الحجب هو الستر قلت معنى الحجب انما يشعر في العرف بما تقدم من الرفعة والعظمة ولا يشعر بحصر المحجوب ومعنى الستر على العكس فهو الذي يلزمه مع انحصار المحجوب فجعل لازما في الشرطية الاولى ليجعل ملزوما في الثانية والمعنى انا لو نظرنا الى ما تقتضيه عظمته سبحانه من ثبوت الحجاب لكان له ساتر فتغاير المقدم والتالي بهذا التأويل (اخرج) بالرياضة والمجاهدة (من أوصاف بشريتك) المذمومة سواء كانت تلك الاوصاف ظاهرة وهي القائمة بالجوارح كغيبة ونميمة وقتل وسلب أو باطنة وهي القائمة بالقلب ككبر وعجب ورياء وسمعة وحقد وحسد وحب جاه ومال الى غير ذلك ولما كانت أوصاف البشرية شاملة للاوصاف المحمودة كالطاعة والايمان وهي غير مرادة

بيني وبين ربي لكان خيرا لي من هذا الامر الذي طلبته فارسل الله اليه ملكا فقال له ان الله تعالى أرسلني اليك وهو يقول لك ان كلامك هذا الذي تكلمت به أحب الي مما مضى من عبادتك وقد فتح الله بصرك فانظر فاذا جنود ابليس قد أحاطت بالارض واذا ليس أحد من الناس الا والشياطين حوله كالذباب فقال أي رب من ينجو من هذا قال الورع اللين وسيأتي بيان ان الكرامات غير مطلوبة التحصيل ولا مغتبط بوجودها لدى كل عالم نبيل عند قوله ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه * (الحق ليس بمحجوب وانما المحجوب أنت عن النظر اليه اذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر وكل حاصر لشيء فهو له قاهر وهو القاهر فوق عباده) الحجاب على الحق تعالى محال واستدل المؤلف على ذلك بما ذكره هنا وهو بين لا اشكال فيه والحجاب على العبد واجب من حيث ذاته اذ هو عدم كما تقدم ولا نسبة بين العدم والوجود فان أراد الله تعالى رفع هذا الحجاب عمن شاء كيف شاء متى شاء رأى من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وهذا مما يجب اعتقاده * (أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته قريبا) أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين نوعان أحدهما ما يتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهي الاعمال والثاني ما يتعلق بباطنه وقلبه وهي العقود فاما ما يتعلق بظاهره وجوارحه فينقسم قسمين أحدهما ما وافق الامر ويسمى طاعة والثاني ما خالفه ويسمى معصية وأما ما يتعلق بباطنه وقلبه فينقسم أيضا الى قسمين أحدهما ما وافق الحقيقة ويسمى ايمانا وعلما والثاني ما خالفها ويسمى نفاقا وجهلا والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد يسمى في الاصطلاح تفقها والنظر فيما يتعلق بباطنه يسمى في الاصطلاح تصوفا فهذان الامران هما كلية العبد وظاهره تبع لباطنه بالضرورة لان القلب هو الملك والجوارح جنوده ورعيته ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به وينهى عنه وقد نبه على هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ان في الجسد

أبدل منها قوله (عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا) لانك اذا خرجت عن تلك الاوصاف المذمومة اتصفت بمحاسن الصفات كالتواضع لله والخشوع بين يديه والتعظيم لامره والحفظ لحدوده والخوف منه والاخلاص في عبوديته فحينئذ يناديك نداء معنويا باسم العبد فيقول لك يا عبدي فتجيبه بقولك لبيك يارب وتكون صادقا في اجابتك لفقد الصفات منك التي تنافي العبودية وتقتضي الربوبية (و) تكون أيضا (من حضرته قريبا) فتحفظ من الاوزار وتتيسر لك الاعمال وتتلذذ بها والفرق بين المحفوظ والمعصوم ان المعصوم لا يلم بذنب ألبتة والمحفوظ قد تحصل له زلات ولكن لا يكون منه اصرار بل يتوب من قريب واعلم أن التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل هو حقيقة السلوك عندهم ولا يتم ذلك الا لمن وفقه الله لمعرفة نفسه وما ركبت عليه من مذام الصفات لان من عرف ذلك منها لا يزال متهما لها مستيقظا بها آخذا حذره منها والا وقع فيما يسخط مولاه من حيث لا يشعر ولذا قال

مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب وصلاح
القلب انما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها دقيقها وجليلها وهذه هى الصفات
المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية التى أشار اليها المؤلف رحمه الله تعالى وهى التى
تسم صاحبها بسمة النفاق والفسوق وهى كثيرة مثل الكبر والعجب والرياء والسمعة
والحقد والحسد وحب الجاه والمال ويتفرع عن هذه الاصول فروع خبيثة من العداوة
والبغضاء والتذلل للاغنياء واستحقار الفقراء وترك الثقة بمجىء الرزق وخوف سقوط
المنزلة من قلوب الخلق والشح والبخل وطول الامل والاشر والبطر والغل والغش والمباهاة
والتصنع والمداهنة والقسوة والفظاظة والغلظة والغفلة والجفاء والطيش والعجلة والحدة
والحمية وضيق الصدر وقلة الرحمة وقلة الحياء وترك القناعة وحب الرياسة وطلب العلو
والانتصار للنفس اذا نالها الذل وذهاب ملك النفس اذا رد عليه قوله الى غير ذلك من
النعوت الذميمة والاخلاق اللئيمة وأصل فروعها وعنصر منابعها انما هو رؤية النفس
والرضا عنها وتعظيم قدرها وترفيع أمرها فبهذه الامور كفر من كفر ونافق من نافق وعصى
من عصى وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه عز وجل من خلع حسبما يقوله المؤلف
رحمه الله تعالى بإثر هذا وشأن الصوفى انما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع
الرياضات والمجاهدات وقد بينوا طرق ذلك فى كتبهم قال الشيخ أبو طالب رضى الله تعالى
عنه فلا يكون المريد بدلا حتى يبدل بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية وأخلاق
الشياطين بأوصاف المؤمنين وطبائع البهائم بأوصاف الروحانيين من الاذكار والعلوم
فعندها يكون بدلا مقربا قال والطريق الى هذا بان يملك نفسه فيملكها تسخرله ويسلط
عليها فان أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيق عليها ولا توسع لها فان ملكتها ملكتك
وان لم تضيق عليها اتسعت عليك واذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحبسها عن
معتاد ملائمها فان لم تمسكها انطلقت بك وان أردت أن تقوى عليها فاضعفها بقطع أسبابها
وحبس موادها والاقويت عليك فصرعتك اه فاذا قام بذلك المريد على الوجه الذى
رسموه له والتزم الوظائف التى أمروه بها طهر قلبه وتزكت نفسه واتصفت بمحاسن الصفات
التى تزينه بين العباد وينال بها من قرب ربه غاية المراد فيظهر حينئذ عليه آثار جميدة من
التواضع لله والخشوع بين يديه والتعظيم لامره والحفظ لحدوده والهيبة له والخوف منه
والتذلل لربوبيته والاخلاص فى عبوديته والرضا بقضائه ورؤية المنة له عليه فى منعه
واعطائه ويتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر والحلم والاحتمال
والصيانة والنزاهة والامانة والثقة والعطف والتأنى والوقار والسخاء والجود والحياء
والبشاشة والنصيحة وسلامة الصدر الى غير ذلك من أخلاق الايمان التى بها ينال العبد
غاية السعادة والحسنى والزيادة قلت وهذان المعنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية
رضى الله تعالى عنهم بالتخلى والتحلى أى التخلى عن الصفات المذمومة والتحلى بالصفات
المحمودة ويعبرون عنهما أيضا بالتزكية والتحلية وهما حقيقة السلوك الذى يعبرون عنه
أيضا وسنأتى الاشارة الى كيفية ذلك عند قوله لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين
فاذا صح للمريد هذا السفر وانقلب منه الى أفضل مستقر تحققت عبوديته لربه عز وجل
فلم يملكه غيره ولم يسترقه سواه وارتقى فى القرب من ربه الى أشرف محل فيكون هنالك منزله

ومنواه

ومنواه فيكون حينئذ كما قال المؤلف رحمه الله تعالى لنداء الحق مجيبا لانه اذ ذاك مناديه
باسم العبد فيقول له يا عبدى فيجيب حينئذ مولاه باسم الرب فيقول له لبيك يارب فيكون
صادقا فى اجابته متحققا فى نسبته ويكون أيضا من حضرته قريبا بالوجود بعده عن نفسه التى
من شأنها النفور عنها والفرار منها فاذا أقامه الحق تعالى مقام العبودية وحاز رتبة القرب
من حضرة الربوبية كان محفوظا من اقتحام الاوزار ميسرا عليه أعمال الاخيار متحليا
فى الظاهر والباطن بأشرف الحلى محتظيا بفضيلة التشبه بالملا الاعلى قال الله عز وجل
ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون
وقد قال الله تعالى ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون
وقال عز من قائل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فرتبة العبودية أنالتهم هذه
الخصوصية وكذلك من تشبه بهم فى محاسن صفاتهم من الصفوة الصوفية الا أن هؤلاء
محفوظون لا معصومون على ما اصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة والفرق
بينهما هو ما قاله الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه ان المعصوم لا يلم بذنب ألبتة
والمحفوظ قد تحصل منه هنات وقد يكون له فى الندرة زلات ولكن لا يكون له اصرار أولئك
الذين يتوبون الى الله من قريب وقد وصف الله تعالى عباده ذوى التخصيص أولى التطهير
والتمحيص فى آيات كريمة بصفات جليلة عظيمة وأعد لهم على ذلك خيرات جسيمة فقال تعالى
وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما الى قوله
خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما وعليك النظر فيما قاله فيها أهل التفسير وما استنبطه منها
أرباب الاشارات والتذكير وأما من عدا هؤلاء فهم عبيد نفوسهم الشهوانية ومسترقو
حظوظهم الدنيوية قال الله تعالى أفرأيت من اتخذ الهه هواه وقال النبى صلى الله عليه
وسلم فيما روى عنه تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم الحديث وهؤلاء هم من عبيد
العدد المعنيين بقوله عز وجل ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد
أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا واعلم أنه لا يتهيأ هذا السلوك الى
حضرة ملك الملوك الا لمن وفقه الله تعالى لمعرفة نفسه وما ركبت عليه من مذام الصفات
ومن عرف ذلك من نفسه لا يزال منهما لها مسيئا ظنه بها آخذا حذره منها والا وقع فى
المعاصى والذنوب من حيث لا يشعر وقد نبه المؤلف رحمه الله تعالى على هذا بقوله • (أصل

كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك

عنها) الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة وعدم الرضا عنها أصل الصفات
المحمودة وقد اتفق على هذا جميع العارفين وأرباب القلوب وذلك لان الرضا عن النفس
يوجب تغطية عيوبها ومساويها ويصير قبيحها حسنا كما قيل • وعين الرضا عن كل عيب
كليلة • وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا لان العبد اذ ذاك يتهم نفسه ويتطلب
عيوبها ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد كما قيل فى الشطر الاخير • كما أن عين السخط
تبدى المساويا • فمن رضى عن نفسه استحسن حالها وسكن اليها ومن استحسن حال نفسه
وسكن اليها استولت عليه الغفلة وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره فتثور
حينئذ دواعى الشهوة على العبد وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها به ويقهرها

(أصل كل معصية) أى مخالفة لما أمر الله به ونهى عنه (وغفلة) للقلب عن حضرة الرب (وشهوة) نفسانية وهى التعلق بما يشغل عن الله تعالى (الرضا عن النفس) باجماع العارفين وأرباب القلوب لان الرضا عنها يوجب تغطية عيوبها ومساويها ويصير قبيحها حسنا فمن رضى عن نفسه استحسن حالها وسكن اليها ومن استحسن حال نفسه وسكن اليها استولت عليه الغفلة عن الله وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره فتثور عليه حينئذ دواعى الشهوات وتغلبه اذ ليس عنده من المراقبة ما يدفعها ومن غلبته شهوته وقع فى المعاصى لا محالة (وأصل كل طاعة) أى موافقة للامر والنهى (ويقظة) أى دخول فى حضرة الرب وتنبه لما يرضيه (وعفة) أى علو الهمة عن الشهوات (عدم الرضا منك عنها) فان من لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها ولم يسكن اليها ومن كان بهذا الوصف كان منتبها متيقظا للطوارق والعوارض وبالتيقظ يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها

فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك ومن غلبته شهوته وقع فى المعاصى لا محالة وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها ولم يسكن اليها ومن كان بهذا الوصف كان متيقظا متنبها للطوارق والعوارض وبالتيقظ والتنبه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها وعند ذلك تخمد نيران الشهوة فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة فيتصف العبد حينئذ بصفة العفة فاذا صار عفيفا كان مجتنبا لكل مانهاه الله عنه محافظا على جميع ما أمره به وهذا هو معنى الطاعة لله عز وجل وأصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه فاذا لاشئ أوجب على العبد من المعرفة بنفسه ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها وبقدر تحقق العبد فى معرفة نفسه يصلح له حاله ويعلو مقامه وقد ورد عن الكبار والائمة الاخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم لنفوسهم والتهمة منهم لها وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى ولذلك قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه من لم يتهم نفسه على دوام الاوقات ولم يخالفها فى جميع الاحوال ولم يجرها الى مكروهها فى سائر أيامه كان مغرورا ومن نظر اليها باستحسان شئ منها فقد أهلكها وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم ابن الكريم يقول وما أبرئ نفسى ان النفس لأمارة بالسوء وقال أيضا أبو حفص رضى الله تعالى عنه منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر الى نظر السخط وأعمالى تدل على ذلك وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه لا تسكن الى نفسك وان دامت طاعتها لك فى طاعة ربك وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه مارضيت عن نفسى طرفة عين ويحكى عن سرى السقطى رضى الله تعالى عنه أنه قال انى لأنظر الى وجهى فى اليوم كذا كذا مرة مخافة أن يكون قد اسود لما أخافه من العقوبة وقال أيضا رضى الله تعالى عنه من الناس ناس لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر ولا أحسبنى الا منهم الى غير هذا من العبارات الصادرة من المشايخ رضى الله تعالى عنهم فى هذا المعنى وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله تعالى عنه جزأ صغير الجرم عظيم الفوائد فى عيوب النفس وكيفية مداواتها فلينظر فيه المريد وكذلك ألف قبله الامام أبو عبد الله الحرث المحاسبى كتابا سماه النصائح جمع فيه من معايب النفس وخدعها وغرورها وشرورها جملة شافية ونبه فيه على سنن دارسة عافية مما كان عليه سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم من التفتيش والتفقد والنظر فيما تصلح به أعمالهم وأحوالهم وأنفسهم والمحافظة على تطهير الاسرار والقلوب والمبالغة فى الحذر من محقرات الذنوب وقد نقل الامام أبو حامد الغزالى قدس الله روحه منه فصلا فى كتابه واعتمد فيه ذكره بلفظه ونص خطابه بعد أن أثنى على مؤلفه بما هو أهله فبان للجاهل به علمه وفضله فقال فى حقه والمحاسبى رحمه الله تعالى حبر الامة فى علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الاعمال واغوار العبادات وكلامه جدير بان يحكى على وجهه ثم ذكره وقد كان أوحد زمانه علما وعبادة ونخبة أوانه ورعا وزهادة سيدى الحاج أبو العباس بن عاشر رحمة الله تعالى عليه ورضوانه يكثر من التحريض على مطالعة ذلك الكتاب والعمل بما تضمنه من حق وصواب وأظننى سمعته ذات يوم يقول لا يعمل بما فيه الا ولى أو كلاما هذا معناه فليتخذ المريد مطالعته وردا وليحرص على العمل بما تضمنه مستعينا بالله تعالى وسائلا منه توفيقا ورشدا النصح لمولاه فى مراعاة اصلاح باطنه والقيام على قدم الصدق فى مواطنه وليجعل هجيراه مطالعة كتب التصوف وموالاة أهله بالتألف

وعند ذلك تخمد نيران الشهوة فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوة فيتصف حينئذ بالعفة واذا اتصف بذلك كان متجنبا لكل مانهى الله عنه محافظا على جميع ما أمر الله به وذلك معنى طاعة الله سبحانه ولما كان الرضا عن النفس شأن من يتعاطى العلوم الظاهرية التى لاتدل على عيوب النفس نهى المصنف عن صحبتهم ومخالطتهم فقال

(ولأن) أى والله لان (تصحب) أيها المريد (جاهلا) بالعلوم الظاهرية (لايرضى عن نفسه) بان يسخط عليها ويعتقد نقصها (خير لك من أن تصحب عالما) بذلك (يرضى عن نفسه) لان صحبة من يرضى عن نفسه وان كان عالما شر محض لك لان الصحبة تؤثر فتكتسب منه هذا الوصف الخبيث فصار علمه غير نافع لك فى تهذيب نفسك وجهله الذى أوجب رضاه عن نفسه ضار لك غاية الاضرار وكأنه اذ فاته العلم بعيوب نفسه حتى لايرضى عنها لا علم عنده فلذا قال (فأى علم لعالم يرضى عن نفسه) وصحبة من لم يرض عن نفسه وان كان جاهلا خير محض وفيها كل الفائدة لان الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله فصار جهله غير ضار لك وعلمه الذى أوجب عدم رضاه عن نفسه نافعا لك غاية النفع وكأنه اذ علم بعيوب نفسه حتى لم يرض عنها لا جهل عنده ولذا قال (وأى جهل لجاهل لايرضى عن نفسه) لانه اذا حصل له هذا العلم صار لا جهل عنده حتى يتضرر به مخالطه فتكون صحبته خيرا محضا فالتنوين فى قوله علم وجهل للتنويع ٣٥ أى فأى علم نافع وأى جهل ضار

والتعرف فبذلك تتقوى أنوار ايمانه ويقينه وتنتفى عنه الغرة فى عمله بوظائف دينه ولا يقدم على ذلك الا فرض العين وما يستحم به نفسه من مكابدة التعب والاين ولا يشغل نفسه بعلم يغير على وجه مقصوده ويوجب له انتكاث مواثيقه وعهوده وهو ما أكب الناس عليه اليوم وحادوا به عن سنن القوم حتى أكبهم ذلك من رذائل الصفات وعظائم الآفات ما صار بهم الى الهلاك والشقاء وأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم اللقاء وسجل عليهم بالكذب فى دعواهم أنهم قاصدون بعلمهم رضا مولاهم فاياك واياهم وأنشد

لقد أسمعت لو ناديت حيا ٭ ولكن لاحياة لمن تنادى

ولذلك قال المؤلف ٭ (ولأن تصحب جاهلا لايرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأى علم لعالم يرضى عن نفسه وأى جهل لجاهل لايرضى عن نفسه) فائدة الصحبة انما هى الزيادة فى الحال وعدم النقصان فيها حسبما يأتى الكلام عليه عند قوله لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله فصحبة من يرضى عن نفسه وان كان عالما شر محض ولا فائدة فيها لان علمه غير نافع له وجهله الذى أوجب رضاه عن نفسه صار غاية الضرر وكأنه اذ فاته هذا العلم الذى يريه عيبه حتى لايرضى عن نفسه لا علم عنده وصحبة من لايرضى عن نفسه وان كان جاهلا خير محض وفيه كل الفائدة لان جهله غير ضار وعلمه الذى أوجب له عدم رضاه عن نفسه نافع غاية النفع وكأنه اذ حصل له هذا العلم لا جهل عنده (شعاع البصيرة يشهدك قربه منك وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك) شعاع البصيرة نور العقل وعين البصيرة نور العلم وحق البصيرة نور الحق فالعقلاء بنور عقولهم شهدوا أنفسهم وشاهدوا ربهم قريبا منهم أى بالعلم والاحاطة والعلماء بنور علمهم شهدوا أنفسهم عدما فى وجود ربهم والمحققون بنور الحق شاهدوا الحق ولم يشاهدوا معه سواه ٭ (كان الله ولا شئ معه وهو الآن على ما عليه كان) الازمنة

ثم قال (شعاع البصيرة) ويعبر عنه بنور العقل وبعلم اليقين (يشهدك قربه منك وعين البصيرة) ويعبر عنه بنور العلم وبعين اليقين (يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة) ويعبر عنه بنور الحق وبحق اليقين (يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك) والحاصل أن السالك يهتف على قلبه أنوار الهيبة يعبر عنها بهذه العبارات ويترتب على كل واحد ثمرات وفوائد قال بعضهم ولا يبلغ العبد حقيقة التواضع الا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه فعند ذلك تذوب النفس وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها وبين المصنف أن الذى ينكشف بالنور الاول قرب الله منك وثمرة ذلك وتيجته مراقبته تعالى والاستحياء منه حتى لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك والذى ينكشف بالثانى عدمية كل موجود فى وجود الحق تعالى فيشهد الاكوان عدما فلا يعبأ بها ولا يلتفت اليها اذ وجودها عارية والوجود الحقيقى له سبحانه وتعالى وثمرة ذلك أن لا يبقى فى نظرك ما تستند اليه ولا ما تستأنس به فيتم لك التوكل والتفويض والرضا والاستسلام والذى ينكشف بالثالث الذات المقدسة وثمرة ذلك الفناء الكامل الذى هو دهليز البقاء فيفنى عن فنائه وعدمه استهلاكا فى وجود سيده وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والاسرار الالهية فاذا رقى عن ذلك حل فى مقام البقاء قال صاحب العوارف والباقى فى مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق والفانى محجوب بالحق عن الخلق اه (كان الله ولا شئ معه) يعنى أن هذا حال من هو متحقق بمقام الفناء وهو عدم رؤيته غير مولاه (وهو الآن على ما عليه كان) أى ان الامر الذى حصل لذلك المشاهد وهو أن الوجود الحقيقى له سبحانه وتعالى وغيره لا وجود له هو الوصف المتحقق له سبحانه فى الواقع وعدم ادراك ذلك له قبل ذلك انما هو لوجود الحجاب فقوله وهو الآن أى عند مشاهدة هذا السالك له

على هذا الوصف على ما عليه كان أى هو متصف به فى الواقع وقبل ادراك هذا المشاهد له لكن عدم ادراكه ذلك انما هو للحجاب القائم به ثم قال (لا تتعد نية همتك) بها السالك (الى غيره) بان تتوجه الى غيره لتحصيل حاجتك بل اطلب حوائجك منه (فالكريم لا تتخطاه الآمال) فالهمة العلية تأنف من رفع حوائجها الى غير كريم ولا كريم على الحقيقة الا الله اذ الكريم هو الذى اذا قدر عفا واذا وعد وفى واذا أعطى زاد على منتهى الرجا ولا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى واذا جفا عاتب وما استقصى ولا يضيع من لاذ به والتجا ويغنيه عن الوسائل والشفعا وهذه الصفات لا يستحقها حقيقة الا الله سبحانه وتعالى فينبغى أن لا تتخطاه آمال المؤملين الى غيره واعلم أن الطلب من الخلق المنافى للعبودية هو الطلب منهم على وجه الاعتماد عليهم والاستناد اليهم والغفلة فى حال الطلب عن الله تعالى أما الطلب منهم من حيث كونهم أسبابا ووسائط مع الاعتماد فى نيل المطلوب على الله ورؤية أنه المعطى فليس منافيا للعبودية ثم قال (لا ترفعن) أيها المريد (الى غيره حاجة) أى فاقة أو نازلة نزلت بك أى لا تتوجه فى زوالها الى غيره وتطلب منه أن يرفعها عنك فان تلك الفاقة أو النازلة (هو موردها عليك) أى منزلها بك (فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا) اذ هو الغالب الذى لا يغلبه شئ وأيضا (من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه) اذا نزلت به (فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا) أى فيستحيل ذلك لثبوت عجزه وضعفه وحاصله أن المرفوع اليه حوائج لم يتوصل اليها ولو كان ملكا ولا شك أن نفسه أحب اليه من غيره فلو كان له قدرة على نفع غيره لنفع نفسه فلزم عجزه عن نفع غيره اذ ما بعد العجز عن نفع النفس عجز فيكون من ذلة العقل تعلقك فى حاجتك بمن هو

ههنا أمور وهمية لا وجود لها على التحقيق والمقصود أن الله تعالى لا شئ معه لثبوت أحديته

فلم يبق الا الحق لم يبق كائن * فثم موصول وما ثم بائن

بذا جاء برهان العيان فما أرى * بعينى الا عينه اذ أعاين

وسيأتى من كلام المؤلف رحمه الله تعالى الاكوان ثابتة باثباته ممحوة بأحدية ذاته وقال قدس الله سره * (لا تتعد نية همتك الى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال) الهمة العلية تأنف من رفع حوائجها الى غير كريم ولا كريم على الحقيقة سوى الله تعالى قال الجنيد رضى الله تعالى عنه الكريم الذى لا يحوجك الى مسئلة وقال الحرث المحاسبى رضى الله تعالى عنه الكريم الذى لا يبالى من أعطى وقيل الكريم الذى لا يخيب رجاء المؤملين وأجمع العبارات فى معنى وصف الكريم ما قيل الكريم الذى اذا قدر عفا واذا وعد وفى واذا أعطى زاد على منتهى الرجا ولا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى وان رفعت حاجة الى غيره لا يرضى واذا جفى عاتب وما استقصى ولا يضيع من لاذ به والتجا ويغنيه عن الوسائل والشفعا فاذا كانت هذه الصفات لا يستحقها أحد سوى الله تعالى فينبغى اذا أن لا تتخطاه آمال المؤملين الى غيره كما قال بعضهم

حرام على من وحد الله ربه * وأفرده أن يجتدى أحدا رفدا

ويا صاحبى قف بى مع الحق وقفة * أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الارض تجهد جهدها * فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

* (لا ترفعن الى غيره حاجة هو موردها عليك فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا) اذا أورد الله تعالى عليك حاجة أو أنزل بك نازلة فاعلم أنه لا رافع لها سواه اذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هو له واضعا لثبوت توحيده فى ان لا فاعل سواه واذ هو غالب على أمره لا يغالبه أحد ويستحيل أيضا أن يرفعها عنك من لا يستطيع أن يرفعها عن نفسه لو نزلت به لثبوت عجزه وضعفه ومن المحال تعلقك فى حاجتك بمن هو محتاج مثلك قال بعضهم من اعتمد على غير الله فهو فى غرور لان ما لا يدوم ولا يدوم شئ سواه وهو الدائم القديم الذى لم يزل ولا يزال وعطاؤه وفضله دائمان فلا تعتمد الا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء فى كل نفس وحين وأوان وزمان قال عطاء الخراسانى رضى الله تعالى عنه لقيت وهب بن منبه فى الطريق فقلت حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى وأوجز قال أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام يا داود أما وعزتى وجلالى لا يستنصر بى عبد من عبادى دون خلقى أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن والارضون السبع ومن فيهن الا جعلت له منهن فرجا ومخرجا أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا يستعصم عبد من عبادى بمخلوق دونى أعلم ذلك من نيته الا قطعت أسباب السموات السبع من دونه وأسخت الارض من تحته ولا أبالى فى أى واد هلك * قال محمد بن الحسين بن حمدان كنت فى مجلس يزيد بن هرون وكان الى جانبى

جانبى رجل فقلت له ما اسمك فقال سعيد فقلت ما كنيتك قال أبو عثمان فسألته عن قصته وخبره فقال نفدت نفقتى فقلت ومن تؤمل لما قد نزل بك فقال يزيد فقلت اذا لا يسعفك بحاجتك ولا ينجح طلبك ولا يبلغك أملك فقال وما علمك بهذا رحمك الله قلت انى قرأت فى بعض الكتب ان الله عز وجل يقول وعزتى وجلالى وجودى وكرمى وارتفاعى فوق عرشى فى علو مكانى لأقطعن أمل كل مؤمل لغيرى بالاياس ولاكسونه ثوب المذلة عند الناس ولاجنبنه من قربى ولأقطعنه من وصلى أيؤمل غيرى فى النوائب والشدائد بيدى وأنا الحى ويرجى غيرى ويطرق الفكر أبواب غيرى وبيدى مفاتيح الابواب وهى مغلقة وبابى مفتوح لمن دعانى من ذا الذى أملنى لنائبة فقطعت به دونها ومن ذا الذى رجانى لعظيم جرمه فقطعت رجاءه منى أم من ذا الذى قرع بابى فلم أفتحه له جعلت آمال خلقى بينى وبينهم متصلة فتعلقت بغيرى وجعلت رجاءهم مدخرا لهم عندى فلم يرضوا بحفظى وملأت سمواتى ممن لا يملون تسبيحى من ملائكتى وأمرتهم أن لا يغلقوا الابواب بينى وبين عبادى فلم يثقوا بقولى ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها أحد غيرى فمالى أراه بآماله معرضا عنى ومالى أراه لاهيا بسواى أعطيته بجودى ما لم يسألنى ثم انتزعته منه فلم يسألنى رده وسأله غيرى افترانى ابدأ بالعطية قبل المسئلة ثم أسئل فلا أجيب سائلى أبخيل أنا فيبخلنى عبدى أليس الدنيا والآخرة لى أوليس الرحمة والفضل بيدى أوليس الجود والكرم لى أوليس أنا محل الآمال فمن ذا الذى يقطعها دونى وما عسى أن يؤمل المؤملون لو قلت لاهل سمواتى وأهل أرضى أملونى ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع ما نقص ذلك من ملكى عضو ذرة كيف ينقص ملك كامل أنا قيمه فيا بؤس القانطين من رحمتى ويا بؤس من عصانى ولم يراقبنى ووثب على محارمى ولم يستحى منى قال رحمك الله أمل هذا الحديث على فكتبه ثم قال والله لا أكتب حديثا بعده قلت والاصل الذى ينبنى عليه هذا المعنى هو تحقق العبد فى مقام حسن الظن بالله تعالى ولذلك أخذ المؤلف رحمه الله تعالى فى ذكره بأثره فقال * (ان لم تحسن ظنك به لاجل حسن وصفه فحسن ظنك به لوجود معاملته معك فهل عودك الا حسنا وهل أسدى اليك الا مننا) حسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين والناس فيه على قسمين خاصة وعامة فالخاصة حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم والتفاوت بين المقامين ظاهر ولذلك لا يخاف من التغير والانقلاب فى أحدهما ما يخاف فى الآخر لان أرباب المقام الاول لما تحققوا فى المعرفة بالله تعالى واحتظوا بانوار اليقين به اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم فلم يبق فيهم متسع لوجود تهمة ولا مجال لسوء ظن وأرباب المقام الثانى لم يرتقوا عن نظرهم الى الافعال وهى متلونة عليهم فى كل حال وعند وقوع بعض ما لا يلائمهم منها بهم ربما تضعف عن تحمل مكارهها قوى قلوبهم فلا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن بالله وتحدث النفس بما يقتضى وجود هلع وجزع فليكن العبد عند ذلك مشاهدا معنى قوله عز وجل وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وما أشبهه وليقس النادر على الغالب * قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله تعالى عنه حسن الظن عبارة عن قطع الوهم أن يكون أو لا يكون لان الوهم قاتل وهو لوقت ثان

محتاج مثلك (ان لم تحسن ظنك به لاجل وصفه) أى لاجل ما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية فان من كان متصفا باسنى الصفات لا يصدر منه الا الجميل سيما لمن ظن به الجميل (فحسن ظنك به لاجل معاملته معك) من اسباغ النعم وشمول الفضل والكرم (فهل عودك الا حسنا وهل أسدى اليك الا مننا) أى نعما أشار بذلك الى أن الناس فى حسن الظن على قسمين خاصة وعامة فالخاصة حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم والتفاوت بين المقامين ظاهر فكأنه قال ينبغى لك أيها المريد أن تحسن ظنك به مطلقا فى ايصال المنافع ودفع المضار وعدم الالتفات لغيره فان لم تقدر على حسن الظن الذى هو مقام الخاصة فتلبس بمقام العامة وحسن الظن به لوصفه ينتج لك محبته وصحة الاعتماد والتوكل عليه وحسن الظن به لوجود معاملته معك ينتج لك شكر نعمته والتشوف لورود فضله ورحمته

فى أعطيت أذنك للوهم هلكت وحدك وكذلك الاصغاء بالاذن الى الشيطان والنفس جنس واحد اه قلت وحسن الظن يطلب من العبد فى أمر دنياه وفى أمر آخرته أما أمر دنياه فأن يكون واثقا بالله تعالى فى ايصال المنافع والمرافق اليه من غير كد ولا سعى فيها أو سعى خفيف مأذون فيه ومأجور عليه بحيث لا يفوته ذلك شيأ من نفل ولا فرض فيوجب له ذلك سكونا وراحة فى قلبه وبدنه فلا يستفزه طلب ولا يزعجه سبب وأما أمر آخرته فأن يكون قوى الرجاء فى قبول أعماله الصالحة وتوفية أجوره عليها فى دار الثواب والجزاء فيوجب له ذلك المبادرة لامتثال الامر والتكثير من أعمال البر بوجود حلاوة واغتباط ولذاذة ونشاط وقد قال يحيى بن معاذ أوثق الرجا رجاء العبد ربه وأصدق الظنون حسن الظن بالله تعالى ومن مواطن حسن الظن بالله تعالى التى لا ينبغى للعبد أن يفارقه فيها أوقات الشدائد والمحن وحلول المصائب فى الاهل والمال والبدن لئلا يقع بسبب عدم ذلك فى الجزع والسخط وسيأتى هذا المعنى فى كلام المؤلف رحمه الله وهو قوله من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالة الموت وقد جاء فى الخبر لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى وفى حديث جابر من استطاع منكم أن لا يموت الا وهو يحسن الظن بالله تعالى فليفعل ثم تلا هذه الآية وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ولانه تعالى قال فيما روى عنه أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء • قال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه وكان ابن مسعود يحلف بالله ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى الا أعطاه الله عز وجل ذلك لان الخير كله بيده فاذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه لان الذى حسن ظنه به هو الذى أراد أن يحققه له اه وقد روى عن أبى النصر بن حبان قال خرجت عائد اليزيد بن الاسود فلقيت واثلة بن الاسقع وهو يريد عيادته قال فدخلنا عليه وهو فى فراشه فلما رأى واثلة بسط يده وطفق يشير اليه فاقبل واثلة حتى جلس على الفراش وأخذ يزيد بن الاسود بكفى واثلة حتى جعلهما على وجهه فقال له واثلة أسألك عن شئ تخبرنيه قال لا تسألنى عن شئ أعلمه الا أخبرتك به قال له واثلة كيف ظنك بالله عز وجل قال ظنى والله بالله حسن قال فابشر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا عند ظن عبدى بى ان ظن خيرا وان ظن شرا وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مريضا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف ظنك بربك قال يا رسول الله حسن الظن قال فظن به ما شئت فان الله تبارك وتعالى عند ظن المؤمن به وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان حسن الظن بالله من حسن عبادة الله قلت والاخبار والآثار فى الرجاء وحسن الظن بالله وسعة رحمته أكثر من أن تحصى ومطالعتها مما يزيد المريد قوة فى هذا المقام فمن أراد الشفاء فى ذلك فعليه بمطالعة كتاب الرجاء من قوت القلوب وكتاب الاحياء قال بعضهم

ومازلت أرجو الله حتى كأننى • أرى بجميل الصنع ما هو صانع

ثم بين رحمه الله تعالى الحالة التى بمنازلتها يتحقق العبد فى مقام حسن الظن بالله تعالى وهو عكوف العبد بباب الله وتعلق قلبه بوحدانيته وأشار الى أن ذلك هو غاية النعيم ومنتهى الامانى لا ما تتوهمه النفس وتطلبه من النعيم المعقول والامنيات التى تفنى وتزول وحكم بان خلاف هذا من عمى القلب ومما يستحق أن يتعجب منه كل ذى لب فقال • (العجب كل

(العجب كل

العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه) وهو الله تعالى بان لا يفعل ما يقربه اليه (ويطلب ما لا بقاء له معه) وهو الدنيا وكل شئ سوى المولى بان يقبل على شهواته ويتبع هواه (فانها لا تعمى الابصار الآية) أى ان ذلك ناشئ من عمى قلبه ووجود جهله بربه لانه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير وآثر الفانى الذى لا بقاء له على الباقى الذى لا انفكاك له عنه ولو كانت له بصيرة لعكس الامر ثم قال (لا ترحل من كون الى كون) يعنى أن العمل المصاحب للرياء ونحوه مذموم غير معتد به شرعا فاذا جاهد المريد نفسه حتى خلص من ذلك ولكن قصد به الجزاء والدرجات أو نيل الرتب العلية والمقامات لم يزل مذموما أيضا عند العارفين والمحمود أن يقصد به وجه الله تعالى ثم شبه المصنف الرحيل من كون الى كون بقوله (فتكون كحمار الرحا) أى الطاحون (يسير والمكان الذى ارتحل اليه هو الذى ارتحل منه) وكذلك العمل لطلب الجزاء فيه رحيل من كون وهو الرياء ونحوه الى كون وهو ما ذكر من طلب الجزاء وسببه بقايا النفوس فتطلب بعملها رتبة عند الله وكل ذلك من الاكوان والاكوان كلها متساوية فى كونها أغيارا (ولكن ارحل من الاكوان الى المكون) بان تخلص عملك لمولاك وحده دون حظ عاجل أو آجل فمن عمل لاجل الدرجات أو المقامات فهو عبد لها ومن عمل لله فهو عبد لله وهو راحل من الاكوان الى المكون (وأن الى ربك المنتهى) أى فقد انتهى سيره الى الله وصار متحققا بمعنى هذه الآية بخلاف المرتحل من كون الى كون فانه غير منته له ولا واصل اليه (وانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم فمن كانت هجرته الى الله ورسوله) أى بالقصد والنية (فهجرته الى الله ورسوله) فى الواقع ونفس الامر فهى محمودة معتد بها (ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الامر ان كنت ذا فهم) يعنى أن فى هذا الحديث تنبيها على المعنى المذكور وموضع الاعتبار والتأمل هو الشق الثانى أعنى فهجرته الى ما هاجر اليه فان معناه أنه لا نصيب له من الوصول والقرب الذى حظى به من هاجر الى الله ورسوله وكأنه صلى الله عليه وسلم نبه بالدنيا والمرأة على حظوظ النفس بالوقوف معها كائنة ما كانت فقوله فهجرته الى الله ورسوله هو معنى الارتحال من الاكوان الى المكون الذى هو مطلوب من العبد وهو مصرح به وقوله فهجرته الى ما هاجر اليه هو البقاء مع الاكوان والتنقل فيها وهو مشار به غير مصرح ولما كان حاصل ما تقدم طلب رفع الهمة عن الخلق وتعلقها بالملك الحق وأبلغ ما يوصل الى هذه المرتبة صحبة العارفين بالله تعالى أمر بها فى ضمن قوله

العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه ويطلب ما لا بقاء له معه فانها لا تعمى الابصار الآية) هرب العبد من مولاه باقباله على شهواته ومتابعته هواه وذلك نتيجة عمى قلبه وجهله بربه لانه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير وآثر الفانى الذى لا بقاء له على الباقى الذى لا انفكاك له عنه ولو كانت له بصيرة لآثر الباقى على الفانى ولفعل ما فعله سحرة فرعون لما آمنوا بربهم اذلم يحفلوا بما وعدهم به فرعون من الاحسان والانعام والتقريب والاكرام ولم يكترثوا بما توعدهم به من العذاب والقتل والصلب على جذوع النخل بل قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا الآية ثم قالوا والله خير وأبقى فهؤلاء استنارت قلوبهم وشاهدوا محبوبهم فكان منهم ما كان • (لا ترحل من كون الى كون فتكون كحمار الرحا يسير والمكان الذى ارتحل اليه هو الذى ارتحل منه ولكن ارحل من الاكوان الى المكون وأن الى ربك المنتهى) العمل على طلب الجزاء والدرجات أو نيل الرتب العلية والمقامات نقصان فى الحال وشوب فى اخلاص الاعمال وهو معنى الرحيل من كون الى كون وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس فى أن تحصل لها رتبة أو تنال بسعيها موهبة وهذه كلها من الاكوان والاكوان كلها متساوية فى كونها أغيارا وان كان بعضها أنوارا وتمثيله بحمار الرحا مبالغة فى تقبيح حال العاملين على رؤية الاغيار وتلطف فى دعائهم الى حسن الادب بين يدى الواحد القهار حتى يتحققوا بمعنى قوله تعالى وأن الى ربك المنتهى فيكون انتهاء سيرهم اليه وعكوف قلوبهم عليه وتكون أعمالهم اذ ذاك وفاء بمقتضى العبودية وقياما بحقوق الربوبية فقط من غير التفات الى النفس على أى حالة تكون فهذا هو تحقيق الاخلاص الكائن عن مشاهدة التوحيد الخاص جعلنا الله من أهله بمنه وفضله انه على كل شئ قدير • (وانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الامر ان كنت ذا فهم) فى هذا الحديث النبوى تنبيه على المعنى الذى ذكره وموضع الاعتبار والتأمل هو والله أعلم قوله فى القسم الثانى فهجرته الى

ماهاجر اليه أى ولا نصيب له من الوصول والقرب الذى حظى به من هاجر الى الله ورسوله وهو قوله فهجرته الى الله ورسوله وهذا من باب حصر المبتدا فى الخبر كما تقول زيد صديق أى لا صديق له غيرى وكأنه صلى الله عليه وسلم نبه فى القسم الثانى بالدنيا التى يريد أن يصيبها والمرأة التى يريد أن يتزوجها على حظوظ النفس والوقوف معها والعمل عليها كائنة ما كانت وان كان ظاهرها طلب الحظ العاجل فقوله فهجرته الى الله ورسوله هو معنى الارتحال من الاكوان الى المكون وهو المطلوب من التعبد وهو مصرح به غاية التصريح وقوله فهجرته الى ماهاجر اليه هو البقاء مع الاكوان والتنقل فيها وهو الذى نهى عنه وهو مشار به غير مصرح فليكن المريد عالى الهمة والنية حتى لا يكون له التفات الى غير ولا كون ألبتة ولقد أحسن الشاعر فى قوله

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق * محتقر فى همتى * كشعرة فى مفرقى

قال رجل لابى يزيد رضى الله تعالى عنه أوصنى فقال له ان أعطاك من العرش الى الفرش فقل له لا أنت أريد وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه لو خيرت بين ركعتين ودخول الفردوس لاخترت ركعتين لانى فى الفردوس بحظى وفى الركعتين بربى وقال الشبلى رضى الله تعالى عنه احذر مكره ولو فى قوله كلوا واشربوا يريد لا تستغرق فى الحظ ولتكن فى كل شئ به لا بنفسك فقوله تعالى كلوا واشربوا وان كان ظاهره اكراما وانعاما فان فى باطنه ابتلاء واختبارا حتى ينظر من هو معه ومن هو مع الحظ قال رضى الله تعالى عنه * (لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله) تكلم ههنا فى الصحبة وهى أصل كبير من أصول القوم وفيها منافع وفوائد ولذلك استمر عليها أشياخنا قديما وحديثا وقد نبه المؤلف رحمه الله على فائدتها فى قوله لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله فانهاض الحال ودلالة المقال على الله تعالى هو فائدة الصحبة ومعنى الحال المنهضة ههنا هو أن تكون همته متعلقة بالله تعالى مرتفعة عن المخلوقين لا يلجأ فى حوائجه الا الى الله تعالى ولا يتوكل فى أموره الا على الله قد سقط اعتبار الناس من عينه فلا يرى منهم ضرا ولا نفعا وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا ولا يقضى لها حظا ويكون فى أعماله كلها جاريا على مقتضى الشرع من غير افراط ولا تفريط وهذه صفة العارفين الموحدين فصحبة من هذه حاله وان قلت عباداته ونوافله مأمونة الغائلة محمودة العاقبة جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية لان الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله ولا يشترط فى المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام فان ذلك متعذر وانما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه به فقط بحيث يكون أعلى منه حالا وأصوب منه مقالا ومن لم يكن على هذا الوصف وكان شأنه المعاملة بالظاهر لا غير فليس له فائدة فى صحبته بل ربما زادته شرا لان خلطته تدعوه الى التصنع له والتزين ويؤديه ذلك الى كبائر معاصى القلوب وهى أشد عليه من معاصى الجوارح بكثير * قال يوسف بن الحسين الرازى رضى الله تعالى عنه لأن ألقى الله بجميع المعاصى أحب الى من أن ألقاه بذرة من التصنع فيدخل بذلك عليه النقص فى حالة من حيث رجاء الزيادة فيها قال بعض الصوفية لا تعاشر من الناس الا من لا تزيد عنده ببر ولا تنقص عنده باثم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء وقال بعضهم كن مع أبناء الدنيا

(لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله) بان لا يكون حاله وهمته متعلقة بالله ومقاله لا يدل عليه وان كان من العباد والزهاد فصحبته للمريد منهى عنها بخلاف صحبة من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله بان تكون همته متعلقة بالله مرتفعة عن المخلوقين لا يلجأ فى حوائجه الا الى الله تعالى ولا يتوكل فى أموره الا عليه سبحانه وتعالى قد سقط الناس من عينه فلا يرى منهم ضرا ولا نفعا وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا ولا يقضى لها حظا ويكون فى جميع أعماله جاريا على مقتضى الشرع من غير افراط ولا تفريط وهذه صفات العارفين بالله تعالى فصحبة من هذه حاله وان قلت عبادته ونوافله مأمور بها للمريد لانها جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية اذ الطبع يسرق من الطبع بخلاف من لم يكن على هذا الوصف وكان شأنه المعاملة الظاهرة لا غير فلا فائدة فى صحبته ثم لا يخلو اما أن يكون مثلك فلا يحصل لك من صحبته ضرر واما أن يكون دونك وهو ما أشار اليه بقوله

بالادب ومع أبناء الآخرة بالعلم ومع العارفين كيف شئت وقيل لبعض الصالحين ان فلانا يحبك ويكثر ذكرك فقال انه لحبيب الى وأجله وأعرف قدره ولكن يهون على أن ألقى الشيطان ألف مرة ولا ألقاه مرة واحدة قيل له وكيف ذلك قال أخشى أن أتزين له ويتزين لى قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه وكانت هذه الطائفة من الصوفية لا يصطحبون الا على استواء أو بعية معان لا يترجح بعضها على بعض ولا يكون فيها اعتراض من بعض على بعض ان أكل صاحبه الدهر كله لم يقل له صاحبه صم وان صام الدهر كله لم يقل له صاحبه أفطر وان نام الليل كله لم يقل له صاحبه قم فصل وان صلى الليل كله لم يقل له صاحبه نم بعضه وتستوى أحواله عنده فلا مزيد لاجل صيامه وقيامه ولا نقصان لاجل افطاره ونومه قالوا واذا كان يزيد عنده بالعمل وينقص بترك العمل فالفرقة أسلم للدين وأبعد من المرآة من قبل أن النفس مجبولة على حب المدح وكراهة الذم ومبتلاة بان يرى حالها التى عرفت به وأن تظهر أحسن ما يحسن عند الناس منها وأن تجتلب ما يوجب المدح منهم وتجتنب ما يوقع الذم عندهم فاذا صحب من يعمل معه هذا فليس ذلك طريق الصادقين ولا بغية المخلصين فمجانبة هؤلاء الناس أصلح للقلوب وأسلم للدين وفى معاشرة أمثالهم فساد القلب ونقصان الايمان وضعف اليقين لان هذه أسباب الرياء وفى الرياء حبط الاعمال وخسران رأس المال والسقوط من عين ذى الجلال وكان الثورى رضى الله تعالى عنه يقول من عاشر الناس داراهم ومن داراهم راآهم ومن راآهم وقع فيما وقعوا فيه فهلك كما هلكوا وكان بعض الحكماء يقول لا تؤاخ من الناس من يتغير عليك فى أربع عند غضبه ورضاه وعند طمعه وهواه لان هذه المعانى تتغير لها الطباع لدخول الضرر منها على النفس وفقد الانتفاع وقال فى موضع آخر من كان ناظرا فى أخوة أخيه أو فى صحبته لكثرة أعماله أو وافقنا مع أكمل أحواله دل على جهله بهذه الطريق التى تنفذ الى التحقيق لانها تحول وانما العمل على حقائق القلوب لانها ثابتة فى الاصول فان اقترن الى جهله نقص معرفة الاخوة دخل عليه التزين له والتصنع عنده لتعلو منزلته ويحسن عنده أثره فيدخله ذلك فى الشرك ويخرجه الشرك عن حقيقة التوحيد فتزل قدم بعد ثبوتها ويسقط من عين مولاه فلا يتولاه لان النفس مبتلاة بحب الثناء والمدح واثبات المنزلة باظهار الوصف فيكون هذا الصاحب حينئذ من أشأم الناس عليه وأضرهم له ويصير أحدهما بلاء على صاحبه فليفارقه حينئذ لانه جاهل فلا يصحبه لانه يجد النقصان بصحبته وتدخل عليه الآفات بمقارنته ولينفرد بنفسه ويصدق فى حالة عالية كانت أو دنيئة وضيعة كانت أو رفيعة من غير مقارنة أحد ولا مباينته فهو خير له وأحمد عاقبة اه ويدل على ارادة صاحب الكتاب لهذا المعنى الذى ذكرناه فى التنبيه على قوله لا تصحب من لا ينهضك حاله ما أعقبه به من قوله ولا يدلك على الله مقاله فيكون الحال والمقال متناسبين فى كون كل واحد منهما متعلقا بالله تعالى عبودية ودلالة * قال سهل بن عبد الله رضى الله تعالى عنه احذر صحبة ثلاثة أصناف من الناس الجبابرة الغافلين والقراء المداهنين والمتصوفة الجاهلين وقال يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله تعالى قلت لذى النون المصرى رضى الله تعالى عنه من أصحب فقال من لا تكتمه شيئا مما يعلمه الله منك وقال حمدون القصار رضى الله تعالى عنه اصحب الصوفية فان للقبيح عندهم وجوها من المعاذير وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به اشارة الى أن العجب بالعمل منفى

(ربما كنت مسيئا فأراك الاحسان ٤٢ منك صحبتك الى من هو أسوأ حالا منك) يعنى ان صحبة من هودونك ضرر محض لانها تغطى عنك عيوبك وتبين لك كمالك فتوجب لك حسن الظن بنفسك فتعجب باعمالك وتقنع باحوالك والرضا عن النفس ورؤية احسانها أصل كل شرفان أردت ولابد أن تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله فاصحب مثلك حتى تكون فى صحبته لالك ولا عليك ثم اعلم أن صحبة العارفين على قسمين صحبة ارادة وصحبة تبرك فصحبة الارادة هى التى يشترط لها الشروط المعروفة التى حاصلها أن يكون المريد مع الشيخ كالميت بين يدى الغاسل وصحبة التبرك هى التى يكون القصد بها الدخول مع القوم والتزى بزيهم والانتظام فى سلك عقدهم وهذا لا يلزم بشروط الصحبة وانما يؤمر بلزوم حدود الشرع ولعله بمخالطة الطائفة تعود عليه بركتهم ويصل الى ماوصلوا اليه (ماقل عمل برزمن قلب زاهد) أى غير متعلق بالدنيا بل هووان كان قليلا فى الحس كثير فى المعنى لسلامته من الآفات القادحة فى قبول الاعمال من الرياء والتصنع للناس وطلب الاعراض الدنيوية وعدم حضور القلب مع المولى فى حال فعله لقلة الوساوس الشيطانية الناشئة من حب الدنيا (ولا كثر عمل برزمن قلب راغب) فى الدنيا بل هووان كان كثيرا فى الحس قليل فى المعنى لعدم سلامته مما ذكر وقدروى عن ابن مسعود أنه قال ركعتان من زاهد عالم خيرمن عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخرالدهر أبدا سرمدا

عندهم فى صحبتهم وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه اذا أراد الله بالمريد خيرا أرفقه الى الصوفية ومنعه صحبة القراء وقال على رضى الله تعالى عنه شر الاصدقاء من أحوجك الى المداراة وألجأك الى الاعتذار وقال مرة شر الاصدقاء من يتكلف له وأنشدوا ليوسف بن الحسين الرازى رضى الله تعالى عنه

أحب من الاخوان كل موانى * وكل غضيض الطرف عن عثرانى
يوافقنى فى كل أمر أحبه * ويحفظنى حيا وبعد مماتى
فمن لى بهذا ليتنى قد وجدته * فقاسمته مالى من الحسنات

والحاصل من هذا ان صحبة الصوفية هى التى يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنتسبين الى الدين والعلم لانهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها غيرهم وسريان ذلك من الصاحب الى المصحوب هو غاية الامل والمطلوب فقد قيل من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة هذا فى الحضور والمجالسة فما ظنك فى الصحبة والمؤانسة وقد وصفهم بعض العلماء فقال الصوفى من لا يعرف فى الدارين أحدا غير الله ولا يشهد مع الله سوى الله قد سخرله كل شئ ولم يسخر هو لشئ وسلط على كل شئ ولم يسلط عليه شئ يأخذ النصيب من كل شئ ولا يأخذ النصيب منه شئ يصفو به كدركل شئ ولا يكدره شئ قد شغله واحد عن كل شئ وكفاه واحد من كل شئ فانظر رحمك الله هذه الصفات ما أعظمها وأجلها وما أشرف حال من اتصف بها وما أعزه فى هذا الوجود نفعنا الله بهم ورزقنا من بركاتهم وفى صحبة أمثال هؤلاء يحصل للمريد من المزيد مالا يحصل له بغيرها من فنون المجاهدات وأنواع المكابدات حتى يبلغوا من ذلك الى أمر لا يسعه عقل عاقل ولا يحيط به علم عالم ناقل * قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه ماذا أصنع بالكيمياء والله لقد صحبت أقواما يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير اليها فتثمر رمانا للوقت فمن صحب مثل هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء وقال أيضا رضى الله تعالى عنه والله ماسار الاولياء والابدال من قاف الى قاف الاحتى يلقوا واحدا مثلنا فاذا لقوه كان بغيتهم وقال أيضا رضى الله تعالى عنه الولى اذا أراد أغنى وقال أيضا رضى الله تعالى عنه والله مابينى وبين الرجل الا أن أنظر اليه نظرة وقد أغنيته وقال فيه شيخه أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه أبو العباس هو الرجل الكامل والله انه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه فلا يمسى عليه المساء الا وقد وصله الى الله وسيأتى طرف من ذكر حال المؤلف رحمه الله تعالى فى صحبته وما أوصله اليه ببركة رؤيته عند قوله كل كلام يبرز عليه كسوة القلب الذى منه برز * (ربما كنت مسيئا فأراك الاحسان منك صحبتك الى من هو أسوأ حالا منك) هذه أعظم آفة تدخل على من خالف ماذكره وصحب من هو دونه فى الحال وهى استحسانه لما هو عليه فيؤديه ذلك الى رضاه عن نفسه ورؤيته لاحسانها وهو أصل كل شر كما تقدم * (ماقل عمل برزمن قلب زاهد ولا كثر عمل برزمن قلب راغب) مقادير الاعمال على حسب قلوب العمال فما صدر عن الزاهدين فى الدنيا من عمل طاعة وان كان قليلا فى الحس فهو كثير على التحقيق وماصدر عن الراغبين فيها من عمل

بر

(حسن الاعمال) بخلوها عما يعوقها عن القبول من الرياء وغيره وحضور القلب مع الله فى حال فعلها وعدم اشتغاله بغيره من الوساوس الشيطانية (نتائج حسن الاحوال) القائمة بالقلوب من الزهد فى الدنيا ٤٣ والاخلاص لله بان يقصد بعمله عبودية الله تعالى لا لطلب حظ عاجل ولا ثواب آجل (وحسن الاحوال) ناشئ (من التحقق) أى التمكن (فى مقامات الانزال) أى فى المقامات التى تنزل فى قلوب العارفين وهى معارف الهية يوردها الله تعالى على القلوب تكون سببا فى ترك الدعوى وعدم الالتفات الى جنة أوهرب من نارفان المريد اذا حصل له ذلك راقب مولاه بقلبه فلا يقصد بعمله غيره واذا حصل ذلك تخلص العمل مما يعوقه عن القبول وهذه الحكمة كالدليل لما قبلها ولما كانت الخصال المحمودة لا تنشأ غالبا الا من كثرة الذكر والمداومة عليه ذكره بقوله (لا تترك) أيها المريد (الذكر) بل لازمه وداوم عليه فانه أقرب الطرق الى الله تعالى وعلامة على وجود الولاية فمن وفق للذكر فقد أعطى منشور الولاية فلا تتركه (لعدم حضورك) أى حضور قلبك (مع الله فيه) بان كان مشتغلا بالوساوس الشيطانية والاغراض الدنيوية (لان غفلتك عن وجود ذكره) بان تتركه (أشد من غفلتك) الحاصلة (فى وجود ذكره) لان ترك الذكر فيه بعد عن الله تعالى بالقلب واللسان بخلاف الذكر فانك ان بعدت عنه بقلبك فأنت قريب بلسانك فعليك أن تذكر الله به وان كان قلبك غافلا حال الذكر (فعسى أن يرفعك) أى يرقيك (من ذكر مع وجود غفلة) عن المولى (الى ذكر مع وجود يقظة) أى تيقظ لما يناسب حضرته سبحانه من الادب وعدم الاشتغال عنه بغيره (ومن ذكر مع وجود

بر وان كان كثيرا فى الحس فهو قليل على التحقيق وذلك لان الزاهدين سلموا من الآفات التى تقدح فى اخلاص أعمالهم من مرا آت الناس والتصنع لهم وطلب الاعواض الدنيوية عليها منهم لانهم زهدوا فيها فيتحصل لهم قبول أعمالهم فيتوفر اهم قليلها بحسب ذلك ويكثر الراغبون تعتريهم الآفات المبطلة لاعمالهم القادحة فى اخلاصهم بسبب رغبتهم فى الدنيا فلا تقبل منهم فيقل الكثير من أعمالهم لوجود النقصان فيها وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل فانه لا يقل عمل مع التقوى وكيف يقل عمل يتقبل وقد وصف الله تعالى ذكر المؤمنين بالكثرة لما تضمنه من وجود الاخلاص وعدم رياء الناس فقيل فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا قيل يعنى خالصا فسمى الخالص كثيرا وهو ما أخلصت فيه النية لوجه الله العظيم ووصف ذكر المنافقين بالقلة لما اشتمل عليه من عدم الاخلاص ووجود رياء الناس فقال تعالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا يعنى غير خالص وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخر الدهر أبدا سرمدا وقال بعض الصحابة لصدر التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال كانوا أزهد منكم فى الدنيا وعن بعض الصحابة أيضا قال تابعنا الاعمال كلها فلم نرفى أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد فى الدنيا وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه سألت معروفا الكرخى رضى الله تعالى عنه عن الطائعين لله بأى شئ قدروا على الطاعة فقال باخراج الدنيا من قلوبهم ولو كان شئ منها فى قلوبهم ماصحت لهم سجدة وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله تعالى عنه شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البر ولا يجد حلاوة فى قلبه فقال لان عندك بنت ابليس وهى الدنيا ولا بد للاب أن يزور ابنته فى بيتها وهو قلبك ولا يؤثر دخوله الا فسادا وكان أبو محمد بن سهل رضى الله تعالى عنه يقول يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله قال ولا يرى فى القيامة أحد أفضل من ذى زهد عالم ورع * (حسن الاعمال نتائج حسن الاحوال وحسن الاحوال من التحقق فى مقامات الانزال) حسن الاعمال توفيتها بما يجب لها من شروط وآداب عبودية لله تعالى لا لطلب حظ عاجل ولا ثواب آجل وحسن الاحوال أن تكون سالمة من العلل والدعاوى موسومة بسمة الصدق والتحقق فى مقامات الانزال هو ارتواء القلب بما ينزله الحق تعالى فيه من مقامات العلوم والمعارف بحيث ينتفى عنه كل شك وريب وهذه الثلاثة المذكورة مرتب بعضها على بعض وهو معنى مايقوله الامام أبو حامد رضى الله تعالى عنه لا بد فى كل مقام من مقامات اليقين من علم وحال وعمل فالعلم ينتج الحال والحال ينتج العمل وهذا الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله تعالى نوع استدلال على ماقاله فى الزاهد والراغب * (لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لان غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة الى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود

يقظة الى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حضور الى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وماذلك على الله بعزيز) الذكر أقرب الطرق الى الله تعالى وهو علم على وجود ولاية كما قيل الذكر منشور الولاية فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشور ومن سلب الذكر فقد عزل قال الشاعر

والذكر أعظم باب أنت داخله * لله فاجعل له الانفاس حراسا

قال الامام أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه الذكر عنوان الولاية ومنار الوصلة وتحقيق الارادة وعلامة صحة البداية ودلالة صفاء النهاية فليس وراء الذكر شيء وجميع الخصال المحمودة راجعة الى الذكر ومنشؤها عن الذكر وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى ولو لم يرد فيه الا قوله تعالى في كتابه العزيز فاذكروني أذكركم وقوله عز وجل فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وان تقرب الي شبرا تقربت منه ذراعا وان تقرب الي ذراعا تقربت منه باعا وان أتاني يمشي أتيته هرولة لكان في ذلك اكتفاء وغنية وهذا الحديث متفق على صحته قالوا ومن خصائصه أنه غير مؤقت بوقت فما من وقت الا والعبد مطلوب به اما وجوبا واما ندبا بخلاف غيره من الطاعات قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فانه لم يجعل له حدا ينتهي اليه ولم يعذر أحدا في تركه الا مغلوبا على عقله وأمرهم بذكره في الاحوال كلها فقال عز من قائل فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا أي بالليل والنهار وفي البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر وفي الصحة والسقم والسر والعلانية وعلى كل حال وقال مجاهد رضي الله تعالى عنه الذكر الكثير أن لا ينساه أبدا وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون فينبغي للعبد أن يستكثر منه في كل حالاته ويستغرق فيه جميع أوقاته ولا يغفل عنه وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه فان تركه له وغفلته عنه أشد من غفلته فيه فعليه أن يذكر الله تعالى بلسانه وان كان غافلا فيه فلعل ذكره مع وجود الغفلة يرفعه الى الذكر مع وجود اليقظة وهذا نعت العقلاء ولعل ذكره مع وجود اليقظة يرفعه الى الذكر مع وجود الحضور وهذه صفة العلماء ولعل ذكره مع وجود الحضور يرفعه الى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور وهي مرتبة العارفين المحققين من الاولياء قال الله تعالى واذكر ربك اذا نسيت أي اذا نسيت ما دون الله عند ذلك تكون ذاكرا لله وفي هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ويكون العبد محوا في وجود العيان وفي هذا المعنى أنشدوا

ما ان ذكرتك الا هم يقلقني * سري وقلبي وروحي عند ذكراك
حتى كان رقيبا منك يهتف بي * اياك ويحك والتذكار اياك
أما ترى الحق قد لاحت شواهده * وواصل الكل من معناه معناك

وقال الواسطي مشيرا الى هذا المقام الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لان ذكره سواه وقال أبو العباس بن البناء في كلام ذكره على مقدمة كتاب أبي العز تقي الدين

يقظة الى ذكر مع وجود حضور) بان يدخل القلب حضرة الرب فيراقبه حال ذكره ولا يغفل عنه (ومن ذكر مع وجود حضور الى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور) وهو الله بان يفنى حتى عن الذكر فيصير يخرج منه الذكر من غير قصد وحينئذ يكون الحق لسانه الذي ينطق به فان بطش هذا الذاكر كان يده التي يبطش بها وان سمع كان سمعه الذي يسمع به وهذه المعالم والمراقي لا يعرف حقيقتها الا السالكون وجدانا والعلماء ايمانا ونصديقا فاياك والتكذيب بشيء من ذلك فتهلك مع الهالكين * ولما كان المريد ربما يستبعد الوصول الى ذلك نهاه بقوله (وماذلك على الله بعزيز) لانه قادر على كل شيء فعلى المريد القيام بالاسباب ومن الله الوصول ورفع الحجاب

ابن

ابن المظفر الشافعي وهو كتاب الاسرار العقلية في الكلمات النبوية ورأيت هذا الكلام بخطه رحمه الله ومن أحسن الذكر ما هاج عن خاطر وارد من المذكور جل ذكره وهذا هو الذكر الخفي عند المتصوفة على الاستمرار والتمكن في الاسرار وأما قولهم حتى يتمكن الذاكر الى حالة يستغرق بها عن الذكر فليس ذلك تمكن حلول ولا اتحاد بل حكمة وقدرة من عزيز حكيم وبيان ذلك أن يكون القلب عند الذكر في الذكر فارغا من الكل فلا يبقى فيه غير الله جل ذكره فيصير القلب بيت الحق ويمتلئ منه فيخرج الذكر من غير قصد ولا تدبير وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذي ينطق به فان بطش هذا الذاكر كان يده التي يبطش بها وان سمع كان سمعه الذي يسمع به قد استولى المذكور العلي على الفؤاد فامتلكه وعلى الجوارح فصرفها فيما يرضيه وعلى الصفات من هذا العبد فقلبها كيف شاء في مرضاته فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف وتنبعث الاعمال بالطاعات نشاطا ولذة من غير كلال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقد وصف الله قلب أم موسى عليه السلام بمعنى ذلك في قوله الحق وأصبح فؤاد أم موسى فارغا أي فارغا من كل شيء الا من ذكر موسى فكادت أن تبدي به من غير قصد منها لذكره ولا تدبير بل كان تركها للتصريح بذكره صبرا بما ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين بما أوحى اليها من قبل في شأن موسى وبأنه من المرسلين وبذلك يندفع الاشكال الذي ذكره أبو العز ووصفه بالعظم وهو اجتماع الضدين في بادي الرأي وهما الذكر والغفلة عن الذكر وهذه المعالم والمراقي لا يعرف حقائقها الا السالكون وجدانا والعلماء ايمانا وتصديقا فاياك والتكذيب بآيات الله فتكون من الصم البكم في الظلمات ولما كان المذكور لا يجوز عليه وصف الفقد والعدم ولا يمنعه حجاب ولا يحويه مكان ولا يشتمل عليه زمان ولا يجوز عليه الغيبة بوجه ولا يتصف بحوادث المحدثين ولا يجري عليه صفات المخلوقين فهو حاضر عينا ومعنى وشاهد سرا ونجوى اذ هو القريب من كل شيء وأقرب الى الذاكر له من نفسه من حيث الايجاد له والعلم به والمشيئة فيه والقدرة والتدبير له والقيام عليه خلق الخليقة فلا تلحقه أوصافها وأوجد الاعداد فلا تحصره معانيها سبحانه هو العلي الكبير انتهى كلام الشيخ أبي العباس رحمه الله في معنى المقام الثالث من مقامات الذكر وهو في غاية الحسن والتحقيق مشيرا الى توحيد الخواص من أهل هذا الطريق فلا ينبغي أن يستبعد العبد الوصول الى هذا المقام الكريم فليس ذلك بعزيز على الفتاح العليم فعلى العبد القيام بحق الاسباب ومن الله تعالى رفع الحجاب * وقال رضي الله عنه (من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات) القلب اذا كان حيا بالايمان حزن على ما فاته من الطاعات وندم على ما فعله من الزلات ومقتضى هذا وجود الفرح بما يستعمل فيه من الطاعات ويوفق له من اجتناب المعاصي والسيئات وقد جاء في الخبر من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن فان لم يكن العبد بهذا الوصف وعدم الحزن على ما فاته والندم على ما أتاه فهو ميت القلب وانما كان ذلك من قبل أن أعمال العبد الحسنة والسيئة علامتان على وجود رضا الله تعالى عن العبد وسخطه عليه فاذا وفق الله تعالى عبده للصالحات سره ذلك لانه علامة على رضاه عنه وغلب حينئذ رجاؤه واذا

(من علامات موت القلب) أي قلب المريد (عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات) أي الطاعات (وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات) أي من الزلات التي توجد منك وعلامة حياته بالانوار الالهية وان لم تدركها لغلظ حجابك وحزنك على ما فاتك من الطاعات وندمك على ما فعلت من الزلات فتفرح بصدور الاعمال منك فرحا شديدا وتغتم على صدور المخالفات وذلك دليل على أنك من أهل الارادة المحبوبين لله فجد في السير ولا تتكسل

خذله ولم يعصمه فعمل بالمعاصي ساءه ذلك وأحزنه لأنه علامة على سخطه عليه وغلب حينئذ خوفه والرجاء يبعث على الاجتهاد في الطاعات وليس من مقتضاه تركها وعدم الحزن على ما فاته منها أمنا واغترارا والخوف يبعث على المبالغة في اجتناب المعاصي والسيآت وليس من مقتضاه فعلها وترك الندم عليها يأسا وقنوطا وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه آت فلما حاذانا ورأى جماعتنا أناخ راحلته ثم مشى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أوضعت راحلتي من مسيرة تسع فسيرتها الليل ستا وأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وأنصبت راحلتي لأسألك عن اثنتين أسهرتاني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من أنت قال زيد الخيل قال بل أنت زيد الخير سل فرب معضلة قد سئلت عنها قال جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال له النبي صلى الله عليه وسلم بخ بخ كيف أصبحت يا زيد قال أصبحت أحب الخير وأهله وأحب أن يعمل به وإذا فاتني حننت إليه وإذا عملت عملا قل أو كثر أيقنت بثوابه قال هي هي بعينها يا زيد ولو أرادك الله للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي واد هلكت فقال زيد حسبي حسبي ثم ارتحل ولم يلبث • (لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه) عظمة الذنب عند مرتكبه على وجهين أحدهما أن يعظم عنده عظمة تحمله على التوبة منه والإقلاع عنه وصدق العزم على أن لا يعود إلى مثله فهذه عظمة محمودة وهي من علامات إيمان العبد كما قلنا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فأطاره ويقال إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله وإن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله تعالى والثاني أن يعظم عنده عظمة توقعه في اليأس والقنوط وتؤديه إلى سوء الظن بالله تعالى فهذه عظمة مذمومة قادحة في الإيمان وهي شر عليه من ذنوبه وسبب ذلك جهله بصفات مولاه المحسن الجواد الكريم ووقوفه مع نفسه وقياسه بعقله وحدسه ولو كان عارفا بالله حق المعرفة لاستحقر ذنوبه في جنب كرمه وفضله فأي قدر للعبد أو قيمة حتى يقع في ذنب لا يسعه عفو ربه ويكبر عليه أن يغفره قال في التنوير واعلم أنه لا بد في مملكته من عباد هم نصب الحلم ومحل ظهور الرحمة والمغفرة ووقوع الشفاعة وأفهم قوله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم وقوله صلى الله عليه وسلم شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي وجاء رجل إلى الأستاذ أبي الحسن قدس الله سره العزيز فقال يا سيدي كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت وكيت وظهر من ذلك الرجل استغراب أن يكون هذا فقال يا هذا كأنك تريد أن لا يعصى الله تعالى في مملكته من أحب أن لا يعصى الله تعالى في مملكته فقد أحب أن لا تظهر مغفرته وأن لا تكون شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم له وكم من مذنب كثرت إساءته ومخالفته وجبت له الرحمة من ربه فكان له راجيا وبقدر إيمانه وإن عصى عالما اهـ فلا ينبغي للعبد أن يستعظم ذنبه استعظاما يؤديه إلى أن يلقي بيديه إياسا من روحه وقنوطا من رحمته وسوء ظن به بل عليه أن يتوب إلى ربه منه ويرجع إليه عنه ويعلم حكمة الله تعالى في تسليطه عليه وتخليته بينه وبينه وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم

(لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله) بأن توقعك في اليأس والقنوط فهذه عظمة مذمومة قادحة في الإيمان وهي شر عليك من ذنوبك وسببها جهلك بصفات مولاك ووقوفك مع نفسك (فإنه من عرف ربه) معرفة حقيقية (استصغر في جنب كرمه ذنبه) فأي ذنب لا يسعه عفوه سبحانه أما عظمة الذنب التي تحمل مرتكبه على التوبة منه والإقلاع عنه وصدق العزم على أن لا يعود إلى مثله فهي عظمة محمودة وهي من علامات إيمان العبد قال ابن مسعود إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فأطاره ويقال إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله وإن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله

وسلم لولا أن الذنب خير للمؤمن من العجب ما خلى الله تعالى بين مؤمن وبين ذنب أبدا فنبهك بهذا على أن الذنب مانع من وجود العجب الذي هو أعظم حجاب بين العبد وبين مولاه لأن صاحبه ناظر إلى نفسه لا إلى ربه مستعظم لطاعته وعبادته ملاحظ لذلك وساكن له بخلاف ذلك الذنب لأنه يوجب له الخوف والحذر واللجأ إلى الله تعالى والفرار إليه من نفسه والعجب يصرف العبد عن الله تعالى والذنب يصرفه إليه والعجب يقبل به على نفسه والذنب يقبل به على ربه والعجب يؤديه إلى الاستغناء والذنب يؤديه إلى الافتقار وأحب أوصاف العبد إلى الله عز وجل افتقاره إلى مولاه وأشرف أحوال المؤمن ما يرده إليه ويقبل به عليه • (لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله) إذا ظهرت الصفات العلية بطلت أعمال العاملين فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر وإذا ظهر وصف الكرم والفضل لمن أحبه اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر قال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه إن وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة وإن نالهم فضله لم تبق لهم سيئة ومن دعائه رضي الله تعالى عنه إلهي إن أحببتني غفرت سيئاتي وإن مقتني لم تقبل حسناتي وما أحسن قول سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه في دعائه ومناجاته واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت فالإحسان لا ينفع مع البغض منك والإساءة لا تضر مع الحب منك وسيأتي من مناجاة المؤلف رحمه الله في مثل هذا المعنى قوله إلهي كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقالني منها فضلك • (لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده) في النسخ الموجودة بأيدينا لا عمل أرجى للقلوب ومعناه على هذا الوجه أن العمل الموصوف بهذه الصفة لا يلتفت إليه القلب ولا يعتبره وفي عدم التفاته واعتباره صلاحه وتحرره من رق رؤيته فيبقى حينئذ مع ربه لا مع عمله ويكون ذلك على حذف مضاف تقديره لا عمل أرجى لصلاح القلوب أو ما في معناه وسيأتي من كلام المؤلف ما يناسب هذا المعنى وهو قوله قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم إلى آخره والغالب على الظن أن الذي قصده المؤلف رحمه الله وذكره إنما هو لفظ القبول فغلط الناسخ فقلب حروفه ولا يحتاج في هذا إلى حذف وتقريره على هذا الوجه أن تقول سلامة العمل من الآفات شرط في قبوله لأن صاحبه متق لله تعالى وقد قال عز من قائل إنما يتقبل الله من المتقين وإنما يسلم العمل من الآفات باتهام النفس في القيام بحقه ورؤية تقصيره فيه فيغيب عنه إذ ذاك شهوده ويحتقر عنده وجوده فلا يساكنه ولا يعتمد عليه فإن لم يكن على هذا الوصف بل كان ناظرا إليه ومستعظما له غائبا عن شهود منة الله تعالى عليه في توفيقه له أوقعه ذلك في العجب فحبط لذلك عمله وخاب سعيه قال أبو سليمان رضي الله تعالى عنه ما استحسنت من نفسي عملا فاحتسبته وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنه كل شيء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لا يقبل منك لأن القبول مرفوع مغيب عنك وما انقطعت عنه رؤيتك فذلك دليل على القبول وقد سئل بعض العارفين ما علامة قبول العمل قال نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية بدلالة قوله تعالى إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل أن لا يبقى عندك منه شيء فإنه

(لا صغيرة) من ذنوبك بل كلها كبائر (إذا قابلك عدله) وهو تصرفه في ملكه من غير حجر عليه فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه الله تعالى ومقته بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر (ولا كبيرة إذا واجهك فضله) وهو إعطاء الشيء بغير عوض بل جميع ذنوبك حينئذ صغائر فإذا ظهر صفة الفضل لمن أحبه اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر ولذا قال الشاذلي قدس الله سره واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت (لا عمل أرجى للقبول) أي لقبول الله له (من عمل يغيب عنك شهوده) بأن تشهد أن الذي وفقك له هو الله تعالى ولولاه ما صدر منك ذلك العمل (ويحتقر عندك وجوده) بأن لا تعتمد عليه في تحصيل أمر من الأمور كالوصول إلى الله تعالى والقرب منه ونيل الدرجات والمقامات لرؤيتك التقصير فيه وعدم سلامته من الآفات المانعة من قبوله وفي بعض النسخ أرجى للقلوب أي لصلاحها

(انما أورد عليك) أيها المريد (الوارد) يطلق الوارد على ما يتحف الله به عبده من العلوم الوهبية والانوار العرفانية التى ينشرح بها صدره ويستنير بها قلبه فيرى الحق حقا والباطل باطلا ويطلق على تجل الهى يرد على القلب وان لم يشعر به العبد لغلظ بشريته وقد يعبر عنه بالحال وهذا هو المراد هنا (لتكون به عليه واردا) أى مقبلا على الدخول فى حضرته ومعلوم أن الدخول فى تلك الحضرة لا يكون الا لقلب خالص مما يكدره ولذا قال (أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الاغيار ويحررك من رق الآثار) الاغيار والآثار هى الاغراض الدنيوية وشهوات النفوس فهى غاصبة لك لحبك لها وسكونك اليها واعتمادك عليها فاورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك ويحررك من ملكية من استرقك فلا يكون للمخلوق فيك نصيب ولا شركة وتكون سالما لله عز وجل فتصلح للحضور معه ولذا قال (أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك) أى صفاتك القائمة بك المانعة لك من شهود مولاك كالسجن المانع للمسجون من الخروج (الى فضاء شهودك) أى شهودك للمولى الشبيه بالفضاء لعدم وجود شئ يحولك عن الرؤية قال بعضهم سجنك نفسك اذا خرجت منها وقعت فى راحة الابد ومقتضى هذا التقرير أن الوارد واحد وغمرته واحدة وهى الدخول فى حضرة الرب ويصح أن يكون المعنى أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا أى مقبلا عليه بالاشتغال بالطاعات وأنواع المجاهدات فتشتغل بذلك مع بقائك باوصاف نفسك وشهواتها المقتضية عدم الاخلاص فى العبادة فيرد عليك وارد آخر ليخلصك من ذلك ويحصل لك الاخلاص فاذا حصل لك ربما تركن اليه وتعتمد عليه فى قبول أعمالك ووصولك بها الى حضرة قربه وذلك باطل فيرد عليك وارد ثالث تغيب به عن رؤية نفسك وتشاهد به مولاك بسرك ثم قال (الانوار) الالهية التى ترد على قلب المريد من حضرة الرب وتحصل غالبا من الاذكار والرياضات (مطايا القلوب) توصلها الى مطلوبها الذى هى متوجهة له وهو دخولها حضرة الرب والقرب منه كتوصيل المطية راكبها الى مطلوبه (والاسرار) أى ومطايا الاسرار أيضا جمع سر وهو باطن القلب عند الصوفية ولا التفات لمن جعله عين القلب لانه خلاف اصطلاحهم (النور جند القلب) أى يتوصل به الى ما يقصده ويتوجه اليه وهو حضرة الرب كما يتوصل الامير بجنده الى ما يقصده من غلبة عدوه وهذا مستفاد مما قبله وانما أتى به توطئة لقوله (كما أن الظلمة) وهى طبيعة العبد (جند النفس) تتوصل بها الى مقصودها وهو الشهوات والاغراض العاجلة ومازال الحرب واقعا بين القلب والنفس (فاذا أراد الله أن ينصر عبده) أى يعينه على نفسه وقمع شهواتها (أمده) أى أمد قلبه (بجنود الانوار) أى بجنود هى الانوار أو بالانوار الشبيهة بالجنود فانها اذا حصلت له ادرك بها قبح الشهوات العائقة عن الوصول الى الله تعالى (وقطع عنه مدد الظلم والاغيار) أى مددا هو الظلم والاغيار وهما بمعنى واحد واذا أراد خذلانه فعلى العكس من ذلك فاذا مال القلب الى عمل صالح كصوم غد ومالت النفس الى شهوة كالفطر وتنازعا

اذا بقى فى نظرك منه شئ لم يرتفع اليه لبينونة بين عندية وعنديته فينبغى للعبد اذا عمل عملا أن يكون عنده نسيا منسيا بما ذكرناه من اتهام النفس ورؤية التقصير حتى يحصل له قبوله * (انما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا) الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول الى حضرته لان الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الاغيار فاذا انما أورده عليك لتكون به عليه واردا * (أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الاغيار وليحررك من رق الآثار) الآثار والاغيار غاصبة ومسترقة لك وذلك لوجود حبك لها وسكونك اليها واعتمادك عليها فانما أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك وليحررك من ملكية من استرقك والاشارة الى هذا المعنى بما ضرب الله تعالى من المثل للكافر فى قوله ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا فمن سلم من يد الاغيار وحرر من رق الآثار لا يكون لمخلوق فيه نصيب ولا شركة وكان سلما لله عز وجل * (أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك الى فضاء شهودك) سجن وجوده هو شهوده لنفسه ومراعاته لحظه وفضاء شهوده أن يغيب عن ذلك بشهوده عظمة الله تعالى وجلاله ورؤية قيام حركاته وسكناته قال أبو القاسم النصراباذى رضى الله تعالى عنه سجنك نفسك اذا خرجت منها وقعت فى راحة الابد وسيأتى من كلام المؤلف فى معنى قوله سجن وجودك الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته * (الانوار مطايا القلوب والاسرار) أنوار الايمان واليقين مطايا حاملة الاسرار والقلوب الى حضرة علام الغيوب وتلك هى الواردات المذكورات * (النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس فاذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الانوار وقطع عنه مدد الظلم والاغيار) نور التوحيد واليقين

وتفانلا سارع النور الذى هو من الله تعالى ورحمته الى نصرة القلب والظلمة الى نصرة النفس وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجندين لا سبيل للعبد الا فزعه الى الله وتوكله عليه وهكذا فى كل عمل صالح الى أن يصل الى الله تعالى فينقطع حينئذ حكم النفس وتصير مقهورة مغلوبة ثم قال (النور) الذى يفيضه الله على قلب المريد (له الكشف) أى كشف المعانى والمغيبات كحسن الطاعة وقبح المعصية (والبصيرة) التى هى ناظر القلب (لها الحكم) أى ادراك ذلك ومشاهدته فكما لا يمكن ادراك البصر للمحسوسات الا بالانوار الظاهرية كسراج وشمس لا يمكن ادراك البصيرة لشئ من المعانى الا بالانوار الباطنية (والقلب له الاقبال والادبار) على ما كشف للبصيرة فاذا كشف لها عن حسن الطاعة وقبح المعصية أقبل القلب على الطاعة وأحبها فتتبعه الجوارح وأدبر عن المعصية فلا تتلبس بها الجوارح هذا ويحتمل أن المعنى أن النور له الكشف عن المغيبات كاسرار القدر وأنه يحصل فى العالم كذا والبصيرة لها الحكم أى ادراك ذلك ثم هذا الكشف والادراك قد لا يكونان تامين فينبغى للمكاشف أن يتثبت فى كشفه ولا يعمل بمقتضى ما كشف له فلا يخبر بشئ حتى يستفتى قلبه اما أن يقبل واما أن يدبر ولذا تجد بعض الاولياء يخبر عن أمور لا تقع وذلك لعدم تثبته فى كشفه (لا تفرحك الطاعة لانها برزت منك) أى من حيث صدورها عنك باختيارك وحولك وقوتك فهذا فرح مذموم منهى عنه محبط لها (و) لكن (افرح بها لانها برزت من الله اليك) أى من حيث شهودها من الله نعمة منه وفضلا فهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد وهو مقتضى شكرها ثم استدل على ذلك بقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فايصال تلك الطاعة اليه واظهارها على يده اعتناء من الله سبحانه وتعالى به فينبغى أن يفرح بها من تلك الحيثية لا من حيثية صدورها منه وفعله لها (قطع) أى حجب ومنع (السائرين له والواصلين اليه عن رؤية أعمالهم) الظاهرية (وشهود أحوالهم) القلبية لكن السبب فى انقطاع الطائفتين عن ذلك مختلف (أما السائرون فلانهم لم

وظلمة الشرك والشك جندان للقلب والنفس والحرب بينهما سجال فاذا أراد الله نصرة عبده أمد قلبه بجنوده وقطع عن نفسه مدد جنودها واذا أراد خذلان عبده فعلى العكس فاذا مال القلب الى العمل بأمر محمود مؤلم فى الحال ملتذ به فى المآل ومالت النفس الى العمل بأمر مذموم ملتذ به فى الحال مؤلم فى المآل وتنازعا وتقاتلا سارع النور الذى هو من أمر الله تعالى ورحمته الى نصرة القلب وبادرت الظلمة التى هى من وساوس الشيطان ولمته الى نصرة النفس وقام صف القتال بينهما فان سبقت للعبد من الله تعالى سابقة السعادة اهتدى القلب بنور الله تعالى واستهان بالعاجلة ورغب فى الآجلة وعمل القلب بما مال اليه وان آلمه فى الحال لما يرجوه من التنعم به فى المآل وان سبقت له من الله الشقاوة والعياذ بالله ذهل القلب عن النور وأعمته الظلمة عن منفعة الآجل واغتر بلذة العاجل وعمل بما مالت اليه نفسه وان آلمه فى المآل لما يحصل لها من لذة الحال وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجندين لا سبيل للعبد الا فزعه الى الله تعالى ولياذه به وكثرة ذكره وصدق توكله عليه واستعاذته من الشيطان الرجيم وهذه العبارات الخمس من قوله انما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا الى هنا تفنن فيها صاحب الكتاب وكررها بالفاظ مختلفة والمعانى فيها متقاربة وهذه عادته فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب رضى الله تعالى عنه * (النور له الكشف والبصيرة لها الحكم والقلب له الاقبال والادبار) هذه ألفاظ مختلفة لمعان متغايرة فالنور يفيد كشف المعانى المغيبات حتى تتضح وتشاهد والبصيرة التى هى ناظر القلب تفيد الحكم وهو صحة ما شاهدته والقلب له الاقبال عملا بمقتضى ما شاهدته البصيرة وله أيضا الادبار تركا للعمل بمقتضى ما شاهدته البصيرة * (لا تفرحك الطاعة لانها برزت منك وافرح بها لانها برزت من الله اليك قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) الفرح بالطاعة على وجهين فرح بها من حيث شهودها من الله تعالى نعمة منه وفضلا فهذا هو الفرح المحمود وهو الذى طلب من العبد وذلك هو مقتضى شكرها وفرح بها من حيث ظهورها من العبد باختياره وارادته وحوله وقوته فهذا هو فرح مذموم منهى عنه وهو كفران النعمة وهو من العجب المحبط للعمل فالفرح بها على هذا الوجه فرح بلا شئ وسيأتى فى آخر الكتاب أنواع الفرح بالنعم وما يحمد منها وما يذم تامة مستوفاة * (قطع السائرين له والواصلين اليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم أما السائرون فلانهم لم

بتحققوا الصدق مع الله فيها وأما الواصلون فلانه غيبهم بشهوده عنها) لقد أسبغ الله نعمته على الفريقين حيث فعل معهم ذلك لانه أبقاهم معه ولم يدعهم لسواه فالواصلون فعل ذلك بهم طوعا منهم والسالكون فعل ذلك بهم كرها ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها فالواصلون قطعهم عن ذلك اشهودهم له فى حضرة قربه ومن شاهده لم يشهد معه غيره اذ محال أن يراه ويشهد معه سواه والسالكون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق والبراءة من الدعوى فهم أبدا متهمون لانفسهم فى توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم قال النهرجورى رضى الله تعالى عنه من علامات من تولاه الله فى أحواله أن يشهد التقصير فى اخلاصه والغفلة فى أذكاره والنقصان فى صدقه والفتور فى مجاهداته وقلة المراعاة فى فقره فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقرا الى الله فى قصده وسيره حتى يفنى عن كل مادونه وقال أبو عمرو اسمعيل بن نجيد رضى الله تعالى عنه لا يصفو لاحد قدم فى العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوى وقال أبو يزيد رضى الله تعالى عنه لو صفت لى تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشئ والى هذين المقامين تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى رضى الله تعالى عنه وذلك أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان رضى الله تعالى عنه بماذا كان يأمركم شيخكم فقالوا كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها فقال أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشئها قال الاستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه وانما أراد الواسطى بهذا صيانتهم عن محل الاعجاب لا تعريجا فى أوطان التقصير أو تجويزا للاخلال بأدب من الآداب وقال رضى الله تعالى عنه * (ما بسقت أغصان ذل الا على بذر طمع) البسوق الطول يقال بسقت النخلة بسوقا اذا طالت قال الله تعالى والنخل باسقات والاغصان جمع غصن وهو ما تشعب عن سوق الشجر ويجمع أيضا على غصون والبذر الحب الذى يزرع وهذه كلها استعارات مليحة والطمع من أعظم آفات النفوس وعيوبها القادحة فى عبوديتها بل هو أصل جميع الآفات لانه محض تعلق بالناس والتجاء اليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم وفى ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه والطمع مضاد لحقيقة الايمان الذى يقتضى وجود العزة والعزة التى اتصف بها المؤمنون انما تكون برفع هممهم الى مولاهم وطمأنينة قلوبهم اليه وثقتهم به دون من سواه فهذه هى العزة التى منحها الله عبده المؤمن قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وكما أن العزة من صفات المؤمنين كذلك المذلة من أخلاق الكافرين والمنافقين قال الله تعالى ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الاذلين قال أبو بكر الوراق الحكيم رضى الله تعالى عنه لو قيل للطمع من أبوك قال الشك فى المقدور ولو قيل له ما حرفتك قال اكتساب الذل ولو قيل ما غايتك قال الحرمان وقال أبو الحسن الوراق النيسابورى رضى الله تعالى عنه من أشعر فى نفسه محبة شئ من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ومن طمع فى شئ ذل وبذله هلك وقد قيل فى ذلك (مفرد)

أتطمع فى ليلى وتعلم أنما * تقطع أعناق الرجال المطامع

فالطامع لا محالة فاسد الدين مفلس من أنوار اليقين قال فى التنوير وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه وتطهر من الطمع فى الخلق فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر

بتحققوا الصدق مع الله فيها) وذلك لرؤيتهم نقصها بعدم حضور قلوبهم مع الله حال فعلها فهم دائما متهمون نفوسهم فى توفية أعمالهم حقها وفى صفاء أحوال قلوبهم فكان ذلك سببا فى البراءة من رؤيتها وشهودها (وأما الواصلون فلانه غيبهم بشهوده عنها) أى انهم نسبوها اليه تبريا من حولهم وقوتهم فقطعهم عن ذلك شهودهم له فى حضرة قربه ومن شاهده لم يشهد معه غيره وقد أسبغ الله النعمة على الفريقين حيث عافاهم من التعلق بأعمالهم وأحوالهم الا أنه فعل ذلك بالسالكين كرها وبالواصلين طوعا ولا شك أن هذا المقام أرقى من الاول ولهذا لما سأل الواسطى أصحاب أبى عثمان بماذا كان يأمركم شيخكم فقالوا كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها قال لهم أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود منشئها أو مجريها بذلك ترقى همتهم الى مقام العرفان لا تحقيرا ماهم عليه فانه من الاحسان (ما بسقت) يقال بسقت النخلة بسوقا اذا طالت أى ما طالت (أغصان ذل الا على بذر طمع) شبه الذل بشجرة ذات أغصان وفروع استعارة بالكناية والاغصان تخييل باق على حقيقته أو مستعار

ما طهره الا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم قال وقدم على بن أبى طالب رضى الله عنه البصرة فدخل جامعها فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى جاء الى الحسن البصرى رضى الله عنه فقال يا فتى انى سائلك عن أمر فان أجبتنى عنه أبقيتك والا أقمتك كما أقمت أصحابك وكان قد رأى عليه سمتا وهديا فقال الحسن سل عما شئت قال ما ملاك الدين قال الورع قال فما فساد الدين قال الطمع قال اجلس فمثلك من يتكلم على الناس قال وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول كنت فى ابتداء أمرى بثغر الاسكندرية جئت الى بعض من يعرفنى فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ثم قلت فى نفسى لعله لا يأخذه منى فهتف بى هاتف السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين قال وسمعته يقول صاحب الطمع لا يشبع أبدا ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة الطاء والميم والعين ثم قال بعد هذا فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم فقد سبقت قسمته وجودك وتقدم ثبوته ظهورك واسمع ما قاله بعض المشايخ أيها الرجل ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فلا بد أن يمضغاه فكله ويحك بعز ولا تأكله بذل قلت تقدم الآن من كلامه فى التنوير ذكر الورع فى مقابلة الطمع وكذلك فى جواب الحسن لعلى رضى الله عنهما لما سأله مستخبرا له عن صلاح الدين وفساده فى الكلام الذى حكاه عنهما ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس وهو ترك الشبهات والتحرج من اقتحام المشكلات لا يقابل الطمع كل المقابلة وقد ذكرنا الطمع ما هو وانما يقابله ورع الخاصة وهو عندهم صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين ووجود السكون اليه وعكوف الهمم عليه وطمأنينة القلب به ولا يكون له ركون الى غيره ولا انتساب الى خلق ولا كون فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد كما نبه عليه الحسن رضى الله عنه فى جوابه المذكور قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه الورع على وجهين ورع فى الظاهر أن لا يتحرك الا لله وورع فى الباطن وهو أن لا يدخل قلبك الا الله ذكر أن بعضهم كان حريصا على أن يرى أحدا من هذه صفته فجعل يجتهد فى طلبه ويحتال على التوصل اليه بأن يأخذ الشئ بعد الشئ من ماله ويقصد به الفقراء والمساكين ويقول لمن يعطيه منهم حين المناولة خذ لا لك فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جوابا يطابق لما أراده بكلامه الى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته وذلك أنه قال لاحدهم خذ لا لك فقال له آخذه لا منك فان كان للعبد استشراف الى خلق أو سبقية نظر اليهم قبل مجئ الرزق أو بعده فمقتضى هذا الورع والواجب فى حق الادب أن لا ينيل نفسه شيأ مما يأتيه على هذه الحال عقوبة لنفسه فى نظره الى أبناء جنسه كقصة أيوب الحمال مع أحمد بن حنبل رضى الله عنهما وهى معروفة وكما روى عن الشيخ أبى مدين رضى الله عنه أنه أتاه حمال بقمح فنازعته نفسه وقالت له يا ترى من أين هذا فقال لها أنا أعرف من أين هو يا عدوة الله وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبة لها لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى وقد قيل أحل الحلال ما لم يخطر لك على بال ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال وقد صرح بهذا المعنى الذى ذكرناه وأوضح الغرض الذى قصدناه شيخ الطريقة وامام أهل الحقيقة من المتأخرين أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه فانه قال اعلم أن الورع أن لا يكون بينك وبين الخلق نسبة فى أخذ أو عطاء أو قبول أو رد وأن يكون السبق لله تعالى وهو أن يأتى اليه طاهرا من جميع الاشياء والعلم والعمل كما قال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة

لانواع الذل وبسقت ترشيح باق على حقيقته أو بمعنى وجدت وحصلت وشبه الطمع بالنواة التى تنشأ عنها الشجرة فاضافة بذر له من اضافة المشبه به للمشبه أى طمع شبيه بالبذر أى المبذور الذى تنشأ عنه الشجرة ذات الاغصان فكأنه يقول لا تغرس بذر الطمع فى قلبك فتخرج منه شجرة الذل وتتشعب أغصانها وفروعها ولو قال ما بسقت شجرة الذل لكان أولى لان الذى يتصف بالطول وينشأ عن البذر هو أصل الشجرة ووصف الاغصان بذلك بطريق التبع فالطمع من أعظم العيوب القادحة فى العبودية بل هو أصل جميع الآفات لانه محض تعلق بالناس والتجاء اليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم وفى ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه وسببه الشك فى المقدور ولذا قال بعضهم لو قيل للطمع من أبوك لقال الشك فى المقدور ولو قيل ما حرفتك قال اكتساب الذل ولو قيل ما غايتك قال الحرمان فالطامع لا محالة فاسد الدين ولذا دخل على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه جامع البصرة فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى جاء الى الحسن البصرى فقال يا فتى انى سائلك عن أمر فان أجبتنى فيه أبقيتك والا أقمتك كما

وقال أيضا الورع أن لا يخطر الرزق بالبال ولا يكون بينه وبينه نسبة لا فى التحصيل ولا عند المباشرة لانه لا يدرى أيأكله أم لا وقال أيضا الورع أن لا تتحرك ولا تسكن الا ورى الله فى الحركة والسكون فاذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقى مع الله فالحركة ظرف لما فيها كما قال بعضهم ما رأيت شيأ الا رأيت الله فيه فاذا رأى الله ذهبت الاشياء وقال أيضا أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط وهذا مقام التوكل ولهذا قال بعضهم الحلال هو الذى لا ينسى الله فيه الى غير هذا من العبارات التى عبر بها فى هذا المعنى وقال بعض هذه الطائفة العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم ثم يفترقون فى المشاهدات فنهم من يأكل رزقه بذل ومنهم من يأكل رزقه بامتهان ومنهم من يأكل رزقه بانتظار ومنهم من يأكل رزقه بعز بلا مهنة ولا انتظار ولا ذلة فأما الذين يأكلون أرزاقهم بذل فالسؤال يشهدون أيدى الخلق فيبذلون لهم وأما الذين يأكلون أرزاقهم بامتهان فالصناع يأكل أحدهم رزقه بمهنة وكد وأما الذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار ينتظر أحدهم نفاق سلعته فهو متعذب القلب معذب بانتظاره وأما الذين يأكلون أرزاقهم بعز من غير مهنة ولا انتظار ولا ذل فالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قسمتهم من يده بعزة قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه ليس مع الايمان أسباب انما الاسباب فى الاسلام قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه معناه ليس فى حقيقة الايمان رؤية الاسباب والسكون اليها انما رؤيتها والطمع فى الخلق يوجد فى مقام الاسلام وقد عقد المؤلف رحمه الله تعالى فى لطائف المنن فصلا فى هذا المعنى وجعله لجميع وظائف الآداب الدينية أصلا ومبنى فرأينا نقله فى هذا الموضع من صواب العمل المتكفل ان شاء الله بنجاح الامل قال رضى الله عنه اعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه الا قليل فان من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره أو يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم فى غير فضله وخيره ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والاسباب وخلع الانداد والارباب ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات والسكون الى أنوار التجليات ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو تقطعهم الآخرة تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاء قال الشيخ عثمان بن عاشوراء خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير واذا أنا بالدنيا قد عرضت على بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومن بناتها ومنتزهاتها فأعرضت عنها فعرضت على الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها فقيل لى يا عثمان لو وقفت مع الاولى لحجبناك عن الثانية ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنا فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى وكان مقيما بشرقى الاسكندرية جاورت سنة من السنين فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع الى الاسكندرية فاذا على يقول لى انك فى العام القابل عندنا فقلت فى نفسى اذا كنت العام القابل ههنا فلا أعود الى الاسكندرية فخطر لى الذهاب الى اليمن فأتيت الى عدن فأنا يوما على ساحلها واذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ثم نظرت فاذا رجل فرش سجادته على البحر ومشى على الماء فقلت فى نفسى لم أصلح للدنيا ولا للآخرة فاذا على يقول لى من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا وقال الشيخ ابو الحسن رضى الله تعالى عنه الورع نعم الطريق لمن عجل ميزانه وأجل ثوابه وقد انتهى بهم الورع الى الاخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة

أنف أصحابك وكان قد رأى عليه سمتا وهديا فقال الحسن سل عما شئت قال ما ملاك الدين قال الورع قال فما فساد الدين قال الطمع قال اجلس فمثلك من يتكلم على الناس والورع الذى يقابل الطمع هو ورع الخاصة وهو صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين ووجود السكون اليه وطمأنينة القلب به لا ورع العامة وهو ترك الشبهات وعلى هذا فيقال قياسا على ما قاله المصنف ما بسقت أغصان عز الا على بذر ورع

الواضحة والبصيرة الفائقة فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون الا بالله ولله من حيث يعلمون هجم بهم العلم على حقيقة الامر فهم مجموعون فى عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى وأما أدنى الادنى فالله يورعهم عنه تورعا بالورع لهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزان فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى وميزانه التعزز لخلقه والاستكبار على مثله والدلالة على الله بعمله فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العظيم من ذلك والاكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقارا لنفسه وافتقارا لربه وتواضعا لخلقه فهو هالك فسبحان من قطع كثيرا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم فاستعذ بالله انه هو السميع العليم قال فانظر فهمك الله سبيل أوليائه ومن عليك بمتابعة أحبائه هذا الورع الذى ذكره الشيخ رضى الله عنه هل كان يصل فهمك الى مثل هذا النوع من الورع ألا ترى قوله قد انتهى بهم الورع الى الاخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهذا هو ورع الابدال والصديقين لا ورع المنقطعين الذى نشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم انتهى وانما أوردنا هذه المعانى ههنا تتميما للفائدة المتعلقة بكلام صاحب التنوير من كون الورع مقابلا للطمع وسيأتى مزيد بيان فيها فى موضع أنسب من هذا عند قوله لا تمدن يدك الى الاخذ من الخلائق الى آخره فانظره فيه

•(ما قادك شئ مثل الوهم) الوهم أمر عدمى وهو ضد الحقيقة الوجودية والنفس الناقصة انقيادها الى الامور الوهمية الباطلة أشد من انقيادها الى الحقائق الثابتة لوجود المناسبة بينهما والطمع فى الناس انقياد الى الاوهام الباطلة لان الطمع تصديق الظن الكاذب والطمع فيهم طمع فى غير مطمع وأرباب الحقائق بمعزل عن هذا فلا تتعلق هممهم الا بالله ولا يتوكلون الا عليه ولا يثقون الا به فقد سقط اعتبار الاوهام والخيالات التى هى متعلقة بالاغيار عن قلوبهم فزال عنهم الطمع فاتصفوا بصفة القناعة والورع فكانت لهم الحياة الطيبة والعيشة الراضية والقناعة مقام عظيم من مقامات اليقين وهى من بدايات أحوال الراضين قال بعض العارفين لا يكون العبد قانعا حتى لو جاء الى باب منزله جميع ما رغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة فعرض عليه لم ينظر الى ذلك ولم يفتح بابه قناعة منه بحاله وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى معنى قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة قال هى القناعة •(أنت حر مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع) الطمع فى الشئ دليل على الحب له وفرط الاحتياج الى نيله وذلك عبودية له كما أن اليأس من الشئ دليل على فراغ القلب منه وغناه عنه وذلك حرية منه فالطامع عبد واليائس حر ولهذا قيل

العبد حر ما قنع • والحر عبد ما طمع

فاقنع ولا تطمع فما • شئ يشين سوى الطمع

وقيل لولا الاطماع الكاذبة لما استعبد الاحرار بكل شئ لا خطر له وقيل ان العقاب يطير فى فضاء عزه بحيث لا يرتقى طرف الى مطاره ولا تسمو همة الى الوصول اليه فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيتعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبى يلعب به وقيل

(ما قادك شئ مثل الوهم) يعنى أن الوهم هو السبب فى الطمع فى الناس وذلك كاف فى قبحه لان الوهم الذى هو أصله أمر عدمى اذ هو عبارة عن التخيل والحسبان التقديرى لكن النفوس منقادة له أتم من انقيادها الى العقل ألا ترى أن الطبع ينفر من الحية لتوهمه الضرر فيها بل من الحبل المرقش لكونه على صورتها ولو انقادت للعقل لم تنفر لان ما قدر يكون وما لم يقدر لم يكن فلا يسلم من الطمع فى الخلق والرغبة فيما بايديهم الا أهل الورع الخاص وهم أهل القناعة والتوكل الذين سقط من قلوبهم علاقات الخلق فلا يهتمون للرزق (أنت حر مما أنت عنه آيس) أى من كل ما أنت آيس منه (وعبد لما أنت له طامع) أى لكل ما أنت طامع فيه فعن بمعنى من ولام له بمعنى فى وهذا دليل آخر لقبح الطمع ومدح الاياس من الخلق والقناعة بالرزق المقسوم وبيانه أن الطمع فى الشئ عبودية له كما أن اليأس من الشئ حرية منه لانه يدل على فراغ القلب منه وغناه عنه فالطامع عبد واليائس حر ولذلك قيل

العبد حر ما قنع

والحر عبد ما طمع

والقناعة هى السكون عند عدم المألوفات وهى أول الزهد

ان فتحا الموصلي رضي الله عنه كان قاعدا فسئل عمن تابع الشهوات كيف صفته وكان يمر به صبيان مع أحدهما خبز بلا أدم ومع الآخر خبز مع كامخ فقال الذي لم يكن معه كامخ لصاحبه أطعمني من الكامخ فقال له بشرط أن تكون كلبي فقال نعم فجعل في رقبته خيطا وجعل يجره كما يقاد الكلب فقال فتح للسائل أما انه لو رضي بخبزه ولم يطمع في كامخ صاحبه لم يصر كلبا لصاحبه وحكي عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدم التلميذ اليه خبزا قفارا ولم يكن له أدم فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له أدم يقدمه الى أستاذه فقام الاستاذ وقال تعال معي فحمله الى باب السجن فرأى الناس يضرب واحد ويقطع آخر ويعذب كل واحد بأنواع العذاب فقال الاستاذ للتلميذ ترى هؤلاء هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار وقيل ان رجلا أخرج من السجن وفي رجله قيد يسأل الناس فقال لانسان أعطني كسرة فقال لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك ورأى رجل رجلا من الحكماء يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء فقال لو خدمت السلطان لم تحتج الى أكل هذا فقال الحكيم وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج الى خدمة السلطان وقد أردت أن أذكر هنا حكاية مناسبة لما نحن فيه لتعرف بها كيف تكون الهمة السنية والآداب المرضية في أخذ البلاغ من الدنيا والقناعة باليسير من الاشياء ورؤية منة الله تعالى في تيسير القليل والشكر له على ذلك قال بعضهم خرجنا من المدينة حجاجا فلما كنا بالزاوية نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة وله منظر وهيبة وصورة حسنة ومروءة فقال من يبغي خادما من يبغي ساقيا فقلت دونك هذه القربة فأخذها وانطلق فلم يلبث الا يسيرا حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طينا وأثرت القربة في كتفيه فوضعها وهو كالمسرور الضاحك ثم قال ألكم غيرها قلنا لا وأطعمناه قرصا باردا فأخذه وحمد الله سبحانه وشكره كثيرا ثم اعتزل وقعد يأكل أكل جائع فأدركتني عليه الشفقة فقمت اليه بطعام طيب كان معنا وأكثرت له منه فقلت قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع فدونك هذا الطعام فنظر في وجهي وتبسم وقال يا عبد الله انما هي فورة جوع فلا أبالي بأي شيء رددتها عني فرجعت عنه فقال لي رجل الى جنبي أتعرفه قلت لا قال انه رجل من بني هاشم من ولد العباس بن عبد المطلب هذا من ولد سليمان بن أبي جعفر المنصور كان يسكن البصرة فتاب فخرج منها ففقد فما عرف له أثر فأعجبني قوله ثم اجتمعت به وآنسته وقلت له يا فتى أنا رجل من اخوانك وقد بلغني موضعك فأحببت الاتصال بك فهل لك أن تعادلني فان معي فضلا من راحلتي فجزاني خيرا وقال لو أردت هذا لكان لي معدا ثم أنس الي وجعل يحدثني فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد وتجبر وبذخ واني أمرت خادما لي أن يحشو لي فراشا من حرير ومخدة بورد نثير فبينما أنا نائم اذا بقمع ورد قد غفلت عنه الخادمة فقمت اليها فأوجعتها ضربا ثم عدت الى مضجعي بعد اخراج القمع من المخدة فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة فهزني وقال لي أفق من غشيتك وأبصر من حيرتك ثم أنشأ يقول

يا خد انك ان توسد لينا • وسدت بعد الموت صم الجندل

فامهد لنفسك صالحا تسعد به • فلتندمن غدا اذا لم تفعل

قال فانتبهت فزعا فخرجت من ساعتي الى ربي هاربا فهذا خبري قال الراوي فلما قضى حديثه هذا انخنس عني ومضى • (من لم يقبل على الله بملاطفات الاحسان قيد اليه بسلاسل

الامتحان)

(من لم يقبل على الله بملاطفات الاحسان) أي بملاطفاته اياه بانواع الاحسان (قيد اليه بسلاسل

الامتحان) النفوس الكريمة تقبل على الله تعالى بملاطفات احسانه وموالاة فضله وامتنانه والنفوس اللئيمة لا تنقاد الا بسلاسل الامتحان ووقوع المصائب في الاموال والابدان والقود بالسلاسل استعارة حسنة قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه سنة الله عز وجل استدعاء العباد لعبادته بسعة الارزاق ودوام المعافاة ليرجعوا اليه بنعمته فان لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون لان مراده عز وجل رجوع العبد اليه طوعا أو كرها • (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها) شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها وانفصالها قال الله تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم وقال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم أي اذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات وهي شكر النعم غير الله تعالى ما منه اليهم من الاحسان والكرم واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا الشكر قيد النعم وقالوا الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود وكان يقال النعم اذا روعيت بالشكر فهي أطواق واذا روعيت بالكفر فهي أغلال والشكر على ثلاثة أوجه شكر بالقلب وشكر باللسان وشكر بسائر الجوارح فشكر القلب أن يعلم أن النعم كلها من الله تعالى قال الله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله وشكر اللسان الثناء على الله تعالى وكثرة الحمد والمدح له ويدخل فيه التحدث بالنعم واظهارها ونشرها قال الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تذكروا النعم فان ذكرها شكر ومن شكر اللسان أيضا شكر الوسائط بالثناء عليهم والدعاء لهم وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكر الناس لله أشكرهم للناس وسيأتي الكلام على هذا المعنى في آخر الكتاب ان شاء الله تعالى عند كلام المؤلف عليه وشكر سائر الجوارح أن يعمل بها العمل الصالح قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا فجعل العمل شكرا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام حتى انتفخت قدماه فقيل له يا رسول الله أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا وسأل رجل أبا حازم رضي الله عنه فقال له ما شكر العينين قال اذا رأيت بهما خيرا أعلنته واذا رأيت بهما شرا سترته قال فما شكر الاذنين قال اذا سمعت بهما خيرا وعيته واذا سمعت بهما شرا دفنته قال فما شكر اليدين قال لا تأخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع حقا هو لله فيهما قال فما شكر البطن قال أن يكون أسفله صبرا وأعلاه علما قال فما شكر الفرج قال كما قال الله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين قال فما شكر الرجلين قال ان رأيت شيئا غبطته استعملتهما فيه وان رأيت شيئا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله تعالى فأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر وأجمع العبارات للشكر قول من قال الشكر معرفة بالجنان وذكر باللسان وعمل بالاركان والقدر اللازم من شكر النعم ما قاله الجنيد رضي الله عنه حين سأله السري رضي الله عنه قال الجنيد رضي الله عنه كنت بين يدي السري رضي الله عنه وأنا ابن سبع سنين وبين

الامتحان) أي بالامتحانات والمصائب الشبيهة بالسلاسل يعني أن المقتضي لاقبال المريد وغيره على الرب بانواع الطاعات والتضرع اليه وجمعية القلب عليه أمران الاول ايراد النعم عليه فيشكر الله عليها ويقبل على خدمته والثاني انزال المصائب في بدنه أو ماله فيرجع الى الرب ويتضرع اليه برفعها وربما كان ذلك سببا في ترك الاشتغال بالدنيا والتعلق به سبحانه ومراد الرب من العبد رجوعه اليه طوعا أو كرها (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها) يعني أن شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم أي اذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات وهي شكر النعم غير الله ما منه من الاحسان والكرم والشكر اما بالقلب بان تعلم أن النعم كلها من الله تعالى قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله واما باللسان بان تحدث بنعمة الله قال تعالى وأما بنعمة ربك فحدث واما بالجوارح بان تصرفها في طاعة الله وتكفها عما لا يرضيه

(خف من وجود احسانه اليك ودوام) أى مع دوام (اساءتك معه) أى مخالفتك له (أن يكون ذلك استدراجا) أى تدريجا لك شيأ فشيأ حتى يأخذك بغتة وهذا جواب سؤال ناشئ مما قبله حاصله أنا نرى كثيرا من الناس لا يشكر النعم ولا تزول عنه فأجاب بان ذلك ربما كان استدراجا ومكرا من الله به قال تعالى (سنستدرجهم) أى ندرجهم فى ذلك شيأ فشيأ حتى نأخذهم بغتة (من حيث لا يعلمون) انه استدراج ومكر أى لا يشعرون بذلك لانه يأخذهم بغتة وقيل نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فاذا ركنوا الى النعم وحجبوا عن المنعم أخذوا وقيل كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة ومن أنواع الاستدراج ماذكره بقوله (من جهل المريد أن يسىء الادب) اما مع الله تعالى كالاعتراض عليه وتعاطى التدبير معه والتضرر باحكامه المؤلمة له فى نفسه أوغيره وتصريح لسانه بالشكوى الى الخلق أومع المشايخ كالاعتراض عليهم وعدم قبول اشاراتهم فيما يشيرون به عليه فقد قالوا عقوق

الاساتذين لا توبة له وقالوا أيضا من قال لاستاذه لم فانه لا يفلح وقال القشيرى من صحب شيخا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة وان بقى من أهل السلوك قاصدا لم يصل الى مقصوده فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته فان الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين اهـ واما مع بعض الناس بالاعتراض عليهم كما وقع للجنيد أنه رأى فقيرا يسأل الناس فقال فى نفسه لو عمل هذا عملا يصون به نفسه لكان أجمل به فثقلت عليه أوراده فى تلك الليلة ورأى جماعة أتوا له بذلك الفقير على خوان وقالوا له كل من لحمه فقد اغتبته فأصبح يفتش عليه حتى وجده فسلم عليه فقال له تعود يا أبا القاسم فقال لا فقال غفر الله لك واما مع نفسه كان يتعاطى شهواتها المباحة ولا

بديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى يا غلام ما الشكر فقلت أن لا يعصى الله بنعمه فقال يوشك أن يكون حظك من الله لسانك فلا أزال أبكى على هذه الكلمة • (خف من وجود احسانه اليك ودوام اساءتك معه أن يكون ذلك استدراجا لك سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين وعدم الخوف منه مع الدوام على الاساءة من صفات الكافرين يقال من أمارات الاستدراج ركوب السيئة والاغترار بزمن المهلة وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة وهذا من المكر الخفى قال الله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون أى لا يشعرون بذلك وهو أن يلقى فى أوهامهم أنهم على شئ وليسوا كذلك يستدرجهم فى ذلك شيأ شيأ حتى يأخذهم بغتة كما قال تعالى فلما نسوا ماذكروا به اشارة الى مخالفتهم وعصيانهم فتحنا عليهم أبواب كل شئ أى فتحنا عليهم أسباب العافية وأبواب الرفاهية حتى اذا فرحوا بما أوتوا من الحظوظ الدنيوية ولم يشكروا عليها برجوعهم عنها الينا أخذناهم بغتة أى فجأة فاذا هم مبلسون أى آيسون قانطون من الرحمة قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه فى قوله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فاذا ركنوا الى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا وقال ابن عطاء الله كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة • (من جهل المريد أن يسىء الادب فتؤخر العقوبة عنه فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد وأوجب الابعاد فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن الا منع المزيد وقد يقام مقام البعد وهو لا يدرى ولو لم يكن الا أن يخليك وما تريد) هذا نوع من الاستدراج الذى تقدم ذكره وسوء أدب المريد موجب لعقوبته ولكن العقوبات مختلفة فمنها معجلة ومنها مؤجلة ومنها جلية ومنها خفية فالعقوبة الجلية العقوبة بالعذاب والعقوبة الخفية العقوبة بوجوب الحجاب فالعقوبة بالعذاب لاهل الخطايا والذنوب والعقوبة بالحجاب لاهل اساءة الادب بين يدى علام الغيوب وقد

ينهض الى ما يقربها من مولاها (فتؤخر العقوبة عنه) بان لا يعاقب فى ظاهره بالبلايا والاسقام ولا فى باطنه بحسب زعمه (فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد) الوارد على من حضرة الحق سبحانه (وأوجب الابعاد) أى بعدى عنه بعدم حضورى معه وهذا لازم لما قبله (فقد) أى انما كان ذلك من الجهل لانه قد (يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن) من قطع المدد عنه (الا منع المزيد) أى الزيادة من المدد لكان ذلك كافيا فى قطع الامداد وقطعه مبدأ الحجاب فاذا ابتدأ به المريد ولم تتداركه رحمة الله تعالى فى الحال كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه وتبدل الانس بالوحشة (وقد يقام مقام) أى فى مقام (البعد وهو لا يدرى ولو لم يكن) من اقامته مقام البعد (الا أن يخليك وما تريد) بان يسلط نفسك عليك ويمنع نصرتك عليها لكان ذلك كافيا فى البعد فان ذلك مبدأ الحجاب ومانع للقلب عن الدخول فى حضرة الرب سبحانه ومن اساءة الادب مع بعض الناس ماذكره بقوله

تكون العقوبة الخفية والمؤجلة أشد على المريد من العقوبة الجلية والمعجلة ومثال العقوبة الخفية ماذكره من قطع المدد عنه واقامته مقام البعد منه وهذا هو مبدأ وقوع الحجاب الذى ذكرناه فاذا ابتلى به المريد ولم تتداركه رحمة من الله تعالى فى الحال العتيد كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه وتبدل الانس بالوحشة وانتساخ الضياء بالظلمة ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال الاولى لانه اذ ذاك تنقطع عنه الامدادات المتصلة والواردات المتحصلة فتنكسف عنه حينئذ شمس العرفان وتستتر عنه المكشوفات والبيان وهذه جنود الله تعالى فى قلب العبد فاذا افتقد النصرة من الله تعالى بذلك وقع فى الخذلان واستحوذ عليه الشيطان فأنساه الذكر وحاق به سيئ المكر ورجع الى متابعة هوى نفسه الامارة وخرج من دائرة الصفوة المختارة فنعوذ بالله من سوء المقدور وعدم التوفيق الى مراعاة أوائل الامور وما احتج به المريد لنفسه من الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله يقتضى توجه هذه العقوبة اليه ضربة لازب لان قوله لو كان هذا سوء أدب الى آخره دليل على رضاه بحاله واستحسانه لاعماله وهذا هو الموجب له عدم المزيد الذى اقتضاه قطع المدد عنه ولو كان المدد متواصلا اليه لازداد عندما يقطع منه سوء الادب تواضعا لربه وافتقارا اليه وخوفا من مكره ولم يستحسن حال نفسه ولم يرضها قال سيدى أبو العباس رضى الله عنه كل سوء أدب يثمر لك أدبا مع الله تعالى فهو أدب وهو الذى أوجب له أيضا التخلية بينه وبين ما يريد الذى اقتضى له اقامته مقام البعد اذ لو كان مقاما فى القرب لبعد عن رؤية نفسه وكان متهما لها فى ارادتها وكان وافقا مع مراد الله به فان أقدم على أمر بارادته وشهوته تداركه الله تعالى بالعصمة وعوق عليه ما أراده وسد عليه مسالكه ولم يخله وما أراد من ذلك ويقال من علامة التوفيق ثلاث دخول أعمال البر عليك من غير قصد منك اليها وصرف المعاصى عنك مع السعى فيها وفتح باب اللجأ والافتقار الى الله تعالى فى كل الاحوال ومن علامة الخذلان ثلاث تعسر الطاعات عليك مع السعى فيها ودخول المعاصى عليك مع الهرب منها وغلق باب اللجأ الى الله تعالى وترك الدعاء فى الاحوال والادب له موقع عظيم فى التصوف ولذلك قال أبو حفص رضى الله عنه التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الاوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يظن القبول وقال أبو عبد الله بن خفيف قال لى رويم يا بنى اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا وقال بعضهم الزم الادب ظاهرا وباطنا فما أساء أحد الادب ظاهرا الا عوقب ظاهرا وما أساء أحد الادب باطنا الا عوقب باطنا وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه اذا خرج المريد عن حد الادب فانه يرجع من حيث جاء وقال النورى رضى الله عنه من لم يتأدب للوقت فوقته مقت وقال ابن المبارك رضى الله عنه نحن الى قليل من الادب أحوج منا الى كثير من العلم وقيل لبعضهم يا سيئ الادب فقال لست بسيئ الادب فقيل له ومن أدبك فقال الصوفية والآداب اللازمة للمريد عامة فى ظاهره وباطنه وآداب الظاهر تبع لآداب الباطن وآداب الباطن هى التحلى بمحاسن الاخلاق كلها وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أدبنى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الاخلاق فقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ولا يحصل لك ذلك بعد توفيق الله تعالى وتأييده الا بالرياضة والمجاهدة قال ابن عطاء الله رضى الله عنه النفس مجبولة على سوء الادب والعبد مأمور

بملازمة الادب فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة فمن أطلق عنانها فهو شريكها فى فسادها و يختلف ماذكرناه من المجاهدة والرياضة باختلاف الاشخاص فرب شخص زكى الفطرة كريم السجية سهل المقادة لا يحتاج فى ذلك الى كثير معاناة ولا تعب ورب شخص يكون حاله على عكس هذا فلا جرم يحتاج الى زيادة تعب وقوة ممارسة وشدة مجاهدة لرداءة فطرته ونقصان غريزته و بين هذين درجات لا تحصى ولهذا كله يحتاج المريد الى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم واتباع أوامرهم ونواهيهم لانه ان لم تجر أقدار الله على مراد غيره لا يصح له الانتقال عن الهوى ولو بلغ فى الرياضة والمجاهدة كل مبلغ وذلك لكثافة حجاب نفسه وقد سئل الدقاق رضى الله عنه بماذا يقوم الرجل اعوجاجه فقال بالتأدب بامام فان لم يتأدب بامام ابى بطالا واذا دام العبد على ذلك تزكت نفسه وطهر قلبه وتهذبت أخلاقه وظهر على ظاهره أنوار ذلك فتكون حركات ظاهره و باطنه مزمومة بزمام الادب حتى تنتهى به الى المحافظة على اجتناب أمور غير مستنكرة فى ظاهر العلم و يكون ترك محافظته عليها ذنبا من مثله وقد يعاتب عليه وقد يعاقب من أجله قال السرى رضى الله عنه صليت العشاء واشتغلت بوردى ليلة من الليالى ومددت رجلى فى المحراب فنوديت يا سرى هكذا تجالس الملوك فضممت رجلى ثم قلت وعزتك وجلالك لا مددت رجلى أبدا قال الجنيد رضى الله عنه فبقى ستين سنة مامد رجله ليلا ولا نهارا (وقال) أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه كان الاستاذ أبو على الدقاق رضى الله تعالى عنه لا يستند الى شئ فكان يوما فى مجمع فاردت أن أضع وسادة خلف ظهره لانى رأيته غير مستند فنحى عن الوسادة قليلا فتوهمت أنه توقى الوسادة لانه لم يكن عليها خرقة ولا سجادة فقال لا أريد الاستناد فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند الى شئ أبدا وقال أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه كنت جالسا فى مسجد الشونيزية أنتظر جنازة أصلى عليها وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ينتظرون الجنازة فرأيت فقيرا عليه أثر النسك يسأل الناس فقلت فى نفسى لو عمل هذا عملا يصون به نفسه كان أجمل به فلما انصرفت الى منزلى وكان لى شئ من الورد بالليل من البكاء والصلاة وغير ذلك ثقل على جميع أورادى فسهرت وأنا قاعد فغلبتنى عينى فرأيت ذلك الفقير جاؤا به على خوان ممدود وقالوا لى كل لحمه فقد اغتبته وكشف لى عن الحال فقلت ما اغتبته وانما قلت فى نفسى شيأ فقيل لى ما أنت ممن يرضى منك بمثله اذهب واستحله فأصبحت ولم أزل أتردد حتى رأيته فى موضع يلتقط من الماء عند تزداد الماء أوراقا من البقل مما تساقط من غسل البقل فسلمت عليه فقال أتعود يا أبا القاسم فقلت لا فقال غفر الله لنا ولك الى غير ذلك من آدابهم رضى الله عنهم أجمعين والظاهر أن مراد المؤلف رحمه الله باساءة الادب ما كان فيه نوع من الرعونة واظهار الدعوى واتصاف العبد بصفة المولى وانبساطه وادلاله فى موقف الهيبة والحياء وما أشبه ذلك مما يخاف على صاحبه وقوع الاستدراج والمكر به ولكن ينبغى للمريد أن لا يتهاون بشئ من الآداب ولا يستحقرها فان التهاون بذلك والاستحقار له من مخامرة الجهل وعدم المعرفة بالله تعالى وهذا أقبح أنواع سوء الادب فان وقعت منه اساءة أدب فليكن خائفا من ذلك مستعظما للامر فيه وليبادر الى التوبة والاعتذار والتنصل منها خشية أن تتوجه اليه العقوبة من حيث لا يشعر وآكد ما ينبغى أن يجتنبه المريد من مقتضيات هذه الجملة التى ظهر لنا أنها مراد المؤلف رحمه الله تعالى

من

من أنواع سوء الادب أن يوطن خاطره على شئ من الاعتراض على الله تعالى وتعاطى التدبير معه والتبرم بأحكامه المؤلمة فى نفسه أو غيره وأن يسرح لسانه بالشكوى الى الخلق والعيب لما يوافق هواه أونقص فى نظره مما يراه من الحق فان خطر بباله أو جرى على لسانه شئ من ذلك فليبادر الى الاستغفار منه والتفصى عنه وليعلم أن تشاغله بذلك من أعظم الحسنات وأفضل القربات وذلك يدخله فى مقامات الرضا ويوصله الى غاية النعيم والعطا كما أن توطينه عليه وتهاونه به من أعظم خطاياه وأكبر ذنوبه و يؤديه ذلك الى تسخط الاقدار والوقوع فى دركات النار نعوذ بالله من ذلك ضاع لبعض الصوفية ولد صغير فلم يعرف له خبرا ثلاثة أيام فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضى عليه فيما قضى أشد على من ذهاب ولدى وقال بعض السادة أذنبت ذنبا فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد فى العبادة لاجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما ذلك الذنب قال قلت مرة لشئ ليته كان وقال بعض السلف لو قرض جسمى بالمقاريض كان أحب الى من أن أقول لشئ قضاه الله ليته لم يقضه وقال بعضهم مرض الجنيد رضى الله عنه فقال اللهم عافنى فسمع هاتفا يقول مالك والدخول بينى و بين ملكى ومن مقتضياتها أيضا أن يتعلق بقلبه شئ من الاعتراض على المشايخ والاولياء وأن يترك تعظيمهم واحترامهم وأن لا يقبل اشارتهم فيما يشيرون به عليه فقد قالوا عقوق الاستاذين لا توبة له وقالوا أيضا من قال لاستاذه لم لا يفلح وقال أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه من صحب شيخا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة وان بقى من أهل السلوك فاسدا لم يصل الى مقصوده فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته فان الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين قال وفى الخبر أن الشيخ فى أهله كالنبى فى أمته وكذلك من سوء أدبه تصدره للتعليم والهداية وتصديه للامر والولاية ومحبته للاستتباع والرياسة وتزينه للجاه والحشمة والقبول بين الناس واستدعاؤه بسره أن يكرم و يعظم ويتبرك به وتقبل يده ويسارع فى قضاء حوائجه وذلك من أضر الاشياء به وهو نتيجة استحسانه لما هو عليه وعدم تفقده لعيوبه واتهام نفسه فى كل حال من أحواله وذلك مذموم منه وقال أبو عثمان رضى الله عنه لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيأ وانما يرى عيوب نفسه من يتهمها فى جميع الاحوال وقال أبو عبد الله السجزى رضى الله عنه من استحسن شيأ من أحواله فى حال ارادته فسدت عليه ارادته الا أن يرجع الى ابتدائه ويروض نفسه تائبا وقال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه سمعت جدى يقول آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه فان استشعر المريد من نفسه شيأ مما ذكرناه فليبادر الى قطع مواده واستئصال عروقه من قبل أن يستحكم ذلك فيه ويرسخ فيه فبدايات الامور هى التى ينبغى أن تراعى كثيرا ومن أنواع سوء أدب المريد المفضى الى عطبه نزوله عن مقتضيات الحقيقة الى رخص الشريعة فقد عدوا هذا من الجنايات العظيمة الموجبة لانحطاط الرتبة والبعد عن محل القرب ولهذا قالوا اذا رأيت المريد انحط عن رتبة الحقيقة الى رخص الشريعة فاعلم أنه قد نقض عهده مع الله وفسخ عقده بينه و بين الله وقال ابن خفيف رضى الله عنه الارادة استدامة الكد وترك الراحة وليس شئ أضر على المريدين من مسامحة النفس فى قبول الرخص والتأويلات وقال يوسف بن الحسين رضى الله عنه اذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجئ منه شئ وقال أبو اسحق

ابراهيم بن شيبان من أراد أن يتعطل ويتبطل فليلزم الرخص ويعني بالرخصة ههنا ما كان مضاد الحال المريد من تناول الشهوات واللذات والميل الى المألوفات والمعتادات والركون الى الدعة والراحات وارتكاب الشبهات والتأويلات فان حال المريد يقتضي مباينته لهذا كله وان كان بعض ذلك مباحا في رخص الشرع لعامة الناس وكان ابراهيم الخواص رضي الله عنه يقول ألا ان هذه الشهوات التي أظلمت قلوب المتعبدين بعد صفاء نورها وفترت أبدانهم بعد اجتهادها وحجبت قلوبهم بعد قربها وأطالت آمالهم بعد قصرها وأنسوا بالمخلوقين بعد الهرب منهم وتوطؤا الفرش بعد الترك فسقتهم الدنيا بكاس سمها فنظروا الى ظاهرها بعد باطنها فناموا بعد السهر وشبعوا بعد الجوع واكتسوا بعد العري * وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام اني انما خلقت الشهوات لضعفاء خلقي فاياك أن تعلق قلبك منها بشيء فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبي من قلبك * وفي أخبار داود عليه السلام يا داود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب محبتي عنك اقطع شهوتك الي فاني انما أبحت الشهوات لضعفة خلقي ما بال الاقوياء أن ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتي فاني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها يا داود لا تجعل بيني وبينك عالما سكران يحجبك بسكره عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين استعن على ترك الشهوات بادمان الصوم يا داود تحبب الي بمعاداة نفسك وامنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة وقال ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات أولاها أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل والثانية أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة والثالثة أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد والرابعة أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر والخامسة أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر والسادسة أن يغلق باب الامل ويفتح باب الاستعداد للموت وقال ابراهيم الخواص رضي الله عنه كنت في جبل لبنان فرأيت رمانا فاشتهيته فدنوت منه فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمعت عليه الزنابير فقلت السلام عليك فقال وعليك السلام يا ابراهيم فقلت كيف عرفتني فقال من عرف الله تعالى لم يخف عليه شيء فقلت أرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك ويقيك من هذه الزنابير فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك ويقيك من شهوة الرمان فان لذع الرمان يجد الانسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا وقال السري رضي الله عنه ان نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة في دبس فما أطعمتها فلما كان ترك الشهوات والتنعمات من شأن المريد ومن مقتضى حاله لزمه الوفاء به وكان عمله على خلافه نقضا وفسخا كما تقدم قال جعفر بن نصير رضي الله عنه دفع الي الجنيد درهما وقال اشتر به التين الوزيري فاشتريته فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فيه ثم ألقاها وبكى وقال احمله فقلت له في ذلك فقال هتف بي هاتف أما تستحي شهوة تركتها من أجلي ثم تعود اليها وعن شقيق بن ابراهيم قال لقيت ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه بمكة في سوق الليل عند مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس ناحية من الطريق يبكي فعدلت اليه وجلست عنده وقلت له أي شيء هذا البكاء يا أبا اسحق فقال خير وعافية فعاودته مرة واثنتين وثلاثة فلما أكثرت عليه قال يا شقيق استر علي فقلت يا أخي قل ما شئت قال لي

اشتهت نفسي سكباجا فمنعتها جهدي فلما كان البارحة كنت جالسا وقد غلبني النعاس فاذا أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج قال فاجتمعت همتي عليه فقرب مني وقال يا ابراهيم كل فقلت ما آكل شيئا قد تركته لله تعالى فقال لي فاذا أطعمك الله تأكل فما كان لي جواب الا أن بكيت فقال لي يرحمك الله كل قال ابراهيم فقلت له قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا الا من حيث نعلم فقال لي كل يرحمك الله فانما أعطيته وقد قيل لي يا خضر اذهب بهذا وأطعم نفس ابراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها اعلم يا ابراهيم أني سمعت الملائكة يقولون من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط فقلت فان كان كذلك فها أنا بين يديك لأجل العقد مع الله عز وجل ثم التفت فاذا أنا بفتى آخر ناوله شيئا وقال له يا خضر لقمه أنت فلم يزل يلقمني حتى شبعت فانتبهت وحلاوته في فمي قال شقيق رضي الله عنه فقلت أرني كفك فأخذت كفه بكفي فقبلتها وقلت يا من يطعم الجياع الشهوات اذا صححوا المنع يا من يقدح في الضمير اليقين يا من سقى قلوبهم من محبته أترى لشقيق عندك حالا ثم رفعت يد ابراهيم الى السماء فقلت الهي بقدر هذه الكف وبقدر صاحبها وبالجود الذي وجد منك جد على عبدك الفقير بفضلك واحسانك ورحمتك وان لم يستحق ذلك قال فقام ابراهيم رضي الله عنه ومشى حتى دخل المسجد الحرام وقال عتبة الغلام لعبد الواحد بن زيد رضي الله عنهما ان فلانا يصف من قلبه منزلة ما أعرفها قال لانك تأكل مع خبزك تمرا وهو لا يزيد على الخبز شيئا فقلت ان تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة قال نعم وغيرها فأخذ يبكي فقال له بعض أصحابه لا أبكى الله عينيك أعلى التمر تبكي فقال عبد الواحد دعه فان نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك هو اذا ترك شيئا لم يعاود فيه أبدا وقال أحمد بن أبي الحواري اشتهى أبو سليمان الداراني رضي الله عنه رغيفا حارا بملح فجئت به اليه فعض منه عضة ثم طرح الرغيف وقال عجلت لي شهوتي بعد اطالة جهدي وشقوتي قد عزمت على التوبة فاقبلني قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى وقال أبو بكر بن الجلاء رضي الله عنه أعرف انسانا تقول له نفسه أنا أصبر لك على طي عشرة أيام وأطعمني بعد ذلك شهوة أشتهيها فيقول لها لا أريد أن أطوي عشرة أيام ولكن اتركي هذه الشهوة وقال أبو سليمان رضي الله عنه ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها وقال أبو حامد الغزالي رضي الله عنه وقد اشتد خوف السلف رضي الله عنهم من تناول لذائذ الاطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ورأوا أن منع الله منه غاية السعادة حتى روي أن وهب بن منبه رضي الله عنه قال التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر من أين فقال أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي وقال الآخر أمرت باهراق زيت اشتهاه فلان العابد وقال وهذا تنبيه على أن تيسير الشهوات ليس من علامات الخير قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه والاصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسباب ذلك ويكون ذلك من الله ابتلاء واختبارا فينبغي أن يصبر ويستمر فانه ان عود نفسه كسر العزم ألفت ذلك وفسدت واذا اتفق منه كسر عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس من كتاب المراقبة فاذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة وتفسد الرياضة عليه بالكلية هذا كلام أبي حامد وهو حسن ومعناه صحيح مجرب فلتعتمد عليه أيها المريد وقد يعجل الله تعالى لبعض هؤلاء العقوبة رحمة له ومنة

عليه قال أبو تراب النخشبي رضي الله عنه ما تمنت نفسي شهوة من الشهوات الا مرة واحدة تمنيت خبزا وبيضا وأنا في سفر فعدلت الى قرية فقام واحد وتعلق بي وقال هذا كان مع اللصوص فضربوني سبعين درة ثم عرفني رجل منهم فقال هذا أبو تراب النخشبي فاعتذر والي فحملني رجل منهم الى منزله وقدم الي خبزا وبيضا فقلت في نفسي كلي بعد سبعين درة وقال بعضهم اشتهى أبو الخير العسقلاني رضي الله عنه السمك سنين ثم ظهر له ذلك من موضع حلال فلما مد يده اليه ليأكل دخلت شوكة من عظامه أصبعه فذهبت في ذلك يده فقال يا رب هذا لمن مد يده بشهوة الى حلال فكيف بمن مد يده بشهوة الى حرام وقال ابراهيم الخواص رضي الله عنه كنت جائعا في الطريق فوافيت الري فخطر ببالي أن لي بها معارف فاذا دخلتها أضافوني وأطعموني فلما دخلت البلد رأيت فيه منكرا احتجت أن آمر فيه بالمعروف فأخذوني وضربوني فقلت في نفسي من أين أصابني هذا الضرب على جوعي فنوديت في سري انما أصابك ذلك لانك سكنت الى معارفك بقلبك وقلت انهم يطعموني اذا دخلت البلد وحكي عن ابراهيم بن سفيان رضي الله عنه أنه قال كنت بحلب واشتهيت شبعة من الخبز والعدس فاتفق ذلك فأكلت حتى شبعت فرأيت على باب المسجد قوارير معلقة شبه نموذجات فتوهمتها خلا فقال لي قائل أما تنظر اليها انها خمر فقلت لزمني فرض فدخلت الحانوت فلم أزل أصب دنا دنا حتى أتيت على الجميع فأخذوني وضربوني مائتي خشبة وطرحوني في السجن أربعة أشهر حتى دخل أستاذي أبو عبد الله المغربي البلد فسمع بحالي فتشفع لي فلما وقع بصره علي قال ما شأنك فقلت شبعة خبز وعدس وضربت مائتي خشبة وسجنت أربعة أشهر فقال لي نجوت مجانا أي وردت عفوية هذه الاكلة على ظاهرك ولم تقدح فيما كنت فيه من سرائرك فكان ذلك رفقا من الله بك قال الامام أبو القاسم القشيري وما أصدق ما قال فان من أدب في دنياه فيما يتعاطاه من متابعة هواه فقد خفف عنه في عقباه بل ظهر بالتأدب جوهره ومعناه وحكاية خير النساج رضي الله عنه المشهورة من معنى ما ذكرناه فانظرها ففيها عبرة للمعتبرين قال الحافظ أبو نعيم رضي الله عنه حدثني جعفر بن محمد بن نصير في كتابه قال سألت خيرا النساج أكان النسج حرفتك قال لا قلت فمن أين سميت به قال عاهدت الله واعتقدت أني لا آكل الرطب أبدا فغلبتني نفسي يوما فأخذت نصف رطل فلما أكلت واحدة اذا برجل نظر الي وقال يا خير أين هربت مني وكان له غلام اسمه خير فوقع علي شبهه وصورته فخنقني واجتمع الناس فقالوا والله هذا غلامك خير فبقيت متحيرا وعلمت بماذا أخذت وعرفت جنايتي فحملني الى حانوته الذي كان ينسج فيه صناعه فقالوا يا عبد السوء تهرب من مولاك أدخل واعمل عملك الذي كنت تعمل وأمرني بعمل الكرباس فدليت رجلي على أن أعمل فأخذت بيدي آلته فكأني كنت أعمل من سنين فبقيت معه شهرا أنسج له فقمت ليلة فتمسحت وقمت الى صلاة الغداة فسجدت وقلت في سجودي الهي لا أعود الى ما فعلت فأصبحت فاذا الشبه قد ذهب عني وعدت الى صورتي التي كنت عليها فأطلقت فثبت علي هذا الاسم فكان سبب النسج اتباعي شهوة عاهدت الله تعالى أن لا آكلها فعاقبني بما سمعت وفي بعض الاخبار عن الله تعالى ان أدنى ما أصنع بالعالم اذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي وسنأتي ان شاء الله تعالى كيفية مجاهدة النفس عند قوله لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ولهذا المعنى كرهوا التزويج من غير ضرورة محققة لانه انما يقصد بذلك قضاء شهوته وبلوغ نهمته

وذلك في الضرر به بمنزلة السم القاتل وقد قالوا من وافق شهوته عدم صفوته وقال بعضهم من هم بشيء مما أباحه العلم تلذذا عوقب بتضييع العمر وقسوة القلب وتعب الهم بالدنيا وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه ثلاث من طلبهن فقد ركن الى الدنيا من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث وقال ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته وكان ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه يقول من تعود أفخاذ النساء لا يفلح وقيل لبعضهم لم لا تتزوج فقال المرأة لا تصلح الا للرجال وأنا ما بلغت مبلغ الرجال ثم فيه من مكابدة أمر غيره ومن مراعاة توفية حقوقه ومعاناة أخلاقه واتباع مرضاته ما يشوش على المريد حاله ويكدر عليه وقته وقد كان له في معاناة أمر نفسه أعظم شاغل من أن تنضاف الى نفسه نفس أخرى مع ما يتسلط على باطنه من خوف الفقر ومحبة الجمع والمنع وما يرتكبه بسبب ذلك من التأويلات والرخص وذلك كله مضاد لحال المريد وقد قالوا اذا تزوج الصوفي فقد ركب السفينة فاذا ولد له فقد غرقت السفينة وكان بشر الحافي رضي الله عنه يقول لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلوازا على الجسر وفي الخبر في فتن آخر الزمان قال وفي ذلك الوقت حلت العزبة فقيل وكيف قال يعيرونه بالفقر فيتكلف ما لا يطيق فيورده موارد الهلكة وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ قيل يا رسول الله وما خفيف الحاذ قال الذي لا أهل له ولا ولد وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه اياكم والاستماع الى النساء والميل اليهن فان النساء مبعدات من الحكمة قريبات من الشيطان وهن مصايده وحظه من بني آدم فمن عطف اليهن بكليته فقد عطف على حظ الشيطان ومن حاد عنهن يئس منه وما مال الشيطان الى أحد بكليته الى من استرق بالنساء وان الشر معهن حيث كن فاذا رأيتم في وقتكم من قد ركن اليهن فأيسوا منه قيل له فقد حببت النبي صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم ثلاث فذكر النساء فقال النبي صلى الله عليه وسلم معصوم وقد بلغكم ما كان فيه معهن هي عدوة الرجل ظاهرا وباطنا ان أظهرت له المحبة أهلكته وان أضمرتها له أغوته وان الله عز وجل جعلهن فتنة فنعوذ بالله من فتنتهن انتهى كلام سهل رضي الله عنه وقال حذيفة المرعشي رضي الله عنه كان ينبغي للرجل لو خير بين أن يضرب عنقه وبين أن يتزوج امرأة في الفتنة لاختار ضرب العنق على تزويج المرأة في الفتنة وانما قال ذلك لما يؤول اليه أمر المتزوج من اكتساب الحرام وارتكاب الآثام في زمان الفتنة وضرب العنق أحسن حالا وأحمد عاقبة من التعرض لارتكاب شيء من معاصي الله عز وجل فان قارب شيأ من ذلك المريد فهو داء عضال في حقه فقد قالوا زلة بعد الارادة أقبح من سبعين زلة قبل الارادة وفي المثل من عرف بالخيانة لا يعتمد عليه في الامانة وقال بعض الانبياء في مناجاته لربه لو عفوت عن فلان ذنوبه بعد عظيم تعملك فأوحى الله اليه لبس الذنب في القرب كالذنب في البعد وسئل بعضهم هل يجد العاصي حلاوة الطاعة فقال لا ولا من هم بالمعصية ومن عظيم سوء أدب المريد أن يميل الى أهل الدنيا وأن يتقرب منهم أو أن يصاحبهم قال الامام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا فان صحبتهم سم مجرب لانهم ينتفعون به وهو ينتقص بهم قال الله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله لا تصحب من لا ينهضك حاله ومن ذلك أيضا معاشرته للاحداث والشبان وقبول ارفاق النسوان فان

(اذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى) أى جعله قائما (بوجود الاوراد) بأن أظهرها منه (وأدامه عليها) أى جعله مداوما عليها (مع طول الامداد) أى المعونة والتيسير وصرف الشواغل التى تشغله عن القيام بها والمراد بطول ذلك توالبه عليه مع طول الزمان فطوله بطول الزمان الذى يحصل فيه وهذه صفة العباد والزهاد (فلا تستحقرن ما منحه) أى أعطاه (مولاه) وعلل الاستحقار بقوله (لانك) أى لكونك (لم تر عليه سيما ٦٤ العارفين) أى علامتهم من ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والارادات ودوام الحضور بين يدى الله (ولا بهجة المحبين) وهى ما يعلوهم من شواهد المحبة وآثارها فان محبة الله اذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح كدوام ذكره والمسارعة لامتثال أمره والعمى عن غيره فيجتهد فى خدمته ويتلذذ بمناجاته ويؤثره على كل ما سواه ثم علل عدم الاستحقار بقوله (فلولا وارد) الهى أورده الله على قلبه أى تجل الهى (ما كان ورد) وهو ما يقع بكسب العبد من أنواع العبادات كصلاة وصيام وذكر الى غير ذلك أى فيكون استحقارك له قلة الادب معه والحاصل أن عباد الله المخصوصين ينقسمون قسمين مقربين وأبرار فالمقربون هم الذين أخذوا عن حظوظهم وارادتهم وقاموا بحقوق ربهم عبودية له وطلبا لمرضاته وهؤلاء هم العارفون والمحبون والابرار هم الباقون مع حظوظهم وارادتهم وقاموا بعبادة ربهم طمعا فى جنته وهربا من ناره وكل واحد منهم ممدود فى مقامه الذى هو فيه بمدد الهى اقتضى منه القيام بحقوق ذلك المقام والى ذلك أشار بقوله (قوم أقامهم الحق) أى اختارهم (لخدمته) وطائفة بطاعته الظاهر به حتى صلحوا الجنة وهم الزاهدون والعابدون كما مر (وقوم اختصهم بمحبته) حتى صلحوا القربة والدخول فى حضرته وهم المحبون والعارفون والكل مشتركون فى الانتساب اليه وخدمته لكن خدمة الاولين أكثرها بالجوارح والآخرين أكثرها بالقلب (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) أى ممنوعا فاذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الاقامة والتخصيص منعه ذلك مما ذكر من الاحتقار قال أبو يزيد اطلع الله تعالى على قلوب أوليائه فمنهم

نعرض لاستجلاب ذلك منهن فهو أشد قال يوسف بن الحسين الرازى رضى الله عنه رأيت آفات الصوفية فى صحبة الاحداث ومعاشرة الاضداد ورفق النسوان قال الامام أبو القاسم ومن أصعب الآفات فى هذه الطريق صحبة الاحداث ومن ابتلاه الله بشئ من ذلك فباجماع من الشيوخ أن ذلك عبد اهانه الله عز وجل وخذله بل عن نفسه شغله ولو بألف ألف كرامة أهله ثم قال بعد كلام كثير فليحذر المريد من مجالسة الاحداث ومخالطتهم فان اليسير منه فتح باب الخذلان وبدء حال الهجران ونعوذ بالله من قضاء السوء وآداب المريد كثيرة وانما نبهنا ههنا على بعض ما يعظم فيه الخطر والضرر مما حذر منه أئمتنا رضى الله عنهم وبالغوا فى التوصية به والنهى عنه وجميع ذلك محتمل لان يكون مراد المؤلف رحمه الله تعالى فى قوله من جهل المريد أن يسئ الادب فرأينا أن لا يخلو هذا الموضع من هذا التنبيه لان ذلك يقع للمريدين كثيرا والله ولى التوفيق (اذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى بوجود الاوراد وأدامه عليها مع طول الامداد فلا تستحقرن ما منحه مولاه لانك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين فلولا وارد ما كان ورد) عباد الله المخصوصون ينقسمون الى قسمين مقربين وابرار فالمقربون هم الذين أخذوا عن حظوظهم وارادتهم واستعملوا فى القيام بحقوق ربهم عبودية له وطلبا لمرضاته وهؤلاء هم العارفون والمحبون والابرار هم الذين بقوا مع حظوظهم وارادتهم وأقيموا فى الاعمال والطاعات ليجزون عليها برفيع الدرجات فى الجنات وهؤلاء هم الزاهدون والعابدون وكل واحد منهم ممدود فى مقامه الذى هو فيه بمدد الهى اقتضى منهم القيام بحقوق مقاماتهم على اختلافها فاذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى فى أعمال البر الظاهرة ومواصلة الاوراد المتواترة وأمده فى ذلك بالمعونة والتيسير فذلك من اختيار الله تعالى له فلا تحتقرن ذلك لاجل أنك لم تر عليه سيما العارفين من ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والارادات بين يدى المريد المختار ولا بهجة المحبين من الشغف بمرضاة محبوبهم والانبساط والادلال بين يدى حبيبهم فلولا الوارد الالهى الذى أورده الله تعالى عليه ما استقام على عمله ووردة فهو لم يخرج عن دائرة عنايته وحفظه ورعايته فلا تستحقر خطير ما منحه وتستقل كثير ما ربحه وهل ذلك الا من وجود جهلك ونقصان عقلك وسيأتى من كلام المؤلف رحمه الله لا يستحقر الوارد الا جهول (قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصهم بمحبته كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) الحق تعالى له الاختيار التام والمشيئة النافذة لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فطائفة أقامهم الحق تعالى لخدمته حتى صلحوا الجنة وهم الزاهدون والعابدون كما تقدم

من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة (فلما تكون الواردات الالهية) أى قل حصولها (الابغتة) أى غير بغتة والمراد بها العلوم الوهبية والاسرار العرفانية التى يتحف الله بها عباده ولا تكون فى الغالب الا بغتة أى فجأة من غير استعداد لها بعبادة من صلاة وصيام وغيرها (لئلا يدعيها العباد) أى يرون أنهم أهل لها (بوجود الاستعداد) لها بالاجتهاد فى الاوراد والعبادات تمسكا بنحو قوله صلى الله عليه وسلم ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه وغفلوا عن كون همتهم متعلقة بالدار الآخرة لا به فلا تحصل لهم معرفته الخاصة ولا واردات الهية وحاصله أن الواردات هدايا من الله تعالى ومنح منه فلا تحصل عقب العبادات الصادقة وبمورها بل تحصل بعد ذلك بغتة وحصولها عقب العبادات نادر قليل (من رأيته) من المريدين أو العارفين (مجيبا عن كل ما سئل) أى سئل عنه من العلوم التى يفيضها الله على قلوب السالكين والمواهب اللدنية التى يخص بها العارفين (ومعبرا عن كل ما شهد) أى شهده وذاقه بباطنه وهى تلك العلوم ٦٥ والمواهب (وذاكرا كل ما علم) من تلك العلوم (فاستدل بذلك على وجود جهله) لان اجابته عن كل سؤال تقتضى احاطته بكل المعلومات وذلك محال فى حقه قال تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ولانه يجب مراعاة حال السائل فقد لا يكون فى بعض السائلين أهلية للمسؤل عنه فتكون اجابته منه من الجهل وتعبيره عن كل مشهود له فيه نوع من افشاء السر الذى يجب كتمانه وقد قالوا قلوب الاحرار قبور الاسرار والسر أمانة الله تعالى عند العبد فافشاؤه بالتعبير عنه خيانة وأيضا فالامور المشهودة لا يستعمل فيها الا الاشارة والايماء واستعمال العبارة فيها امتهان لها وفيه ابتذالها ثم ان العبارة عنها لا تزيدها الا غموضا وانغلاقا لان الامور الذوقية يستحيل ادراكها بالعبارات النطقية وذكره لكل معلوم له دليل على عدم تفرقته بين المعلومات وقد يكون فيها ما لا يصح ذكره لما يلزم عليه من الضرر والفساد وانكار الناس له قال صلى الله عليه وسلم ان من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه الا العلماء بالله فاذا أظهروه أنكره أهل الغرة بالله * وقال على بن الحسين بن على رضى الله عنه يارب جوهر علم لو أبوح به * لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا ولاستحل رجال مسلمون دمى * يرون أقبح ما يأتونه حسنا انى لاكتم من علمى جواهره * كى لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا وقال أبو هريرة رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من العلم أما أحدهما فبثثته للناس وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم منى هذا الحلقوم ولذا قتل الحلاج بافشاء شئ من ذلك حيث قال ما فى الجبة الا الله وذلك أن أهل الله يدركون وجود الله فى الاشياء أى قيامه بها وظهوره فيها وهذا غاية ما يمكن أن يعبر به عن مقصودهم والا فهو أمر لا يدرك الا بالذوق وقد ذقناه بحمد الله فمصدوق ما سئل وما شهد وما علم واحد وانما يختلف باعتبار السؤال عنه وافشائه بالعبارة وعموم ذكره

(٩ ـ عباد ل)

وطائفة اختصهم بمحبته حتى صلحوا القربة والدخول الى حضرته وهم العارفون والعلماء قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه الزاهد صيد الحق من الدنيا والعارف صيد الحق من الجنة فاذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الاقامة والتخصيص منعه ذلك مما ذكرناه من الاستحقار وسلم الامر لمن بيده التدبير والاختيار قال أبو يزيد رضى الله عنه اطلع الله تعالى على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة وذكر الحافظ أبو نعيم فى كتابه حلية الاولياء عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال ان الله تعالى يطلع على أهل قرية أو بلدة فيريد أن يقسم لهم من نفسه قسما فلا يجد فى قلوب العباد ولا قلوب الزهاد موضعا لتلك القسمة من نفسه فيمن عليهم أن يشغلهم بالتعبد عن نفسه وقال أبو العباس الدينورى رضى الله عنه ان لله عبادا لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمعرفته والاشارة بالآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله بينة فى هذا المعنى وقال رضى الله عنه * (فلما تكون الواردات الالهية الا بغتة لئلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد) الواردات الالهية هدايا من الله تعالى وتحف وكرامات يكرم بها عباده فلا تكن فى الغالب الا بغتة أى فجأة لئلا يدعوها ويرون أنفسهم أهلا لها بوجود استعدادهم وتهيئهم وتحف الله تعالى وهداياه مقدسة عن أن تعلل بأمر ومنزهة عن أن تقابل بأعمال بل هى محض كرم وفضل من الكريم المتفضل * (من رأيته مجيبا عن كل ما سئل ومعبرا عن كل ما شهد وذاكرا كل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله) الاجابة عن كل سؤال والتعبير بكل مشهود والذكر لكل معلوم أمارات على وجود جهل من اتصف بها كما قال أما الاجابة عن كل سؤال فلاقتضائها منه الاحاطة بجميع المعلومات وذلك محال فى حقه قال الله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فكيف يتصور منه مع هذا الاجابة عن كل سؤال لولا وجود جهله وأيضا فانه يجب عليه أن يراعى حال السائل من وجود الاهلية لما سأل عنه فيمتنع عن اجابة

من لا أهلية فيه لذلك و يفعل مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه مع السائل الذى جاء يسأله أن يعلمه من غرائب العلم فانه استفصله وقال له مافعلت فى رأس العلم وفى كذا وفى كذا فأجابه السائل فقال له النبى صلى الله عليه وسلم اذهب فأحكم ماهنالك ثم تعال حتى أعلمك من غرائب العلم وكما أخذ الله تعالى على العلماء أن لا يكتموا العلم عن أهله كذلك أخذ عليهم أن يصونوه عن غير أهله فمن لا يسلك هذا المسلك فهو جاهل وأما التعبير بكل مشهود فلان فيه نوعا من افشاء السر الذى يجب كتمه وقد قالوا قلوب الاحرار قبور الاسرار والسر أمانة الله تعالى عند العبد فافشاؤه بالتعبير عنه خيانة والله تعالى لا يحب الخائنين وأيضا فان الامور المشهودة لا يستعمل فيها الا الاشارة والايماء واستعمال العبارة فيها افصاح بها واشهار لها وفى ذلك ابتذال لها واذاعتها ثم ان العبارة عنها لا تزيدها الا غموضا وانغلاقا لان الامور الذوقية يستحيل ادراك حقائقها بالعبارات النطقية فيؤدى ذلك الى الانكار والقدح فى علوم السادة الاخيار قال أبو على الروذبارى رضى الله تعالى عنه علمنا هذا اشارة فاذا صار عبارة خفى وأما الذكر لكل معلوم فلعدم تفريقه بين المعلومات وقد يكون له علم يختص به فاذا ذكره لغيره استغرب به وان كان ينتفع به هو فعدم تفريقه بين المعلومات فى ذكرها من وجود جهله ‌• (انما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين لان هذه الدار لا تسع مايريد أن يعطيهم ولانه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها) انما جعل ثواب المؤمنين فى الدار الآخرة فيما ظهر لنا لوجهين أحدهما أن الدنيا لا تسع مايريد أن يعطيهم من أنواع النعيم حسا ولا معنى أما الحس فلان الدنيا متدانية المسافات ضيقة الاقطار ويعطى الله تعالى لآحاد المؤمنين فى الدار الآخرة فى ملك واحد منهم كما ورد فى الخبر مسيرة خمسمائة عام فما ظنك بخواصهم فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم وأما المعنى فلان الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والخساسة والحقارة والاشياء التى يتنعم بها أهل الجنة أمور شريفة رفيعة كما جاء فى الاخبار ان موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا ومافيها وان نور سوار حوراء يطمس نور الشمس وما أشبه هذا ويكفى فى ذلك قوله عز من قائل فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والثانى أن الله تعالى أجل أقدار عباده المؤمنين فلم يجعل لهم الجزاء على طاعاتهم فى دار فانية منقضية منصرمة لان كل مايفنى وان طالت مدته كلا شئ بل أعطاهم الخلود فى النعيم والبقاء الدائم فى الملك المقيم وناهيك به شرفا تسميته اياهم باسمه الكريم وهو الحى الذى لا يموت ‌• جاء فى تفسير قوله تعالى وملكا كبيرا أنه يرسل الله تعالى الملك الى وليه و يقول له استأذن على عبدى فان أذن لك فادخل والا فارجع فيستأذن عليه من سبعين حجابا ثم يدخل عليه ومعه كتاب من الله عز وجل عنوانه من الحى الذى لا يموت الى الحى الذى لا يموت فاذا فتح الكتاب وجد مكتوبا فيه عبدى اشتقت اليك فزرنى فيقول هل جئت بالبراق فيقول نعم فيركب البراق فيغلب الشوق على قلبه فيحمله شوقه و يسبق البراق الى أن يصل الى بساط اللقاء ‌• (من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول آجلا) ثمرة العمل وجدان الحلاوة فيه والنعيم به و يتصور ذلك فى أكثر الاعمال بالمواظبة عليه على حال تكره واستثقال له هذا هو غالب الامر قال بعض

(انما جعل) تعالى (الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين لان هذه الدار لا تسع مايريد أن يعطيهم) من أنواع النعيم حسا ولا معنى أما الاول فلانها ضيقة الاقطار ويعطى الله لآحاد المؤمنين فى الدار الآخرة فى ملك واحد منهم مسيرة سبعمائة عام كما ورد فى الخبر فما ظنك بخواصهم فتضيق لا محالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم وأما الثانى فلان الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والاشياء التى يتنعم بها أهل الجنة أمور شريفة رفيعة كما جاء فى الاخبار ان موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا ومافيها وان نور سوار حوراء يطمس نور الشمس وما أشبه هذا (ولانه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها) لان كل مايفنى وان طالت مدته كلا شئ بل أعطاهم الخلود فى النعيم والبقاء الدائم فى الملك المقيم (من وجد) من المريدين (ثمرة عمله) أى من الحلاوة فيه والنعيم به (عاجلا) أى فى الدنيا (فهو دليل على وجود القبول آجلا) أى قبول الله له قال أبو تراب اذا صدق العبد فى العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله واذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل والاعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة

العارفين ليس شئ من البر الا ودونه عقبة يحتاج الى الصبر فيها فمن صبر على شدتها أفضى الى الراحة والسهولة وانما هى مجاهدة النفس ثم مخالفة الهوى ثم مكابدة فى ترك الدنيا ثم اللذة والتنعم وقال عتبة الغلام رضى الله تعالى عنه كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة وقال ثابت البنانى رضى الله تعالى عنه كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة وقال بعض العلماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه رضى الله عنهم ثم رفعت الى مقام فوقه وكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تصدق الله تعالى بمنزلة أخرى فأنا الآن كأنى أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه وماذكرناه من الحلاوة والنعيم انما هو ثمرة الاعمال الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى قال أبو تراب رضى الله تعالى عنه اذا صدق العبد فى العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله واذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل والاعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله تعالى ورد فى الخبر لا يقبل الله تعالى من مسمع ولا مراء ولا دليل خطابه أن العمل السالم من الرياء والسمعة مقبول من قوله عز من قائل انما يتقبل الله من المتقين وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل كما يقول المؤلف بعد هذا وذلك علامة على وجود الجزاء عليه فى الدار الآخرة حسبما يأتى فى قوله وجدان ثمرات الطاعات عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه كل عمل ليس له ثواب فى الدنيا ليس له جزاء فى الآخرة فحصل من هذا أن وجدان الحلاوة علامة على وجود القبول المقتضى لوجود الرضا والجزاء ولذلك قال الحسن رضى الله تعالى عنه تفقدون الحلاوة فى ثلاث فان وجدتموها فابشروا وامضوا لقصدكم وان لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق عند تلاوة القرآن وعند الذكر وعند السجود وزاد غيره وعند الصدقة وبالاسحار وقيل فى قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان قال جنة معجلة وهى حلاوة الطاعات ولذاذة المناجاة والاستئناس بفنون المكاشفات وجنة مؤجلة هى فنون المثوبات وعلو الدرجات قلت وهذه الحلاوة المذكورة لا تكون الا فى مقام المعرفة الخاصة وهى التى تنافيها المعصية قيل لبعضهم هل تعرف الله تعالى فغضب على السائل وقال أترانى أعبد من لا أعرفه فقال له أو تعصى من تعرفه وقيل لبعضهم بم تعرف أنك عرفته فقال لم أقصد مخالفته الا ورد على قلبى استحياء منه وقال اسمعيل بن نجيد رضى الله تعالى عنه التهاون بالامر من قلة المعرفة بالآمر فان العصيان فى حال العرفان بعيد فان وقعت منه زلة أو هفوة بحكم وكان أمر الله قدرا مقدورا وجد لا محالة لذلك مرارة وألما فى قلبه فوجدان هذه المرارة والالم فى المعصية علامة على صحة ماوجد من الحلاوة والنعيم فى الطاعة فهذه هى الحلاوة التى هى الميزان للاعمال المقبولة وغير المقبولة كما ذكرناه وأما الحلاوة التى يجدها من دون أهل هذا المقام فى بعض العبادات فمدخولة معلولة الا مافيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة والحلاوة على الاطلاق اذا وجدها العامل فى العمل لا ينبغى له أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن اليها وكذلك أيضا لا ينبغى له أن يقصد بعمله الى نيلها لما له فيها من اللذة والحظ فان ذلك مما يقدح فى اخلاص عبادته وصدق ارادته وليكن اعتناؤه بحصولها لتكون مبرئا بالاعمالة ومحكا لاحواله فقط ‌• قال الواسطى رضى الله تعالى عنه استحلاء الطاعات سموم قاتلة قال فى لطائف المنن وصدق

بفضل الله وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل وذلك علامة على وجود الجزاء عليه فى الدار الآخرة كما سيأتى واذا وجد تلك الحلاوة لا ينبغى أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن اليها وكذا لا ينبغى أن يقصد بعمله حصولها لما فيها من اللذة والحظ فان ذلك مما يقدح فى اخلاص عبادته وصدق ارادته وليكن اعتناؤه بها لتكون مبرئا بالاعماله وتصحيحا لاحواله فقط

الواسطي فاقل ما في ذلك أنك اذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائما فيها متطلبا لحلاوتها فيفوتك صدق الاخلاص في نهوضك لها وتحب دوامها لا قياما بالوفاء ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة فتكون في الظاهر قائما لله وفي الباطن انما قمت لحظ نفسك ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاء تعجلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك

* (اذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيماذا يقيمك) هذا ميزان صحيح وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه فان الله عز وجل ينزل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه وهذا الانزال المذكور المنسوب الى العبد هو معنى الاقامة المذكورة اذ العبد لا فعل له على التحقيق قال الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه انما يطيع العبد ربه على قدر منزلته منه وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله تعالى عنه فاذا كان العبد لنظر مولاه مكرما ولحرماته معظما والى محبوبه ومرضاته مسارعا كان الله عز وجل له في الآخرة لوجهه مكرما ولشأنه معظما والى مسرته من النعيم المقيم مسارعا واذا كان العبد بحق مولاه متهاونا وبامره مستخفا ولشعائره مستصغرا كان الله عز وجل له مهينا وبشأنه متهاونا والى ما يكره من العذاب الاليم له مسارعا والعياذ بالله من ذلك وقال وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه قرأت في بعض الكتب يا ابن آدم اطعني فيما أمرتك ولا تعلمني بما يصلحك اني عالم بخلقي انما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري لست بناظر في حق عبدي حتى ينظر عبدي في حقي * (متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة) المطلوب من العبد شيآن اقامة الامر في الظاهر والتعلق بالله في الباطن وهو الاستغناء به عن غيره فاذا رزق الله تعالى العبد هذين الامرين فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة وأوصله الى غاية الامل في الدنيا والآخرة سبحانه جل وعلا وقال رضي الله تعالى عنه * (خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك) ان كان لا بد من الطلب منه فاطلب ما هو طالبه منك من الاستقامة على سبيل العبودية له فذلك خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك لانك حينئذ تكون به وله ويسعفك بمطلوبك عاجلا من غير تأخير وأما ان طلبت منه حظ نفسك ونيل مرادك فقد يحصل في ذلك تأخير ومنع مع ما يفوتك حينئذ من حسن الادب في الطلب * يحكى عن أبي الحسين الديلمي رضي الله تعالى عنه أنه قال وصف لي بانطاكية انسان أسود يتكلم على القلوب قال فقصدته فلما رأيته رأيت معه شيأ من المباحات يريد أن يبيعه فساومته وقلت له بكم تبيع هذا فنظر الي ثم قال اقعد فانك جائع منذ يومين حتى اذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيأ قال فمضيت الى غيره وتغافلت كأني لم أسمع ما قال وساومت غيره ما كان بين يديه ثم رجعت اليه وقلت له بكم تبيع هذا فنظر الي وقال اقعد فانك جائع منذ يومين حتى اذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيأ قال فوقع في قلبي منه هيبة فلما باع ذلك أعطاني شيأ ومضى قال فمضيت خلفه لعلي أستفيد منه شيأ قال فالتفت الي وقال اذا عرضت لك حاجة فانزلها بالله الا أن يكون لك فيها حظ فتحجب بها عن الله تعالى ومن دعاء أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه اللهم وكل سؤال سألتك فعن أمرك لي بالسؤال فاجعل سؤالي اليك سؤال محابك ولا تجعلني ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ بل يسأل القيام بواجب حقك ومن دعائه أيضا اللهم اني أسألك منك ما هو لك

(اذا أردت أن تعرف قدرك عنده) هل أنت من المقبولين السعداء أو من المردودين الاشقياء (فانظر فيماذا يقيمك) من طاعة أو ضدها فمن كان من أهل السعادة والقبول استعمله مولاه فيما يرضيه عنه من أنواع الطاعات ومن كان من أهل الشقاوة استعمله فيما يسخطه عليه من أنواع المخالفات وهذا يناسب العامة وأما الخاصة فيقال فيه ان أردت أن تعرف قدرك أي منزلتك عنده هل أنت من المقربين أو لا فانظر فيماذا يقيمك أي يورده على قلبك من ادراك جلاله وعظمته قال عليه الصلاة والسلام من أراد أن يعلم منزلته عند الله فليعلم منزلة الله من قلبه (متى رزقك الطاعة) أي امتثال الاوامر واجتناب النواهي في ظاهرك (والغنى به عنها) بأن لا تركن اليها في نيل مطلوبك بل تعلق قلبك بمولاك وتغيب عن كل شئ سواه (فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة) وهي تلك الطاعة (وباطنة) وهي معرفتك التي أوجبت لك الغيبة عنها وعدم رؤيتها (خير ما تطلبه منه) أي أفضل الاشياء التي تطلبها منه (ما هو طالبه منك) من الاستقامة على سبيل العبودية له فهذا خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك دنيوية كانت أو أخروية فان في ذلك حظا لنفسك

واستعبدك

وأستعبدك من كل أمر يسخطك اللهم ولا تشغلني بشغل من شغله عنك ما أراده منك الا أن يكون لك اللهم اجعلني ممن يذكرك ذكر من لا يريد بذكره منك الا ما هو لك اللهم اجعل غاية قصدي اليك ما هو لك ولا تجعل قصدي اليك ما أطلبه منك * (الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض اليها من علامات الاغترار) هذا هو الحزن الكاذب الذي يكون معه البكاء الكاذب كما قالوا كم من عين جارية وقلب قاس وهو من مكر الله تعالى الخفي حيث منعه ما ينفعه وأعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء سمعت رابعة رضي الله تعالى عنها رجلا يقول واحزناه فقالت قل واقلة حزناه لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس وأما الحزن الصادق فبخلاف هذا وهو مقام من مقامات السالكين وهو يبعث على الانكماش في الاعمال والنهوض الى الطاعات على كل حال قال الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه صاحب الحزن يقطع من طريق الله عز وجل في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين وفي الخبر ان الله يحب كل قلب حزين وفي التوراة ان الله اذا أحب عبدا نصب في قلبه نائحة واذا أبغض عبدا نصب في قلبه مزمارا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الاحزان دائم الفكر وقيل الحزن اذا فقد من القلب خرب ومن لم يذق طعم الحزن لم يذق لذة العبادة فاذا الحزن الذي يجده العبد من نفسه ان لم يبعثه على النهوض والانكماش والاجتهاد فذلك من علامات الاغترار وليس بمقام السالكين الابرار * (ما العارف من اذا أشار وجد الحق أقرب اليه من اشارته بل العارف من لا اشارة له لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده) الاشارة ألطف من العبارة وهي كناية وتلويح وايماء لا تصريح وهي التي يستعملها أهل هذه الطريقة فيما بينهم عند ذكرهم لاسرار التوحيد كما تقدم عند قوله من رأيته مجيبا عن كل ما سئل ومعبرا عن كل ما شهد فالمشير الى الله تعالى الملاحظ لاشارته وان وجد الله تعالى أقرب اليه من اشارته غير عارف على التحقيق لانه يوصف التفرقة بشهوده للاغيار بل العارف الفاني في وجوده المنطوي في شهوده الذي غاب عن الاشارة والمشير والمشار به * سئل الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه عن المريد فقال حقيقة المريد أن يشير الى الله تعالى فيجد الله مع نفس الاشارة فقيل له فالذي يستوعب حاله قال هو الذي يجد الله باسقاط الاشارة وسئل أبو علي

(الحزن على فقدان الطاعة) بضم القاف وكسرها أي عدم وجودها في الحال (مع عدم النهوض اليها) في المستقبل (من علامات الاغترار) أي التعويل على ما لا حقيقة له وهذا هو الحزن الكاذب الذي يكون معه البكاء الكاذب كما قيل كم من عين جارية وقلب قاس وهو من مكر الله الخفي حيث منعه ما ينفعه وأعطاه ما يغتر به من الحزن والبكاء فانه قد يستحسن بذلك حاله ويعد نفسه شيأ أما الحزن الصادق وهو الذي يبعث على الطاعات ويكون معه البكاء الصادق فهو من مقامات السالكين قال أبو علي الدقاق صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه في سنين (ما العارف من اذا أشار) الى شئ من أسرار الحق سبحانه (وجد الحق أقرب اليه من اشارته) بأن كان حاضرا معه لم يغب عنه بل هو ملاحظه في حال اشارته وأقرب اليه منها فهذا ليس بعارف حقيقة لبقائه مع نفسه لانه حينئذ ملاحظ أن هناك مشيرا ومشارا اليه ومشارا به وما دام يتعقل أنه مشير والحق مشار اليه وذلك الكلام الذي صدر منه اشارة فهو الى الآن لم يفن عن نفسه ولم يخرج عن دائرة حسه والاشارة ألطف من العبارة لانها ايماء فقط وتلويح لا تصريح وهي التي يستعملها أهل الطريق رضي الله تعالى عنهم فيما بينهم عند ذكرهم لما يفتح الله به عليهم من الاسرار التوحيدية والعلوم اللدنية والمواجيد والاذواق فالمشير الى شئ من ذلك الملاحظ لاشارته وان وجد الله تعالى أقرب اليه منها بأن لم يغب عنه في حال الاشارة غير عارف على التحقيق لانه يوصف التفرقة بشهوده للاغيار (بل العارف) حقيقة (من لا اشارة له) أي من لا يشهد أن له اشارة وان وقعت منه (لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده) الضمير لذلك العارف وفي بمعنى عن أي لفنائه عن وجود نفسه وانطوائه عن شهودها ويحتمل عوده للحق سبحانه وتعالى أي ان العارف حقيقة هو الذي غاب عن الاشارة والمشير والمشار به فاذا وقعت منه اشارة لا يشهدها ولا يشعر بها لكون المشير والمشار اليه حينئذ هو الله تعالى لان العارف حينئذ في مقام الجمع ومن كان كذلك فهو غائب عن رؤية نفسه قال الشيخ يوسف العجمي قدس الله سره من تكلم في مقام الجمع فليس بمتكلم وانما المتكلم الحق سبحانه على لسان عبده وهو قوله في الخبر القدسي فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق اهـ وسئل بعضهم عن الفناء فقال هو أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والدرجات والاحوال والمقامات والاذكار وتفنيه عن كل شئ وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الاشياء وعن فنائه عن الفناء فيغرق في التعظيم اهـ

الرجاء) أى الحقيقى (ماقارنه عمل) أى ما كان باعثا على الاجتهاد فى الاعمال كما مر فى الحزن لان من رجا شيأ طلبه ومن خاف
من شئ هرب منه (والا) يقارنه عمل بل كان يفتر صاحبه عن العمل ويجرئه على المعاصى والذنوب (فهو أمنية) أى
فليس برجاء حقيقة عند العلماء بل هو أمنية واغترار بالله تعالى ويقال له أيضا رجاء كاذب قال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا والخلف الردىء من الناس وقال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى (مطلب العارفين من الله تعالى) أعلى من مطلب غيرهم سواء كان عابدا أو زاهدا أو عالما لان مطلبهم انما هو (الصدق فى العبودية) وهو التزام آدابها والتخلق باخلاقها والقيام بحقوق الله فيها كالشكر على ما أولاه والصبر على ما ابتلاه ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه وترك الاختيار عليه والتدبير معه ودوام المراقبة له والوقوف ببابه لابسا ثوب التواضع والذلة باسطا يد الفقر ماسكا حبل الرجاء مرتديا برداء الخشية الى غير ذلك من أوصاف العبودية وأخلاقها فمن صدق فى ذلك كان موفيا بما عاهد الله عليه (والقيام بحقوق الربوبية) فى ظاهرهم بالطاعة وفى باطنهم بالمراقبة له ودوام الحضور معه أى انهم لا يطلبون منه الا هذين الامرين من
غيرمراعاة حظ ولا بقاء مع نفس بخلاف من عداهم فانه لم يفارق الحظوظ والاغراض وبين
فى مطلبه فلذا كان مطلبهم أعلى المطالب قال أبو مدين قدس الله سره شتان بين من همته الحور والقصور وبين من همته
رفع الستور ودوام الحضور

الروذبارى رضى الله تعالى عنه عن الاشارة فقال الاشارة الابانة عما يتضمنه الوجد من المشار اليه لا غير وفى الحقيقة أن الاشارة تصحبها العلل والعلل بعيدة من عين الحقائق وقال الشبلى رضى الله تعالى عنه وكل اشارة أشار بها الخلق الى الحق فهى مردودة عليهم حتى يشيروا الى الحق بالحق وليس لهم الى ذلك طريق وقال أبو يزيد رضى الله تعالى عنه أبعدهم من الله أكثرهم اشارة اليه • (الرجاء ماقارنه عمل والا فهو امنية) الرجاء مقام شريف من مقامات اليقين وهو يبعث على الاجتهاد فى الاعمال كما ذكرناه فى الحزن لان من رجا شيأ طلبه ومن خاف من شئ هرب منه وأما الرجاء الكاذب الذى يفتر صاحبه عن العمل ويجرئه على المعاصى والذنوب فليس هذا برجاء عند العلماء ولكنه أمنية واغترار بالله تعالى وقد ذم الله قوما ظنوا مثل هذا وأصروا على حب الدنيا والرضا بها وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم خلفا والخلف الردىء من الناس فقال عز من قائل فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا قال معروف الكرخى رضى الله تعالى عنه طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق وقال معروف الكرخى أيضا رضى الله عنه رجاؤك الرحمة ممن لا تطيعه خذلان وحمق واعلم أنه ليس فى أفعال الحق سبحانه ما يوجب أن يؤمن عقابه انما فى أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته وكما لا يحسن أن لا يظهر من لطفه فى خلقه لا يحسن الطمع فى جانبه ويؤمن أخذه وانتقامه فان من قطع أشرف عضو بربع الدينار لا يؤمن أن يكون عذابه غدا هكذا وقد قالوا من زعم أن الرجاء مع الاصرار صحيح فليزعم أن طلب الربح فى القبر وقدح النار فى البحر صحيح وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى الامانى وقال الحسن رضى الله تعالى عنه ان قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة يقول أحدهم أحسن الظن بربى وهو يكذب لو أحسن الظن بربه لاحسن العمل وتلا قول الله عز وجل وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين وكان يقول رضى الله تعالى عنه عباد الله اتقوا هذه الامانى فانها أودية الهلكة تحلون فيها والله ما آتى الله عبدا بامانيه خيرا فى الدنيا ولا فى الآخرة وكتب أبو عمير المنصورى الى بعض اخوانه أما بعد فانك قد أصبحت تؤمل بطول عمرك وتتمنى على الله الامانى بسوء فعلك وانما تضرب حديدا باردا • (مطلب العارفين من الله تعالى الصدق فى العبودية والقيام بحقوق الربوبية) مطلب العارفين من ربهم أعلى من مطالب غيرهم سواء كانوا عبادا أو زهادا أو علماء لان مطلب العارفين من ربهم انما هو الصدق فى العبودية والقيام بحقوق الربوبية فقط من غير مراعاة حظ ولا بقاء مع نفس وكل من عداهم لم يفارقوا الحظوظ والاغراض فى مطالبهم وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك قال سيدى أبو مدين رضى الله تعالى عنه شتان بين من همته الحور والقصور

(بسطك) أيها العارف (كى لا يبقيك مع القبض) الذى فيه قهر لنفسك وان كان فيه نفع لك كما سيأتى (وقبضك كى لا يتركك مع البسط) الذى فيه حظ لها (وأخرجك عنهما) بفنائك عن نفسك وبقائك به (كى لا تكون لشئ دونه) فلا تكون باقيا مع شئ من أوصافك المؤلمة ولا المؤنسة فان ذلك حجاب لك عن ربك ويسمى حالك حينئذ اعتدالا لا قبضا ولا بسطا والمعنى لوّن عليك الاحوال لتتمكن وتفنى عنها فالقبض لاهل البدايات من العارفين ولولاه لما انجمعت حقائقهم وانكفت عن العوائد والشهوات والبسط لاهل الاشراق على مبادى الفتح كى تسترسل قواهم وتستعين عوالمهم بما ترتاح اليه من نسمات الحق وشواهد رضاه والاعتدال لاهل النهايات كى تستقيم أحوالهم وتصفو أعمالهم ويدوموا بين يدى مولاهم بلا علة ويؤخذ من ذلك أن القبض والبسط وصفان ناقصان بالنسبة الى مافوقهما لانهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده لكنهما يتوصل بهما الى التمكن فمن لطف الله تعالى بعبده تلوينه فيهما ثم اخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه فهما من أحوال المبتدئين من العارفين يتلونون فيهما كما يتلون المبتدئون من المريدين فى الرجاء والخوف ويفترقان بان الرجاء والخوف مختصان بان يتوقع أمر يحصل فى المستقبل فما معه توقع أمر محذور مخوف أو محبوب مرجا وما لا توقع معه فقبض فى الاول وبسط فى الثانى وسببهما الواردات التى ترد على باطن العارف وقوتهما وضعفهما بحسب قوة الوارد وضعفه فاذا تجلى للقلب وارد الجلال حصل فيه القبض واذا تجلى فيه وارد الجمال حصل فيه البسط فالقبض بوارد حاصل فى الوقت وكذلك البسط لان العارف لا يهتم لنفسه حتى يراعى مستقبلات الامور (العارفون اذا بسطوا أخوف منهم) أى أكثر خوفا من أنفسهم (اذا قبضوا) وذلك لملاءمة البسط لهوى أنفسهم فيخافون حينئذ من
الوقوع فيما تدعوا اليه من التحدث بالاحوال والكرامات وغيرها وربما كان فى ذلك الطرد والبعد وأيضا قد يصدر منه فى ذلك الوقت كلام لا يليق بحضرة الرب جل جلاله وحينئذ يتأكد عليهم فى ذلك ملازمة الادب ودوام الانقباض والانكسار وذلك أمر عسير فى هذا الحال ولذا قال (ولا يقف على حدود الادب فى البسط الا قليل) قال فى لطائف المنن البسط مزلة أقدام الرجال فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم والقبض أقرب الى وجود السلامة لانه وطن العبد اذ هو فى أسر قبضة الله واحاطة الحق محيطة به ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه والبسط خروج عن حكم وقته والقبض هو اللائق بهذه الدار اذ هى وطن التكليف وابهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى اهـ

وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور • (بسطك كى لا يبقيك مع القبض وقبضك كى لا يتركك مع البسط وأخرجك عنهما كى لا تكون لشئ دونه) القبض والبسط من الحالات التى يتلون بها العارفون وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين وسببهما الواردات التى ترد على باطن العبد وقوتهما وضعفهما بحسب قوة الواردات وضعفها والمقصود ههنا أنهما وصفان ناقصان بالنسبة الى ما فوقهما فانهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده فمن لطف الله بعبده تكوينه فيهما ثم اخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه قال فارس رضى الله تعالى عنه القبض أولا ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لان القبض والبسط يقعان فى الوجود وأما مع الفناء والبقاء فلا وكان الجنيد رضى الله تعالى عنه يقول الخوف يقبضنى والرجاء يبسطنى والحقيقة تجمعنى والحق يفرقنى اذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى واذا بسطنى بالرجاء ردنى علىّ واذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى واذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى فغطانى عنه فهو فى ذلك كله محركى غير مسكنى وموحشى غير مؤنسى فحضورى لذوق طعم وجودى فليته أفنانى عنى فمتعنى أو غيبنى عنى فروحنى وقد تكلم صاحب كتاب عوارف المعارف فى القبض والبسط بكلام بديع طويل تركت نقله ههنا اختصارا فمن أراده فلينظره هنالك • (العارفون اذا بسطوا أخوف منهم اذا قبضوا ولا يقف على حدود الادب فى البسط الا قليل) انما اشتد خوف العارفين فى البسط ما لم يشتد فى القبض من قبل ملاءمته لهوى أنفسهم بخلاف القبض كما سيقوله المؤلف الآن فيخافون حينئذ من رجوعهم اليه وذوقهم لطعم نفوسهم وفى ذلك الطرد والبعد وقد كتب يوسف بن الحسين الرازى الى الجنيد رضى الله تعالى عنهما لا أذاقك الله طعم نفسك فانك ان ذقتها لا تذوق بعدها خيرا أبدا ومن ثم يتأكد عليهم فى ذلك ملازمة الادب ودوام الانقباض والانكسار وذلك أمر عسير فى هذا الحال ولذلك لا يقف على حدود الادب فى البسط الا قليل كما قال المؤلف رحمه الله تعالى وقد قيل قف على البساط واياك والانبساط وقال رجل لابى محمد الجريرى رضى الله تعالى عنه كنت على بساط الانس وفتح علىّ طريق البسط فزللت زلة فحجبت عن مقامى فكيف السبيل اليه دلنى على الوصول الى ما كنت عليه فبكى أبو محمد وقال يا أخى الكل فى قهر هذه الخطة لكنى أنشدك أبياتا

لبعضهم وأنشأ يقول

قف بالديار فهذه آثارهم • تبكى الاحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بربعها مستخبرا • عن أهلها أوسائلا أو مشفقا
فاجابنى داعى الهوى فى رسمها • فارقت من تهوى فعز الملتقى

وسئل بعض المشايخ عن هذه الزلة فقال انبساط مع الحق بغير أدب قال الاستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه ومن هذا خشى الاكابر والسادة قال فى لطائف المنن البسط مزلة أقدام الرجال فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم والقبض أقرب الى وجود السلامة لانه وطن العبد اذ هو فى أسر قبضة الله واحاطة الحق محيطة به ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه والبسط خروج عن حكم وقته والقبض هو اللائق بهذه الدار اذ هى وطن التكليف وابهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى قال وأخبرنى بعض الصوفية قال رأى شيخنا شيخه فى المنام بعد موته مقبوضا فقال له يا أستاذ مالك مقبوضا فقال له يابنى القبض والبسط مقامان من لم يوفهما فى الدنيا وفاهما فى الآخرة قال وكان هذا الشيخ الغالب عليه فى حياته البسط انتهى • (البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لاحظ للنفس فيه) فى هذه الاشارة لما تقدم من أن مراعاة الادب فى البسط أمر عسير وذلك أن فى البسط وجود حظ النفس فيستولى عليها الفرح بذلك فلا يتمالك حتى يقع فى سوء الادب والقبض ليس فيه حظ للنفس فلذلك كان أسلم وكان الاستاذ أبو على الدقاق رضى الله تعالى عنه يقول القبض حق الحق منك والبسط حق العبد منه ولان يكون بحقه منك أتم من أن يكون بحظك منه وأما آداب القبض والبسط فلا أعلم الآن من استوفى الكلام فيهما من علماء الصوفية ومصنفيهم وانما وجدنا لهم من ذلك اشارات الى أمور جلية كقول الامام أبى القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه بعد أن تكلم على لفظى القبض والبسط وتبيين معانيهما الى أن قال وقد يكون قبض يشكل على صاحبه سببه يجد فى قلبه قبضا لا يدرى ماموجبه وسببه وسبيل صاحب هذا القبض التسليم حتى يمضى ذلك الوقت لانه لو تكلف نفيه أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره زاد فى قبضه ولعله يعد ذلك منه سوء أدب واذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض فان الحق سبحانه قال والله يقبض ويبسط وقد يكون بسط يرد بغتة ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سببا يهز صاحبه ويستفزه فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الادب فان فى هذا الوقت له خطر عظيم فليحذر صاحبه مكرا خفيا كما قال بعضهم فتح على باب من البسط فزللت زلة فحجبت عن مقامى اهـ كلام الامام أبى القاسم وقد رأيت كلاما مبسوطا مستوفى فى آداب القبض والبسط لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه فأحببت أن أذكره ههنا لتتم به الفائدة التى تعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى وان كان كلام الشيخ أبى الحسن فى ذلك أعم مما هو عند غيره من أئمة الصوفية قال رضى الله تعالى عنه القبض والبسط قلما يخلو العبد منهما وهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار والحق سبحانه يرتضى منك العبودية فيهما فمن كان وقته القبض فلا يخلو من أن يعلم سببه أو لا يعلم وأسباب القبض ثلاث ذنب أحدثته أو دنيا ذهبت عنك أو نقصت لك أو ظالم يؤذيك فى نفسك أو فى عرضك أو ينسبك لغير دين أو غير ذلك فاذا ورد عليك القبض

(البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لاحظ للنفس فيه) فى هذه الاشارة لما تقدم من أن مراعاة الادب فى البسط من الامر العسير فلذا كان لا يقف عند حدود الادب فيه الا القليل بخلاف القبض فكأنه يقول انما كان كذلك لان النفس تأخذ منه حظها ومن شأن النفس اذا وجدت حظها الغفلة ونسيان الحقوق والدعوى باظهار ما عندها من العلوم والفهوم والاحوال والاسرار والتحدث بالخصوصية والتلذذ بنسبة الخوارق والاشارة الى الكرامات وادراك المقامات كل على حسب حاله وكل ذلك مناف للعبودية بخلاف القبض فانه لاحظ للنفس فيه فلا تتمالك أن تظهر شيأ من ذلك فهو أقرب للسلامة ووجود القدرة على الوفاء بآداب العبودية ولذا آثره العارفون على البسط

من

(ربما أعطاك) شيأ من الدنيا ولذتها (فمنعك) التوفيق لطاعته والاقبال عليه والفهم منه (وربما منعك) من الاول

من أحد هذه الاسباب فالعبودية تقتضى أن ترجع الى العلم مستعملا له كما أمرك الله تعالى أما فى الذنب فبالتوبة والانابة وطلب الاقالة وأما فيما ذهب عنك من الدنيا أو نقص فبالتسليم والرضا والاحتساب وأما فيما يؤذيك به ظالم فبالصبر والاحتمال واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان ظلم غيرك لك وظلمك لنفسك فان فعلت ما الزمت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو وتصفح وربما أثابك من نور الرضا ماترحم به من ظلمك فتدعو له فتجاب فيه دعوتك وما أحسن ذلك اذا رحم الله بك من ظلمك فتلك درجات الصديقين الرحماء وتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين وأما اذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سببا فالوقت وقتان ليل ونهار فالقبض أشبه شئ بالليل والبسط أشبه شئ بالنهار فاذا ورد القبض بغير سبب تعلمه فالواجب عليك السكون والسكون على ثلاثة أشياء عن الاقوال والحركات والارادات فان فعلت ذلك فعن قريب يذهب عنك الليل بطلوع شمس نهارك أو يبدو نجم تهتدى به أو قمر تستضىء به أو شمس تتبصر بها والنجوم نجوم العلم والقمر قمر التوحيد والشمس شمس المعرفة وان تحركت فى ظلمة ليلك فقلما تسلم من الهلاك واعتبر بقوله تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون فهذا حكم العبودية فى القبضين جميعا وأما من كان وقته البسط فلا يخلو من أن يعلم له سببا أو لا والاسباب ثلاثة الاول زيادة فى الطاعة أو نوال فى المطاع كالعلم والمعرفة والسبب الثانى زيادة من دنيا بكسب أو كرامة أو هبة أو صلة والسبب الثالث بالمدح والثناء من الناس واقبالهم عليك بطلب الدعاء منك وتقبيل يدك فاذا ورد عليك البسط من أحد هذه الاسباب فالعبودية تقتضى أن ترى أثر النعمة والمنة من الله عليك واحذر أن ترى شيأ من ذلك لنفسك وحصنها أن لا يلازمها خوف السلب مما به أنعم عليك فتكون ممقوتا هذا فى جانب الطاعة والنوال من الله تعالى وأما الزيادة من الدنيا فهى نعمة أيضا كالاولى وخف مما بطن من آفاتها وأما مدح الناس لك وثناؤهم عليك فالعبودية تقتضى شكر النعمة بما ستره عليك وخف من الله تعالى أن يظهر ذرة مما بطن منك فيمقتك أقرب الناس اليك فهذه آداب القبض والبسط فى العبودية وأما البسط الذى لا تعلم له سببا فحق العبودية فيه ترك السؤال والادلال والصولة على النساء والرجال اللهم الا أن تقول سلم سلم الى الممات فهذه آداب القبض والبسط فى العبودية جميعا ان عقلت والسلام انتهى ماذكره الشيخ أبو الحسن وكلامه فى ذلك حسن والحمد لله الذى بيده سوابغ المنن • (ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك) منع الله تعالى عبده من نيل شهواته ولذاته والسكون مع شئ من عاداته عطاء جزيل منه لانه أبقاه معه واقتطعه عن حظوظه وأغراضه وجرده منها وعكس هذا هو المنع على التحقيق وان كان عطاء فى الظاهر قال الشيخ محيى الدين بن العربى اذا منعت فذلك عطاؤه واذا أعطيت فذلك منعه فاختر الترك على الاخذ فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك فلن يعدم منه خيرا • (متى فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع عين العطاء) سيأتى بيان هذا من كلام المؤلف رحمه الله فى قوله متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره الى آخره

• (الاكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة فالنفس تنظر الى ظاهر غرتها والقلب ينظر الى باطن عبرتها) الاكوان ههنا كل ما يمكن أن يكون للنفس فيه حظ من متاع الدنيا وزهرتها وهى

(فأعطاك) الثانى فمنع الله لك من نيل شهواتك ولذاتك والسكون مع شئ عاداتك عطاء جزيل منه لانه أبقاك معه واقتطعك عن حظوظك وأغراضك وعكس ذلك هو المنع على التحقيق وان كان عطاء فى الظاهر فلا تنظر لظاهر العطاء والمنع بل لحقيقة الامر وحينئذ فيجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمولاه (متى فتح لك باب الفهم فى المنع) بان فهمت أن ذلك المنع رحمة منه بك ولولا أنه يعلم أنه خير لك من العطاء ما أنزله بك (عاد المنع) أى صار (عين العطاء) ومن الفهم فى المنع ما سيأتى فى قوله ومتى منعك أشهدك قهره الخ (الاكوان) أى المكونات التى للنفس فيها حظ من متاع الدنيا وزهرتها (ظاهرها غرة) بكسر الغين أى سبب فى الاغترار بها لحسنها وبهجتها (وباطنها عبرة) بكسر العين أى سبب فى الاعتبار بها والانكفاف عنها لقبحها وخستها والنظر الى عاقبتها وهى الفناء فهى حسنة الظاهر قبيحة الباطن فمن نظر الى ظاهرها وجدها حلوة نضرة فيغتر بها ويميل اليها ومن نظر الى باطنها وجدها جيفة قذرة فيعتبر بها وينكف عنها (فالنفس تنظر الى ظاهر غرتها) أى زينتها الظاهرة فتغتر بها وتهلك صاحبها (والقلب ينظر الى باطن عبرتها) أى الى قبائحها الباطنة فيعتبر بها ويسلم من شرها

رائقة الظاهر قبيحة الباطن كما قيل

على وجه مي مسحة من ملاحة * وتحت الثياب العار لو كان باديا

فهي من حيث ظاهرها محبوبة حلوة خضرة وبالنظر الى باطنها جيفة قذرة فالنفس تنظر الى زينتها الظاهرة فتغتر بها فتهلك صاحبها والقلب ينظر الى قبائحها الباطنة فيعتبر بها فيسلم من شرها وقد روي في الكتب السالفة أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام يا روح الله صف لنا أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقال عليه السلام هم الذين بهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا وبهم قام الكتاب وبه قاموا نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها وعاينوا آجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم فصار ذكرهم فيها فوتا وفرحهم فيها حزنا ما عارضهم منها رفضوه وما أشرف لهم بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها وخربت فيما بينهم فلم يعمروها وماتت في صدورهم فلم يحيوها بعد موتها وبنوا بها آخرتهم أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ويضيئون به لهم الخبر العجيب وعندهم الخبر العجيب وكان بعض الاولياء يقول ما سطع لي زينة من زخرف الدنيا الا كشف لي باطنه فظهر لي غرور عنها قال أبو طالب المكي فهذه عناية من الله تعالى لمن وليه من أوليائه المقربين منه فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ومن كشف له بعاقبتها لم يستهوه زخرفها وكان عيسى عليه السلام يقول ويلكم علماء السوء مثلكم مثل قناة حش ظاهرها جص وباطنها نتن *(ان أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى) العز الذي لا يفنى هو الغنى عن الاسباب كلها بوجود مسببها لانه باق لا يفنى فالتعلق به عز لا يفنى والعز الذي يفنى هو الغنى بالاسباب مع الغيبة عن مسببها لانها فانية فالتعلق بها عز فان لا يبقى والتعلق بالله عز لا يفنى وليس لك الا أحدهما لانهما ضدان لا يجتمعان فان اخترت العز الباقي بالله تعالى لم يقدر أحد أن يذلك يحكى أن رجلا أمر بالمعروف لهرون الرشيد فحرد عليه هرون الرشيد وكانت له بغلة سيئة الخلق فقال اربطوه معها تقتله برمحها ففعلوا ذلك فلم تضره فقال اطرحوه في بيت وطينوا عليه الباب ففعلوا ذلك فرؤي في بستان وباب البيت مسدود فأخبر هرون الرشيد بذلك فأتي بالرجل فقال من أخرجك من البيت فقال الذي أدخلني البستان فقال ومن أدخلك البستان فقال الذي أخرجني من البيت فقال أركبوه دابة وطوفوا به في البلد وليقل قائل ألا ان هرون قد أراد أن يذل عبدا أعزه الله فلم يقدر وان أردت العز بالاسباب خذلتك وأسلمتك أحوج ما تكون اليها وكنت في غاية الذل والهوان حكي عن بعضهم أنه قال رأيت رجلا في الطواف وبين يديه شاكرية يطردون الناس فبعد ذلك بمدة رأيت انسانا يتكفف الناس على الجسر ويسأل شيأ قال فنظرت اليه وشبهته بذلك الرجل فقال لاي شئ تنظر فقلت أشبهك برجل رأيته في الطواف من شأنه كذا وكذا فقال أنا ذلك الرجل تكبرت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله في موضع يترفع فيه الناس قال في التنوير فان اعتززت بالله دام عزك وان اعتززت بغيره فلا بقاء لعزك اذ لا بقاء لمن أنت به معتز قال وأنشدنا بعض الفضلاء لنفسه

اجعل بربك شأن عزك يستقر ويثبت

(ان أردت أن يكون لك عز لا يفنى) بان تستغني عن جميع الاسباب بوجود مسببها لانه باق فيكون تعلقك به عزا لا يفنى (فلا تستعزن بعز يفنى) بان تستغني بها مع الغيبة عن مسببها لانها فانية فيكون تعلقك بها عزا لا يبقى بل يزول بزوالها فان اعتززت بالله دام عزك ولم يقدر أحد أن يذلك وان اعتززت بغيره من مال أو جاه أو نحوهما بان ركنت اليه وجعلته معتمدك وغفلت عن مولاك فلا بقاء لعزك اذ لا بقاء لمن أنت به معتز ولذا سمع بعض العارفين شخصا يبكي فقال له ما شأنك فقال مات أستاذي فقال له العارف ولم جعلت أستاذك من يموت

فان اعتززت بمن يموت * فان عزك ميت

قال ودخل انسان على بعض العارفين وهو يبكي فقال ما شأنك قال مات أستاذي فقال له ذلك العارف ولم جعلت أستاذك من يموت ويقال لك اذا اعتززت بغير الله تعالى فقدته واستندت الى غيره فعدمته وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شئ علما *(الطي الحقيقي أن تطوى مسافة الدنيا عنك حتى ترى الآخرة أقرب اليك منك) طي مسافة الدنيا انما يتصور من العبد اذا أشرق نور اليقين في قلبه فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره وتنطوي في اعتباره ويرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده بل يراها أقرب اليه منه اذ ذاته فانية منطوية بهذا الاعتبار فمن كانت هذه مشاهدته لا يتصور منه حب الغائب الفاني وهو الدنيا واستبداله بالحاضر الباقي وهو الآخرة ولذلك كان أصل الرغبة في الدنيا وايثارها على الآخرة ضعف اليقين فمن لم يشرق في قلبه نور اليقين لم يشاهد الملك الكبير ومن لم يشاهده أحب الدنيا وهي لا شئ فلم تكن قيمته عند الله تعالى شيأ فهذا هو الطي الحقيقي لمسافة الدنيا الذي يكرم الحق به أولياءه وبه تتحقق عبوديتهم لربهم عز وجل لا طي مسافة الارض الذي ربما يكون استدراجا ومكرا ولا طي الليالي والايام بالوصال للصيام وترك الشراب والطعام اذا لم يتمحض طاعة وبراءة وسيأتي من كلام المؤلف رحمه الله تعالى لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب اليك من أن ترحل اليها ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها *(العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله احسان) عطية الخلق لك حرمان على التحقيق لما فيه من رؤيتك لغير الله ووقوفك مع حظوظك وشهواتك ومنع الله لك احسان لانه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه وان شئت قلت العطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك وتقلد منتهم في أخذ عطيتهم والمنع من الله احسان لانه حبيبك وكل ما يفعل الحبيب محبوب ولله در من قال

فلا ألبس النعما وغيرك ملبسي * ولا أقبل الدنيا وغيرك واهبي

وفي وصية علي رضي الله عنه لا تجعل بينك وبين الله منعما واعدد نعمة غيره عليك مغرما وقال بعض الحكماء حمل المنن أثقل من الصبر على العدم وقال آخر عزا لنزاهة أشرف من سرور الفائدة وقال رضي الله عنه *(جل ربنا أن يعامله العبد نقدا فيجازيه نسيئة) جزاء المعاملة لا يختص بالدار الآخرة بل ربما أظهر الحق تعالى منه لبعض أوليائه في الدنيا أنموذجا يحملهم على الاجتهاد في الاعمال ويتحققون به وجود قبولها في كل الاحوال وذلك لعظيم كرمه

(الطي الحقيقي أن تطوى) أيها المريد (مسافة الدنيا عنك) بأن لا تشتغل بلذاتها وشهواتها ولا تركن اليها بل تغيب عنها (حتى ترى الآخرة أقرب اليك منك) أي تكون نصب عينيك ليست غائبة عن قلبك فهذا هو الطي الحقيقي الذي يكرم الله به أولياءه وبه تتحقق عبوديتهم لربهم لا طي مسافة الارض بان تكون من أهل الخطوة لانه ربما كان استدراجا ومكرا ولا طي الليالي والايام بالقيام والصيام لانه ربما قارنه رياء أو عجب فتكون عاقبته الخسران ولا يمكن أن تطوى عن العبد مسافة الدنيا الا اذا أشرق نور اليقين في قلبه فحينئذ تنعدم الدنيا في نظره ويرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده ومن كانت هذه مشاهدته لا يتصور منه حب الفاني وهو الدنيا واستبداله بالباقي وهو الآخرة أما اذا لم يشرق نور اليقين في قلبه كان راغبا في الدنيا مؤثرا لها على الآخرة راكنا اليها وغائبا عن مولاه لضعف يقينه وتقواه (العطاء من الخلق) أي اذا أعطوك شيأ فأخذته غافلا عن مولاك فهو وان كان اعطاء ظاهرا (حرمان) باطنا أي في الحقيقة ونفس الامر لما فيه من رؤيتك لغير الله ووقوفك مع حظوظك (والمنع من الله) أي منع الله لك وعدم اعطائك (احسان) حيث لم يغب قلبك عنه فهو وان كان منعا ظاهرا عطاء باطنا لانه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه وان شئت قلت العطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك وتقلد منتهم في أخذ عطيتهم والمنع من الله احسان لانه حبيبك وكل ما يفعله المحبوب محبوب وفي وصية علي كرم الله وجهه لا تجعل بينك وبين الله منعما واعدد نعمة غيره عليك مغرما اهـ وهو يناسب المعنى الاول (جل ربنا أن يعامله العبد نقدا) أي حالا بأنواع الطاعات (فيجازيه نسيئة) بان لا يعطيه شيأ من جزاء عمله في الحال فان ذلك ليس شأن الكريم القادر فجزاء العمل لا يختص بالدار الآخرة بل ربما أظهر الله تعالى منه لبعض أوليائه شيأ في الدنيا يحملهم على الاجتهاد في الاعمال ويتحققون به قبولها ثم بين ذلك الجزاء المعجل بقوله

(كفى من جزائه) أى مجازاته اياك (على الطاعة أن رضيك لها أهلا) أى توفيقك لها واقدارك عليها والا فصفتك الذاتية التكاسل عن الطاعة وعدم الاعتناء بها فاذا وفقك مولاك للقيام بها كان ذلك جزاء معجلا لك فى الدنيا لما يترتب عليه من مزيد الزلفى وأيضا فانت عبد حقير لا تستحق خدمة ملك الملوك فكونه قربك لخدمته ورضيك أهلا لها نعمة عظيمة منه عليك ثم ذكر جزاء آخر معجلا بقوله (كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته) أى فى حال طاعته من المواهب الالهية والالهامات اللدنية وحلاوة التملق بين يدى ملك الملوك قال بعضهم ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة الا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة وهذه الحلاوة هى التى يعبر عنها أهل الطريق بالاحوال والمواجيد والاذواق (وما هو مورده عليهم) أى على قلوبهم (من وجود مؤانسته) أى الانس به بعد حصول العمل وانقضائه قال بعضهم الانس هو سرور القلب بشهود جمال الحبيب وهو حالة توجب انتعاش المحب وصفاء وقته ويخاف فيه غوائل الادلال (من عبده) تعالى (لشئ يرجوه منه) وهو الثواب (أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة) أى حصولها له فى الدار الآخرة وقوله (عنه) متعلق بيدفع (فما قام بحق أوصافه) بل هو قائم بحظ نفسه من جلب الثواب أو دفع العقاب بخلاف ما اذا عبده لاجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التى لا يشارك فيها اذ من كان كذلك يستحق أن يخدم بالعبادة فانه حينئذ يكون قائما بحق أوصافه أى موفيا لها حقها فقد أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ان أود الاوداء الى من عبدنى لغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها وفى الحديث لا يكن أحدكم كالعبد السوء ان خاف عمل ولا كالاجير السوء ان لم يعط الاجر لم يعمل أو

وعميم فضله جل وعلا * (كفى من جزائه اياك على الطاعة ان رضيك لها أهلا) هذا بيان جزائهم المعجل وهو أنه عرفهم من عظمته وجلاله وكبريائه ما استحقر وامعه أنفسهم أن يكونوا أهلا لان يكلفهم القيام بطاعته ويعدهم فيها بتيسيره ومعونته فسباهم حينئذ حبه واستولى عليهم قربه فانخنست اذ ذاك نفوسهم واضمحل وجودهم وذهب بهم الحياء كل مذهب وهذا هو غاية الجزاء ونهاية العطاء عند العلماء العارفين الذين يمنعهم وجدانه عن التطلع الى غيره من الحظوظ الآجلة * (كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته) هذا بيان آخر لما يكرمهم به من الجزاء المعجل وهو أن العاملين لربهم يفتح لهم من المعارف ويورد على قلوبهم من أنواع اللطائف ما يتنسمون منه روح الانس ويتنعمون به فى حضرة القدس وهذا من علامات وجود الرضوان الاكبر الذى يتلاشى دونه كل جزاء ويستحقر كان بعضهم يقول التملق للحبيب والمناجاة للقريب فى الدنيا ليس من الدنيا هو من الجنة ظهر لاهل الله تعالى فى الدنيا لا يعرفه الا هم ولا يجده سواهم روحا لقلوبهم وقال بعض العلماء ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة الا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه دخلت على أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه يوما وهو يبكى فقلت له وما يبكيك فقال يا أحمد ولم لا أبكى انه اذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وتقطرت فى محاريبهم أشرف الجليل سبحانه فنادى يا جبريل بعينى من تلذذ بكلامى واستراح الى ذكرى وانى لمطلع عليهم فى خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم فلم لا تنادى فيهم يا جبريل ما هذا البكاء هل رأيتم حبيبا يعذب أحبابه أم كيف يجمل بى أن آخذ قوما اذا جنهم الليل تملقوا الى فبى حلفت اذا وردوا على القيامة لاكشفن لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا الى وأنظر اليهم * (من عبده لشئ يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أوصافه) عمل العاملين لاجل حصول الجزاء أو فرارا من عقوبة المولى مدخول معلول ليس من شأن الحاذقين المحققين لان قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضى أن لا يعمل لاجل حظه من جلب ثواب أو دفع عقاب لانه عبد يستحق عليه مولاه كل شئ ولا يستحق هو عليه شيأ وهذا من أعلى المحبة لله تعالى لان المحب مجتمع الهم بأمر محبوبه لامراد له الا ما أراد فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل لاجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التى لا يشارك فيها فان خالف هذا وعمل على طلب حظه لم يقم بحق صفات مولاه وكان ذلك نتيجة جهله وغفلته وعدم حبه لربه ومعرفته قال سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الارض الا وهم جهال بالله تعالى الا من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه ان أود الاوداء الى من عبدنى لغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها وفيما نقل وهب بن منبه من الزبور ومن أظلم ممن عبدنى لجنة

أو لنار لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا لان أطاع أو كما قال عز وجل وفى أخبار عيسى عليه السلام اذا رأيت الفتى مشغوفا فى طلب الرب فقد ألهاه ذلك عما سواه ومر عيسى عليه الصلاة والسلام على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية فقال من أنتم فقالوا نحن عباد الله تعالى فقال ولاى شئ تعبدتم قالوا خوفنا الله من ناره فخفنا منها فقال حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم فقال لاى شئ تعبدتم قالوا شوقنا الله الى الجنان وما أعد فيها لاوليائه فنحن نرجوها فقال حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون فقال ما أنتم قالوا المحبون لله عز وجل لم نعبده خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته ولكن حباله وتعظيما لجلاله فقال أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم فأقام بين أظهرهم وفى لفظ آخر أنه قال للاولين مخلوقا خفتم ومخلوقا أحببتم وقال للآخرين أنتم المقربون قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه وممن روى عنه هذا القول وأقيم فى هذا المقام جماعة من التابعين باحسان منهم أبو حازم المدنى كان يقول انى لاستحى من ربى أن أعبده خوفا من العذاب فأكون مثل عبد السوء ان لم يخف لم يعمل وأستحى أن أعبده لاجل الثواب فأكون كالاجير السوء ان لم يعط أجر عمله لم يعمل ولكن أعبده محبة له قال الشيخ أبو طالب المكى وقد روينا معنى هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكن أحدكم كالعبد السوء ان خاف عمل ولا كالاجير السوء ان لم يعط الاجر لم يعمل وقال بعض اخوان معروف رضى الله عنه له أخبرنى عنك يا أبا محفوظ أى شئ أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق فسكت فقلت ذكر الموت فقال وأى شئ الموت قلت فذكر القبر قال وأى شئ القبر فقلت خوف النار ورجاء الجنة فقال وأى شئ هذا ان من ملك هذا كله بيده ان أحببته أنساك جميع هذا وان كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا قال أبو طالب وحدثونا عن على بن الموفق قال رأيت فى النوم كأنى أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه قوم فيدخل بعضهم الجنة ويرد آخرين قال ثم جاوزتهما الى حظيرة القدس فرأيت فى سرادقات العرش رجلا قد أشخص ببصره ينظر الى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال هو معروف الكرخى عبد الله تعالى لا خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته بل حباله فقد أباحه النظر اليه الى يوم القيامة وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهما قال أبو طالب المكى ورويناعن رابعة العدوية وكانت احدى المحبين وكان سفيان الثورى يجلس بين يديها ويقول علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة وكانت تقول له نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا وكان يعترف لها ويسلم قولها وكان عالما زاهدا الا أنه كان يؤثر كتب الحديث والاقبال على الناس وهى أبواب الدنيا وقال لها الثورى يوما لكل عبد شريطة ولكل ايمان حقيقة فما حقيقة ايمانك فقالت ما عبدت الله خوفا من النار فأكون كالعبد السوء ان خاف عمل ولا حبا للجنة فأكون كالاجير السوء ان أعطى عمل ولكن عبدته حباله وشوقا اليه والآثار والحكايات فى هذا المعنى كثيرة لا تحصر فاذا عمل المريد على ما ذكرناه كان عبد الله حقا فان طلب منه الثواب أو استعاذ به من العقاب فانما يطلبه أو يستعيذ به انجاز الوعد به وفرارا من دعوى رؤية حظه واتباعا لما أحبه منه وأذن له فيه من طلبه

(متى أعطاك) أيها العارف المتيقظ (أشهدك بره) أى صفات بره من الجود والكرم والاحسان واللطف والعطف وغير ذلك (ومتى منعك أشهدك قهره) أى صفاته القهرية أى التى تقتضى القهر والغلبة من الجبرية والكبرياء والعزة والاستغناء (فهو فى كل ذلك) أى فى كلتا الحالتين (متعرف اليك) أى مقبل عليك ومريد منك أن تعرفه فان الواحد منا اذا أراد أن يعرفه غيره فاما أن ينعم عليه واما أن يعاقبه فكل منهما سبب فى معرفة ذلك الغير له (ومقبل بوجود لطفه عليك) لان مشاهدتك لصفات بره وقهره لطف عظيم منه سبحانه ونعمة منه عليك فينبغى لك أن تشكره عليها والحاصل أن المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية والاسماء الحسنى ولا سبيل لهم الى معرفته الا بتعرفه لهم وتعرفه لهم انما يكون بما ينزله بهم من النوازل ويورده عليهم من الاحكام سواء كان الحكم موافقا لطبعهم وهو الاعطاء أو مخالفا له وهو المنع فمن كان عارفا بربه ولم يستغرقه حظ نفسه لم يفرق بين العطاء والمنع لان كلا منهما له طريق توصله الى معرفة صفات البرية من الجود ونحوه والقهرية وهذا من جملة فتح باب الفهم فى المنع كما مر (انما يؤلمك المنع) أيها المريد (لعدم فهمك عن الله فيه) أى فى حال المنع اذ لو فتح لك باب الفهم حينئذ لتلذذت به فمن جملة الفهم فى المنع أن تفهم أنه يريد بذلك المنع أن يوقفك ببابه ويعلقك به ويصيرك من جملة أحبابه فانه اذا أحب عبدا حماه الدنيا ومن جملته أن تفهم أنه سلك بك مسلك المقربين كما ورد عن الفضيل أنه كان يقول الهى أجعتنى وأجعت عيالى وأعريتنى وأعريت عيالى وانما تفعل هذا بخواص عبادك وما فباى سبب أستوجب منك هذا أى من أعمال البر والخير ومن جملته أن تفهم أن الدنيا فانية ولذاتها منقضية فتفرح بما ادخر لك فى الآخرة الى غير ذلك مما يفتح الله به على قلب المريد الصادق فاذا فتح عليه ذلك تلذذ بالمنع فعاد المنع عين العطاء (ربما فتح لك باب الطاعة

لفضله واحسانه وكرمه وامتنانه وهذا وما أشبهه هو المعنى بالحديث المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ما تقول فى الصلاة قال أتشهد ثم أقول اللهم انى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال حولها ندندن الا أن يكون رجاؤه لحصول ذلك وخوفه من فقده باعثا له على القيام بطاعته وملازمة عبادته فيكون عمله اذ ذاك مدخولا معلولا هذا هو مذهب العارفين والمحققين وعليه تنبنى قواعد التصوف كلها * (متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره فهو فى كل ذلك متعرف اليك ومقبل بوجود لطفه عليك) المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية والاسماء الحسنى ولا سبيل لهم الى معرفته الا بتعرفه لهم وتعرفه لهم انما يكون بما ينزله بهم من النوازل ويورده عليهم من الاحكام ثم هو على قسمين ما وافق الهوى والطبع ويسمى ذلك عطاء ومنحا وما خالفهما ويسمى منعا فبوجود العطاء تشهد صفاته البرية من الجود والكرم والاحسان واللطف والعطف وغير ذلك وبوجود المنع تشهد صفاته القهرية من الجبر والكبرياء والعزة والاستغناء فينبغى لك أيها العبد أن لا تفرق بينهما ان أردت معرفة ربك ولم يستغرقك حب حظك اذا قنعه لك عطاء على التحقيق فهو فى كلتا الحالتين منعم عليك ومقبل بوجود لطفه اليك وهذا هو بيان ما تقدم من قوله متى فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع هو عين العطاء والله أعلم قال سفيان الثورى رضى الله عنه أتيت أبا حبيب البدوى أسلم عليه ولم أكن رأيته فقال لى أنت سفيان الثورى الذى يقال قال فقلت نعم فنسأل الله عز وجل بركة ما يقال قال فقال لى يا سفيان ما رأينا خيرا قط الا منه ربنا قلت أجل قال فالنا نكره لقاء من لم نر خيرا قط الا منه ثم قال يا سفيان منع الله اياك عطاء منه لك وذلك أنه لم يمنعك من بخل ولا عدم وانما منعه نظر منه واختيار يا سفيان ان فيك لانسا ومعك شغلا قال ثم أقبل على غنيمته وتركنى * (انما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه) اذا كان منع الله سبحانه وتعالى وعطاؤه نعمتين عظيمتين كما ذكرناه الآن فينبغى أن يكون فى كلتيهما قرة عين المريد فان تألم بأحدهما وهو المنع وتلذذ بالآخر وهو العطاء فذلك لعدم فهمه وقصور علمه وانما الاكمل والافضل له أن يتألم بالعطاء ويتلذذ بالمنع كما قال ابراهيم الخواص رضى الله عنه لا يصح الفقر للفقير حتى تكون فيه خصلتان احداهما الثقة بالله تعالى والاخرى الشكر لله فيما زوى عنه مما ابتلى به غيره من الدنيا ولا يكمل الفقير حتى يكون نظر الله له فى المنع أفضل من نظره له فى العطاء وعلامة صدقه فى ذلك أن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء لا يعرفه غير باريه الذى خصه بمعرفته وأيا ديه فهو لا يرى سوى ملكه ولا عليك الا ما كان من تمليكه وكل شئ له تابع وكل له خاضع اه * (ربما فتح لك باب الطاعة

وما فتح لك باب القبول وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول) ينبغى أن لا ينظر العبد الى صور الاشياء وليتنظر الى حقائقها فصور الطاعات لا تقتضى وجود القبول لها لما قد تضمنته من الآفات القادحة فى الاخلاص فيها وذلك مانع من وجود القبول لها ووجود صورة الذنب لا يقتضى الابعاد والطرد بل ربما يكون ذلك سببا فى وصوله الى ربه وحصوله فى حضرة قربه كما قيل رب ذنب أدخل صاحبه الجنة وقد جاء فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم وذلك أنه يصحبه عند عمله بالطاعة أن يعجب بها أو يعتمد عليها أو يتكبر بفعلها أو يستصغر من لم يفعلها ويصحبه عند وقوعه فى الذنب اللجأ الى الله تعالى فيه والاعتذار اليه منه واستصغار نفسه وتعظيم من لم يفعله * قال أبو حازم رضى الله عنه ان العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها وما خلق الله له من سيئة أضر له منها وان العبد ليعمل السيئة تسوءه حين يعملها وما خلق الله له من حسنة أنفع له منها وذلك أن العبد حين يعمل الحسنة تسره فيتمنى بها ويرى أن له فضلا على غيره ولعل الله أن يحبطها ويحبط معها عملا كثيرا وأن العبد ليعمل السيئة تسوءه حين يعملها ولعل الله أن يحدث له بها وجلا حتى يلقى الله تعالى وان خوفها فى جوفه لباق * ثم بين المؤلف رحمه الله هذا المعنى بقوله * (معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا) الذل والافتقار من صفات العبودية والعز والاستكبار منافضان لها لانهما من صفات الربوبية ولا خير فى الطاعات اذا لزم عنها شئ مما يناقض صفات العبودية لانها تحبطها وتبطلها كما لا مبالاة بالمعصية اذا لزم منها صفات العبودية لانها أيضا تمحوها وتزيلها قال سيدى أبو مدين رضى الله عنه انكسار العاصى خير من صولة المطيع وكان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة وكان يكرم الناس على قدر رتبهم عند الله تعالى حتى انه ربما دخل عليه مطيع فلا يعبأ به وربما دخل عليه عاص فأكرمه لان ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصى دخل عليه بكثرة معاصيه وذلة مخالفته وقد تقدم مثل هذا عند قوله لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى فمن هذا المعنى ما روى عن أبان بن عياش أنه قال خرجت يوما من عند أنس بن مالك رضى الله عنه بالبصرة فرأيت جنازة يحملها أربعة من الزنج ولم يكن معهم رجل آخر فقلت سبحان الله بسوق البصرة وجنازة مسلم لا يتبعها أحد فلأكونن خامسهم فمضيت معهم فلما وضعوها بالمصلى قالوا لى تقدم فقلت أنتم أولى به فقالوا كلنا سواء فتقدمت فصليت عليه وقلت لهم ما القصة فقالوا أكترتنا تلك المرأة قال فقعدت حتى دفنوه فلما كان بعد ساعة انصرفت تلك المرأة وهى تضحك فدخل قلبى شئ فقلت لا يخبئك الا الصدق أخبرينى ايش القصة فقالت ان هذا ابنى ما ترك شيأ من المعاصى الا فعله فمرض منذ ثلاثة أيام فقال يا أماه اذا مت فلا تخبرى بوفاتى جيرانى فانهم لا يحضرون جنازتى ويشمتون بموتى واكتبى على خاتمى هذا لا اله الا الله محمد رسول الله واجعليه على كفنى فلعل الله تعالى يرحمنى به وضعى رجلك على خدى وقولى هذا جزاء من عصى الله فاذا دفنتنى فارفعى يديك الى الله تعالى وقولى انى رضيت عنه فارض عنه فلما مات فعلت جميع ما أوصى به فلما

وما فتح لك باب القبول) الاضافة فيهما بيانية أو من اضافة المشبه به للمشبه (وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول) وذلك أن الطاعة قد تقارنها آفات قادحة فى الاخلاص فيها كالاعجاب بها والاعتماد عليها واحتقار من لم يفعلها وذلك مانع من قبولها والذنب قد يقارنه الالتجاء الى الله والاعتذار اليه واحتقار نفسه وتعظيم من لم يفعله فيكون ذلك سببا فى مغفرة الله له ووصوله اليه فينبغى أن لا ينظر العبد الى صور الاشياء بل الى حقائقها فيخاف ان كان مطيعا ويرجو ان كان عاصيا ثم أوضح المصنف معنى هذه الحكمة بقوله (معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا) ولا شك أن الذل والافتقار من أوصاف العبودية فالتحقق بهما مقتض للوصول الى حضرة الرب والعز والاستكبار من أوصاف الربوبية فالتحقق بهما مقتض للخذلان وعدم القبول قال أبو مدين قدس سره انكسار العاصى خير من صولة المطيع

(نعمتان ماخرج موجود عنهما) أى هما ٨٠ عامّتان لكل موجود (ولا بدّ لكل مكوّن) أى موجود (منهما) أى هما لازمتان لكل موجود لا ينفك عنهما موجود من الموجودات (نعمة الايجاد ونعمة الامداد) الاضافة للبيان فيهما فكل موجود فى ذاته معدوم متلاش فنعمة الايجاد أزالت عنه العدم السابق فصار موجودا ولولا ذلك لم يزل معدوما والمعدوم ليس بشئ ولما كان دوام وجوده يحتاج الى امداد الهى له يقتضى بقاء صورته وهيكله أمدّه بجلب المنافع له ودفع المضار عنه فنعمة الايجاد أزالت العدم السابق ونعمة الامداد أزالت العدم اللاحق وأبدلته باستمرار الوجود فلولا نعمة الايجاد لم يخرج شئ من العدم الى الوجود ولم يزل معدوما ولولا نعمة الامداد لم يتم وجود لموجود ولم يصح بقاء موجود بل يختل فى أقرب مدة ويضمحل ولا فرق فى هذا بين المكونات العلوية والسفلية ثم ذكر جزئيا من جزئيات تلك الكلية فقال (أنعم عليك) أيها الانسان (أوّلا بالايجاد وثانيا بتوالى الامداد) فاذا علم العبد أن ابتداء وجوده من الله ودوام وجوده كذلك علم أن فاقته ذاتية وأنه لا غنى له عن مولاه لافتقاره بعد وجوده فى كل وقت الى الامداد ثم هذه الامدادات المتوالية عليه منها ما يكون قوتا لشبحه تقوم به بنيته كالاقوات ومنها ما يكون قوتا لمعناه وروحه كالايمان والعلوم والمعارف فان الانسان شيآن روح وجسد والامداد الأوّل عام للمؤمنين والكافرين كنعمة الايجاد والثانى خاص بالمؤمنين ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما تقدم بقوله

رفعت يدى الى السماء سمعت صوته بلسان فصيح انصرفى يا أماه فقد قدمت على رب كريم رحيم غير غضبان علىّ فانما ضحكت من هذا ومن المعنى الآخر ما روى أن رجلا من بنى اسرائيل أتى عابدا من بنى اسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال له العابد ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله عز وجل أيها المتالى علىّ بل أنت لا يغفر الله لك قال الحرث المحاسبى رضى الله عنه لانه انما تالى على الله عز وجل أن لا يغفر الله له لعظم قدر نفسه عنده وأن الاساءة اليه عند الله عز وجل عظيمة لا يغفرها الله تعالى لموضع عبادته وسجوده لانه عدّ نفسه عظيم القدر عند الله عز وجل فجمع بين عجب وكبر واغترار بالله عز وجل ومن المعتبين جميعا ما روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام خرج ومعه صالح من صالحى بنى اسرائيل فتبعهما رجل خاطئ مشهور بالفسق فيهم فقعد منتبذا عنهما منكسرا فدعا الله سبحانه وتعالى وقال اللهم اغفر لى ودعا هذا الصالح وقال اللهمّ لا تجمع بينى وبين هذا العاصى فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام انى قد استجبت دعاءهما جميعا رددت ذلك الصالح وغفرت لذلك المجرم * وروى عن الشعبى أيضا عن الخليل بن أيوب أن رجلا كان فى بنى اسرائيل يقال له خليع بنى اسرائيل لكثرة فساده مر برجل آخر من بنى اسرائيل يقال له عابد بنى اسرائيل وعلى رأس العابد غمامة تظله فقال الخليع فى نفسه أنا خليع بنى اسرائيل وهذا عابد بنى اسرائيل فلو جلست اليه لعل الله عز وجل أن يرحمنى به فجلس اليه فقال العابد فى نفسه أنا عابد بنى اسرائيل وهذا خليع بنى اسرائيل يجلس الىّ فأنف منه وقال قم عنى فأوحى الله عز وجل الى نبى ذلك الزمن مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد وفى حديث آخر فتحوّلت الغمامة على رأس الخليع قال الحرث المحاسبى وانما أراد الله عز وجل من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم فاذا تكبر العالم أو العابد وأنف وتواضع الجاهل أو العاصى وذل هيبة لله عز وجل وفرقا منه فهو أطوع لله عز وجل من العابد أو العالم بقلبه

* (نعمتان ماخرج موجود عنهما ولا بد لكل مكوّن منهما نعمة الايجاد ونعمة الامداد) نعمة الايجاد ونعمة الامداد نعمتان لازمتان لكل مكوّن موجود لانه فى ذاته معدوم متلاش فنعمة الايجاد أزالت العدم السابق ولولا ذلك لم يزل معدوما ونعمة الامداد أزالت العدم اللاحق ولولا ذلك لتلاشى وفنى * قال سيدى أبو مدين الحق تعالى مستبد والوجود مستمدّ والمادّة من عين الوجود فلو انقطعت المادّة انهدم الوجود وهذا توطئة لما يريد بيانه من الفقر الذاتى للعبد * (أنعم عليك أوّلا بالايجاد وثانيا بتوالى الامداد) هذا أحد جزئيات الكلية المتقدمة وهو وجودك ودوام وجودك ومما لا ينبغى أن يتغافل عنه من أنواع هذا الجنس نعمة ايجاد الايمان ومحبة الطاعة فى قلبك وامدادهما وكذلك كراهة الكفر والمعصية فان ذلك من النعم العظيمة التى لا مدخل للعبد فيها ولا له وسيلة اليها ولولا تولى الله تعالى له بتينك النعمتين فى القسمين لتاه فى ظلمات الضلالات وغرق فى بحار الجهالات وقد نبه الله عز وجل على هذا المعنى فى كتابه الكريم فقال عز من قائل ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة * قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه ان من أفكر فى صنوف الضلال وكثرة طرق

المحال

(فاقتك لك ذاتية) أى اذا ثبت أن نعمتى الايجاد والامداد لازمتان لك وانك فى ذاتك عدم لولاهما فالفاقة اذاً ذاتية لك والاضطرار لازم لوجودك لاحتياجك الى المولى فى ابتداء وجودك وفى ادامته عليك لكن هذا الاضطرار يخفى على غالب الناس ويغفلون عنه اذا دامت عليهم صحة أبدانهم وكثرة أموالهم فيغيبون حينئذ عن صفتهم الذاتية وعن مولاهم فيورد عليهم أسباب الاضطرار ليذكرهم ذلك كما قال (وورود الاسباب) أى أسباب ٨١ الاضطرار وهى الامور القهرية من مرض وجوع وعطش وحر وبرد وغير ذلك (مذكرات لك بما) الباء زائدة أو بمعنى اللام (خفى عليك منها) أى الفاقة والاضطرار فاذا كنت فى غفلة عن اضطرارك الذاتى وأورد عليك مرضا أو فقرا اضطررت اليه وظهرت لك صفتك الذاتية بعد أن كانت مغطاة عنك بالصحة والجدة فتقوم حينئذ بحق العبودية وتدعوه سبحانه برفع ذلك عنك قال بعضهم انما حمل فرعون على قوله أنا ربكم الاعلى طول العافية والغنى لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولا حم جسمه ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ولو أخذته شقيقة ساعة واحدة أو المليلة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية وهذا فى حق غالب الناس والا فالعارفون لا يتاركهم مشاهدة فقرهم الذاتى كما سيأتى فى قوله العارف لا يزول اضطراره الخ فهؤلاء لا يحتاجون الى مذكر وانما يسلط الله عليهم هذه الاسباب القهرية لتظهر عليهم علامات الصدق فى العبودية اذ لا يزيدهم البلاء الا تعلقا بربهم وطاعة له ورجوعا اليه وليكثر ثوابهم وتعظم منزلتهم عند الله تعالى بما يظهر عليهم من الرضا عن الله والتسليم اليه (والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض) وهذا متعلق بقوله فاقتك لك ذاتية أى ان الاضطرار لازم لوجودك وان كنت غنيا بوجود النعمتين المذكورتين فان ذلك أمر عارض والامور الذاتية لا تزيلها الامور العرضية فما يحصل للعبد من الصحة والغنى والقدرة حتى تصير الاشياء كأنها طوع يده لا يزيل الفاقة الذاتية لانه يجوز فى حقه تعالى أن يزيل ذلك ويبدله بضده المقتضى للافتقار والاضطرار

المحال وشدة أغاليط الناس فى البدع والاهواء وما يتشعب بكل قوم مختلفى النحل والآراء ثم أفكر فى ضعفه ونقصان عقله وكثرة تحيره فى الامور وشدة جهله وتناقض تدبيره فى أحواله وشدة حاجته الى الاستعانة بأشكاله فى أعماله ثم رأى خالص يقينه وقوة استبصاره فى دينه ونقاء وجه توحيده عن غبرة الشرك وصفاء عين عرفانه عن رهج الشك علم أن ذلك ليس من طاقته ولا بجهده وكده وسعيه وجده بل بفضل ربه وسابغ طوله قال الله تعالى ذكره وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فهو الظاهر بنعمائه وآثار نعمه عليك متظاهرة والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة انتهى فعلى العبد أن يعرف قدر هذه النعمة ويتوكل على مولاه فى بقائها وحفظها عليه ولا يعتمد فى ذلك على عقله وعلمه (قال) بعض العارفين من تطرق توحيده الى عقله لم ينجه توحيده من النار وعن ذى النون المصرى رضى الله عنه ما هو قريب من هذا من كان فى توحيده ناظرا الى نفسه لم ينجه توحيده من النار حتى يكون نظره اليه فى توحيده اياه عز وجل فهذا هو شكر هذه النعمة العظيمة * قال الشيخ أبو طالب المكى بعد أن ذكر ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله أحبوا الله لما أسدى اليكم من نعمه ولما يغذوكم به أيضا فى أفضل ما غذانا به نعمة الايمان به والمعرفة له وغذاؤه لنا منه دوام ذلك ومدده بروح منه وتثبيتنا عليه فى تصريف الاحوال اذ هو أصل الاعمال التى هى مكان النوال فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الاعمال أى شئ كنا نصنع وعلى أى شئ كنا نعوّل وبأى شئ كنا نطمئن ونرجو فهذا من أعظم النعم ومعرفته هو شكر نعمة الايمان والجهل بهذا غفلة عن نعمة الايمان توجب العقوبة وادعاء الايمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوة وحول هو كفر نعمة الايمان وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الايمان لانه بدل شكر نعمة الله كفرا انتهى كلام الشيخ أبى طالب رضى الله عنه وهو حسن فى هذا المعنى * (فاقتك لك ذاتية وورود الاسباب مذكرات لك بما خفى عليك منها والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض) اذا ثبت أن نعمتى الايجاد والامداد لازمتان لك وأنك فى ذاتك عدم لولاهما فالفاقة اذاً ذاتية لك والاضطرار لازم لوجودك وان كنت غنيا بوجود النعمتين المذكورتين فان ذلك أمر عرضى والامور الذاتية لا تزيلها الامور العرضية وانما أورد عليك الاسباب التى تضاد وجودك أو بقاء وجودك ليذكرك بذلك ما خفى عليك من وجود الفاقة الذاتية لك والاضطرار لازم لوجودك فتلازم مركزك وتقوم بحق عبوديتك ولا تجاوز حدك وطورك (قال) بعضهم انما حمل فرعون على قوله أنا ربكم الاعلى طول العافية والغنى لبث أربعمائة

(خبر أوقاتك) أيها المريد الصادق (وقت تشهد فيه وجود فاقتك) بان يزوى عنك الدنيا وشهواتها

(وترد فيه الى وجود ذلتك) بكسر الذال أى فقرك وانما كانت هذه خير الاوقات لك لوجود حضورك فيها مع ربك وانقطاع نظرك عن الوسائط والاسباب الموجبة لبعدك عنه بخلاف الوقت الذى تشهد فيه وجود غناك وعزك فان ذلك شر أوقاتك * حكى عن عطاء السلمى أنه بقى سبعة أيام لم يذق شيأ من الطعام ولم يقدر على شئ فسر قلبه بذلك وقال يارب ان لم تطعمنى ثلاثة أيام أخر لاصلين لك ألف ركعة وقيل ان فتحا الموصلى رضى الله عنه رجع ليلة الى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجا ولا حطبا فأخذ يحمد الله و يتضرع اليه و يقول الهى بأى سبب و بأى وسيلة واستحقاق عاملتنى بما عاملت به أولياءك وكذا وقع للفضيل ابن عياض فقال فبأى عمل أستحق هذا منك حتى أداوم عليه الى غير ذلك مما وقع لاهل الله تعالى ولذا قال المصنف فيما سيأتى وورود الفاقات أعياد المريدين (متى أوحشك من خلقه) أى ماعدا الله تعالى بان تشمئز منهم بقلبك وتنقبض عنهم بسرك ولا يكون للاشياء وقع عندك ولا تجد فيها مقنعا عن مولاك (فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الانس به) فاذا فتح لك ذلك الباب وآنسك بالخطاب صرت له وحده وغبت عن غيره كما وقع لابى يزيد قدس الله سره أنه اطلع على أنواع من العجائب وكشف له عن الملكوتات العلا فقيل له وهل استحسنت منها شيأ فقال لم أر شيأ أستحسنه فقيل له أنت عبد الله حقا

رضى

سنة لم يتصدع رأسه ولا حم جسمه ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة أو الحمى ليلة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية * قال فى لطائف المنن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد اذ هو ممكن وكل ممكن مضطر الى ممد يمده ومدد يعده وكما أن الحق سبحانه هو الغنى أبدا فالعبد مضطر اليه أبدا ولا يزال العبد هذا الاضطرار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولو دخل الجنة فهو محتاج الى الله تعالى فيها غير أنه غمس اضطراره فى المنة التى أفرغت عليه ملابسها وهذا هو حكم الحقائق اذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة فالعلم صفته الكشف أى علم كان فى أى وقت كان والارادة صفتها التخصيص أى ارادة كانت فى أى وقت كان ومن اتسعت أنواره لم يتوقت اضطراره وقد عتب الله أقواما اضطروا اليه عند وجود أسباب ألجأتهم الى الاضطرار فلما زالت زال اضطرارهم قال سبحانه واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه الآية وقال واذا مس الانسان الضر دعانا وقال قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر الآيتين الى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المعنى ولما لم تصل عقول العوام الى ما تعطيه حقائق وجوداتهم سلط الحق عليهم الاسباب المثيرة للاضطرار ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة الهيته انتهى

* (خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك وترد فيه الى وجود ذلتك) انما كان هذا خير الاوقات لك لوجود حضورك فيها مع ربك وانقطاع نظرك عن الوسائط والاسباب الموجبة لبعدك وحجبك فهى لا محالة خير أوقاتك وهى مواسمك وأعيادك حسبما يقوله المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا * حكى عن عطاء السلمى رضى الله عنه أنه بقى سبعة أيام لم يذق شيأ من الطعام ولم يقدر على شئ فسر قلبه بذلك غاية السرور فقال يارب ان لم تطعمنى ثلاثة أيام أخر لاصلين لك ألف ركعة وقيل ان فتحا الموصلى رضى الله عنه رجع ليلة الى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجا ولا حطبا فأخذ يحمد الله تعالى و يتضرع اليه و يقول الهى لاى سبب و بأى وسيلة واستحقاق عاملتنى بما عاملت به أولياءك (وقال) بشر الحافى رضى الله عنه بلغنى أن بنت الفتح الموصلى عريت فقيل له ألا تطلب من يكسوها فقال لا أكسوها حتى يرى الله عريها وصبرى عليها قال فكان اذا كان ليالى الشتاء جمع عياله ومال بكسائه عليهم ثم قال اللهم أفقرتنى وأفقرت عيالى وجوعتنى وجوعت عيالى وأعريتنى وأعريت عيالى بأى وسيلة توسلت اليك وانما تفعل هذا بأوليائك وأحبابك فهل أنا منهم حتى أفرح وقيل ان الفضيل بن عياض رضى الله عنه بكى فى ليلة قرة ثم قال الهى أجعتنى وأجعت عيالى وأعريتنى وأعريت عيالى وأقعدتنى وأقعدت عيالى فى بيت ليس فيه مصباح وقد كنت تفعل هذا بأوليائك وأهل طاعتك الهى فبأى عمل أستحق هذا منك حتى أدوم لك عليه * وقيل للربيع بن خيثم رضى الله عنه قد غلا السعر فقال نحن أهون على الله من أن يجيعنا انما يجيع أولياءه * (متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الانس به) فتح باب الانس بالله تعالى هو الاستيحاش من الناس ولذلك قيل الاستئناس بالناس من علامات الافلاس فاذا فتح لك هذا الباب استوحشت من الاغيار كلها وتحققت فى أنسك بربك ومعنى الوحشة منها أن تشمئز بقلبك منهم وتنقبض عنهم بسرك ولا يكون للاشياء وقع عندك ولا تجد فيها مقنعا لك كما جاء عن أبى يزيد البسطامى

(متى أطلق لسانك بالطلب) أى بان حل عنه عقدة الصمت التى أوجبها الاستغناء بالاغيار وعدم رؤية الافتقار فاذا حل عنه هذه العقدة بان أشهدك فقرك وفاقتك حتى دعوته كنت اذ ذاك داعيا بلسان الاضطرار (فاعلم أنه يريد أن يعطيك) أى يحصل لك مطلوبك لصدق الوعد باجابة الدعاء من المضطر والله

لا يخلف الميعاد ولقوله عليه الصلاة والسلام من أعطى الدعاء لم يحرم الاجابة أى اما بعين المطلوب أو بغيره عاجلا أو آجلا قال بعضهم هذا اذا كان الدعاء صادرا عن اختيار وقصد أما اذا جرى على لسانه من غير قصد فان الاجابة بعين المطلوب لا تكاد تتخلف (العارف لا يزول اضطراره) أى احتياجه بل هو دائم مستمر لشهوده قبضة الله الشاملة المحيطة ولمعرفته بنفسه وبما هى عليه من الفاقة وتحققه بذلك فى كل نفس بخلاف غيره فانه تارة يضطر فيدعو وتارة يدعو من غير اضطرار وذلك أن اضطرار العامة بعثرات الاسباب لغلبة دائرة الحس على مشهدهم فاذا زالت زال اضطرارهم فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم الى الله تعالى دائم (ولا يكون مع غير الله قراره) أى لا يركن ولا يستند بقلبه لغير الله تعالى لوجود وحشته من الاشياء ونفوره بقلبه عنها كما تقدم فكأنه يقول ان ما تقدم من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب نعتان من نعوت العارفين * ثم قال (أنار الظواهر) أى المكونات من السموات والارضين أى جعلها منيرة (بانوار آثاره) أى آثار أوصافه أى بانوار الكواكب من شمس وقمر ونجوم التى هى آثار لاوصافه من قدرة وارادة وغيرهما فتلك الظواهر صارت مكشوفة لنا بانوار الكواكب وحينئذ ترى المكونات ونأخذ منها ما ينفع ونحترز عما يضر

رضى الله عنه حين اطلع على أنواع من العجائب ووجه بسنى الرغائب وكشف له عن الملكوت الاعلى فقيل له هل استحسنت منها شيأ فقال لم أر شيأ أستحسنه فقيل له أنت عبد الله حقا فاذا كان العبد على هذا الوصف كان ذلك علامة على تحققه بمقام الانس ونزوله فى حضرة القدس وسيأتى هذا المعنى فى قوله فى مناجاته أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم

* (متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك) اطلاق اللسان بالطلب هو أن يحل عنه عقدة الصمت الذى أوجبه الاستغناء بالاغيار وعدم رؤية الفاقة والافتقار فاذا حل عنه هذه العقدة بشهود فقره وفاقته وأطلق لسانه بالطلب كان اذ ذاك داعيا بلسان الاضطرار وكان مجاب الدعوة لصدق الوعد باجابة دعوة المضطر والله لا يخلف الميعاد وأنشدوا

لو لم ترد نيل ما أرجوه من طلب * من فيض جودك ما ألهمتنى الطلبا

وفى الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من أذن له فى الدعاء منكم فتحت له أبواب الرحمة وما يسئل الله شيأ قط أحب اليه من أن يسئل العفو والعافية فى الدنيا والآخرة وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من أعطى الدعاء لم يحرم الاجابة (قال) الشيخ أبو بكر الخفاف رضى الله عنه وكيف لا يجيبه وهو يحب صوته ولولا ذلك ما فتح له باب الدعاء وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا وسحه عليه سحا فاذا دعا قالت الملائكة صوت معروف وقال جبريل يارب عبدك فلان اقض حاجته فيقول الله دعوا عبدى فانى أحب أن أسمع صوته فاذا قال يارب قال الله تعالى لبيك عبدى وسعديك لا تدعونى بشئ الا استجبت لك ولا تسألنى شيأ الا أعطيتك اما ان أعجل لك ما سألت واما أن أدخر لك عندى أفضل منه واما أن أدفع عنك به من البلاء ما هو أعظم من ذلك * (العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره) معرفة العارفين هى معرفتهم بأنفسهم وبما هى عليه من الفاقة والافتقار الى العزيز الجبار و بقدر ما يتحققون بذلك من أنفسهم تكون معرفتهم بالله عز وجل كما جاء فى الخبر من عرف نفسه عرف ربه فلذلك كان العارف لا يفارقه الاضطرار * قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى قوله تعالى أمن يجيب المضطر اذا دعاه الولى لا يزال مضطرا قال الاستاذ تاج الدين بن عطاء الله قدس الله سره معنى كلام الشيخ هذا أن العامة اضطرارهم بعثرات الاسباب فاذا زالت زال اضطرارهم وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم فلو شهدوا قبضة الله تعالى الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم الى الله تعالى دائم وانما لم يكن له مع غير الله قرار لوجود وحشته من الاشياء ونفوره بقلبه عنها كما تقدم وكأنه رحمه الله قصد بهذا أن يعلمك أن ما تقدم له من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب من الحق نعتان من نعوت العارفين * (أنار الظواهر بانوار آثاره

(وأنار السرائر) جمع سر وهو باطن القلب كالسر (بانوار أوصافه) أي بالعلوم العرفانية والاسرار الربانية الناشئة عن تجلي أوصافه على قلوب العارفين فتلك السرائر أي سرائر العارفين صارت مكشوفة لهم بانوار العلوم والمعارف الناشئة عن أوصافه سبحانه أي تجليها على قلوبهم وحينئذ يشاهدون ما في سرائرهم من الاوصاف فيحترزون عما يضرهم منها ويتصفون بما ينفعهم (لاجل ذلك) أي كون الظواهر نارت بانوار آثاره والسرائر نارت بانوار أوصافه فالانوار الاولى ناشئة عن الحادث والثانية عن القديم (أفلت) أي غابت وذهبت (أنوار الظواهر) أي الكواكب فيذهب نور الشمس في الليل ونور القمر والنجوم في النهار ونسبة ذلك النور الى الظواهر باعتبار كونه منورا لها والا فهو قائم بالكواكب (ولم تأفل) بضم الفاء أي تغب وتذهب (أنوار القلوب والسرائر) أي الانوار الناشئة عن مشاهدة الصفات القديمة التي لا تزول وما ينشأ عن القديم لا يزول وانما يطرأ عليه تغطيته بالاوصاف البشرية بالنسبة للعارفين ثم تزول وذلك النور ثابت في قلوبهم (ولذلك) أي لاجل أفول أنوار الظواهر وعدم أفول أنوار السرائر (قيل) أي قال الشاعر (ان شمس النهار تغرب بالليل) أي واذا غربت ذهب ضوءها (وشمس القلوب ليست تغيب) وهو بيت مدور نصفه الباء وقبله

طلعت شمس من أحب بليل ❊ فاستضاءت فما لها من غروب

وفي هذا تنبيه على أن الامور الباقية هي التي ينبغي أن يغتبط بها ويفرح بحصولها ويعتنى بتربيتها ومراعاة حالها بخلاف الامور الفانية الآفلة وحينئذ يكون العبد على ملة ابراهيم عليه السلام حيث قال لا أحب الآفلين (ليخفف ألم البلاء عليك علمك بانه سبحانه هو المبلي لك) اي استحضارك أنه سبحانه هو المبلي دون غيره وأنه أعلم بمصالحك من نفسك فان ذلك سبب في تسليتك وتسليمك ووجود صبرك (فالذي) أي لان الذي (واجهتك منه الاقدار) أي الامور المقدرة عليك من المرض وذهاب المال والولد ونحوهما (هو الذي

وأنار السرائر بأنوار أوصافه لاجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر ولذلك قيل ان شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب)

أنوار الظواهر التي بها أنارها الحق تعالى هي الادراكات والاحساسات والحركات التي اتصف بها ظاهر العبد وأنوار السرائر التي بها أنارها الحق تعالى هي المعارف والعلوم ولطائف الادراكات والفهوم التي اشتمل عليها باطنه وسره فأنوار الظواهر متعلقة بأنوار الآثار الحادثات وأنوارها معانيها ولطائفها المستكنة فيها وأنوار السرائر متعلقة بأنوار الصفات الازليات ولاجل اختلاف التعلقين في الحدوث والقدم والغنى والفقر والفناء والبقاء كان ما ذكره المؤلف رحمه الله من أفول أنوار ما تعلق بالحادث الفاني وعدم أفول أنوار ما تعلق بالقديم الباقي ثم أنشد المؤلف البيت المذكور مستشهدا به على ما ذكره ومعناه بين وقبله

طلعت شمس من أحب بليل ❊ فاستضاءت فما لها من غروب

وفي هذا تنبيه على أن الامور الباقية هي التي ينبغي أن يغتبط بها ويفرح بحصولها ويعتنى بتربيتها ومراعاة حالها بخلاف الامور الفانية الآفلة وحينئذ يكون العبد على ملة ابراهيم عليه السلام حيث قال لا أحب الآفلين وروى أن رجلا سأل سهل بن عبد الله رضي الله عنه عن القوت فقال هو الحي الذي لا يموت فقال انما سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم فقال سألتك عن الغذاء فقال الغذاء هو الذكر فقال انما سألتك عن طعم الجسد فقال مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخرا اذا دخلت عليه علة فرده الى صانعه اما رأيت الصنعة اذا عيبت ردوها الى صانعها حتى يصلحها وفي معناه أنشدوا

كمل حقيقتك التي لم تكمل ❊ والجسم دعه في الحضيض الاسفل
أتكمل الفاني وتترك باقيا ❊ هملا وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلة ❊ ما لم تحصله بها لم تحصل
يفنى وتبقى دائما في غبطة ❊ أو شقوة وندامة لا تنجلي
أعطيت جسمك خادما فخدمته ❊ ان يملك المفضول رق الافضل
شرك كثيف أنت في أحباله ❊ ما دام يمكنك الخلاص فعجل
من يستطيع بلوغ أعلى منزل ❊ ما باله يرضى بادنى منزل

❊(وقيل في هذا المعنى أيضا)❊

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ❊ وتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها ❊ فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

❊(ليخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك فالذي واجهتك منه الاقدار هو

الذي عودك حسن الاختيار) أي اختيار الامر الحسن الذي يلائمك فان من كانت له عليك نعمة من المخلوقين وجرت عادته أنه يجب الخير لك على تقدير أنه أساء اليك في بعض الاحيان تحمله لانه ربما كانت اساءته احسانا في الباطن وكذلك العبد اذا علم أنه سبحانه وتعالى رحيم به ومنعطف عليه وناظر له فكل ما يورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغي له أن لا يبالي به فانه لم يتعود منه الا الخير فيحسن ظنه به ويعتقد أن ذلك اختيار له وأن له في ذلك مصالح خفية لا يعلمها الا هو كما قال تعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم قال أبو طالب المكي في هذه الآية فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضر وهو خير له في الآخرة وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شر له عند الله وأسوأ عاقبة اه (من ظن انفكاك لطفه عن قدره) أي عما قدره الله عليه من البلايا والمحن (فذلك لقصور نظره) اذ لو كمل نظره لوجد نفسه قد حصل له في تلك البلايا ألطاف كثيرة منها اقباله على المولى بتلك البلية فان البلايا التي يبتلي الله بها عباده مناقضة لاراداتهم ومنغصة لشهواتهم وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها

الذي عودك حسن الاختيار) اذا علم العبد أن الله تعالى رحيم به ومنعطف عليه وناظر اليه فكل ما يورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغي له أن لا يكترث بذلك ولا يباليه فانه لم يتعود منه الا الخير له فليحسن به ظنه وليعتقد أن ذلك اختيار له وان في ذلك مصالح خفية لا يعلمها الا هو كما قال الله تعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم ❊ قال أبو طالب المكي في هذه الآية فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضر وهو خير له في الآخرة وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شر له عند الله تعالى وأسوأ عاقبة ❊ وفي معنى ذلك قوله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قيل ظاهرة العوافي وباطنة البلايا لانها نعمة في الآخرة فاذا كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة كائنا ما كان فله الحمد على نعمه قال في التنوير انما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره وأنشد فيه لنفسه بقوله

وخفف عني ما ألاقي من العنا ❊ بانك أنت المبتلي والمقدر
وما لامرئ عما قضى الله معدل ❊ وليس له منه الذي يتخير

(وكان) الاستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه يقول جربت مرة وكنت في صورة وحشة من ذلك فدخلت الحمام ففتح على قلبي بشيء من الرضا فكنت ألتم كل واحدة من تلك القروح فخرجت ولم يبق منها أثر (وقال) الاستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه سمعت الاستاذ أبا علي الدقاق يقول في آخر عمره وقد اشتدت به العلة من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم ثم قال كالمفسر لقوله مشيرا الى ما كان فيه من حاله هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في امضاء الاحكام قطعة قطعة وأنت ساكن خامد وقال الجنيد رضي الله عنه كنت نائما عند سري السقطي رضي الله عنه فنبهني وقال لي يا جنيد رأيت كأني قد وقفت بين يديه فقال لي يا سري خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر وخلقت النار فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر فقلت للباقين معي لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم ولا من البلاء فررتم فماذا تريدون قالوا انك لتعلم ما نريد فقلت لهم اني أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم به الجبال الرواسي أتصبرون قالوا اذا كنت أنت المبلي فافعل ما شئت فهؤلاء عبادي حقا ❊(من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره) فقصور النظر في عدم رؤية اللطف في القدر انما هو من ضعف اليقين وقلة حسن الظن بالمقدر الحكيم ولو كمل نظر العبد وقوي بصره لرأى في ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يحصى وما غاب عنه أكثر ولكان كما روي عن بعض الصالحين العارفين أنه قال اقدم مرضت مرضة فاحببت أن لا تزول وكان عمران بن الحصين رضي الله عنه قد استسقى بطنه فلبث ملقى على ظهره سطيحا ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له على سرير من جريد وكان تحته نقب لغائطه وبوله فدخل عليه مطرف أو أخوه العلاء بن الشخير فجعل يبكي لما رأى من حاله فقال له لم تبكي قال لاني أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فاني أحب ما أحبه الله تعالى الي ثم قال أحدثك بشيء لعل الله تعالى ينفعك به واكتم علي حتى أموت ان الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فاسمع تسليمها ❊ وقال بعضهم دخلنا على سويد بن شعبة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا

أن يخنه شيأ حتى كشف فقالت له امرأته أهلى فداؤك ما نطعمك وما نسقيك فقال طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضواما أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا فذكر أياما ثم قال ما يسرني أني نقصت من هذا الالم مثقال ذرة فهؤلاء شاهدوا في بلاياه عطاياه وفي محنه منحه وفي عنفه لطفه فاوجب لهم ذلك من الرضا بما هم فيه والتنعم به والتلذذ ما حملهم على أن لا يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه ووجوه الالطاف والمنن في البلايا لا تحصى ولكنا نذكر منها ههنا ما يزداد المريد به قوة وحسن ظن بربه عز وجل ويحمله ذلك على القيام بواجبها فنقول البلايا التي يبتلي الله بها عباده مناقضة لاراداتهم ومنغصة لشهواتهم وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها فهو محمود العاقبة من قبل أن ذلك راده الى الله تعالى وملازمة بابه بصدق اللجأ والافتقار وهذا هو أعظم فوائد البلايا ويجد ذلك من نفسه كل من نزلت به بلية أو أصابته رزية وفيها أيضا ضعف النفس وذهاب قوتها وبطلان صفاتها اذ بوجود ذلك يقع العبد في الذنوب والمعاصي وتتأكد منه الرغبة في الدنيا والحرص على اتباع الهوى وقد قيل لا يخلو المؤمن من علة أو عيلة أو ذلة أو فاقة أو قلة وفي الخبر عن الله تعالى الفقر سجني والمرض قيدي أحبس بذلك من أحببت من عبادي وفيها أيضا تحصل له طاعات القلوب وأعمالها وذرة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح وذلك مثل الصبر والرضا والزهد والتوكل وحب لقاء الله تعالى قيل لعبد الواحد بن زيد رضي الله عنه ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به قال لا قال فهل أنست به قال لا قال فهل رضيت عنه قال لا قال فانما مزيدك منه الصلاة والصيام قال نعم قال لولا أني أستحي منك لاخبرتك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة قال أبو طالب المكي رضي الله عنه أراد بذلك أنه لم يرفعك باعمالك الى مقامات المقربين فيوجدك مواجد العارفين فيكون مزيدك منه أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب لان القناعة به حال الموقن والانس به مقام المحب والرضا وصف المتوكل أي انما أنت عنده في طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح وهذه اشارة الى ما قلناه من أفضلية أعمال القلوب على أعمال الجوارح فمن وفقه الله تعالى الى منازلة هذه المقامات وتوفية حقوقها في البلايا النازلة به فقد حصل على كنوز البر وذكر أبو ابراهيم اسحق بن ابراهيم التجيبي القرطبي المالكي رحمه الله في كتاب النصائح له ان عروة بن الزبير رضي الله عنه امتحن بقرحة في ساقه بلغت به الى نشر عظم ساقه في الموضع الصحيح منها فقال له الاطباء ألا نسقيك مرقدا فلا تحس بما نصنع بك فقال لا ولكن شأنكم بها فنشرت الساق ثم حسموها بالنار فما حرك عضوا ولا أنكر وأمنه حتى مسته النار فما زاد على أن قال حسي وأصيب حينئذ ابنه محمد وكان من أحب ولده اليه فلما رأى القدم بيد بعضهم قال أما ان الله تعالى يعلم أني لم أمش بها الى معصية قط ثم قال يا غلام اغسلها وكفنها وادفنها في مقبرة المسلمين ثم جعل يقول لئن أخذت لقد أبقيت ولئن ابتليت لقد عافيت ولئن أخذت لقد طالما أعطيت وذكر ابن قتيبة في عيون الاخبار له عن المدائني قال قدم رجل من عبس ضرير محطوم الوجه على الوليد فسأله عن سبب ضرره فقال بت ليلة في بطن واد ولا أعلم على وجه الارض عبسيا يزيد ماله على مالي فطرقنا سيل أذهب ما كان لي من مال وأهل وولد الا صبيا رضيعا وبعيرا صعبا فند البعير والصبي معي فوضعته واتبعت البعير لاحبسه فما جاوزت الا ورأس الولد في بطن الذئب قد أكله فتركته واتبعت البعير

فهو محمود العاقبة من قبل أنه يرد العبد الى الله ويلزمه بابه فيلتجئ اليه وهذا أعظم فوائد البلايا ويجد ذلك في نفسه كل من نزلت به بلية أو أصابته رزية ومنها أن في البلايا ضعف النفس وذهاب قوتها وبطلان صفاتها التي توقع العبد في الذنوب والمعاصي وتقوي رغبته في الدنيا ومنها أن العبد يحصل له عندها غالبا طاعة القلوب كالصبر والرضا والتوكل والزهد وحب لقاء الله تعالى وذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ومنها أنه يحصل بها كفارة الذنوب والخطايا الى غير ذلك من الالطاف الالهية

فاستدار فرمحني رمحة حطم بها وجهي واذهب عيني فاصبحت لاذا مال ولاذا أهل ولاذا ولد ولاذا بدن فقال الوليد اذهبوا به الى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم بلاء منه وروي عن عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه أنه خرج مع بعض اخوانه الى ناحية من نواحي البصرة فآواهم السير الى كهف جبل فاذا فيه عبد مقطع بالجذام يسيل جسده قيحا وصديدا فقالوا له يا هذا لو دخلت البصرة فتعالجت من هذا الذي بك فرفع طرفه الى السماء وقال يا سيدي بأي ذنب سلطت هؤلاء علي ليسخطوني عليك ويكرهونك الي سيدي لك العتبى من ذلك الذنب وأستغفرك منه ولا أعود فيه أبدا قال ثم أعرض عنا بوجهه فانصرفنا وتركناه وروي عن بشر بن الحرث الحافي رضي الله عنه أنه قال رأيت ببغداد رجلا قد قطعه البلاء وقد سالت حدقتاه على خديه وهو مع ذلك كثير الذكر عظيم الشكر لله تعالى قال واذا هو صرع من جنة به قال فوضعت رأسه في حجري وجعلت أسأل الله تعالى أن يكشف ما به وأدعو فأفاق فسمع دعائي فقال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي ويعترض عليه في نعمته علي ونحى رأسه من حجري قال بشر فعاقدت الله تعالى أن لا أعترض على عبد في نعمة أراها عليه من البلاء وقد روي في بعض الاخبار أن يونس وجبريل عليهما الصلاة والسلام التقيا فقال يونس لجبريل دلني على أعبد أهل الارض فاتى به على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه قال واذا هو يقول متعتني بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وأبقيت لي فيك الامل يا بر يا وصول فقال يونس يا جبريل انما سألتك أن تريني صواما قواما فقال ان هذا كان قبل البلاء هكذا وقد أمرت أن أسلبه بصره فأشار الى عينيه فسالتا فقال متعتني بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وأبقيت لي فيك الامل يا بر يا وصول فقال جبريل هلم ندعو وندعو معك أن يرد الله عليك يديك ورجليك وبصرك فتعود الى العبادة التي كنت فيها فقال ما أحب ذلك قال ولم قال اذا كانت محبته في هذا فمحبته أحب الي من ذلك قال يونس يا جبريل والله ما رأيت أحدا أعبد من هذا قال جبريل يا يونس ان هذا طريق ليس يوصل الى رضاه بشئ أفضل منه وفي الخبر اذا أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضي اصطفاه وفيها أيضا يحصل له كفارة الذنوب والخطايا ويستوجب من الله جزيل الهبات والعطايا ولا سبيل له الى ذلك الا بما يرد عليه من أنواع البلايا لان العبد قد يعجز عن القيام بوظائف الطاعات ويتكاسل عن المواظبة على نوافل الخيرات فيكون حينئذ محروما من ثوابها غير حاصل له تكفير سيآته بها وان قدر عليها ولم يتكاسل عنها لم يأمن تخليصها من الشوائب وتسليمها من الآفات والمعايب وحينئذ يبطل عمله ويخيب من انتفاعه به أمله فليحسن العبد ظنه بمولاه وليعلم أن ما اختاره له خير له مما يختاره لنفسه بشهوته وهواه فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال للرجل الذي قال له أوصني قال لا تتهم الله في شئ قضاه عليك وذكر مسلم رحمه الله من حديث صهيب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عجبا لامر المؤمن ان أمره كله خير وليس ذلك لاحد الا للمؤمن ان أصابه سراء فشكر كان خيرا له وان أصابه ضراء فصبر كان خيرا له وذكر البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه الا كفر الله به من سيآته وذكر أيضا من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما



سواه الاحط الله تعالى عنه به سيآته كما تحط الشجرة أوراقها وذكر البخاري ومسلم أيضا من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها الا كتبت له درجة ومحيت عنه بها خطيئة وذكر البخاري أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وفي حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المريض اذا برئ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده وماله لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه وروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة في الحمى والعمى وغير ذلك وروى البزار من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه وعليه حمى فوجد حرها من فوق اللحاف فقال ما أشدها عليك يا رسول الله قال انا كذلك يشدد علينا البلاء ليضاعف لنا الاجر قال يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال الانبياء ثم الصالحون لئن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد الا العباءة يحويها وان كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله وان كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء وقيل في معنى قوله تعالى فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين أي من الآثام والذنوب بالحمى والامراض كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عنه للحمى اذهبي الى أهل قباء وقد روى في بعض الاخبار رجلا من أهل قباء الانصار قصته أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى يوما شخصا أسود فقال من أنت فقالت أم ملدم آكل اللحم وأشرب الدم وحرى من فيح جهنم صورة الحمى فقال عليه السلام اذهبي الى الانصار فان لهم علينا حقوقا فاصبح النبي صلى الله عليه وسلم فلم ير أحدا من الانصار حضر الصلاة فطلبهم فقيل أخذتهم الحمى فقال قوموا بنا نعودهم وقال لهم الحمى طهارة وكفارة فقالوا يا رسول الله ادع الله لنا حتى يزيد نا منها وذكر مسلم رحمه الله من حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال مالك يا أم السائب أو يا أم المسيب تزفزفين قالت الحمى لا بارك الله فيها فقال لا تسبي الحمى فانها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد وذكر البخاري من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل قال اذا ابتليت عبدي المؤمن بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه كذا قال في آخر الحديث من قول أحد الرواة والحبيبتان هما العينان وهما الكريمتان أيضا وروى أن أنس بن مالك وأبا ظلال رضى الله عنهما كانا في بيت ثابت البناني فقال أنس يا أبا ظلال متى فقدت بصرك قال وأنا صبي لا أعقل فقال ألا أحدثك حديثا حدثنيه حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم يرويه عن جبريل ويرويه جبريل عن ربه عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا قال جزاؤه الخلود في داري والنظر الى وجهي ومن طريق هلال بن سويد وهو أبو ظلال المذكور أنه سمع أنسا رضى الله عنه يقول مر بنا ابن أم مكتوم فسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أحدثكم بما حدثني به جبريل عليه السلام عن هذا وأضرابه الذين ذهبت أبصارهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثني جبريل أن الله عز وجل يقول حق على من أخذت كريمتيه ليس له جزاء الا الجنة وفي حديث بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما أصيب عبد بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب

بصره

(لا يخاف عليك) اذا كنت متلبسا بحال من الاحوال كطاعة أو معصية أو نعمة أو بلية (أن تلتبس الطرق عليك) أي طرق العبودية التي توصلك الى ربك عند تلبسك بحال من تلك الاحوال لان الشريعة مبينة لذلك فان من

بصره وما ذهب بصر عبد فصبر الا لقي الله ولا حساب عليه وذكر البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة سوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني أصرع واني أتكشف فادع الله لي قال ان شئت صبرت ولك الجنة وان شئت دعوت الله أن يعافيك قالت أصبر قالت فاني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها الى غير ذلك مما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب مما لا يحصى كثرة وفيها أيضا يحصل له تجديد التوبة وأداء الحقوق والتبعات والظلامات وكثرة الاستغفار وحسن التذكار وكثرة ذكر الموت اذ ذاك أبلغ ما يذكر به فقد قيل الحمى بريد الموت وقد قيل في قوله تعالى أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون أي يختبرون بها وفي حديث عائشة وأنس رضى الله عنهما قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم قال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة وفي لفظ الحديث الآخر من يذكر ذنوبه فتحزنه وقد كان السلف رضى الله عنهم يستوحشون اذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أو مال ويقال لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يراع بروعة أو يصاب بنكبة وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشئ وفيها أيضا يقع له خلف ما يفوته من الطاعات ونوافل العبادات فيكتب له في مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك في صحته وذلك أبلغ له في الوصول الى غرضه لانه من اختيار الله تعالى له وهو خير مما اختاره لنفسه وفي الخبر يقول الله تعالى للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله في صحته فانه في وثاقي ان أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وان توفيته توفيته الى رحمتي وفي الحديث الصحيح من حديث أبي موسى الاشعري رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا الى غير ذلك من الالطاف التي لا يعلمها واتما ذكرنا هذه المعاني ههنا الانها لائقة بكلام المؤلف رحمه الله وكانها مفسرة له وأيضا فان العبد محتاج اليها غاية الاحتياج لانه في حال نزول البلايا يتسخط ويجزع ويضطرب ايمانه ويتزلزل ايقانه فيحتاج الى من يذكره بأمثال هذه المعاني ليحصل له بذلك من الرضا وحسن الظن بالله تعالى والمحبة له ما يرجى له بذلك ان مات من فوره حسن الخاتمة وحب لقاء الله تعالى والاعمال بخواتيمها وهذا الغرض هو الذي أوجب لنا في هذا الفصل الاكثار من الحكايات واظهار نسبة أكثر الاحاديث فيه الى رواتها الثقات لتطمئن قلوب أهل البلاء بذلك ونسلك الى الله واضحات تلك المسالك والله ولي التوفيق ● (لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وانما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك) الطريق الى الله تعالى واضحة لائحة لان الحق تعالى هو الذي تولى ذلك وبه أنزل الكتب وأرسل الرسل ونصب عليه الادلة والبراهين فلا يخاف على العبد من التباسها عليه وانما يخاف من غلبة الهوى عليه حتى يعميه ذلك عن ربه قال أحمد بن خضرويه البلخي رضى الله عنه الطريق واضح والحق لائح والداعي قد أسمع فما التحير بعد هذا الا من العمى ● (سبحان من ستر سر الخصوصية

نظر في الكتاب والسنة وجد ما يرشده فعبودية في الطاعة أن تشهد منته بها عليك وفي المعصية الاستغفار والتوبة منها وفي النعمة الشكر عليها وفي البلية الصبر عليها (وانما يخاف عليك) في هذه الاحوال (من غلبة الهوى عليك) حتى يعميك عن رؤية طريق قصدك فما ذكر بأن تعجب بالطاعة وتصبر في المعصية وتستقل النعمة فلا تشكرها وتجزع في البلية ويحتمل أن المعنى لا يخاف عليك أيها المريد الصادق أن تلتبس عليك الطرق أي الاعمال الموصلة الى الله من صلاة وصيام وذكر أي يلتبس عليك الاولى منها فتصير تعمل هذا تارة وهذا أخرى وتنتقل في أنواع العبادات لكونك لا تعرف الاولى منها من غيره اذا لم تكن تحت تربية شيخ وانما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصدك عن سلوك أي طريق من تلك الطرق فترجع عن التوجه الى مولاك بل الذي يلزمك أن تستعمل طرق القربات وان لم تعرف الاولى منها حتى يجمعك الله على شيخ ناصح يربيك ذلك وتكون تحت تربيته (سبحان من ستر سر الخصوصية) أي سرها هو الخصوصية وهي العلوم والمعارف والاسرار الالهية التي يعطيها الله لاوليائه ويفيضها على قلوبهم

(بظهور البشرية) أى الاحوال التى تعرض للبشر والامور الدنيوية التى يتعاطاها الناس فان بعض الاولياء قد يكون حمارا أوخواصا أوحبا كافلا يعرفه غالب الناس ليستر خصوصيته بهذه الصنعة التى يتعاطاها ومخاصمته للناس فى حال معاملته معهم وقد يظهر الله آثار الخصوصيات على بعض الناس وهم الدعاة الى الله تعالى ليتكمل بهم غيرهم (وظهر) للعباد (بعظمة الربوبية) أى بربوبيته العظيمة (فى اظهار) آثار (العبودية) عليهم وهى الاحوال التى تطرأ على العبيد فتقتضى افتقارهم للرب كالمرض والفقر فان العبد اذا قام به حال من تلك الاحوال التجأ الى الرب فى ازالته وظهر له عظمة ربوبيته أى ربوبيته العظيمة أى أن له ربا مالكا له يزيل عنه ماقام به ولولا ذلك لم يعرفه فعظمة الربوبية انما ظهرت للعباد من وراء حجاب العبودية ولولا ذلك لكان باطنا لا يظهر ولذا قال الشاذلى قدس سره العبودية جوهرة أظهرتها الربوبية فسبحان اللطيف الخبير (لا تطالب ربك) أى تعترض عليه وتسئ الظن به (ب) سبب (تأخر مطلبك) أى ماطلبته منه باطنيا كان كالخصوصيات أوظاهريا كالاغراض الدنيوية فاذا طلبت منه شيأ ولم يسرع لك الاجابة فلا تسئ به ظنك ولا تطالبه بالوفاء بذلك فانه يفعل مايشاء لا يسئل عما يفعل (ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك) أى عدم وجوده حيث طلبت منه اسراع اجابتك ولا يخفى مافى ذلك من سوء الادب وأيضا مطالبتك له بالاجابة دليل على أنك دعوت لتجاب فى دعائك فيكون دعاؤك لغرض وهذا مما يقدح فى كمال عبوديتك وأيضا اعتقادك أنه لم يستجب لك اساءة أدب اذ ليس من شرط الاجابة أن تظهر لك بان يجيبك بعين ماطلبت فى الحال بل له أن يخفيها عنك لما فى ذلك من المصالح فيجيبك بغير ماطلبت أو بعينه لكن يؤخر ذلك لمصلحة يعلمها ثم أشار الى كمال الادب الذى اذا قام به العبد حصل له غاية مقصوده وهو المعبر عنه بالاستقامة وبالصراط المستقيم فى قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم فقال (متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لامره) بان وفقك للقيام بطاعته ويسرها لك (ورزقك فى الباطن الاستسلام لقهره) أى الرضا بما يجرى عليك من مولاك (فقد أعظم المنة عليك) حيث جمع لك بين عبودية الظاهر وعبودية الباطن فهذان الامران هما اللذان يلزمانك فى اقامة العبودية لربك لا غير فلماذا تتشوف وما الذى تلتمس بعد حصولهما ان كنت عبدا حقيقيا وهل درجات أهل الكمال الا التقلب فى عبودية الظاهر وعبودية الباطن (ليس كل من ثبت تخصيصه) باظهار أمر خارق للعادة على يده كطى الارض والطيران فى الهواء والمشى على الماء (كمل تخليصه) من آفات النفوس وغوائلها وماتدعو اليه من الشهوات والمخالفات فكأنه يقول ليس كل مخصص بالآيات والكرامات مخلصا من الآفات بل قد يكون بعض من خصص بالكرامة لم تثبت له الاستقامة فالكرامة الحقيقية هى الاستقامة التى تضمنها ماتقدم بخلاف الكرامات التى هى خوارق العادات فانها قد تحصل على يد من لم يكن مستقيما استقامة تامة وكثيرا ماتظهر على أيدى المبتدئين ولا تظهر على أهل التمكين والكمل من أهل الله تعالى فينبغى احترامهم وتعظيمهم لكن يعظم أهل الاستقامة أكثر من أهل الكرامة

بظهور البشرية وظهر بعظمة الربوبية فى اظهار العبودية) سر الخصوصية هو حقيقة المعرفة التى اختص بها أهل الولاية الله تعالى بحيث لا يبقى معها وجود لغير ولا كون وذلك لما جعله فيهم من التهيؤ والقابلية فمن لطيف حكمة الله تعالى أن ستر ذلك بما أظهره من البشرية التى من لوازمها وجود الغير والكون ولولا هذا الستر لكان سر الله مبتذلا غير مصون كما قال فى لطائف المنن ولا بد للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب ثم ان من حقيقة ظهور البشرية الاتصاف بصفة الافتقار والاحتياج وغير ذلك من أوصاف الحدوث وذلك هو حقيقة التعبد والتأله فظهر لنا من ذلك لزوم وجود اله معبود وهذه هى عظمة الربوبية التى ظهرت لنا من وراء حجاب العبودية ولولا ذلك لكان باطنا لا يظهر كما قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه العبودية جوهرة أظهرتها الربوبية فسبحان اللطيف الخبير ومن هو على كل شئ قدير والتسبيح الذى ذكره المؤلف رحمه الله ههنا فى غاية المناسبة لما ذكره من المعنى * (لا تطالب ربك بتأخر مطلبك ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك) اذا دعوت ربك وسألت منه مطلبا من المطالب ولم تظهر لك الاجابة فحسن به ظنك ولا تطالبه بالوفاء بذلك فانه يفعل مايشاء لا يسئل عما يفعل ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك فانها أهل للمطالبة وسوء أدبها من وجوه أحدها أنك دعوت لتجاب فى دعائك فيحصل لك بذلك غرض وهذا مما يقدح فى كمال عبوديتك وسيأتى هذا المعنى عند قوله لا يكن طلبك سببا الى العطاء منه فيقل فهمك عنه وليكن طلبك لاظهار العبودية وقياما باحكام الربوبية والثانى اعتقادك أنه لم يستجب لك اذ ظهر لك عدم الاجابة منه وليس من شرط الاجابة أن تظهر لك بل له أن يخفيها عنك لما فى ذلك من المصالح والاجابة اليه أمرها يجعلها ماشاء مما تعلمه أو تجهله وقد تقدم هذا المعنى عند قوله لا يكن تأخير أمد العطاء مع الالحاح فى الدعاء موجبا ليأسك الى آخره والثالث وهو أشدها اعتراضك على ربك فى حكمه ومطالبتك له اذا تأخرت اجابته عليك ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى الحالة التى يكون عليها العبد قائما بحق الادب وواصلا الى غاية الارب فقال * (متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لامره ورزقك فى الباطن الاستسلام لقهره فقد أعظم المنة عليك) هذان الامران هما اللذان يلزمانك فى اقامة العبودية لربك لا غير ففى يسرهما الله تعالى لك وأقامك فى مراعاة أحكامهما ووفقك لذلك فقد أعظم المنة عليك فلماذا تتشوف وما

الذى تلتمس بعدهما ان كنت عبدا حقيقيا قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه صحبت أخالى الله تعالى فى البادية واعتزلنا فى مغارة عسى أن نكون من أولياء الله تعالى وأن يفتح الله علينا بما فتح الله عليهم فاقنا زمانا نقول لعل فى هذه الجمعة لعل فى هذا الشهر فلم يفتح الله علينا فنحن كذلك واذا بشيخ على باب المغارة يستأذن فاذنا له فدخل فسلم ووقف فقلنا له من أنت فقال عبد الملك فعلمنا أنه من أولياء الله فقلنا له كيف حالك فقال كيف حالك يرددها كالمنكر علينا ثم قال كيف حال من يقول لنفسه فى هذه الجمعة أكون وليا فى هذا الشهر أكون وليا فلا ولاية ولا فلاح ولا دنيا ولا آخرة يانفس ألا تعبدين الله تعالى كما أمرك مخلصة لوجهه كما أمرك قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ثم انصرف عنا فانتبهنا لغلطنا وتيقظنا من أين دخل علينا وعلمنا أن الله تعالى رحمنا به فرجعت على نفسى باللوم والتوبيخ وقلت لها يانفس من أنت وما عملك وما خطرك أنت لا شئ وتبنا واستغفرنا الله تعالى قال ففتح الله علينا بجوده وفضله * (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه) التخصيص ههنا هو أن يظهر الحق تعالى على بعض عباده أثر عنايته وتولية لطفه ورعايته فمنهم من يستمر له ذلك حتى يتحقق بالعرفان ويتخلص عن رؤية الاغيار والاكوان وهؤلاء هم خواص المقربين أهل العلم بالله والحب له ومنهم من يوقفه عن بلوغ ذروة الكمال وتربيه فى حالة بما يليق به من علوم وأعمال وهؤلاء عامة المقربين وخاصة أصحاب اليمين العباد الزهاد وأهل المجاهدة والاوراد وهؤلاء وان شاركوا الاولين فيما يتحفهم الحق تعالى من لطائف الكرامات وفيما يمنحهم اياه من القيام بوظائف الطاعات والعبادات فلم يتخلصوا من رؤية نفوسهم ولم ينفكوا عن مراعاة حظوظهم بل هم ساكنون الى الاسباب مرتبطون بوجود الحجاب وقد يخص الحق تعالى هؤلاء باظهار الكرامات على أيديهم وبسببهم تسكينا لنفوسهم وتثبيتا لليقين فى قلوبهم ويمنعها الاولين لانهم لا يحتاجون اليها لما هم فيه من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين كما قال صاحب كتاب عوارف المعارف وقد يكون من لا يكاشف بشئ من معانى القدر أفضل ممن يكاشف بها اذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة فالقدرة أثر القادر ومن أهل لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيأ من القدرة ويرى القدرة تجلى له من محف أجزاء عالم الحكمة وسئل الشبلى رضى الله عنه وقيل له ان أبا تراب ذكر أنه جاع فى البادية فرأى البادية كلها طعاما فقال عبد رفق به ولو بلغ الى محل التحقيق لكان كمن قال أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى قال فى لطائف المنن واعلم أن الكرامات تارة تظهر للولى فى نفسه وتارة تظهر منه لغيره فان ظهرت للولى فى نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله تعالى وفردانيته وأحديته وأن قدرته لا تتوقف على الاسباب وأن العوائد هو حاكم عليها ليست هى حاكمة عليه وانما جعل العوائد والوسائط والاسباب حجب قدرته وسحب شمس أحديته فالواقف عندها مخذول والنافذ منها اليه من هو بالعناية موصول قال وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والارادة والصفات الازلية مجتمع لا يفترق وأمر لا ينعقد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد لا يستوى من تعرف الله اليه بنوره بمن تعرف الى الله بعقله ولاجل أنها تثبت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم وفقدها أهل النهايات فى نهاياتهم اذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه الى مثبت وهكذا كان السلف رضى

الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى الى ظهور الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف
الغيبية والعلوم الاشهادية ولا يحتاج الجبل الى مرساة فالكرامة رافعة لزلزلة الشك فى المنة
ومعرفة تفضل الله تعالى فمن أظهرت عليه وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى
والناس فى الكرامات على ثلاثة أقسام قوم يجعلونها غاية الامر فان وجدوها عظموا من
ظهرت عليه وان فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم اليه وقسم قالوا وما هى الكرامات انما هى
خدع يخدع بها أهل الارادة ليقفوا بها على حدودهم حتى لا يلحقوا مقاما ليس هو لهم حتى
قال أبو تراب النخشبى لابى العباس الرقى ما يقول أصحابك فى هذه الامور التى تكرم الله بها
على عباده فقال ما رأيت أحدا الا وهو مؤمن بها فقال أبو تراب من لم يؤمن بها فقد كفر انما
سألتك من طريق الاحوال فقال ما أعرف لهم قولا فقال أبو تراب بل قد زعم أصحابك أنها
خدع من الحق وليس الامر كذلك انما الخدع فى حال السكون اليها فاما من لم يفرح بها ولم
يساكنها فتلك مرتبة الربانيين وكان هذا من أبى تراب رضى الله عنه بعد أن عطش القوم
وهم أصحابه فضرب بيده الارض فنبع الماء فقال انى أريد أن أشربه فى قدح فضرب بيده
الارض فناوله قدحا من زجاج أبيض فشرب وسقانا قال أبو العباس الرقى وما زال القدح معنا
الى مكة قال الشيخ أبو الحسن والقول الفصل فى ذلك أنه لا ينبغى أن نطلب أدبا مع الله تعالى
ومن ظهرت عليه عظم لانها شاهدة له بالاستقامة مع الله تعالى قال والقسم الثالث وهو أن
تظهر الكرامات فى الولى لغيره والمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذى شهدها بصحة طريق
هذا الولى الذى ظهرت عليه الكرامة اما أن يكون جاحدا فيرجع الى الاعتراف أو كافرا
فيعود الى الايمان أو شاكا فى خصوصية هذا العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من
ودائع الاحسان انتهى كلامه وقال أبو نصر السراج سألت أبا الحسن بن سالم فقلت له
ما معنى الكرامات وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختيارا وكيف أكرموا بان تجعل
لهم الحجارة ذهبا فما وجه ذلك فقال لا يعطيهم ذلك لقدرها ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا
بذلك على نفوسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذى قسم الله لهم فيقولون الذى
يقدر على أن يصير لك الحجارة ذهبا كما هو ذا ينظر اليه قادر على أن يسوق اليك رزقك من
حيث لا تحتسبين فيحتجوا بذلك على تصحيح نفوسهم عند فوت الرزق ويقطعوا بذلك حجج
نفوسهم فيكون ذلك سببا لرياضة نفوسهم وتأديبا لها قال أبو نصر وقد حكى لنا ابن سالم فى
معنى ذلك حكاية عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال كان رجل بالبصرة يقال له اسحق
ابن أحمد وكان من أبناء الدنيا فخرج من الدنيا أعنى من جميع ماله وتاب وصحب سهلا فقال
يوما لسهل يا أبا محمد ان نفسى هذه ليست تترك الصياح والصراخ من خوف فوت القوت
والقوام فقال له سهل خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاما تأكله فقال له ومن امامى
فى ذلك حتى أفعل فقال امامك ابراهيم عليه السلام حيث قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال
أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى المعنى فى ذلك أن النفس لا تطمئن الا برؤية العين لان
من جبلتها الشك فقال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى حتى تطمئن نفسى فانى مؤمن بذلك
والنفس لا تطمئن الا برؤية العين قال فكذلك الاولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديبا
لنفوسهم وتهذيبا لها وزيادة لهم انتهى كلام أبى نصر وقال بعض العلماء ما رأيت هذه
الكرامات الا على أيدى البله من الصادقين وكان رجل يصحب سهل بن عبد الله رضى الله

عنه فقال له يوما ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يدى قضبان ذهب وقضبان فضة
فقال سهل أما علمت أن الصبيان اذا بكوا أعطوا خشخاشة ليشتغلوا بها وحكى جعفر الخالدى
عن الجنيد رضى الله عنه قال جاءنى أبو حفص النيسابورى مرة ومعه عبد الله الرباطى
وجماعة وكان فيهم رجل أصلع قليل الكلام فقال يوما لابى حفص قد كان فيمن مضى لهم
الآيات الظاهرة يعنى بها الكرامات وليس لك شئ من ذلك فقال له أبو حفص رضى الله
عنه تعال فجاء به الى سوق الحدادين الى كير عظيم فاحمى فيه حديدة عظيمة فادخل يده فى
الكير فأخذ الحديدة المحماة فاخرجها فبردت فى يده فقال له يجزيك هذا فسئل بعضهم عن معنى
اظهار ذلك من نفسه فقال كان مشرفا على حاله يخشى على حاله أن يتغير عليه ان لم يظهر له
ذلك فخصه بذلك شفقة عليه وصيانة لحاله وزيادة لايمانه بل ربما ينفر عنها العارفون ويخاف
منها المحققون قال بعض السلف ألطف ما يخادع به الاولياء الكرامات والمعونات وذكر عن
أبى حفص أو غيره أنه كان جالسا وحوله أصحابه قال فنزل ظبى من الجبل فبرك عندهم قال فبكى
أبو حفص فسئل عن بكائه فقال كنتم حولى فوقع فى قلبى أن لو كان لى شاة لذبحتها لكم
فلما برك هذا الظبى عندنا شبهت نفسى بفرعون حين سأل الله تعالى أن يجرى معه النيل
فأجراه معه فبكيت وسألته الاقالة مما تمنيت وأطلقت الظبى ويحكى أن بعض الابدال قال
لتلميذ من تلامذة الشيخ أبى مدين رضى الله عنه ما بالنا لا يعتاص علينا شئ وهو يعتاص
عليه أقل الامور مع انا نتمنى مقامه وهو لا يتمنى مقامنا فبلغ ذلك الشيخ أبا مدين فقال قل له
تركنا مرادنا لمراده وعن بعضهم أنه كان يسير فى البادية فانتهى الى بئر فاذا الماء ارتفع الى
رأس البئر فقال أنا أعلم أنك قادر على هذا ولكن لا أطيقه فلو قيضت لى بعض الاعراب
ليصفعنى صفعات ويسقينى شربة ماء كان أسلم لى ثم انى لا أعلم أن ذلك الرفق ليس من جهته
قال يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه اذا رأيت الرجل يشير الى الآيات والكرامات
فطريقه طريق الابدال واذا رأيته يشير الى الآلات والنعمات (١) فطريقه طريق المحبة
وهو أعلى من الذى قبله واذا رأيته يشير الى الذكر ويكون قلبه معلقا بالذكر الذى ذكر
فطريقه طريق العارفين وهو أعلى درجة من جميع الاحوال • وقال أبو يزيد رضى الله عنه
كنت فى بداية تربية الحق تعالى الآيات والكرامات فلم التفت اليها فلما رآنى كذلك جعل
لى الى معرفته سبيلا • (لا يستحقر الورد الا جهول الوارد يوجد فى الدار الآخرة والورد
ينطوى بانطواء هذه الدار وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده الورد هو طالبه منك والوارد
أنت تطلبه منه وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه) الورد عبارة عما يقع بكسب العبد
من عبادة ظاهرة أو باطنة والوارد هو الذى يرد على باطن العبد من لطائف وأنوار فينشرح
بها صدره ويستنير بها قلبه وسره فالورد ما من العبد للحق تعالى من معاملة وعبودية والوارد
ما من الحق سبحانه للعبد من لطف وكرامة والورد أحق ما يعتنى به العبد ويراعيه من الوارد
لوجهين أحدهما أن الورد مختص بهذه الدار لا يقع الا فيها فهو منقطع بانقطاعها وفان بفنائها
فينبغى للعبد أن يستكثر من الاوراد قبل فواتها اذ لا يمكنه خلف ما فات منها والثانى أن
الورد هو حق للحق منك والوارد هو حظك منه وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية
من طلب حظوظك ووقوفك معها فاذا ثبتت مزية الورد على الوارد باعتبار العبد كان

(لا يستحقر الورد) وهو الاعمال
الصالحة التى تعمر بها الاوقات
وتكف بها الجوارح عن الوقوع
فى المكروهات بان لا يعتنى به
ولا يواظب عليه (الا جهول)
لما فيه من العبودية لله تعالى
والحضور بين يديه والتنعم
بذكره ولانه يورث تصفية
الباطن وجلب الانوار وهى
الواردات فالتشوق لها مع عدم
الاعتناء بما يجلبها من الجهل
والحمق • ثم ذكر أن له مزية على
الوارد من وجهين أشار الى
الاول بقوله (الوارد) وهو ما يرد
على باطن العبد من المعارف
الربانية واللطائف الروحانية
وهى الانوار التى ينشرح بها
صدره ويستنير بها قلبه
وسره (يوجد فى الدار الآخرة
والورد ينطوى بانطواء هذه
الدار) أى يفنى بفنائها (وأولى
ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده)
أى فينبغى للعبد أن يستكثر
من الاوراد قبل فواتها اذ لا
يمكنه خلف ما فات منها والى
الثانى بقوله (الورد هو طالبه
منك والوارد أنت تطلبه منه
وأين ما هو طالبه منك مما هو
مطلبك منه) يعنى أن الورد
هو حق الله منك والوارد هو

(١) قوله الآلات والنعمات
فى نسخة الآلاء والنعماء

استحقاره من نهاية الجهل وكان مستحقره جهولا كما قال فى لطائف المنن واعلموا أن الله تعالى أودع أنوار الملكوت فى أصناف الطاعات فمن فاته من الطاعات صنف أو أعوزه من الموافقة جنس فقد فقد من النور بمقدار ذلك فلا تهملوا شيأ من الطاعات ولا تستغنوا عن الاوراد بالواردات ولا ترضوا لانفسكم بما رضى به المدعون من جرى الحقائق على ألسنتهم وفقد أنوارها من قلوبهم لان الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستفرعة لباب الغيب فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الادب لم يحجب الغيب عنه وانما حجاب الغيوب وجود العيوب والتطهر من العيب يفتح لك باب الغيب ولا تكن ممن يطلب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لله فذلك حال الجاهلين الذين لم يفهموا عن الله ولا واجههم المدد من الله والمؤمن ليس كذلك بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه فان توقف عليه الوقت استبطأ أدبه ولا يستبطئ مطلبه ثم ذكر كلاما كثيرا وفى كلامه رحمه الله تعالى تنبيه على تأكد أمر الاوراد وعظم موقعها من الدين وأن مراعاتها من أحسن سمات العارفين وقد رؤى الجنيد رضى الله عنه وفى يده سبحة فقيل له أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة فقال نعم سبب وصلنا به الى ما وصلنا لا نتركه أبدا وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلى أربعمائة ركعة ثم يعود الى بيته ورؤى بعد وفاته فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال طاحت تلك الاشارات وفنيت تلك العبارات وأبيدت تلك الرسوم وغابت تلك العلوم وما نفعنا الا ركعات كنا نركعها فى السحر ٭ وحكى أبو محمد الجريرى رضى الله عنه قال كنت عند الجنيد رضى الله عنه فى حال نزعه وكان يوم جمعة ويوم نيروز وهو يقرأ القرآن فختم فقلت فى هذه الحالة يا أبا القاسم فقال ومن أولى منى بذلك وحينئذ تطوى صحيفتى وقال أبو الحسن الدراج رضى الله تعالى عنه ذكر عند الجنيد أهل المعرفة بالله تعالى وما يراعونه من الاوراد والعبادات بعد ما لاطفهم الله به من الكرامات فقال الجنيد رضى الله عنه العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤس الملوك ٭ وقال أبو بكر العطار حضرت الجنيد عند الموت فى جماعة من أصحابنا فرأيناه قاعدا يصلى ويثنى رجله اذا أراد أن يسجد فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه فثقلت عليه حركتهما فمد رجليه فرآه بعض أصدقائه ممن حضر ذلك الوقت وكانت رجلاه قد تورمتا فقال ما هذا يا أبا القاسم فقال هذه نعم الله الله أكبر فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الجريرى رضى الله عنه يا أبا القاسم لو اضطجعت فقال يا أبا محمد هذا وقت وجود منه الله الله أكبر فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمة الله عليه ورضوانه ٭ وقال الحصرى رضى الله عنه الناس يقولون الحصرى لا يقول بالنوافل وعلى أوراد من حال الشباب لو تركت منها ركعة لعوتبت وقال محمد بن ثابت البنانى رضى الله عنهما لما حضرت أبى الوفاة جعلت ألقنه الشهادة فقال لى يا بنى دعنى فانى فى وردى السابع ٭ قال أبو طالب المكى رضى الله عنه ومداومة الاوراد من أخلاق المؤمنين وطريق العابدين وهى مزيد الايمان وعلامة الايقان وفى خبر أن عائشة رضى الله عنها سئلت عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة وفى لفظ آخر كان اذا عمل عملا أتقنه وأثبته وفى الخبر المشهور أحب الاعمال الى الله تعالى أدومها وان قل وجاء فى الاثر كلام تارة يروى عن الحسن بن على وتارة يروى عن الحسن البصرى ومرة عن عائشة رضى الله عنهم أجمعين وبعضهم يحكيه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه

حقك منه وقياما بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلبك حظوظك ووقوفك معها وأتى المصنف بذلك ارشادا للمريدين الذين يتشوقون الى الواردات ويتركون الاوراد ويستحقرونها وذلك من الجهل بثمراتها ولذا لم يترك العارفون أورادهم مع تمكنهم فى أحوالهم أكثر من المريدين

شرا من أمسه فهو محروم ومن لم يكن فى مزيد فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له وقد يكون استحقار الورد من المكر والاستدراج للعبد ويكون مبدأ ذلك أن تلوح له خيالات وتظهر له صور كرامات توجب له استحسان حالته واختيار بطالته وفى ذلك رفض العبودية بالكلية وهو أمارة لوجود الطرد والبعد والعياذ بالله وصاحب هذا عظيم الجهالة شديد العماية والضلالة وقد قال الجنيد رضى الله عنه لرجل ذكر المعرفة فقال الرجل أهل المعرفة بالله يصلون الى ترك الحركات من باب البر والتقرب الى الله تعالى فقال الجنيد ان هذا قول قوم تكلموا باسقاط الاعمال وهذه عندى عظيمة والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا وان العارفين بالله أخذوا الاعمال عن الله واليه راجعون فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة الا أن يحال بى دونها وانه لأوكد فى معرفتى وأقوى فى حالى ٭ قال السهروردى رضى الله عنه فى كتاب عوارف المعارف فأما من تعوق بخيال أو قنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالاخلاص فيدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور فيرفض العبادات ويستحقرها ويسلبه الله تعالى لذة المعاملة ويذهب عن قلبه هيبة الشريعة ويفتضح فى الدنيا والآخرة فيعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب الى الله تعالى بعمارة الاوقات وكف الجوارح عن المكروهات فيصلح لقوم من أرباب الخلوة مداومة الاوراد وتوزيعها على الاوقات ويصلح لقوم دوام المراقبة ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد ويصلح لقوم الانتقال من الذكر الى الاوراد ولقوم الانتقال من الاوراد الى الذكر انتهى ما يتعلق بغرضنا من كلام السهروردى رضى الله عنه وهو مناسب لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى وليس من هذا المعنى ما روى عن أبى سليمان الدارانى وأحمد بن عاصم الانطاكى رضى الله عنهما أنهما قالا اذا صارت المعاملة الى القلوب استراحت الجوارح وان كان ظاهره موهما له فان أبا نصر السراج رضى الله عنه فسره بعد أن حكاه عن أبى سليمان الدارانى فقال وهذا الذى قاله أبو سليمان يحتمل معنيين أحدهما أنه أراد بذلك استراحة الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الاعمال اذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر والعوائق المذمومة التى تشغل عن ذكر الله تعالى قلبه ويحتمل أيضا أنه أراد بذلك أن يتمكن من المجاهدات والاعمال والعبادات وتصير وطنه ويستلذها بقلبه ويجد حلاوتها ويسقط عنه التعب ووجود الآلام التى كان يجدها قبل ذلك انتهى كلام أبى نصر ومعناه صحيح والله أعلم وبه التوفيق (ورود الامداد بحسب الاستعداد وشروق الانوار على حسب صفاء الاسرار) ورود الموارد الامدادية من الله تعالى على قلب عبده بحسب القوة الاستعدادية المجبولة فيه وشروق الانوار اليقينية على حسب صفاء سره من كدر التعلق بالآثار والركون الى الاغيار ٭ (الغافل اذا أصبح ينظر ماذا يفعل والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به) أول خاطر يرد على العبد هو ميزان توحيده فالغافل اذا أصبح أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل الى نفسه فيقول ماذا أفعل اليوم فهو مشتغل بتدبير نفسه مصروف عن النظر الى مولاه وذلك لوجود غفلته عنه فهو حقيق بأن يكله الله تعالى الى نفسه فيتشتت عليه عقله ويتغيض عليه مراده والعاقل أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل الى الله تعالى فيقول ماذا يفعل الله بى فهو ناظر الى الله تعالى والى ما يرد عليه منه وذلك لوجود عقله ودوام يقظته

(وورود الامداد) من الله تعالى على عبده (بحسب الاستعداد) أى بحسب استعداد العبد بتطهير قلبه وملازمته لورده ولذا قيل طهر قلبك من الاغيار تملأه بالمعارف والاسرار فالوارد تابع للورد كيفا وكما ودواما ٭ فان كان الورد كاملا بأن برز من قلب صاف كان الوارد مثله أو ناقصا كان مثله وان كان كثيرا كان الوارد كثيرا والا فبحسبه ويعتبر ذلك بمجموع العمر ولذا كان أحب العمل الى الله أدومه وان قل وان كان دائما كان الامداد دائما فالمواظبة على الورد من أهم المهم وهذا يصلح أن يكون وجها ثانيا لمزية الورد على الوارد (و) قوله (شروق الانوار على حسب صفاء الاسرار) تعليل لما قبله وايضاح له أى شروق أنوار اليقين والعرفان وهى الامدادات المذكورة على حسب صفاء الاسرار من كدر التعلق بالآثار والركون الى الاغيار ولا يكون صفاؤها غالبا الا بملازمة الاوراد (الغافل) عن التوحيد وأن كل شئ بقضاء الله وقدره (اذا أصبح ينظر ماذا يفعل) أى ينسب أفعاله الى نفسه فيقول ماذا أفعل فى هذا اليوم مثلا (والعاقل) أى المتيقظ الذى لا يغفل عن التوحيد ولا يغيب عنه أن كل شئ بقضاء الله وقدره (ينظر ماذا يفعل الله به)

فلا جرم أن يكفيه الله تعالى تعلقات الآمال ويفرغه من جميع الاشغال ويرضيه ويغنيه عما يقيمه فيه من أعمال أو يورده عليه من أحوال وهذه سعادة عظيمة ومنة من الله تعالى لمن وليه من عباده جسيمة قال عمر بن عبد العزيز أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القدر وقال أبو عثمان رضى الله تعالى عنه منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ولا نقلنى الى غيره فسخطته ومن أملح ما رأيت فى هذا المعنى الذى ذكره المؤلف رحمه الله وما يجب أن يحذو على منواله كل عالم متصوف ما ذكره الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلى رضى الله تعالى عنه فى كتابه صفة الاولياء ومراتب أحوال الاصفياء مسنده الى أيوب بن بشر الطالقانى قال حدثنا رجل من أصحابنا قال رأيت رجلا فى مرج الديباج ليس معه شئ فدنوت منه فسلمت عليه فرد على السلام فقلت يرحمك الله أين تريد قال ما أدرى قلت هل رأيت أحدا يريد مكانا لا يدرى أين يذهب فقال نعم أنا واحد فقلت فأين تنوى قال الى مكة قلت تنوى مكة ولا تدرى أين تذهب قال نعم وذلك أنى كم مرة أردت أن أذهب الى مكة فيردنى الى طرسوس وكم مرة أردت طرسوس فيردنى الى عبادان فيبنى الى مكة ولا أدرى قلت فمن أين المعاش قال لا أدرى قلت أخبرنى بأسباب ذلك قال من حيث يريد يجيعنى مرة ويشبعنى مرة ويكرمنى مرة ويهيننى مرة ومرة يقول لى ما على وجه الارض أزهد منك ومرة يقول لى أنت لص ومرة ينومنى على الفراش ويطعمنى الطيب ويدهن رأسى ويكحل عينى ومرة يطردنى الطرد العنيف ولا ينومنى الا عند النواويس قلت يرحمك الله من يفعل ذلك بك قال الله عز وجل قال فأتانى فى بحر قلت فسر لى يرحمك الله كيف هذا قال أنا رجل أسير نهارى فاذا جن بى الليل بت فربما يأوينى الليل الى قرية فاذا نظر الى أهلها قال بعضهم لبعض هذا لص لا تدعون هذا يأوى الليلة فى هذه القرية فاذا صليت العشاء الآخرة يدخل المسجد رجل فيقول يا نائم فأقول لبيك فيقول لى بالعنف قم من ههنا ليس لك ههنا موضع فأقول له حبا وكرامة فأين أبيت الليلة فيقول خارج القرية عند النواويس فأقول نعم وكرامة لا يكون لى مأوى الا عند النواويس تلك الليلة فاذا أصبحت سرت فيأوينى الليل الى قرية فاذا رآنى أهلها قال بعضهم لبعض قد ورد عليكم الليلة رجل زاهد خير فاضل فيقول هذا عندى يبيت ويقول هذا عندى يبيت فاذا صليت العشاء الاخيرة فيقول رجل منهم قم بنا الى البيت فأقول نعم حبا وكرامة فأمضى معه الى المنزل فيأتينى بالطعام الطيب ويدهن رأسى ويكحل عينى ويأتينى بالفراش اللين فينومنى عليه ولا يدع شيأ من البر الا فعله بى حتى أصبح فهذا حالى مع سيدى فقلت رحمك الله متى قدر لك أن تدخل بغداد فان منزلى فى موضع كذا وكذا قال فأنا يوما قاعد واذا بانسان يدق الباب فخرجت فاذا أنا بصاحبى فسلمت عليه وأدخلته البيت فقلت له أى شئ صنع بك مولاك قال آخر ما فعل بى ضربنى ضربا شديدا وقال لى يا لص ثم أرانى ظهره فاذا أثر الضرب عليه فقلت ايش القصة قال كان أجاعنى جوعا شديدا فلما بلغت الابيار جئت الى مقثأة قد نبذ منها المدود والمر فقعدت مقعدا آكل منه فنظرنى صاحب المقثأة فأقبل الى بعصا فجعل يضرب ظهرى ويقول يا لص ما أخرب مقثأتى غيرك مذ كم أرصدك حتى وقعت عليك واذا أنا بفارس قد أقبل مسرعا اليه فضربه بالسوط فى رأسه وقال تعمد الى رجل زاهد فتضربه أو يقال لمثل هذا يا لص قال فما كان بأسرع من أن كنت عنده لصا فصرت زاهدا كما حدثتك قال فأخذ

أى ينسب أفعاله كلها الى الله تعالى فيقول اذا أصبح ماذا يفعل الله بى فى هذا اليوم مثلا فنظر الغافل لنفسه فربما وكله الله اليها فلا تنجح مطالبه ونظر العاقل لربه فيكفيه ما أهمه وييسر له مطالبه فهذا ميزان يعرف به المريد حال نفسه فأول خاطر يرد عليه هو ميزان توحيده فلينظر اذا استقبله شغل فان عاد قلبه فى أول وهلة الى حوله وقوته فهو منقطع عن الله وان عاد الى الله سبحانه فهو واصل اليه ويصح أن يكون معنى نظره الى ما يفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الاشارة من قبله تعالى فيكون اقدامه واحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وصدق افتقاره

بيدى صاحب المقثأة فذهب بى الى منزله فما أبقى من الكرامة شيأ واستحلنى فخرجت من عنده وجئت اليك وقد يكون فى معنى نظره الى ما يفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الاشارة من قبله فيكون اقدامه واحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وصدق افتقاره قال سيدى أبو مدين رضى الله تعالى عنه احرص من أن تصبح وتمسى الا مفوضا مستسلما لعله أن ينظر اليك فيرحمك وقال بعضهم من اهتدى الى الحق لم يهتد الى نفسه ومن اهتدى الى نفسه لم يهتد الى الله فانظر اذا استقبلك شغل فان عاد قلبك فى أول وهلة الى حولك وقوتك فانت المنقطع عنه فان عاد قلبك الى الله فانت الواصل الى الله وكل العالم فى قبضته وتخصيص أهل الوصلة بانهم فى كنف ايوائه ولا يكلهم الى غيره واعتبر هذا المعنى بعمرة الحديبية وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما صده المشركون فيها عن مكة ومنعوه من أن يتم بين أظهرهم نسكه رجع فى الحال عن تلك العمرة ولم يتعرض لهم بما يحصل له به فى الظاهر عزة أو نصرة بعدما كان دعا اليه من بيعة الرضوان تحت الشجرة وما عزم عليه من مناجزة من حاده من الكفرة وعمل فى ذلك على ما أظهره الله له من آياته العظام عند بروك ناقته لما أراد توجيهها الى البيت الحرام وقال حينئذ مظهرا لما قصده ومقررا لما اعتمده انما حبسها حابس الفيل لا يدعونى اليوم قريش الى خصلة فيها صلة الرحم الا أجبتهم اليها فكان كما قال صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم صالحهم على وضع الحرب فيما بينهم عشر سنين ليتقلبوا فى الارض آمنين فلما استتب بينهم الصلح وأنزل الله تعالى سورة الفتح ظهرت الفوائد التى تضمنها ذلك التدبير الحسن وقرت أعين الصحابة رضى الله تعالى عنهم بما أبرزه الله اليهم من ألطاف ومنن وقد صح بالمعنى جميع ما قلناه فى الخبر ونقله الينا علماء الحديث والسير وليكن من دعاء صاحب هذا المقام ومناجاته ليوافق عقده قوله فى جميع تصرفاته اللهم انى أصبحت لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ الا ما أعطيتنى ولا أتقى الا ما وقيتنى اللهم وفقنى لما تحبه وترضاه من القول والعمل فى طاعتك انك ذو الفضل العظيم وليقل أيضا ما رأيته لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه اللهم ان الامر عندك وهو محجوب عنى ولا أعلم أمرا أختاره لنفسى فكن أنت المختار لى واحملنى فى أجمل الامور عندك وأحمدها عاقبة فى الدين والدنيا والآخرة انك على كل شئ قدير

● (انما يستوحش العباد والزهاد من كل شئ لغيبتهم عن الله فى كل شئ فلو شهدوه فى كل شئ لم يستوحشوا من شئ) العباد والزهاد فى حجبهم عن ربهم لنظرهم لنفوسهم ومراعاة حظوظهم فهم يفرون من الاشياء ويستوحشون منها لانها موجودة فى نظرهم والزهد فى المزهود شاهد له بالوجود كما قال سيدى أبو الحسن رضى الله تعالى عنه والله لقد عظمتها اذ زهدت فيها فهم يخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم عن مقاصدهم بميلهم اليها وافتتانهم بها ولو كانوا من أهل العلم بالله والمحبة لله لرأوه ظاهرا فى الاشياء كلها ولكان لهم فى ذلك من قرة أعينهم ما يشغلهم عن رؤيتهم لنفوسهم فلا يكون لهم من الاشياء وحشة ولا يخشون منها فتنة لانها فانية متلاشية بهذا الاعتبار (أمرك فى هذه الدار بالنظر فى مكوناته وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته) رؤية العباد لربهم عز وجل على حسب تجليه لهم فى هذه الدار يرونه ظاهرا فى المكونات بانوار بصائرهم لما تجلى لهم من وراء حجابها ولذلك أمرهم بالنظر

(انما يستوحش العباد) وهم المتوجهون الى الله بطريق العمل (والزهاد) وهم المتوجهون له بطريق التوكل (من كل شئ) فكل من الطائفتين يفر من الخلق لكونهم قاطعين عن الله وذلك (لغيبتهم عن الله فى كل شئ) أى انهم محجوبون عن ربهم برؤية نفوسهم ومراعاة حظوظهم فيفرون من الاشياء ويستوحشون منها لانها موجودة فى نظرهم فيخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم مقاصدهم لميلهم اليها وافتتانهم بها (فلو شهدوه فى كل شئ) كما شهده العارفون والمحبون (لم يستوحشوا من شئ) أى من أى شئ من الاشياء لرؤيتهم له حينئذ ظاهرا فى الاشياء كلها فيشغلهم ذلك عن رؤيتهم لنفوسهم فلا يكون لهم من الاشياء وحشة ولا يخشون منها فتنة لانها متلاشية فانية بهذا الاعتبار (أمرك) أيها العارف (فى هذه الدار بالنظر فى مكوناته) لتراه ظاهرا فيها بعين بصيرتك قال تعالى قل انظروا ماذا فى السموات الى غير ذلك من الآيات (وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته) لتراه بعين بصرك فرؤية العباد لربهم عز وجل على حسب تجليه لهم ففى هذه الدار يرونه ظاهرا فى المكونات بانوار بصائرهم لما تجلى لهم من وراء حجابهم وهو تلك المكونات

ولذا أمرهم بالنظر فيها وفى الدار الآخرة يرونه عيانا بانوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع وهذا غاية الظهور والكشف والرؤية فى الدنيا على الوجه المذكور خاصة بالعارفين وفى الآخرة عامة لجميع المؤمنين (علم منك أنك لا تصبر عنه) أى عن مشاهدتك له كما هو شأن المحب فانه لا يصبر عن رؤية محبوبه لكن رؤيتك له فى هذه الدار من غير حجاب متعذرة (فأشهدك ما برز منه) من الآثار والأكوان أى أشهدك اياها لتراه فيها بعين بصيرتك وان كانت تلك الأكوان حاجبة لك عن رؤيتك له بعين بصرك فقد رأيته ولو من وراء حجاب وذلك كرامة من الله لك وعناية منه بك حيث لم يحجبك عنه فى الدنيا أيضا (لما علم الحق منك) أيها المريد (وجود الملل) أى السآمة من ثقل العمل المؤدية الى تركه (لون) أى نوع (لك الطاعات) رحمة بك وتسهيلا عليك لانك اذا سئمت من نوع منها انتقلت الى غيره ولو كانت من نوع واحد لسئمته النفس وتركته استثقالا له بخلاف الانواع المتعددة فانها تستخفها وتستحليها لتنقلها من نوع الى نوع آخر وشأن النفس أن لا تدوم على حال واحد بل تنظر فى الاحوال ألا ترى أن الانسان اذا داوم على طعام واحد تسأمه نفسه كما وقع لبنى اسرائيل (وعلم ما فيك من وجود الشره) أى مجاوزة الحد فى التسارع الى العمل والحرص عليه فيؤديك الى أن لا تأتى به على وجه الكمال (حجرها) بالتخفيف أى منعها (عليك فى بعض الاوقات) فان الفرائض يمتنع فعلها فى غير أوقاتها المحدودة والنوافل يمتنع فعلها فى وقت الكراهة وفى بعض النسخ حجرها عليك فى الاوقات بالتشديد أى جعل لكل طاعة وقتا مخصوصا ولم يجعلها دائمة فى جميع الاوقات لئلا يحصل منك شره فيجرك الى الترك والحاصل أن تلوين الطاعات لوجود الملل وتحجيرها فى الاوقات لوجود الشره نعمتان أنعم الله بهما على عبده فان الملل والشره آفتان عظيمتان قاطعتان للعمل والموجب للملل المداومة على نمط واحد من العبادات فتسأمها النفس وتستثقلها فاذا لونت عليها استحلتها واستخفتها   لا

والموجب للشره صلاحية الاوقات كلها لايقاع العبادات مع شدة الحرص عليها وعند وجود الشره يقع النقص والتقصير بان يقرأ القرآن مثلا ولا يتدبر فى معانيه ولا يحضر قلبه مع مولاه فى حال قراءته فلذلك عين لها أوقاتا تقع فيها وذلك هو معنى تحجيرها فى الاوقات وقوله (ليكون همك اقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مصل مقيم) بنصب يكون بعد لام كى على أنه تعليل لما قبله أى انما لون لك الطاعات حتى لا تمل وحجرها عليك فى الاوقات حتى لا تشره لاجل أن يكون همك الخ فانهما اذا انتفيا أمكن توجه الاهتمام الى حضور اقامة الصلاة لا الى مطلق وجودها وحصول صورتها بخلاف ما اذا وجدا فانه لا يكون معهما اتقان وفى بعض النسخ ليكن بالجزم فيكون كلاما مستأنفا واقامة الصلاة المرادة هنا حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله عز وجل فلا يختلج فيه سواه وقيل هى القيام باركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها لرؤية من يصلى له فتكون مستقبلا الى القبلة وقلبك مستغرق فى حقائق الوصلة وخص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات لان ذلك أكثر ما يقع فيها ثم أشار الى فوائد صلاة المقيم لا مطلق الصلاة

فيها وفى الدار الآخرة يرونه معاينة بانوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع وهذا غاية الظهور والكشف • (علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه) عدم الصبر عن الله تعالى من وجود الاحتظاء بمعرفته وهو حال شريف يقتضى دوام وجود المحبة الاختصاصية والمحبة الاختصاصية تقتضى دوام المشاهدة والحضور والمشاهدة الحقيقية غير متصورة فى هذه الدار لما هى عليه من الدناءة والنقص والفناء والذهاب فأكرم الله تعالى عبده لعلمه بعدم صبره عنه بان أشهده ما برز منه من الآثار والاكوان تسلية له بالاثر عن النظر فحصلت له حينئذ المحبة الاختصاصية اللائقة بحاله حتى اذا أقعده فى مقعد الصدق وحصلت له عندية الحق خلع عليه خلع التقريب والتكريم وواجهه بوجهه الكريم فحصلت له حينئذ المحبة الحقيقية والمشاهدة السرمدية وما ذلك على الله بعزيز

• (لما علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك فى بعض الاوقات ليكون همك اقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مصل مقيم) تلوين الطاعات لوجود الملل وتحجيرها فى الاوقات لوجود الشره نعمتان عظيمتان أنعم الله بهما على عبده فان الملل والشره فتنتان عظيمتان قاطعتان على العبد سبيل عبوديته والملل تكره يعرض للانسان من عمل يلحقه فيه مشقة فيصبر عليه ويتحمل التعب فيه حتى يتحرج ويسأم فيترك ذلك العمل ويرفضه استثقالا له وهو شئ يتعرض للطبع بعد ايثاره للشئ ومحبته له والشره مجاوزة الحد فى التسارع الى العمل والحرص عليه والذى يوجب وجود الملل المداومة على نمط واحد من العبادات فتسأمها النفس وتستثقلها فاذا لونت عليها استحلتها واستخفتها وقد قال بعض الشعراء

بقوله (الصلاة) الحقيقية (طهرة للقلوب) من تكدرها بالآثار وتلوثها باقذار الاغيار ومن الاوصاف المبعدة لها عن مشاهدة العزيز الجبار وفى بعض النسخ (من أدناس الذنوب) من اضافة المشبه به للمشبه والذنوب مختلفة باختلاف المقيمين لها (واستفتاح) أى فتح أو طلب فتح (لباب الغيوب) أى ما غاب عنك من المعارف والاسرار شبهها بكنز له باب مغلق عليه والباب تخييل وهذا مرتب على ما قبله لان القلوب اذا طهرت رفع عنها الاستار رأت ما غاب عنها من الاسرار (الصلاة محل المناجاة) أى مناجاة العبد لربه باظهار صفاته الجميلة من رحمته للعباد وتربيته للعالمين وملكه يوم الدين الى غير ذلك من الصفات ومناجاة الرب له بما يلقيه فى سره من العلوم الوهبية والاسرار العرفانية (ومعدن المصافاة) أى التودد أى مصافاة العبد لربه بتوجهه اليه بكليته واقباله عليه بعوالمه الظاهرة والباطنة حتى لا يختلج فى سره غيره ومصافاة الرب لعبده بان يمنحه شهوده ويفيض عليه فضله وجوده وهذه أعلى المصافاة ودونها مراتب وعلى قدر اقبال العبد يكون اقبال الرب جل جلاله (تتسع فيها ميادين الاسرار) أى تتسع فيها القلوب الشبيهة بالميادين للفرسان أى تنشرح بتوارد الاسرار أى العلوم والمعارف عليها وتسابقها فيها كتسابق الفرسان (وتشرق) أى تطلع (فيها شوارق الانوار) أى الانوار الشبيهة بالكواكب الشارقة وهو من عطف السبب على المسبب فان الانوار اذا أشرقت فى القلوب انشرحت لما يرد عليها من العلوم والمعارف وذلك من ثمرات المناجاة والمصافاة وجميع ما ذكر كالدليل لما قبله من أن المطلوب اقامة الصلاة لا وجودها

لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة • الا التنقل من حال الى حال

والموجب لوجود الشره صلاحية الاوقات كلها لايقاع العبادات فيها مع شدة الحرص عليها وعند وجود الشره يقع النقص والتقصير فيها فلذلك عين لها أوقاتا توقع فيها وأوقاتا لا توقع فيها وذلك هو معنى تحجيرها فى الاوقات فان كان الملل والشره واقعين فى الصلاة لم يكن الآتى بها مقيما لها لوقوع التقصير منه فيها ولم يؤمر الا باقامة الصلاة لا بوجود صورة الصلاة قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه كل موضع ذكر فيه المصلون فى معرض المدح فانه انما جاء لمن أقام الصلاة اما بلفظ الاقامة أو بمعنى يرجع اليها قال الله سبحانه وتعالى الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وقال الله تعالى رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى وقال عز وجل أقم الصلاة واقام الصلاة والمقيمى الصلاة ولما ذكر المصلين بالغفلة قال فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة فالاقامة أنه اذا صلى المؤمن صلاة فقبلت منه خلق الله من صلاته صورة فى ملكوته راكعة ساجدة الى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة واقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهرا وباطنا قال ابن عطاء الله رضى الله تعالى عنه اقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهرا وباطنا مع حفظ السر مع الله عز وجل لا يختلج بسرك سواه وقال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه هو القيام باركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلى له فيحفظ عليه أحكام الامر فيما يجرى عليه منه وهو عن ملاحظتها محو فنفوسهم منهم مستقبلة الى القبلة وقلوبهم مستغرقة فى حقائق الوصلة وتمثيل المؤلف رحمه الله تعالى بالصلاة دون سائر العبادات حسن لان ذلك أكثر ما يقع فيها وقد يكون ذلك استطرادا للكلام على الصلاة حسبما يقوله باثر هذا

• (الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب) كما روى فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله انما مثل الصلاة كمثل نهر عذب بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه شيأ • (واستفتاح لباب الغيوب) لان القلوب اذا طهرت وزكت رفع عنها الحجب والاستار ورأت ما غاب عنها من الاسرار • (الصلاة محل المناجاة) لان فيها يكون محل الثناء والدعاء والمناجاة مخاطبة الاسرار عند صفاء الاذكار للملك الجبار (ومعدن المصافاة) وهى زوال الاكدار الكونية بينك وبين ربك حتى يصفو قلبك وسرك فيصفو لك حينئذ شهوده ويعود اليك وجوده (تتسع فيها ميادين الاسرار) حتى تتكاثر عليك فى الظهور (وتشرق فيها شوارق الانوار) فيكون قلبك نورا على نور وهذه العبارات الست معانيها متقاربة ولما كانت هذه الاحوال التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى من فوائد الصلاة وأن المقصود منها انما هو تحصيلها كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به انما هو اقامة الصلاة لا وجود الصلاة فان الصلاة المعتبرة انما هى صلاة الخاشعين لا صلاة الغافلين التى لا تنتهض لبلوغ هذه المقاصد السنية ولذلك كانت الصلاة أم العبادات وأساس الخيرات قال الله تعالى أقم الصلاة لذكرى فاخبر أن المراد من

(علم وجودا لضعف منك) أيها المريد لان الطاقة البشرية لاتقدر على دوام التجلى الالهى (فقلل أعدادها) بجعل الخمسين خمسة (وعلم احتياجك الى فضله) باقباله عليك ومواجهته لك بما تحبه (فكثر أمدادها) بالفتح جمع مدد وهى الاسرار والعلوم والمعارف التى ترد على قلب المصلى فجعل أمدادا الخمسين فى الخمس هذا بالنسبة للمريد ويقال بالنسبة لغيره علم وجودا الضعف منك بتكاسلك عنها وكثرة اشتغالك وعلم احتياجك الى فضله أى كرمه فكثر أمدادها أى ثوابها بان جعل للخمسة ثواب الخمسين (متى طلبت) أيها المريد من ربك (عوضا على عمل) صلاة كان أو غيرها بان عملت ذلك لاجل ثواب آجل وهو الجزاء عليه فى الدار الآخرة أو عاجل كالامدادات التى ترد عليك من قبل الحق سبحانه (طولبت) أى طالبك الحق تعالى (بوجود الصدق فيه) أى قال لك انك لم تصدق فى كونك عملت العمل لاجلى بل عملته لحظ نفسك والصدق مطابقة الباطن للظاهر وهو مفقود فى هذا العامل لان ظاهره أنه يعمل العمل لله قياما بحق الوهيته وباطنه أنه لم يعمل الا لحظ نفسه فيكفيه حينئذ سلامته من العقاب عليه كما قال (ويكفى المريب) أى المرتاب فى كون مولاه يحصل له الثواب العاجل والآجل وان لم يقصده بعمله اذ لو كان جازما بذلك متيقنا له لسعة جوده سبحانه وتعالى لم يخطر بباله ذلك فى حال عمله بل كان يخلص فيه لله تعالى فيكفيه حينئذ (وجدان السلامة) من العقاب على ذلك العمل المدخول أى فيقول له الرب هذا العمل الذى عملته لا تستحق عليه منى جزاء بل يكفيك من الجزاء ان عليه سلامتك وعدم عقابك وهذا تقبيح لحال طلب الجزاء على العمل وبيان أن المنهل العذب الصافى أن يعبد العبد ربه لما هو عليه من عظمة الالوهية ونعوت الربوبية لا لما يعود عليه فى دنياه أو أخراه وقد ذكر المصنف هذا المعنى فى مواضع متفرقة

الصلاة الذكر وقد روى معنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال انما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لاقامة ذكر الله ولذلك كانت قرة عين حبيب الله صلى الله عليه وسلم على ما سيأتى الكلام عليه حيث تعرض المؤلف له وفى بعض الاخبار أن العبد اذا قام الى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وأن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء الى مفرق رأسه ويناديه مناد لو يعلم المناجى من يناجى ما انفتل وأن أبواب السماء تفتح للمصلى وأن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين وفى التوراة يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى مصليا باكيا فانا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى وكانوا يرون أن تلك الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنو الرب من القلب وقال محمد بن على الترمذى رضى الله تعالى عنه دعا الله تعالى الموحدين الى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم وهيأ لهم فيها ألوان الضيافات لينال العبد من كل فعل وقول شيأ من عطاياه فالافعال كالاطعمة والاقوال كالاشربة وهى عرس الموحدين هيأها رب العالمين لاهل رحمته فى كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس ولا غبار وقال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه حدثت أن المؤمن اذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الارض خوفا منه لانه تأهب للدخول على الملك فاذا كبر حجب عنه ابليس وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر اليه وواجهه الجبار بوجهه الكريم فاذا قال الله أكبر اطلع الملك على قلبه فاذا كان ليس فى قلبه أكبر من الله فيقول الملك صدقت الله أكبر فى قلبك كما تقول قال فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش فيكشف له بذلك النور ملكوت السموات والارض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات قال وان الغافل الجاهل اذا قام الى الوضوء احتوشته الشياطين كما تحتوش الذباب نقطة العسل فاذا كبر اطلع الملك على قلبه فاذا كل شئ فى قلبه أكبر من الله عنده فيقول الملك كذبت ليس الله أكبر فى قلبك كما تقول قال فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت قال فيرد ذلك الحجاب صلاته وتلتقم الشياطين قلبه فلا تزال تنفخ فيه وتنفث وتوسوس اليه وتزين له حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه ومعانى هذه الاخبار والآثار موافقة لمعنى ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى دالة عليه فلذلك أوردتها ههنا والله ولى التوفيق برحمته * (علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها وعلم احتياجك الى فضله فكثر أمدادها) فهذا من فضل الله تعالى الذى عوده عبده فتقليل أعدادها بان جعل الخمسين خمسة وذلك تخفيف منه لما علم من وجود ضعفه وتكثير أمدادها بان جعل للخمسة ثواب الخمسين وذلك فضل منه عليه اذ كان محتاجا اليه فله الحمد والشكر على ذلك وهذه المعانى مذكورة فى حديث الاسراء * (متى طلبت عوضا على عمل طولبت بوجود الصدق فيه ويكفى المريب وجدان السلامة) تقدم

من هذا الكتاب وأشار الى موضع منها أيضا بقوله (لا تطلب عوضا على عمل لست له فاعلا) بل هو الفاعل له حقيقة وانما أنت محل لظهوره واذا كان الفاعل هو الله فكيف تطلب أنت الجزاء عليه أو يقال ان المنفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله وليس للعبد الا مجرد الكسب فكيف يطلب الجزاء على عمل ليس منسوبا اليه الا بطريق الكسب (يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا) أى قبوله له والمراد به عدم مؤاخذتك عليه مع كونه مدخولا بقصدك به طلب الثواب (اذا أراد أن يظهر فضله عليك) أى تفضله عليك واحسانه لك (خلق) أى العمل فيك (ونسب اليك) أى نسبه اليك بان قال فيك عند ملائكته انك مطيع ومتق ومجتهد وعامل أو نسبه اليك على ألسنة العباد بان يطلق ألسنتهم بانك مطيع ومتق الخ فاذا شهد العبد هذا الفضل العظيم واستولى عليه الخجل والحياء من سيده الكريم لم ينسب لنفسه شيأ من محامد الصفات ومحاسن الاعمال لا حقيقة ولا أدبا اذ لا أهلية فيه لذلك وأما مذام الصفات والاعمال ومساويها فمقتضى الادب أنه يضيف ذلك الى نفسه وأن يعترف أنه من ظلمه وجهله * قال سهل بن عبد الله قدس الله سره اذا عمل العبد حسنة وقال يارب أنت بفضلك استعملت وأنت أعنت وأنت سهلت شكر الله تعالى له ذلك وقال له يا عبدى بل أنت أطعت وأنت تقربت واذا نظر الى نفسه وقال أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقربت أعرض الله تعالى عنه وقال يا عبدى أنا وفقت وأنا أعنت وأنا سهلت واذا عمل سيئة وقال يارب أنت قدرت وأنت قضيت وأنت حكمت غضب المولى جلت قدرته عليه وقال له يا عبدى بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت واذا قال يارب أنا ظلمت وأنا أسأت وأنا جهلت أقبل المولى جلت قدرته عليه وقال يا عبدى أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت وحلمت وسترت اه (لا نهاية لمذامك ان أرجعك

أن العمل لاجل حصول الجزاء مدخول معلول وحكينا هنالك من الآثار والحكايات عن العارفين وأرباب القلوب ما فيه مقنع وقد كرر المؤلف رحمه الله تعالى هذا المعنى فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب وما ذكره ههنا تقبيح لحال طالب الجزاء على العمل ومعنى ما ذكره أن العمل على هذا الوجه معرض للبطلان لانه اذا طالب ربه بالجزاء على عمله طالبه ربه بوجود الصدق فيه والصدق فيه الوفاء بحقه فى العمل وأنى له توفية ذلك مع كونه طالبا للحظ من ربه فهو لا محالة مريب فيكفيه وجدان السلامة من غير مزيد عليها * قال الواسطى رضى الله تعالى عنه العبادات الى طلب العفو عنها أقرب منها الى طلب الاعواض عليها وقريب من هذا قول النصراباذى العبادات الى طلب العفو والصفح عن تقصيرها أقرب منها الى طلب الاعواض والجزاء عليها وقال خير النساج رضى الله تعالى عنه ميزان أعمالك ما يليق بافعالك فاطلب ميزان فضله فانه أتم وأحسن قال الله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون * (لا تطلب عوضا على عمل لست له فاعلا يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا) المنفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله عز وجل فكيف يطلب العبد الجزاء على عمل لا مدخل له فيه على الحقيقة ومعنى كون القبول جزاء قد تقدم * (اذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب اليك) فضل الله تعالى عظيم فاذا أراد أن يظهره عليك خلق لك الطاعة وحلاك بها ونسبها اليك وقال لك يا عبدى أنت مطيع ومتق ومجتهد وعامل وسأثيبك على ذلك فاذا شهد العبد هذا الفضل العظيم واستولى عليه الخجل والحياء من سيده الكريم وانطلق لسانه فى هذه الحالة بالدعاء والسؤال وقال يارب كما تفضلت على بخلق الطاعة لى وحليتنى بها ووصفتنى بصفات جيدة أنا خلى عنها فى الحقيقة ووعدتنى مع ذلك جزيل الثواب والنجاة من العقاب فتقبل منى عملى وأنجز لى ما وعدتنى ان كان فى ذلك مصيبا والا فلا يحق العبد أن لا ينسب الى نفسه شيأ من محامد الصفات ومحاسن الاعمال حقيقة ولا أدبا اذ لا أهلية فيه لذلك وأما مذام الصفات والاعمال ومساويهما فمقتضى الادب أن يضيف ذلك الى نفسه وأن يعترف بان ذلك من ظلمه وجهله * قال سهل ابن عبد الله رضى الله تعالى عنه اذا عمل العبد حسنة وقال يارب أنت بفضلك استعملت وأنت أعنت وأنت سهلت شكر الله تعالى له ذلك وقال له يا عبدى بل أنت أطعت وأنت تقربت واذا نظر الى نفسه وقال أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقربت أعرض الله تعالى عنه وقال يا عبدى أنا وفقت وأنا أعنت وأنا سهلت واذا عمل سيئة وقال يارب أنت قدرت وأنت قضيت وأنت حكمت غضب المولى جلت قدرته عليه وقال له يا عبدى بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت واذا قال يارب أنا ظلمت نفسى وأنا أسأت وأنا جهلت أقبل المولى جلت قدرته عليه وقال يا عبدى أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت وحلمت وسترت * (لا نهاية لمذامك ان أرجعك

اليك) أى وكلك الى نفسك لانها مجبولة على الشر فاذا خلى الله بينك وبينها أى لم يعنك عليها ولم يحكمك فيها غلبتك وتحكمت فيك فتوقعك فى أنواع القبائح حتى لا يبقى فى أعمالك ما يستحسن ولا فى أحوالك ما يحب وذلك من علامات الطرد والبعد عن الله (ولا تفرغ مدائحك ان أظهر جوده عليك) بان تولى عنايتك ونصرك على نفسك ولم يحكمها فيك فتصير أحوالك حسنة جميلة فلا تفرغ مدائحك ولا تنقضى محاسنك وذلك من علامات اصطفائه لك واجتبائه ١٠٣ وقد علم أنه لا طريق للنجاة من النفس وغوائلها الا التعلق بالله والالتجاء اليه (كن باوصاف ربوبيته متعلقا) لا متحققا اذ لاحظ للعبد فى شئ من أوصاف مولاه الا تعلقه به لا تحققه (وباوصاف عبوديتك متحققا) ومعنى التعلق باوصاف الربوبية النظر اليها وملاحظتها أى ملاحظة كونها له فلا يصح لك أن تتصف بشئ منها ومعنى التحقق باوصاف العبودية النظر اليها وملاحظتها أى ملاحظة كونها لك فهى التى ينبغى أن يتصف بها العبد حقيقة لا باوصاف الربوبية وما وجد فيه من أوصاف الربوبية فهو عارية عنده وليس هو له حقيقة واذا لاحظ كون الغنى والقدرة والعزة والقوة ليست الا للمولى ولاحظ أن الذى يتصف به العبد حقيقة هو أضدادها وهى الفقر والعجز والذل والضعف أمده الله تعالى باوصافه فيكون غنيا بالله قادرا بالله عالما بالله عزيزا بالله قويا بالله كما سيأتى فى قوله تحقق باوصافك يمدك باوصافه ثم علل ذلك

اليك ولا تفرغ مدائحك ان أظهر جوده عليك) من أرجعه الحق الى نفسه ووكله الى عقله وخدمه فقد طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وكانت أحواله مدخولة معلولة وأعماله مستقبحة مرذولة ومن آواه اليه وأظهر جوده عليه فقد اصطنعه لنفسه ورفعه الى حضرة قدسه وكانت أحواله حسنة جميلة وأعماله كلها ممدوحة مقبولة كما قيل

لما انتسبت الى جمالك تعرفت * ذاتى فصرت أنا وإلا من أنا

*(كن باوصاف ربوبيته متعلقا وباوصاف عبوديتك متحققا) التعلق باوصاف الربوبية أن تشهد وجودك ولوازم وجودك لا شئ من جميع ذلك لك ولا منك وانما هى عوار عندك فلا ترى وجودك الا بوجوده ولا بقاءك الا ببقائه ولا عزك الا بعزته ولا قدرتك الا بقدرته ولا غناك الا بغناه الى غير ذلك من الاوصاف ولا يتم لك ذلك الا بان تحقق باوصاف عبوديتك من عدمك وفقرك وذلك وعجزك والتعلق والتحقق المذكوران متلازمان بل هما شئ واحد لا تعدد فيهما على التحقيق *(منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين) أورد هذا كالدليل على ما ذكره آنفا من أنه لاحظ للعبد من صفات مولاه الا التعلق بها فقط وأن ادعاء شئ منها من كبائر معاصى القلب ومن مشاركة المربوب للرب ومن مقتضى الغيرة التى اتصف بها وأعلمنا بشأنها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال لا أحد أغير من الله تعالى ومن غيرته أنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن تحريم ذلك على العبد والتسجيل عليه باستحقاق الطرد والبعد ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شئ من الشركة فى قلب العبد بادعاء شئ من أوصاف الربوبية لنفسه عقدا أو قولا لان ذلك منازعة له وتكبر عليه وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى فى واحدة منهما ألقيته فى النار ومعنى المنازعة الدعوى قولا وعبارة والاضمار فعلا واشارة ومعنى الغيرة فى حقه تعالى أنه لا يرضى بمشاركة غيره له فيما اختص به من صفات الربوبية وفيما هو حق له من الاعمال الدينية واذا كان الحق تعالى مانعا لك ومحرما عليك أن تدعى ما ليس لك مما أعطى المخلوقين من الاموال وسمى ذلك ظلما وعدوانا فكيف يبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين لا شريك له فى ذلك لا أنت ولا غيرك فهو اذا من أعظم الظلم وأشد العدوان عافانا الله من ذلك (قلت) وهذا المعنى الذى ضمنه المؤلف رحمه الله تعالى هذه المسئلة هو الغرض الاقصى الذى هو مرمى نظر الصوفية وكل ما صنفوه ودونوه وأمروا به ونهوا عنه من أفعال وأقوال وأحوال انما هى وسائل الى هذا

بقوله (منعك أن تدعى ما ليس لك) أى حرم عليك أن تدعى شيأ ليس لك (مما) أعطى (للمخلوقين) من الاموال وسماه تعالى عدوانا وظلما (أفيبيح لك) سبحانه (أن تدعى وصفه وهو رب العالمين) أى فيكون ادعاؤك ذلك من أعظم الظلم وأشد العدوان فاذا ادعيت أنك غنى أو قادر أو عزيز أو قوى أو عالم كما يقع لبعض الناس كان ذلك من كبائر معاصى القلب ومن مشاركة المربوب للرب ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شئ من الشركة فى قلب العبد بادعاء شئ من أوصاف الربوبية لنفسه اعتقادا أو قولا لان ذلك منازعة له وتكبر عليه وفى الحديث المقصد

المقصد الشريف والمقام المنيف فشأنهم أبدا انما هو العمل على موت نفوسهم واسقاط حظوظها بالكلية كما قيل الصوفى دمه هدر وملكه مباح وليس ذلك هو المقصود لهم بالذات وانما غرضهم من ذلك ما يلزم عنه من انفراد الله تعالى عندهم بالوجود ولوازم الوجود انفرادا لا يشاركونه فى شئ منها البتة كما ذكرنا آنفا وهذا هو كيمياء السعادة الذى أعوز أكثر الناس ولم يحظوا منه الا بالافلاس اذ بذلك يستحق المرء عبودية الله عز وجل الذى لا مقام للعبد أشرف منه كما قال الشاعر

ألا ستلى خلفا منى كفى شرفا * فما وراءك لى قصد ومطلوب

ولهذا المعنى كانت عندهم دقائق خطرات الحظوظ وخفيات هواجس الهوى وكل ما يقتضى بقاء حظ النفس وثبوتها من محبة المقامات وايثار الالطاف والكرامات ذنوبا عظيمة وأخلاقا ذميمة لئيمة قادحة فى صدق العبودية والاخلاص للربوبية يتوبون من جميع ذلك الى ربهم ويتعوذون به من شرهم ويخافون من مساكنته وملاحظته غاية البعد ونهاية المكر والطرد كما قيل

اذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة * وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

ذكر أنه كان لبعض الملوك عبد يقدمه على أشكاله وأقرانه فشكا أهل اقليم عاملهم الى الملك فقال تخيروا من شئتم أوليه عليكم فاختاروا ذلك العبد لما رأوا ميل الملك اليه فقال الملك راجعوه فان اختار الولاية وليته عليكم فرغب الغلام فى الولاية فأمر بكتب المنشور وأمر باستقباله اذا وافى محل ولايته والمبالغة فى الطافه بانواع المكرمات والمبار ودس من يرش عليه ماء ورد فيه سم ثم أمر من يقول اذا أشرف على الموت هذا جزاء من اختار الولاية على خدمة مولاه ففى هذا عبرة لاولى الابصار وتبصرة لارباب الاعتبار والى هذا المعنى الجليل المؤدى الى سواء السبيل تشير الحكاية المشهورة المروية عن أبى يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه حدث يحيى بن معاذ رضى الله تعالى عنه أنه رآه فى بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء الى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيهما مع عقبيه عن الارض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطال ثم قعد فقال اللهم ان قوما طلبوك فاعطيتهم المشى على الماء والمشى فى الهواء فرضوا بذلك وانى أعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم طى الارض فرضوا بذلك وانى أعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم كنوز الارض فانقلبت لهم الاعيان فرضوا بذلك وانى أعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم عبدك خضرا فرضوا بذلك وانى أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الاولياء ثم التفت الى فرآنى فقال يحيى قلت نعم ياسيدى قال مذ متى أنت ههنا قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدى حدثنى بشئ فقال أحدثك بشئ يصلح لك أدخلنى فى الفلك الاسفل فدورنى فى الملكوت السفلى فارانى الارضين وما تحتها الى الثرى ثم أدخلنى فى الفلك العلوى فطوف بى فى السموات وأرانى ما فيها من الجنات الى العرش ثم أوقفنى بين يديه فقال سلنى أى شئ رأيت حتى أهبه لك فقلت ياسيدى ما رأيت شيأ استحسنته فاسألك اياه فقال أنت عبدى حقا تعبدنى لاجلى صدقا لافعلن بك ولافعلن بك وذكر أشياء فقال يحيى ابن معاذ رضى الله تعالى عنه فهالنى ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت ياسيدى لم لم تسأله المعرفة به اذ قال لك ملك الملوك سلنى ما شئت قال فصاح به صيحة وقال ويلك اسكت ويلك غيرة

الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدة منهما ألقيته فى النار وفى رواية قصمته ومعنى المنازعة الدعوى بالعبارة أو الاعتقاد واضافة هذين الوصفين له تعالى كناية عن شدة الاختصاص بهما

عليه منى لا أحب أن يعرفه سواه قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه بعد ان ذكر هذه الحكاية فهذا حال عبد فان عن نفسه ماخوذ اذ كان ربه عز وجل له موجدا طال مقامه فى المقامات فقصرت عن وصفه الصفات وحق له اذا نظر الى الحسن الذى حسنت المحاسن كلها عن حسنه وشانت الزينات جميعها بعد النظر الى زينته وشهد الجمال الذى تجمل الجمال والمتجملون بجماله أن لا يستحسن سواه وكيف يحب غير ما استحسن أو تزين فى عينه الاباه أم كيف يطلب غير ما أحب أو يصبر مع غير ما طلب بل كيف يهتم بغير ما طلب فهذا نعت عبد مطلوب بعين ما طلب ووصف شخص محبوب بعين ما أحب الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس انتهى وفى الاشارات عن الله سبحانه ياعبدى اعزل نفسك يعتزل معها الملك والملكوت فتلحق الدارين بالملك وتلحق العلوم بالملكوت فتكون عندى من وراء ما أبدى فلا يستطيعك ما أبدى لانك عندى واذا كنت عندى كنت عبدى حقا واذا كنت عبدى كان عليك نورى فلا يستطيعك ما أبدى وان أرسلته اليك لان نورى عليك وليس نورى عليها فاذا جاءك لم يطغك فاوذنك به فتأذن أنت له والعبارات عنهم فى هذا المعنى خارجة عن الحصر وفيما رسمناه منها كفاية واتما ذكرنا هذه المعانى وان كانت فى الظاهر أعلى من أن يتناولها كلام المؤلف رحمه الله تعالى لان مرجع أمره اليها اذا وقفنا فى النظر وتصرفنا فيه بوجوه التعرف فكان باطنه هو المقصود المعتبر وكلام الصوفية رضى الله عنهم كثيرا ما يجرى هذا المجرى والله تعالى يجزيهم عنا خيرا ويمن علينا بالفهم عنهم وحسن القبول منهم ويفتح أسماعنا للاصغاء اليهم ويشرح صدورنا باستحسان ما يرد منهم أو يبدو عنهم بمنه وفضله

•(كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد) خرق العوائد بانكشاف عالم القدرة لا يكرم الحق تعالى به الا من خرق عوائد نفسه وفنى عن ارادته وحظوظه فمن لم يصل الى هذه المقامات لا يطمع فيها وان ظهر له ما صورته صورة الكرامة فينبغى له أن يخاف عند ذلك من الاستدراج والمكر حيث لا يحب ذلك ولا يطلبه فان أحبه أو طلبه فهو دليل على بقائه مع ارادته وحظوظه وعاداته فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة وهل هذا الا محال لا يستقيم قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه وجميع الانوار من الغيوب التى وراء الحجب والاستار لا تظهر عليها الا مطلوب والمطلوب لا يكون الا محجوبا وهو عن نفسه مسلوب فنى بقيت عليه من نفسه بقية ونظر الى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية فيسترها عليه رحمة له لانه لو كوشف بها لهلك فى حيرة الهوى وغرق فى بحار الدنيا ونفس حبه وعين طلبه اياها هو حجابه عنها واستتارها عنه حتى يكون كارها لظهورها كراهيته ظهور الخلق على معصيته وخائفا منها تخوفه على نفسه فى تظاهرها عليه بها لمكنه فهنالك حين يبتلى بها ويختبر ليظهر كيف يعمل وكذا الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه قال من لم يكن كارها لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصى فهو فى حقه حجاب وسترها عليه رحمة فاذا من خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شئ من الآيات وخوارق العادات له بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك فاذا فنى عن ارادته جملة فكان له تحقق فى رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الالطاف ووجود الاسعاف وسلك الى مرتبة الصديقية المهيع الناهج وضرب مع أهل الارادة بالقدح الفالج قال الشيخ أبو العباس بن العريف أصحبت يوما مهموما فقلت للشيخ أبى القاسم بن رويبل

(كيف تخرق لك) أيها المريد أى تطمع أن تخرق لك (العوائد) بان تظهر على يدك كرامة كطى الارض (وأنت لم تخرق من نفسك العوائد) أى ما اعتدته من الكبر والعجب والدعوى وغير ذلك تخرق العوائد بظهور شئ من عالم القدرة لا يكرم الله به الا من خرق عوائد نفسه وفنى عن ارادته وحظوظه ومن لم يصل الى هذا المقام لا يطمع فيها فان ظهر له ما صورته كرامة فينبغى له أن يخاف من الاستدراج والمكر ولا يحب ذلك ولا يطلبه فان أحبه أو طلبه كان ذلك دليلا على بقائه مع ارادته وحظوظه وعاداته فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة

حدثنى

حدثنى بحكاية عسى الله أن يفرج ما بى فقال نعم وصف لى رجل ببعض السواحل يعرف بابى الخيار فقصدته فوجدته على ساحل البحر فسلمت عليه وجلست فلم يتكلم ولم أكلمه حتى اذا كان وقت الصلاة أقبل نفر من بعض الاودية متفرقون فاجتمعوا اليه وتقدمهم واحد منهم فصلى بهم ثم افترقوا ولم يكلم أحد منهم أحدا وجلس الشيخ مكانه وجلست عنده حتى اذا كان وقت الصلاة حضر النفر فصلوا ثم انصرفوا حتى اذا كان وقت العصر اجتمعوا وصلوا ثم جلسوا بعد ذلك وتذاكروا سير الصالحين ومقامات العارفين والاولياء الى قريب الاصفرار ثم تفرقوا واجتمعوا للمغرب ثم تفرقوا فجلست عندهم ثلاثة أيام وهم على ذلك ثم وقع فى نفسى أن أسأله عن مسئلة أستفيدها فتقدمت اليه فقلت أيها الشيخ مسئلة أسأل عنها فقال قل فنظر الجماعة الى كالمنكرين ففزعت فقلت أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد فقال فأعرض عنى ولم يجبنى فخفت أن أكون قد أغضبته فقمت عنه فلما كان فى اليوم الثانى قلت لا بد أن أسأله عن المسئلة وعزمت على ذلك فتقدمت اليه وقلت له أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد فأعرض عنى كالاولى ولم يجاوبنى فقمت وعدت فى الثالثة وسألته عن المسئلة بعينها فاجتمع وقال لا تقل هكذا أظنك تريد أن تسأل عن أول قدم يضعه المريد فى الارادة فقلت نعم قال لى اذا اجتمع فيه أربع خصال أحدها أن تطوى له الارض وتكون عنده كقدم واحد وأن يمشى على الماء وأن يأكل من الكون متى أراد وأن لا ترد له دعوة عند ذلك يضع أول قدمه فى الارادة وأمامنى ما علم المريد عندنا أنه مريد سقط من حد الارادة قال الشيخ أبو العباس بن العريف رضى الله عنه فصحت صيحة كادت نفسى تذهب معها ثم قلت له آيستنا من الارادة يا أبا القاسم وتعجبت من علو همة هذا الشيخ انتهى واعلم أنه أول ما يخرق له من العادة تسميته باسم المريد مع كونه مسلوب الارادة وما أحسن ما قال الشاعر

تكون مريدا ثم فيك ارادة • اذا لم تزد شيأ فأنت مريد

والتحقيق فى هذا أن من تمحضت ارادته لعبودية الله عز وجل بمراعاة حقوقه لا لاجل ما وجب عليه من ذلك لا يتوصل به الى نيل حظ ما هو الذى يسمى مريدا فلم يسم بذلك الا أنه متصف بالارادة الحقيقية المتعلقة باشرف المطالب ونهاية الآمال والمآرب وذلك أمر وجودى يصح أن يشتق منه اسم لمن قام به ذلك الامر الا أنه سمى بذلك لاجل ما سلب عنه من الارادة المجازية المتعلقة بحظوظه لكن لما كان سلب احداهما يقتضى وجود الاخرى كاقتضاء الواجب صح لذلك الشاعر أن يطلق اسم الارادة على من سلبت منه ويجعله ممن وجدت فيه رشاقة وملاحة ونعمة وبهذا تبين لك صحة كلام أبى يزيد رضى الله عنه واستقامته حيث قيل له ما تريد فقال أريد أن لا أريد وأنه ليس بمختل ولا متناقض كما توهم بعضهم (قال) فى التنوير واعلم أنه قد قال بعضهم ان أبا يزيد لما أراد أن لا يريد فقد أراد وهذا قول من لا معرفة عنده وذلك أن أبا يزيد رضى الله عنه انما أراد أن لا يريد لان الله تعالى اختار له وللعباد أجمع عدم الارادة معه فهو لا يختار معه شيأ ولا يريده فهو فى ارادته أن لا يريد موافق لارادة الله له ولذلك قال الشيخ أبو الحسن فكل مختارات الشرع ومرتباته هو مختار الله ليس لك منه شئ فاسمع وأطع وهذا موضع الفقه الربانى والعلم اللدنى وهو أرض تنزل علم الحقيقة المأخوذ عن الله قال فابان الشيخ بهذا الكلام أن كل مختار للشرع لا يناقض اختياره مقام العبودية المبنى

(ما الشأن وجود الطلب) أى الدعاء بلسان المقال أى ليس الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب حوائجك وحظوظك من مولاك دون غيره ظانا أن طلبك ذلك منه دون غيره يوفى بما يجب عليك فى الدعاء من الادب فان ذلك لا يوفى به (انما الشأن أن ترزق حسن الادب) أى انما الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب جميع مطالبك منه دون غيره لا لقصد نيل حظك ومرادك فقط بل أن تطلب ذلك منه اظهارا للعبودية وقياما بحقوق الربوبية فبذلك يحسن أدبك ويصح سؤالك وطلبك وذلك هو الوفاء على التحقيق بحق الادب فى الدعاء ويحتمل أن يراد بالطلب الطلب بالقلب وتوجهه لشئ من الاغراض أى ليس الشأن أن تطلب شيأ من مولاك بقلبك مما لك فيه حظ سواء صاحبه طلب باللسان أو لا بل الشأن أن ترزق حسن الادب وهو ترك الطلب اكتفاء بنظره اليك فالادب الحسن فى الدعاء على الوجه الاول أن يدعو اظهارا للعبودية وقياما بحق الربوبية لا لنيل حظ نفسه فقط وعلى الوجه الثانى ترك الدعاء والطلب اعتمادا على قسمته واكتفاء بمشيئته واشتغالا بذكره عن مسئلته (ما طلب لك) بالبناء للفاعل وهو (شئ مثل الاضطرار) أى ان أحسن الطالبين لك هو الاضطرار فشبهه بشخص طالب والاضطرار اظهار غاية الفاقة فلا تتوهم من نفسك شيأ من الحول والقوة ولا ترى لها سببا من الاسباب تعتمد عليه أو تستند اليه وتكون بمنزلة الغريق فى البحر أو الضال فى التيه القفر لا ترى لغياثك الا مولاك ولا ترجى النجاة من هلكتك الا منه ويحتمل بناء طلب للمفعول والنائب قوله شئ أى ان اضطرار العبد هو أقصى أوصاف عبوديته ولذلك لم يطلب من العبد شئ أجل منه وقوله (ولا أسرع بالمواهب اليك مثل الذلة والافتقار) من عطف اللازم على الملزوم لان الذلة والافتقار لازمان للمضطر وهما موجبان لاسراع مواهب الحق تعالى الى العبد المتصف بهما واليه الاشارة بقوله تعالى ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرتهم الفراغ

على ترك الاختيار لئلا يخدع عقل قاصر عن درك الحقيقة بذلك فيظن أن الوظائف والارادات ورواتب السنن ارادتها يخرج بها العبد عن صريح العبودية لانه قد اختار فبين الشيخ أن كل مختارات الشرع ومرتباته ليس لك منه شئ وانما أنت مخاطب أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها الا عن تدبير الله تعالى ورسوله لك فافهم قال فقد علمت اذا أن أبا يزيد ما أراد أن لا يريد الا لان الله أراد منه ذلك فلم تخرجه هذه الارادة عن العبودية المقتضاة منه انتهى وقد طال بنا الكلام فى هذا المعنى حتى آل الى بعد المناسبة بينه وبين المسئلة المنبه عليها من الكتاب والحديث شجون يجر بعضه الى بعض لكن لما كان قصدنا فى هذا التنبيه اغتنام ذكر الفوائد فى مواضعها ومظانها لتفرع مسائل هذا الفن الغريب أسماع من أراد الله تعالى توفيقه ممن بينه وبينه بعد المشرقين صح منا ذلك وكنا سائرين فيها على أوضح المسالك وبالله تعالى التوفيق * (ما الشأن وجود الطلب انما الشأن أن ترزق حسن الادب) اذا التزم العبد طلب حوائجه وحظوظه من مولاه ولم يطلب ذلك من غيره فلا يظن أنه وفى بما يجب عليه من حق الربوبية فليس ذلك بالشأن المعتبر عند المحققين وانما الشأن أن يتأدب العبد بين يدى مولاه أدبا حسنا بان يفوض أمره اليه ويرضى بما قسم له ولا يطلب منه ما ليس له كما سيقول المؤلف رحمه الله بعد هذا أو يطلب عبودية منه لا لان القصد نيل حظه فبهذين الوجهين يحسن أدبه ويصح سؤاله وطلبه وذلك هو الوفاء على التحقيق * (ما طلب لك شئ مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب اليك مثل الذلة والافتقار) اضطرار العبد هو أخص أوصاف عبوديته ولذلك لم يطلب من العبد شئ أجل منه قال أبو محمد عبد الله بن منازل رضى الله عنه العبودية الرجوع فى كل شئ الى الله عز وجل على حد الاضطرار وفيه أيضا خاصية اجابة الدعاء قال الله عز وجل أمن يجيب المضطر اذا دعاه والاضطرار المطلوب منه أن لا يتوهم العبد من نفسه شيأ من الحول والقوة ولا يرى لنفسه سببا من الاسباب يعتمد عليه أو يستند اليه ويكون بمنزلة الغريق فى البحر أو الضال فى التيه القفر لا يرى لغياثه الا مولاه ولا يرجو لنجاته من هلكته أحدا سواه وقال بعض العارفين المضطر الذى يقف بين يدى مولاه فيرفع يديه اليه بالمسئلة فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيأ فيقول هب لى يا مولاى بلا شئ والذلة والافتقار أمران لازمان له وهما موجبان لاسراع مواهب الحق تعالى الى العبد المتصف بهما واليه الاشارة بقوله عز من قائل ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرتهم كما قيل

واذا تذللت الرقاب تقربا * منها اليك فعزها فى ذلها

(وقيل) حيث أسلمتنى الى الذال واللا * م تلقيتنى بعين وزاى

قال فى لطائف المنن والجالب للتوفيق وعلامة صدق الرجعى الى الله فى أول كل فعل وترك تحقيق الفقر والفاقة اليه والانغماس فى بحر الذلة والمسكنة بين يديه واستصحاب ذلك الى

(لو أنك لا تصل اليه الا بعد فناء مساويك) أى عيوب نفسك ومنها شهوة الوصول اليه (ومحو دعاويك) أى نسبة ما لا تستحقه اليك كالقوة والعزة والغنى والقدرة وفناء ذلك ومحوه بالرياضات والمجاهدات أى لا تعتقد أنك لا تصل اليه الا بعد فناء ذلك برياضتك ومجاهدتك فان اعتقدت ذلك (لم تصل اليه أبدا) لان ذلك من الاوصاف الذاتية الجبلية التى لا ينفك عنها العبد وحينئذ فالوصول منه من الله عليك لا بكسبك كما أشار الى ذلك بقوله (ولكن اذا أراد أن يوصلك اليه) أى الى حضرة قربه (غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته) أى ستر عنك أوصافك وأظهر عليك أوصافه فأفناك عنك وأبقاك به أى غيب صفاتك الدنية باظهار صفاته العلية عليك والى ذلك الاشارة بقوله فى الحديث القدسى ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها (فوصلك اليه بما منه اليك) وهو اظهار صفاته عليك (لا بما منك اليه) من الاجتهاد فى الاعمال قال الشاذلى قدس سره لن يصل الولى الى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته فلو خلى الله تعالى عبده وذلك لم يصل اليه أبدا ولكن اذا أراد الله أن يوصل عبده اليه تولى ذلك له بان يظهر له من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب صفات عبده ونعوته عنه وعند ذلك لا يكون له ارادة ولا اختيار الا ما اختاره مولاه وأراده اه (لولا جميل ستره) أى ستره الجميل (لم يكن عمل أهلا للقبول) لان العبد مبتلى بنظره الى نفسه وفرحه بعمله من حيث نسبته اليه وشهود حوله وقوته عليه وقد يكتب حجابه فيرائى به ويطلب حمد الناس له وهذا كله من الشرك الخفى القادح فى الاخلاص والاخلاص شرط فى قبول العمل كما مر وحينئذ فيكون اعتماد المريد فى وصوله على فضل الله وكرمه لا على اجتهاده ولو قال لولا فضله لكان أولى

الفراغ من ذلك أبدا وقد قال الله سبحانه ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة وقال تعالى انما الصدقات للفقراء والمساكين فلا تدخل جنة عملك وعلمك وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه بقوله ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ولكن ادخلها كما بين لك وقل كما رضى لك ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله وافهم ههنا قوله صلى الله عليه وسلم لا حول ولا قوة الا بالله كنز من كنوز الجنة وفى رواية أخرى كنز من كنوز تحت العرش فالترجمة ظاهر الكنز والمكنوز فيها صدق التبرى من الحول والقوة والرجوع الى حول الله تعالى وقوته * (لو أنك لا تصل اليه الا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل اليه أبدا ولكن اذا أراد أن يوصلك اليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته فوصلك اليه بما منه اليك لا بما منك اليه) الوصول الى الله تعالى لا يكون الا بمحو صفات النفس وقطع علاقات القلب وشئ من ذلك لا يتصور من العبد من حيث هو لان ذلك طبعه وجبلته ولو لم يكن الا ارادته وعمله فى تحصيل هذا الغرض بنفسه فهما من جملة المساوى والدعاوى المحتاج الى محوها قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه لن يصل الولى الى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله تعالى يعنى انقطاع أدب لا انقطاع ملل (وقال سيدى) أبو الحسن رضى الله عنه وان يصل الولى الى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته فلو خلى الله تعالى عبده وذلك لم يصل اليه أبدا ولكن اذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده اليه تولى ذلك له بان يظهر له من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب بذلك صفات عبده ونعوته عنه ويكون ذلك علامة على محبته له كما أشار اليه بقوله فى الحديث القدسى فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها وعند ذلك لا تكون له ارادة ولا اختيار الا ما اختاره له مولاه وأراده فيكون حينئذ واصلا الى الله بما من الله اليه من الفضل والكرم لا بما من العبد اليه من الاجتهاد والعمل فسبحان المتفضل على من شاء بما شاء * وقال رضى الله عنه * (لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول) العبد مبتلى بنظره الى نفسه وفرحه بعمله من حيث نسبته اليه وشهود حوله وقوته عليه وهذا لا محيص له عنه الا بما شاء ربه وقد يكتب حجابه فيرائى به ويطلب حمد الناس له وهذا كله من الشرك الخفى القادح فى الاخلاص الحقيقى والاخلاص شرط فى قبول العمل كما تقدم (قال) يحيى بن معاذ رضى الله عنه مسكين ابن آدم جسم معيب وقلب معيب يريد أن يخرج من معيبين عمل بلا عيب فعمل العبد لما كان بهذه المثابة لم يكن فيه أهلية لوجود القبول لولا جميل ستر الله تعالى وعظيم حلمه وبره فليعتمد المريد على فضل الله تعالى وكرمه لا على اجتهاده وعمله قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه اذا طالبهم بالاخلاص

(أنت الى حلمه اذا أطعته أحوج منك الى حلمه اذا عصيته) وذلك أن المطيع قد يعرض له عند طاعته أحوال كرؤية نفسه والاعجاب والكبر وازدراء الغير واستحقاقه الجزاء الى غير ذلك من كبائر القلوب فيخاف عليه أن تنقلب طاعته معصية والعاصى ربما تحمله معصيته على الحذر والخوف من ربه وتوجب له الاستكانة والخضوع وشدة الافتقار اليه فلذلك كان العبد الى حلم الله اذا أطاعه أحوج منه الى حلمه اذا عصاه وهذا زيادة تحذير من رؤية استحقاق الوصول بالاعمال فان ذلك غلط وجهل (الستر على قسمين ستر عن المعصية) بان يمنعه عنها ولا يهيئ له أسبابها (وستر فيها) أى مع فعلها بان لا يظهرها للناس حال فعلها أو بعده (فالعامة) لعدم تحققهم بحقائق الايمان يغلب عليهم شهود الخلق ويتوقعون منهم حصول المنافع ودفع المضار

تلاشت أعمالهم واذا تلاشت أعمالهم زاد فقرهم وفاقتهم فتبرؤا عن كل شئ ومن كل شئ لهم ومنهم *(أنت الى حلمه اذا أطعته أحوج منك الى حلمه اذا عصيته) شرف العبد ورفعة قدره انما يكون بنظره الى ربه عز وجل واقباله عليه وسكونه اليه واعتماده عليه ودناءته وخسته وسقوطه من عين الله تعالى انما تكون بنظره الى نفسه واقباله على غيره واستناده الى سواه فالعبد عند عمله بالطاعة معرض لهذه الاخطار من نظره الى نفسه واستعظام عمله وعجبه بطاعته وسكونه الى معاملته ولعله يسلم فيه من دقائق الرياء والتصنع بخلاف المعصية فى جميع هذه الاشياء فانها تحمله على الحذر والخوف من ربه وتوجب له الاستكانة والخضوع وشدة الافتقار اليه فلذلك كان العبد الى حلم الله اذا أطاعه أحوج منه الى حلمه اذا عصاه وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله تعالى الى نبى من الانبياء قل لعبادى الصديقين لا تغتروا فانى ان أقم عليهم عدلى وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم وقل لعبادى الخطائين لا تيأسوا من رحمتى فانى لا يكبر على ذنب أغفره ولهذا المعنى قال أبو يزيد رضى الله عنه توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة *(الستر على قسمين ستر عن المعصية وستر فيها فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق) العامة يغلب عليهم شهود الخلق والتصنع والتزين لهم ومحبة حمدهم وكراهية ذمهم فهم يعملون المعصية ويستخفون بها ويطلبون الستر من الله عليهم فيها أى فى حال كونهم عاملين بها لئلا يراهم الخلق فيسقطوا من أعينهم وفى أمثالهم قال الله عز وجل يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فى هذه الآية الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ولا يشعرون أن الحق مطلع عليهم أولئك الذين وسم الله قلوبهم بوسم الفرقة روى عدى بن حاتم رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يؤمر يوم القيامة بناس من الناس الى الجنة حتى اذا دنوا منها ونظروا اليها واستنشقوا ريحها وما أعد الله لاهلها نودوا أن اصرفوهم عنها فلا نصيب لهم فيها قال فيرجعون بحسرة ما رجع الاولون بمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تريتنا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لاوليائك كان أهون علينا قال ذلك أردت بكم كنتم اذا

فيراؤنهم ويتصنعون لهم ويتزينون ويطمعون فيهم ويتملقون بين أيديهم ويكرهون أن يطلعوا منهم على ما تسقط به منزلتهم من قلوبهم ولذا (يطلبون من الله تعالى الستر) أى أن يستر عليهم (فيها) أى فى المعصية أى فى حال كونهم عاملين لها ومستخفين بها ومحبين لها وانما طلبوا ذلك (خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق) اذا اطلعوا على حالهم فيفوتهم ما كانوا يتوقعون منهم من حصول المنافع ودفع المضار وهؤلاء هم الذين يعتمدون على غير الله وهم أهل الشرك الخفى الذى يخرج صاحبه من حقائق الايمان وفى مثلهم قال الله تعالى يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم (والخاصة) لتحققهم بحقائق الايمان برآء من هذا الوصف الذميم لا يلتفتون الى الخلق مدحا ولا ذما ولا يتوقعون منهم نفعا ولا ضرا ولا يعتمدون عليهم ولا يسكنون اليهم وحالهم انما هو القناعة بنظر الله اليهم (يطلبون من الله الستر عنها) بان يغيبها عن نظرهم ولا يخطرها بقلوبهم فتميل اليها نفوسهم ويعملونها وانما طلبوا ذلك (خشية سقوطهم من نظر الملك الحق) بمقته والتعرض لسخطه وشتان ما بين هذين الحالين وهذا هو الغالب من حال الفريقين وقد تطلب العامة الستر فيها امتثالا لامر الله ورسوله بالستر لمن ابتلى بشئ منها ولا يكون عندهم استخفاف بها ولا محبة لها وتطلب الخاصة الستر فيما وقع منهم بان لا يفضحهم بين خلقه ولا بين يديه تجلهم من وقوع المعصية منهم ولاساءة الناس ظنهم بالمنسوبين الى الله اذا اطلعوا عليهم

(من أكرمك) أى أقبل عليك باعطاء أو محبة أو شكر (انما أكرم فيك جميل ستره) أى ستره الجميل عليك فلولا وجوده ما أقبلوا عليك ولا أحبوك ولا نظروا اليك بعين الرضا اذ لو اطلعوا على ما أنت عليه لاستقذروك ونفروا عنك وحينئذ (فالحمد) لا ينبغى أن يكون الا (لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك) فلا تحمده الا من حيث اجراء الخير على يديه لا من حيث انه المكرم والمعظم حقيقة اذ ليس ذلك الا الله فمن أقبل الناس عليه وأكرموه فقد يغلط فيضع الحمد والثناء فى غير موضعه فيكون من الظالمين وقد يغلط فيرى لنفسه وصفا محمودا يستحق به الاكرام فيكون من الجاهلين بانفسهم الناظرين الى عملهم الغافلين عن منة الله عليهم فحذره المصنف من هاتين الغلطتين (ما صحبك) أى ليس الصاحب الحقيقى (الا من صحبك) أى أقبل عليك باحسانه (وهو بعيبك عليم) أى لم يمنعه من صحبته لك واقباله عليك ما يعلمه من تفاصيل عيوبك (وليس ذلك الا مولاك الكريم) وكذا من تخلق باخلاقه من السادة الصوفية العارفين بالله تعالى أما الذى يصحبك مع جهله بها فليس بصاحب حقيقة لانه لا يثبت عند ظهورها له وان عزم على ذلك فليس فى مقدوره الصبر عليه وان صبر فلا بد من تأثر بحقه من ذلك (خير من تصحب من يطلبك) أى يريدك ويؤثرك على غيرك ويعتنى بك (لا لشئ يعود منك اليه) أى وليس ذلك الا مولاك أو من تخلق باخلاقه أما من يصحبك لفائدة معه ونفعك له فليس بصاحب حقيقة لان قصده مجرد قضاء حوائجه منك فاذا زال غرضه فارقك (لو أشرق لك نور اليقين) أى العلم بالله وبما وعد به على لسان نبيه أى لو كثر وأضاء ذلك النور فى قلبك (لرأيت الآخرة) فى تلك الحالة (أقرب اليك من) نفسها فى حالة (أن ترحل)

خلوتم بارزتمونى بالعظائم واذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤن الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وركنتم الى الناس ولم تركنوا الى فاليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب وفى بعض الكتب المنزلة ان لم تعلموا أنى أراكم فالخلل فى ايمانكم وان علمتم أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين اليكم وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور هو الرجل تمر به المرأة فى القوم فيريهم أنه يغض بصره عنها ويود أنه يطلع على عورتها ويقدر عليها وقال فى رواية أخرى هو الرجل يكون فى القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها فاذا رأى من القوم غفلة لحظ اليها ونظر فاذا خاف أن يفطنوا اغض بصره عنها فقد اطلع الله عز وجل على قلبه أنه يود لو نظر الى عورتها وهذا كله شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الاوزار والخاصة من أهل الايمان واليقين برآء من هذا الوصف الذميم لا التفات لهم الى الخلق مدحا ولا ذما وهممهم مصروفة عن النظر اليهم والاعتماد عليهم فى نفع أو دفع ضر وحالهم انما هو القناعة بعلم الله تعالى ومراقبة نظره فهم يطلبون الستر من الله عنها فى أن يغيبها عن نظرهم ولا يخطرها بقلوبهم فتميل اليها أنفسهم فيعملون بها فيقعون فى مخالفة ربهم والتعرض لسخطه والسقوط من عينه وشتان ما بين الحالين والى هذا المعنى أشار سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى دعائه بقوله اللهم انا نسألك التوبة ودوامها ونعوذ بك من المعصية وأسبابها وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها واحملنا على النجاة منها ومن التفكر فى طرائقها وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدها *(من أكرمك انما أكرم فيك جميل ستره فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك) العبد محل الآفات والعيوب وستر الله الجميل هو الذى يحبب الناس الى الناس فاذا أكرمك أحد فلا يذهبن ذلك بك الى أن ترى لنفسك وصفا محمودا تستحق به الاكرام فتكون جاهلا بنفسك ولا يحملنك أيضا رؤية اكرام الخلق لك لوجود جهلهم بحالك على أن تحمدهم عليه دون ربك الذى اضطرهم الى اكرامك وستر عنهم عيوبك وأظهر لهم محاسنك فتكون بذلك كافرا بنعمة ربك ظالما بوضع الحمد فى غير موضعه *(ما صحبك الا من صحبك وهو بعيبك عليم وليس ذلك الا مولاك الكريم خير من تصحب من يطلبك لا لشئ يعود منك اليه) الصاحب على الحقيقة هو من بذل احسانه اليك وأسبغ نعمه عليك ولم يمنعه من ذلك ما يعلمه من عيوبك التى يكرهها منك وليس ذلك الا مولاك وخير صاحب لك أيضا من اعتنى بك وآثرك وأرادك من غير منفعة ينالها منك وليس ذلك أيضا الا مولاك فاتخذه صاحبا ودع الناس جانبا *(لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب اليك من أن ترحل

البها) أى فى حال ارتحالك اليها وحلولك فيها (ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء) أى الفناء الشديد بالكسفة بفتح الكاف أى الكسوف والتغير أو كسرها وهى القطعة من الشئ التى يغطى بها الاناء فلا تلتفت اليه النفس ولا تنظر مافيه (عليها) وذلك أن نور اليقين تتراءى به حقائق الامور على ماهى عليه فاذا أشرق فى قلب العبد رأى به الحق حقا والباطل باطلا والآخرة حق والدنيا باطل فيبصر الآخرة التى كانت غائبة عنه حاضرة لديه حتى كأنها لم تزل فكانت أقرب اليه من أن يرتحل فيقبل عليها بالتهيؤ والاستعداد لها ويبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع اليها الفناء والذهاب فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن فيوجب له هذا النظر اليقينى الزهد فيها والتجافى عن زهرتها والاقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال صلى الله عليه وسلم ان النور اذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل له يارسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعى نفسه فلا تأمره الا بخير ولا تطالبه بارتكاب منهى ولا تكون له همة الا المسارعة الى الخيرات والمبادرة لاغتنام الساعات والاوقات وذلك لاستشعاره صار.

البها ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها) نور اليقين تتراءى به حقائق الامور على ماهى عليه فيحق به الحق ويبطل به الباطل والآخرة حق والدنيا باطل فاذا أشرق نور اليقين فى قلب العبد أبصر به الآخرة التى كانت غائبة عنه حاضرة لديه حتى كأنها لم تزل فكانت أقرب اليه من أن يرحل اليها فحق بذلك حقها عنده وأبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع اليها الفناء والذهاب فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن فيوجب له هذا النظر اليقينى الزهادة فى الدنيا والتجافى عن زهرتها والاقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ان النور اذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله أو كما قال صلى الله عليه وسلم وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعى نفسه فلا تأمره بسوء ولا تطالبه بارتكاب منهى ولا يكون همه الا المسارعة الى الخيرات والمبادرة لاغتنام الساعات والاوقات وذلك لاستشعاره حلول الاجل وفوات صالح العمل والى هذا المعنى الاشارة بحديثى حارثة ومعاذ رضى الله عنهما روى أنس ابن مالك رضى الله عنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى اذ استقبله شاب من الانصار فقال له النبى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ياحارثة فقال أصبحت مؤمنا بالله حقا قال انظر ما تقول فان لكل قول حقيقة فقال يارسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فاسهرت ليلى وأظمأت نهارى فكأنى بعرش ربى بارزا وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر الى أهل النار يتعاوون فيها فقال أبصرت فالزم عبد نور الله الايمان فى قلبه قال يارسول الله ادع الله لى بالشهادة فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فنودى يوما فى الخيل ياخيل الله اركبى فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد فبلغ أمه ذلك فجاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله أخبرنى عن ابنى حارثة فان يك فى الجنة فلن أبكى ولن أجزع وان يك غير ذلك بكيت ماعشت فى الدنيا فقال صلى الله عليه وسلم يا أم حارثة انها ليست بجنة ولكنها جنة فى جنان وحارثة فى الفردوس الاعلى فرجعت وهى تضحك وتقول بخ بخ لك ياحارثة وروى أنس أيضا أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال له كيف أصبحت يامعاذ فقال أصبحت بالله مؤمنا قال النبى صلى الله عليه وسلم ان لكل قول مصداقا ولكل حق حقيقة فما مصداق ما تقول قال يانبى الله ما أصبحت صباحا قط الا ظننت أن لا أمسى وما أمسيت مساء قط الا ظننت أن لا أصبح ولا خطوت خطوة قط الا ظننت أن لا أتبعها أخرى وكأنى أنظر الى كل أمة جاثية تدعى الى كتابها معها نبيها وأوثانها التى كانت تعبد من دون الله وكأنى أنظر الى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة قال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم فهذان الرجلان الفاضلان حارثة بن سراقة ومعاذ بن جبل الانصاريان رضى الله تعالى عنهما لما أشرق عليهما نور اليقين وتمكن من قلوبهما أى تمكين صدر منهما ما صدر مما ذكراه من فنون العبر وشاهدا أمر الدارين بمنزلة رأى العين فسلمت أعمالهما من العيوب والآفات وحفظا من الهفوات والسيئات وطهرت منهما الاسرار والقلوب وسارعا فى كل أمر محبوب وطارت أرواحهما اشتياقا الى لقاء الواحد الفرد وطابت أنفسهما بالموت حتى

صار عندهما أحلى من الشهد حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم وكذلك غيرهما من الصحابة وكبار التابعين وأئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين

ولقد أجاب معبر عن حالهم ٭ فاسمع مقال الاصادقا مقبولا

ان الالى ماتوا على دين الهدى ٭ وجدوا المنية منهلا معسولا

وروى أنس بن مالك رضى الله عنه ان حرام بن ملحان رضى الله عنه وهو خال أنس طعن يوم بئر معونة فى رأسه فتلقى دمه بكفه ثم نضحه على رأسه ووجهه وقال فزت ورب الكعبة وكان جبار بن سلمى فيمن حضر بئر معونة مع عامر بن الطفيل ثم أسلم بعد ذلك فكان يقول مما دعانى الى الاسلام أنى طعنت رجلا منهم فسمعته يقول فزت والله قال فقلت فى نفسى والله ما فاز أليس قتلته حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا الشهادة فقلت فاز لعمر الله المطعون ههنا والله أعلم هو عامر بن فهيرة رضى الله عنه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن الامراء الثلاثة يوم مؤتة أخذ الراية زيد فاصيب ثم أخذها جعفر فاصيب ثم أخذها ابن رواحة فاصيب ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير امرة ففتح الله عليه أظنه قال صلى الله عليه وسلم والله ما يسرنا أنهم عندنا أو قال ما يسرهم أنهم عندنا وعيناه تذرفان دموعا فلله درهم لقد جازوا مرتبة شريفة ومنزلة عالية منيفة وياليتنا لنا الذين عميت بصائرهم وأظلمت سرائرهم فحجبت عنا شموس المعارف ووقعنا فى أودية المهالك والمتالف واغتررنا بهذه الدار الغرارة الفتانة السحارة فتشبثت مخالبنا بشباكها وارتبكنا فى مصايدها وأشراكها من غير شعور بمخالها وتزوير محالها فكنا فى قصدنا اليها وتعويلنا عليها بمنزلة ظمآن لاح له سراب حسبه ماء فلما جاءه لم يجد فيه هناء ولا غناء ثم مع هذا كله ننتسب الى الدين وندعى كمال المعرفة واليقين والدخول فى بحار أولياء الله المتقين مع أن أحدنا لو خير بين حلول الحين أو البقاء فى الدنيا معلقا باشفار العين لاختار البقاء فيها على هذه الحال مع كونه لا يحدث نفسه فى طاعة بازدياد ولا عن معصية بانتقال وهذه كلها أخلاق يهودية لا تليق بمن ينتسب الى هذه الملة المحمدية قال الله عز وجل مخبرا عن حال اليهود وكاشفا لاسرارهم وهاتكا لاستارهم ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون فلو لم ينته العاقل عن محبة البقاء فى هذه الدار وبأمره بايثار دار القرار الا تشبهه باليهود الناقضين للعهود المنهاونين بأوامر المعبود لكان ذلك أبلغ ناه وآمر فضلا عما ورد فى ذلك من مواعظ وزواجر نزع الله عن قلوبنا حجاب الغفلة والغرور وحمانا عن مشابهة كل ظلوم وكفور وحبب الينا لقاءه ورزقنا ما رزق أولياءه وأصفياءه وأحباءه بمنه وكرمه ٭ (ما حجبك عن الله وجود موجود معه ولكن حجبك عنه توهم موجود معه) تقدم أن لا موجود سوى الله تعالى على التحقيق وأن وجود ما سواه انما هو وهم مجرد فلا حاجب لك عن الله تعالى الا توهم وجود ما سواه لا غير والتوهمات باطلة فلا حاجب لك عن الله تعالى اذا وقد استوفى المؤلف رحمه الله تعالى ذكر جميع أنواع الاعتبارات فى هذا المعنى قبل هذا قال فى لطائف المنن وأشبه شئ بوجود الكائنات اذا نظرت اليها بعين البصيرة وجود الظلال والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم واذا ثبتت ظلية الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر لان الشئ انما ينتفع بمثله ويضم الى

فى كل حين بحلول الاجل وفوات صلاح الامل (ما حجبك) أيها المريد المحجوب (عن الله وجود موجود) من الاكوان الدنيوية والاخروية (معه) اذ لا وجود لما سواه على التحقيق (ولكن حجبك عنه توهم موجود معه) أى توهمك أن ما سواه له وجود مع أنه فى ذاته عدم محض عند العارفين ووجوده كوجود ظلال الشجر على الماء فانها لا تمنع سير السفن فلا حاجب لك عن الله الا توهم وجود ما سواه لا غير وذلك كرجل بات فى مكان وأراد البراز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئيرا أى صوت أسد فمنعه ذلك عن البراز فلما أصبح لم يجد هناك أسدا وانما الريح انضغطت فى تلك الكوة فما حجبه وجود أسد وانما حجبه توهم الاسد

(لولا ظهوره فى المكونات) أى تجليه عليها بالوجود (ماوقع عليها وجود ابصار) أى لم توجد واذا لم توجد فلا تبصر فوجودها
انما هو بطريق العارية وظهور الحق فيها كظهور الشمس فى المكوة ذات الزجاج والا فهى فى ذاتها عدم محض لا وجود لها فى
ذاتها كما تقدم غير مرة و يحتمل أن المعنى أن ظهور الحق تعالى لنا من وراء حجاب المكونات هو الذى أوجب ظهورها ووقوع
الابصار عليها ولولا تجليه فى هذه المكونات بان يتجلى التجلى الحقيقى الذى لا خفاء معه لاضمحلت وتلاشت ولم يقع عليها ابصار
بدليل قوله تعالى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا والى ذلك أشار بقوله (لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته) بل
لم يكن هنالك بصر ولا ابصار ولا مبصر كما جاء فى الحديث حجابه النور وفى رواية حجابه النار لو كشف عنها لاحرقت سبحات وجهه
كل شئ أدركه بصره (أظهر كل شئ لانه الباطن) أى ان مقتضى اسمه الباطن أن لا يشاركه فى البطون شئ فلذا أظهر الاشياء
كلها أى جعلها ظاهرة ولا باطن

فيها غيره (وطوى وجود كل شئ لانه الظاهر) أى ان مقتضى
اسمه الظاهر أن لا يشاركه فى
الظهور شئ فلذا طوى وجود
كل شئ أى لم يجعل لغيره وجودا
من ذاته بل المكونات جميعها
عدم محض ولا وجود لها الا من
وجوده وحاصله أن من أسمائه
تعالى الظاهر الباطن فاسمه
الظاهر يقتضى بطون كل
شئ حتى لا ظاهر معه فينطوى
حينئذ وجود كل شئ واسمه
الباطن يقتضى ظهور كل شئ
حتى لا باطن معه فيظهر اذ ذاك
وجود كل شئ أى بوجوده
فالحق تعالى هو الموجود بكل
اعتبار ولا وجود لغيره الا
بطريق التبع عند أرباب
البصائر بخلاف غيرهم من
المحجوبين (أباح لك) أى
أمرك الله تعالى (أن تنظر ما فى
المكونات) وهو جمال الحق
سبحانه أى أن تتصدى بنظرك
القلبى حتى تشاهد أنه الموجود فى المكونات أى الظاهر فيها (وما أذن لك أن تقف مع ذوات
المكونات) بان تحتجب بها عنه فلا تشاهده فيها ثم استدل على ذلك وبينه بقوله (قل انظروا ماذا فى السموات) فانى بفى
الظرفية المشعرة بان الاعتبار بالمظروف دون الظرف قال فى لطائف المنن فما نصب لك الكائنات لتراها ولكن لترى فيها
مولاها فراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها اهـ وأشار الى ذلك
هنا بقوله قل انظروا ماذا فى السموات (فتح لك باب الافهام) أى نبهك وأيقظك لما هو المطلوب منك وهو مشاهدة ما فيها كما يفهم
من الظرفية (ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الاجرام) فتحتجب بها عنه ولا تشاهده فيها فتصير مقصدا مع
أنها وسيلة اذ ليست الامر الا مجالى يتجلى فيها الحق سبحانه لارباب الشهود و يستدل بها عليه أرباب الحجاب ثم ذكر حاصل
ما تقدم بقوله

شكاه كذلك أيضا من شهد ظلمة الاكوان لم تعقه عن الله تعالى فان ظلال الاشجار فى الانهار
لا تعوق السفن عن التسيار ومن ههنا يتبين لك أيضا أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين
الله ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب اليك منه ولا شئ أقرب من الله
فرجعت حقيقة الحجاب الى توهم الحجاب فاحتجبك عن الله وجود موجود معه وذلك كرجل بات
فى مكان وأراد البراز فسمع صوت الرياح من كوة هنالك فظنه زئير أسد فمنعه ذلك عن البراز فلما
أصبح لم يجد هنالك أسدا وانما هو الريح انضغط فى تلك الكوة فما حجبه وجود أسد وانما حجبه
توهم الاسد (لولا ظهوره فى المكونات ماوقع عليها وجود ابصار لو ظهرت صفاته اضمحلت
مكوناته) ظهور الحق تعالى من وراء حجاب المكونات هو الذى أوجب ظهورها ووقوع
الابصار عليها ولولا وجود حجابيتها لم يقع عليها ابصار ولتلاشت لوجود التجلى الحقيقى كما قال
لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته بل لم يكن هنالك بصر ولا ابصار ولا مبصر كما جاء فى
الحديث حجابه النار وفى رواية النور لو كشف عنها لاحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره
•(أظهر كل شئ لانه الباطن وطوى وجود كل شئ لانه الظاهر) من أسمائه تعالى الظاهر
والباطن فاسمه الظاهر يقتضى بطون كل شئ حتى لا ظاهر معه فينطوى حينئذ وجود كل شئ
واسمه الباطن يقتضى ظهور كل شئ حتى لا باطن معه فيظهر اذ ذاك وجود كل شئ فالحق
تعالى هو الموجود بكل اعتبار والحمد لله •(أباح لك أن تنظر ما فى المكونات وما أذن لك ان
تقف مع ذوات المكونات قل انظروا ماذا فى السموات فتح لك باب الافهام ولم يقل انظروا
السموات لئلا يدلك على وجود الاجرام) أمر الله تعالى بالنظر فى المكونات ليس لذاتها الا ان
فى ذلك البعد عن الله تعالى بالنظر الى ما سواه ولم يبح هذا وانما أمرهم بذلك ليتوصلوا بنظرهم
فيها اليه لوجود ظهوره فيها والاشارة الى هذا المعنى بقى فى قوله تعالى قل انظروا ماذا فى
السموات والارض فالمعنى المقصود فى وجود الظرفية ومنها يستفاد وهو معنى قوله فتح لك باب
الافهام فلو اسقطها وقال انظروا السموات لكان فيه دلالة على وجود الاجرام وهى أغيار له
وفيها البعد عنه فكيف يدل على ذلك وهو لم يأذن فيه قال فى لطائف المنن فما نصبت لك
الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها فراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها تراها
من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها قال ولنا فى هذا المعنى

ما أبنت لك العوالم الا • لتراها بعين من لا يراها
فارق عنها رقى من لبس يرضى • حالة دون أن يرى مولاها

•(الاكوان ثابتة باثباته وممحوة باحدية ذاته) الاكوان من ذاتها العدم المحض كما تقدم
وانما حصل لها وصف الثبوت باثبات الله تعالى لها وجعلها أكوانا فالثبوت لها أمر
عرضى والحق اللازم هو وجود أحدية الله عز وجل والاحدية مبالغة فى الوحدة ولا تتحقق
الا اذا كانت الوحدة بحيث لا يمكن أن يكون أشد ولا أكمل منها فمن مقتضى حقيقتها محو
الاكوان وبطلانها بحيث لا توجد اذ لو وجدت لم تكن أحدية ولكان فى ذلك تعدد وانثنية
كما قيل

رب وعبد ونفى ضد • قلت له ليس ذاك عندى
فقال ما عندكم فقلنا • وجود فقد وفقد وجدى
توحيد حق بترك حق • وليس حق سواى وحدى

وأنشدوا أيضا

سر سرى من جناب القدس أفنانى • لكن بذاك الفنا عنى قد احيانى
وردنى للبقا حتى أعبر عن • جمال حضرته لكل همانى
وطرت فى ملكوت من عجائبه • لم ألق غير وجود ماله ثانى

وأنشد المؤلف رحمه الله تعالى لنفسه فى لطائف المنن يوصى رجلا من اخوانه اسمه حسن فقال

حسن بان تدع الوجود باسره • حسن فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمت لتعلمن بانه • لا ترك الا الذى هو حاصل
ومتى شهدت سواه فاعلم أنه • من وهمك الادنى وقلبك ذاهل
حسب الاله شهوده لوجوده • والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت الى الصريح من الهدى • دلت عليه ان فهمت دلائل
وحديث كان وليس شئ غيره • يقضى به الآن اللبيب العاقل
لا غرو أن لا نسبة مثبوتة • ليذم ذو ترك ويحمد فاعل

وقال رضى الله عنه •(الناس يمدحونك لما يظنونه فيك فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه
منها) ذم العبد لنفسه واحتقارها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها مطلوب منه لان ذلك يؤديه
الى الحذر من غرورها وشرورها فتصلح بسبب ذلك أعماله وتصدق أحواله والا فسدت عليه

(الاكوان) من حيث ذاتها عدم محض وانما هى (ثابتة باثباته) أى انما حصل لها وصف الثبوت والتحقق باثبات الله لها أى
ظهوره فيها فالثبوت لها أمر عرضى ولا ثابت حقيقة الا هو ولذا قال (وممحوة باحدية ذاته) أى من نظر الى أحدية ذاته لم يجد
للاكوان ثبوتا وتحققا حينئذ وانما لها ثبوت فى النظر الى الواحدية لان

الاحدية عند العارفين هى الذات
البحت أى الخالصة عن الظهور
فى المظاهر وهى الاكوان
والواحدية هى الذات
الظاهرة فى الاكوان فيكون
للاكوان حينئذ ثبوت باعتبار
ظهور الحق فيها ولذا يقولون
بلسان الاشارة الاحدية بحر
بلا موج والواحدية بحر مع
موج فان الحق سبحانه عندهم
كالبحر والاكوان كالامواج
التى يحركها ذلك البحر فهى
ليست عينه ولا غيره هذا هو
توحيد العارفين وقد كرر
المصنف الكلام عليه فى هذا
الكتاب وأبرزه فى عبارات
مختلفة محاولة على أن يحقق
عندك الحق ويبطل عندك
الباطل وقد أفرده بعضهم
بالتأليف وتكلم على وحدة
الوجود بما لا مزيد عليه
(الناس يمدحونك لما يظنونه
فيك) من الاوصاف الجميدة
(فكن أنت ذاما لنفسك لما
تعلمه منها) أى فلا تغتر بمدح
الناس لك وثنائهم عليك بل
ارجع على نفسك باللوم والذم
على تلبسها بخلاف ما يظن
الناس فيك ولذا قال على كرم
الله وجهه اللهم اجعلنا خيرا
مما يظنون ولا تؤاخذنا بما
يقولون واغفر لنا ما لا يعلمون
ويؤخذ من قوله فكن أنت الخ أنه ليس مأمورا بتكذيب الناس ولا بالسعى فى تبديل ظنهم فيه
وانما هو مأمور بعدم الاغترار وتقديم علمه على ظنهم نعم ان كان المادح كاذبا فى مدحه بارتكاب المبالغة والغلو تأكد تكذيبه
وزجره وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم أحثوا التراب فى وجوه المداحين فمدحه حينئذ منهى عنه وكذا لو كان مدحه يورث
عند الممدوح غرة ويغلطه فى نفسه وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم لمن مدح عنده رجلا قطعت عنق صاحبك وقال اياكم

واعتلت لدخول الآفات عليها ولا يصدنه عن ذلك ثناء الناس عليه ومدحهم له لانه يعلم من عيوب نفسه مالا يعلمه غيره ثم انهم لما قاموا بحق ما يجب عليهم من المدح له وحسن الظن به فينبغى أيضا أن يقوم هو بحق ما يجب عليه من اتهام نفسه وسوء اعتقاده فيها قال بعضهم من فرح بمدح نفسه فقد أمكن الشيطان أن يدخل فى بطنه وقال آخر اذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب اليك من أن يقال بئس الرجل أنت فأنت والله بئس الرجل وقيل لبعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم فغضب وقال انى لا أحسبك عراقيا وقال بعضهم لما مدح اللهم ان عبدك تقرب الى بمقتك فاشهدك على مقته وقال آخر اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون ولا تؤاخذنا بما يقولون واغفر لنا مالا يعلمون قال الامام أبو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه وانما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض اليهم مدح الخلائق لان الممدوح هو المقرب عند الله تعالى والمذموم على الحقيقة هو المبعد عن الله تعالى الملقى فى النار مع الاشرار فهذا الممدوح ان كان عند الله تعالى من أهل النار فما أعظم جهله اذا فرح بمدح غيره وان كان من أهل الجنة فلا ينبغى أن يفرح الا بفضل الله تعالى وثنائه عليه اذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم أن الارزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته الى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه انتهى كلام أبى حامد رضى الله تعالى عنه

*(المؤمن اذا مدح استحيا من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه) المؤمن الحقيقى هو الذى لا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحق بها أن يمدح أو يثنى عليه وانما يشهد ذلك من ربه عز وجل فاذا أثنى الناس عليه وذكروا محاسنه استحيا من الله تعالى استحياء تعظيم واجلال أن يثنى عليه بصفة ليست فيه فيزداد بذلك مقتا لنفسه واستحقارا لها ونفورا عنها ونقوى عنده رؤية احسان الله تعالى اليه وشهود فضله فى اظهار المحاسن عليه وهذا هو الشكر الذى ينال به المزيد مع سلامته من السكون الى ثناء العبيد *(اجهل الناس من ترك يقين ماعنده لظن ماعند الناس) الاغترار بمدح الناس وثنائهم غاية فى الجهل والغباوة وذلك من علامات المقت لان المغتر بذلك ترك يقينه بنفسه لظن غيره به وهو على كل حال أعلم بنفسه وقد شبه الحرث المحاسبى رضى الله عنه الراضى بالمدح بالباطل بمن يهزأ به ويقال له ان العذرة التى تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية به قلت ولا شك أن الذنوب والعيوب التى يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التى تخرج من جوفه ولا فرق بين الحالين الا أنه فى حال المدح يعلم أن المادح لم يشاركه فى معرفة ذنوبه وعيوبه ومشاركه ذلك المستهزئ للمستهزأ به فى معرفة حال ما يخرج من جوفه فهو بجهله وغباوته قد رضى بان يكون له فى قلوب العباد الجاهلين بحاله قدر وجاه من غير مبالاة بسقوطه من عين مولاه الذى يعلم من حاله مالا يعلمه هو ولا غيره من حيث رضى بالمدحة وفرح بها ولم يقابل ذلك بالاباء والكراهية هذا اذا كان المادح من أهل العلم والدين وأما ان كان جاهلا أو فاسقا فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به قال يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه تزكية الاشرار هجنة بك وحبهم لك عيب عليك وقيل لبعض الحكماء ان العامة يثنون عليك فاظهر الوحشة من ذلك وقال لعلهم رأوا منى شيأ أعجبهم ولا خير فى شئ يسرهم ويعجبهم

والمدح فانه الذبح (المؤمن) الحقيقى (اذا مدح استحيا من الله أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه) أى لا يرى ذلك الوصف الذى مدح عليه من نفسه وانما يراه منة من الله عليه فلا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحق بها أن يثنى عليه وانما يشهد ذلك من ربه فاذا أثنى الناس عليه وذكروا محاسنه استحيا من الله استحياء تعظيم واجلال أن يثنى عليه بصفة ليست منه فيزداد بذلك مقتا لنفسه واستحقارا لها ونفورا عنها ونقوى عنده رؤية احسان الله اليه وشهود فضله فى اظهار المحاسن عليه وهذا هو الشكر الذى به ينال المزيد مع سلامته من السكون الى ثناء العبيد (أجهل الناس) أى أشدهم جهلا (من ترك يقين ماعنده) أى اليقين الذى عنده وهو علمه بعيوب نفسه وتقصيره مع ربه (لظن ماعند الناس) أى لاجل الظن الذى عند الناس وهو ظنهم صلاح حاله حتى مدحوه وأثنوا عليه فاذا اغتر ذلك الممدوح واعتقد استحقاقه لما مدح به واغتر بشهادة الخلق فيه بذلك كان أجهل الناس لانه ألغى اليقين وقدم الظن عليه وقدم ماعند غيره على ماعند نفسه وقد شبه ذلك بعضهم بمن يهزأ بك ويقول لك ان العذرة التى تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك وأنت ترضى بالسخرية بك وتفرح بذلك ولا شك أن العيوب التى يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التى تخرج من جوفه

ويروى

ويروى عن بعض الحكماء انه مدحه بعض العوام فبكى فقال له تلميذه أتبكى وقد مدحك فقال له انه لم يمدحنى حتى وافق بعض خلقى خلقه فلذلك بكيت فانظر هذا فقد نبهك هذا الحكيم على العلة فى ذلك *(اذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فأثن عليه بما هو أهله) المؤمن هو الذى لا يرى نفسه أهلا لان يمدح أو يثنى عليه لان موجبات ذلك ليس له منها شئ كما تقدم واذا أطلق الله تعالى ألسنة الناس بالثناء عليه ولا أهلية فيه لذلك فينبغى أن يعرف الحق لاهله فيستعمل نفسه بالثناء على الله تعالى بما هو أهله ليكون ذلك شكر النعمة اطلاق الالسنة بالثناء عليه من غير استحقاق لذلك ولا ثبوت أهلية *(الزهاد اذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق والعارفون اذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق) تقدم أن الزهاد فى غيبة عن الله تعالى فهم لا يشاهدون الا الخلق فاذا مدحوا وأثنى عليهم شهدوا ذلك من الخلق فانقبضوا عند ذلك لانهم يخافون فوات نصيبهم من ربهم لاجل ما يتوقعون من الاغترار بذلك والعارفون حاضرون مع ربهم فهم لا يشاهدون معه غيره فاذا مدحوا شهدوا الثناء من ربهم فانبسطوا لذلك وكان ذلك مزيدا فى حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم كان بعضهم يمدح وهو ساكت فقيل له فى ذلك فقال وما على من ذلك ولست أغلط فى نفسى بل لست فى البين والمجرى والمثنى هو الله عز وجل وقيل هذا المعنى فى الخبر المروى اذا مدح المؤمن فى وجهه ربا الايمان فى قلبه قال أبو طالب المكى رضى الله عنه وفيه طريق للعارفين بان يعلو الايمان العلى الى المولى الاعلى فيفرح بذلك لمولاه ويضيفه الى سيده الذى تولاه فيرد الصنعة الى صانعها ويشهد من الفطرة فاطرها فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفا للفاطر لا ينظر الى وصفه ولا يعجب بنفسه انتهى قلت وللمؤلف رحمه الله قصائد فى مدح شيخه أبى العباس المرسى رضى الله عنه وكان ينشدها كثيرا بين يديه ويقع ذلك منه موقعا عظيما وكان يستعيد منه بعضها ويقول له فى بعضها أيدك الله بروح القدس نحو ما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لشاعره حسان بن ثابت مع أن حب المدح عندهم من الرذائل التى تشبه الفضائل وبهذا النظر والشهود الجمعى استقام لهم من مدحهم لانفسهم وثنائهم عليها مالم يستقم لغيرهم كما وقع لجماعة منهم وقد روى فى ذلك عن سيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى أبى الحسن الشاذلى وسيدى أبى العباس المرسى رضى الله عنهم وغيرهم غير شئ مع أن ذلك معدود عندهم من الصدق القبيح وما ذلك الا لما ذكرناه ولا يتأول ما وقع لهم من ذلك بما تأول به علماء الظاهر مدح يوسف عليه الصلاة والسلام لنفسه وثناءه عليها بغاية الحفظ والعلم لعدم الحاجة اليه فى هذا المقام والله تعالى أعلم وعلامة الصادق فى حب المدح وان كان صاحب هذا المقام لا يحتاج الى علامة أن لا يكره ذم الناس له من حيث نسبة ذلك اليهم لانهم مصروفون فى قبضة القدرة فيسمح لهم ويصفح عنهم ولا يجد فى قلبه عليهم ولا يصل بشئ من الاذى اليهم كما قيل

رب رام لى بأحجار الاذى * لم أجد بدا من العطف عليه
فعسى يطلع الله على * فرح القوم فيدنينى اليه

*(متى كنت اذا أعطيت بسطك العطاء واذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت

(اذا أطلق الثناء) أى ألسنة الناس بالثناء (عليك ولست بأهل) أى والحال أنك لست أهلا لما يثنون به عليك اما لعدم وجود ذلك فيك أو لكونك معيبا بالعيوب الاصلية والعارضة فلا تستحق ثناء عليك لولا فضل الله عليك وستره الجميل (فأثن عليه بما هو أهله) أى فالادب أن تثنى على سيدك بما هو أهله ليكون ذلك شكر النعمة ستره عليك واطلاق الالسن بمدحك مع عدم أهليتك لذلك ولا تغتر بأقوال المادحين (الزهاد اذا مدحوا) أى مدحهم أحد من الناس (انقبضوا لشهودهم الثناء) صادرا (من الخلق) وغيبتهم عن الرب وانما انقبضوا حينئذ خوف الاغترار بذلك الثناء فيفوتهم نصيبهم من ربهم (والعارفون اذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق) فهم حاضرون مع ربهم لا يشاهدون معه غيره قائلون ألسنة الخلق أقلام الحق فاذا مدحوا وشهدوا الثناء منه فانبسطوا لذلك وكان مزيدا فى حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم فلا يحصل عندهم اعجاب ولا اغترار قيل وهذا محمل قوله صلى الله عليه وسلم اذا مدح المؤمن فى وجهه ربا الايمان فى قلبه ولذا كان يمدح المصنف شيخه المرسى وهو ساكت ويقع عنده المدح موقعا عظيما وكذا وقع لغيره من العارفين وصاحب هذا المقام اذا ذمه أحد لا يجد فى نفسه عليه ولا يؤذيه لعدم شهوده الذم صادرا منه (متى كنت اذا أعطيت بسطك العطاء واذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت

طفوليتك) أى تطفلك على أهل الله ولست منهم بل أنت داخل معهم فى أمر لا تستحقه كما أن الطفيلى يدخل مع الاضياف فى ضيافتهم ولا يستحق الدخول معهم وهو منسوب لطفيل رجل من أهل الكوفة كان يأتى الولائم من غير أن يدعى اليها وكان يقال له طفيل الاعراس (وعدم صدقك فى عبوديتك) لان القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ والعمل على نيله وهو مناقض للعبودية عند العارفين فمن وجد ذلك فليعرف عدم صدقه فى عبوديته وأنه طفيلى بين أهل الله فى ادعائه مقاماتهم وهو لم يؤهل لها بل الحاصل عنده مجرد دعوى نعم ان كان قبضه خوفا من عدم صبره ومقاومته للقهر الالهى فيحصل عنده بعض ضجر وكان بسطه لعدم وقوعه فى ذلك ففيه اعتناء من الحق به حيث لم يوقعه فى أمر يشوش عليه حاله لم يكن دليلا على ماذكر لان العارفين لابد من بقايا شئ من بشريتهم يتمكنون به من مخالطة الخلق ومن لازم البشرية ذلك فالخطاب المذكور مع المريدين (اذا وقع منك ذنب) على حسب مقامك (فلا يكن سببا ليأسك) أى يقتضى يأسك (من حصول الاستقامة) أى اعتدال أحوالك (مع ربك) بان تعتقد بسبب صدور الذنب أن حصول الاستقامة لك مستحيل فيحملك ذلك على تعاطى غيره من الذنوب وهذا غلط لان الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة اذا جرى القدر عليه بذلك وانما يناقضها الاصرار عليه والعزم على فعله ثانيا فالواجب عليك أن تتوب الى مولاك وترجع اليه ولا تيأس من رحمته (فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك) ويقبل عليك المولى بعد ذلك بتوفيقه واحسانه ثم أشار الى ما يكون سببا فى الرجوع الى الله عند صدور الذنب فقال (اذا أردت أن يفتح) الله (لك باب الرجاء) فيه (فاشهد) أى استحضر فى نفسك (ما) هو واصل (منه اليك) من جلب المنافع ودفع المضار من حين كونك فى بطن أمك الى الوقت الذى أنت فيه فاذا شهدت ذلك غلب عليك حال الرجاء فيه وعدم اليأس من رحمته ولو مع الوقوع فى الذنب (واذا) غلب عليك الرجاء وخفت أن يوقعك ذلك فى مخالفته و (أردت أن يفتح لك باب الخوف) ليكفك عن ذلك (فاشهد) أى استحضر فى نفسك (ما) هو واصل (منك اليه) من المخالفات والعصيان وسوء الادب بين يديه فاذا شهدت ذلك غلب عليك حال الخوف فتنكف عن مخالفته فالرجاء والخوف حالان ينشآن عن المشاهدتين المذكورتين وشبههما بشئ عليه باب مغلق استعارة بالكناية والباب تخييل والفتح ترشيح أو الاضافة للبيان

طفوليتك وعدم صدقك فى عبوديتك) القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات بقاء الحظ والعمل على نيله وهو مناقض للعبودية عند العارفين فمن وجد ذلك فليعرف به عدم صدقه فى عبوديته وأنه طفيلى بين أهل الله تعالى فى ادعائه مقاماتهم وهو لم يؤهل لها والطفيلى هو الذى يأتى الولائم والضيافات فيدخل مع أهلها من غير دعوة وهو منسوب الى رجل من أهل الكوفة من بنى عبد الله بن غطفان كان يقال له طفيل الاعراس وطفيل العرائس وكان يأتى الولائم من غير أن يدعى اليها فشبه صاحب الكتاب هذا به قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه أكثر الخلق مع الله تعالى فى أحوالهم وارادتهم على الظنون ما تحقق منهم له الا قليل ألا تراه تعالى يقول وما يتبع أكثرهم الا ظنا فمن تحقق فى حاله مع الله تعالى غاب عن كل ما منه وله من الاحوال والاقوال والافعال نظرا الى ما اليه من رعاية الحق وحياطته وتوليه وكان للحق من حيث الحق له لا من حيث هو للحق ولكن أكثر العبيد يشيرون اليه بالمعرفة ويظهرون حالة المحبة فاذا ورد عليهم وارد بلاء أو خلاف مراد رجعت نفوسهم الى حد الاشفاق عليها والاهتمام بها ونسوا ما ادعوا به وما أشاروا اليه ولو كانوا للحق من حيث الاستحقاق لنسوا فى جنب ما أشاروا اليه جميع الموارد ساء أم سر لان من حصل فى ميدان الوصول لا يعترض عليه عارض خلافه وأذهله حاله عما سواه وقال رضى الله عنه

*(اذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك) الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة اذا جرى القدر عليه بذلك وانما يناقضها الاصرار عليه فاذا وقع من العبد ذنب فينبغى له أن يبادر الى التوبة منه ولا ييأس بسبب وقوعه فيه من الاستقامة مع ربه ويرى أنه طرده وأبعده رؤية توجب له القنوط من رحمة الله تعالى واليأس من روح الله تعالى لانه قد يكون ذلك الذنب آخر ذنب قدر عليه وقد وقع ذلك وفرغ منه *(اذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه اليك واذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك اليه) الرجاء والخوف حالان عن مشاهدتين فمن أراد أن يفتح له باب الرجاء فليشهد ما من الله له من الفضل والكرم والاسعاف والالطاف فيغلب عليه حينئذ حال الرجاء ومن أراد أن يفتح له باب

(ربما أفادك) أيها العارف (فى ليل القبض) أى القبض الشبيه بالليل بجامع السكون فى كل (مالم تستفده) أى علوما ومعارف لم تستفدها (فى اشراق نهار البسط) أى البسط الشبيه بالنهار بجامع الانتشار فى كل لما تقدم أن من حصل عنده البسط تتهيج نفسه الى اظهار ما عنده من المعارف وغيرها فربما كان ذلك سببا لحجبه بخلاف من حصل عنده القبض فان نفسه تنكسر وتذل فيكون ذلك سببا فى افاضة الله الخير عليه ولذا كان العارفون يؤثرونه على البسط لما فيه من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط وقد يحصل عندهم فيه جزع وعدم صبر على مقاومة القهر الالهى بخلاف البسط فينبغى للعبد أن يعرف قدر نعمة الله عليه فى حال القبض كما يعرفها فى حال البسط وان يكل كل ذلك الى ربه ويحسن ظنه به فانه لا يدرى أيهما أقرب له نفعا كما قال تعالى (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا مطالع الانوار) أى مواضع طلوع وشروق الانوار المعنوية وهى نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد (القلوب والاسرار) أى قلوب العارفين وأسرارهم فهى كالسماء التى تشرق فيها الكواكب وتطلع فيها وتقدم أن تلك الانوار أشد اشراقا من أنوار الكواكب قال بعضهم لو كشف الحق تعالى عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم وأين نور الشمس والقمر من أنوار القلوب فان ذلك النور يطرأ عليه الكسوف والغروب وأنوار قلوب أهل الله لا كسوف لها ولا غروب اهـ قال الشاذلى قدس سره لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والارض فما ظنك بنور المؤمن الطائع فمن لطف الله عدم الاطلاع على أنوار العارفين فقد قال المرسى قدس سره لو كشف عن حقيقة الولى لعبد لان أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته اهـ (نور مستودع فى القلوب) وهو نور اليقين المودع فى قلوب العارفين (مدده) أى يمتد ويتزايد ضياؤه (من النور الوارد من خزائن الغيوب) وهو نور الاوصاف الازلية فاذا تجلى الله عليهم بأوصافه تزايد ذلك النور الحاصل فى قلوبهم وذلك دليل على عناية الله بهم قال فى لطائف المنن واعلم أن الله سبحانه وتعالى اذا تولى وليا صان قلبه من الاغيار وحرسه بدوام الانوار اهـ ثم أشار الى أن النور المستودع فى القلب على قسمين بقوله

الخوف فليشهد ما منه الى الله تعالى من المخالفة والعصيان وسوء الادب بين يديه فيغلب عليه حينئذ حال الخوف *(ربما أفادك فى ليل القبض مالم تستفده فى اشراق نهار البسط لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) تقدم أن القبض يؤثره العارفون على البسط لما فيه من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط وقد ينفتح لهم فيه من أبواب المعارف ما لا ينفتح لهم فى البسط فينبغى للعبد أن يعرف نعمة الله تعالى عليه فى ليل القبض كما يعرفها فى اشراق نهار البسط لما يعلم أن فى الليل من المنافع ما ليس فى النهار فليكل علم ذلك الى ربه وليحسن ظنه به فانه لا يدرى أيهما أقرب اليه نفعا كما أشار اليه بالآية الكريمة وتشبيه القبض بالليل والبسط بالنهار مجاز بديع وقد تقدم نحوه فى كلام الاستاذ سيدى أبى الحسن رضى الله عنه *(مطالع الانوار القلوب والاسرار) نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد مطالعها وموضع شروقها قلوب العارفين وأسرارهم وهذه هى الانوار الحقيقية من المطالع الروحانية بخلاف الانوار الحسية قال فى لطائف المنن واعلم أن الله سبحانه وتعالى اذا تولى وليا صان قلبه من الاغيار وحرسه بدوام الانوار حتى لقد قال بعض العارفين اذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرس السماء بالكواكب والشهب كى لا يسترق السمع منها فقلب المؤمن أولى بذلك يقول الله تعالى فيما يحكيه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن فانظر رحمك الله هذا الامر الاكبر الذى أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلا ولهذا قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والارض فما ظنك بنور المؤمن المطيع قال ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول لو كشف عن حقيقة الولى لعبد لان أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته قال ولقد أخبرنى بعض المريدين قال صليت خلف شيخى صلاة فشهدت ما بهر عقلى وذلك أنى شهدت بدن الشيخ والانوار قد ملأته وانبثت الانوار من وجوده حتى انى لم أستطع النظر اليه قال فلو كشف الحق تعالى عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب وأنوار قلوب أولياء الله تعالى لا كسوف لها ولا غروب كذلك قال قائلهم

ان شمس النهار تغرب بالليل * وشمس القلوب ليست تغيب

*(نور مستودع فى القلوب مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب) نور اليقين المستودع

(نور يكشف لك به عن آثاره) أى من أحوال المكونات فتطلع على أحوال العباد وعلى مافوق السماء وماتحت الارض وهذا يسمى كشفا صوريا وهو ليس معتنى به عند المحققين (ونور يكشف لك به عن أوصافه) أى أوصاف جلاله وجماله وذلك النور لايحصل الامن تجلى تلك الاوصاف عليه وهذا يسمى كشفا معنويا وهو المعتمد به عندهم ولم يقل ونور يكشف لك به عن ذاته لان تجلى الذات البحت الخالية عن الصفات مختلف فيه عندهم فبعضهم نفاه وبعضهم أثبته ويسميه الشيخ محيى الدين بالبوارق لكونه يطرأ ويزول سريعا لان القدرة البشرية لاتطيق دوامه (ربما وقفت القلوب مع الانوار) أى فتحجب بها وتتعطل عن السير الى الله تعالى (كما حجبت النفوس بكثائف الاغيار) أى بكثائف هى الاغيار أى الشهوات واللذات التى هى غير المولى سبحانه فالحجاب عن المولى قسمان نورانى وهو العلوم والمعارف اذا وقفت القلوب معها وركنت اليها وجعلتها غاية مقصدها وظلمانى وهو شهوات النفوس وعاداتها ووصفها بالكثافة لانها لاتزول الابعناء ومشقة (ستر أنوار السرائر) أى أنوار قلوب أوليائه (بكثائف الظواهر) أى بالاحوال التى يتلبسون بها فى ظواهرهم ويتعاطونها من الصنائع وغيرها فان تلك الاحوال كثائف أى حاجبة لغيرهم عن الاطلاع على أنوار قلوبهم وانما ستر تلك الانوار مع أن الظهور التام لاينبغى أن يكون الا لها (اجلالا لها أن تبتذل بوجود الاظهار وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار) أى لانها رفيعة القدر جليلة الخطر فاجلها عن الابتذال لها بوجود اظهارها وصانها من أن ينادى عليها بلسان الاشتهار بين الاغيار فيكون ذلك نوعا من الاهانة بها وقد تقدم هذا فى قوله سبحان من ستر سر الخصوصية الخ لكن أعاد ذلك هنا لاجل التعليل المذكور وأيضا سترها رحمة من الله بالمؤمنين اذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لاوجبت على من ظهرت له حقوقا لايقدر على القيام بها فاذا قصر وقع فى المحذور

فى القلوب يستمد ويتزايد ضياؤه من النور الوارد من خزائن الغيوب وهو نور الاوصاف الازلية كما ذكرناه عن الشيخ أبى العباس المرسى رضى الله عنه قبل هذا وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى أنار الظواهر بانوار آثاره وأنار السرائر بانوار أوصافه *(نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به عن أوصافه) النور المدرك بالحواس يكشف لك به عن آثاره وهى الاكوان المحدثة وليس لك الى ذلك كبير حاجة الا من حيث تستدل به على المؤثر والنور المستودع فى القلوب يكشف لك به عن أوصافه الازلية حتى تراها عيانا وفى هذا غاية بغيتك وبه شرف قدرك ومنزلتك اذ بذلك تحقق فى المعرفة وترتفع فى المشاهدة ولا تحتاج الى دليل بدلك وهذا فرقان ما بين النورين قال فى لطائف المنن نور الشمس تشهد به الآثار ونور اليقين تشهد به المؤثر قال ولنا فى هذا المعنى

هذه الشمس قابلتنا بنور * ولشمس اليقين أبهر نورا
فرأينا بهذه النور لكن بها نيك قد رأينا المنيرا

*(ربما وقفت القلوب مع الانوار كما حجبت النفوس بكثائف الاغيار) القلوب نورانية فتحجب بوقوفها مع لطائف الاغيار النورانية من العلوم والمعارف والنفوس ظلمانية فتحجب بحجبها لكثائف الاغيار الظلمانية من العادات والشهوات فالقلوب محجوبة بالانوار كما أن النفوس محجوبة بالظلمات والحق وراء ذلك كله قال أبو الحسن التسترى رحمة الله عليه فى قصيدته النونية

تقيدت للاوهام لما تداخلت * عليك ونور العقل أورثك السجنا
وهمت بانوار فهمنا أصولها * ومنبعها من أين كان فهاهمنا
وقد تحجب الانوار للعبد مثل ما * تبعد من اظلام نفس حوت ضغنا

*(ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر اجلالا لها أن تبتذل بوجود الاظهار وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار) أنوار السرائر انما خفيت عن العيان بما سترها به من كثائف الظواهر مع أن الظهور التام لا ينبغى أن يكون الا لها لانها رفيعة القدر جليلة الخطر فاجلها عن الابتذال لها بوجود اظهارها وصانها من أن ينادى عليها بلسان الاشتهار بين الاغيار فيكون ذلك نوعا من الاهانة بها وقد تقدم مثل هذا الستر فى قوله سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية

(تم الجزء الاول من شرح ابن عباد على الحكم ويليه الجزء الثانى أوله سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه الا من حيث الدليل عليه)

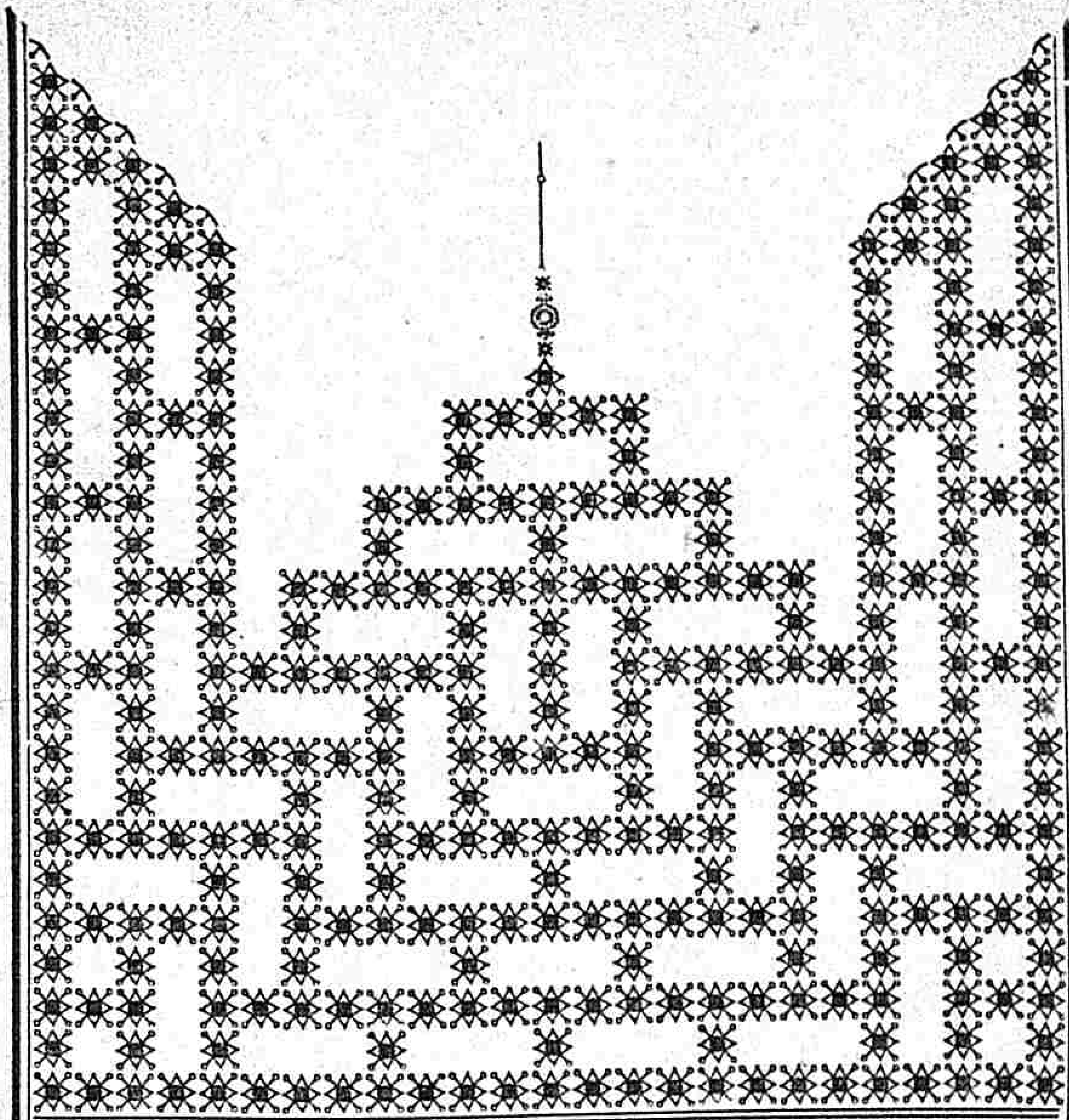
الجزء الثانى

من شرح العالم العلامة والبحر الفهامة وحيد دهره وفريد عصره محمد بن ابراهيم المعروف بابن عباد النفزى الرندى على متن الحكم للامام المحقق أبى الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندرى تغمدهما الله بالرحمة والرضوان وأسكنهما أعلى الجنان آمين

ولاجل تمام النفع وضع على هامش هذا الشرح شرح المحقق شيخ الاسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته آمين

الطبعة الاولى

بالمطبعة الخيريه بحوش عطى بجماليه مصر المعزيه سنة ١٣٠٣ هجريه



بسم الله الرحمن الرحيم

* وقال رضى الله عنه * (سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه الا من حيث الدليل عليه ولم يوصل اليهم الا من أراد أن يوصله اليه) * لا دليل على الله سواه ولا وصول اليه بغيره وكذلك أولياؤه ولما كان الوصول الى الله تعالى لا يكون الا بالعناية والخصوصية ويستحيل أن يكون بطلب أو سبب كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه كذلك لما خلع عليهم الخلع العظيمة وتولاهم بعنايته الجسيمة فاصطفاهم لنفسه واختصهم بمحبته وأنسه وطهر أسرارهم من أنجاس الاغيار وصان قلوبهم بما أودع فيها من الانوار والاسرار فكانوا لذلك صفيته فى عباده وخباياه فى بلاده كما قال فى بعض الاشارات عنه سبحانه أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم أحد غيرى وهذا من غيرته عليهم لان الحق تعالى أغير على أوليائه من أن يظهرهم الى من لا يعرفهم فلم يجعل لاحد لئلا عليهم الا من حيث الدليل عليه ولم يوصل اليهم الا من أراد أن يوصله اليه لانه يلبسهم لباس التلبيس بين الانام ويظهرهم بما يحقرهم فى أعين الخواص والعوام فلم يكن لاحد دليل عليهم أو وصول بسبب اليهم * قال فى لطائف المنن فأولياء الله أهل كهف الايواء فقليل من يعرفهم قال وقد سمعته يقول يعنى شيخه أبا العباس المرسى رضى الله عنه معرفة الولى أصعب من معرفة الله فان الله معروف بكماله وجماله وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وقال فيه واذا أراد الله تعالى أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك وجود بشريته

بسم الله الرحمن الرحيم
(سبحان من لم يجعل الدليل) أى الاهتداء والوصول والاستدلال (على أوليائه الا من حيث) أى من جهة (الدليل عليه) أى انه مماثل لذلك فكما أن الله محتجب بالاكوان عن المخلوقين فاهتداؤهم اليه ووصولهم الى معرفته أمر عسير يتعجب منه فاذا حصل ذلك لاحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة يشكره عليها كذلك الولى مستتر بكثائف الظواهر من الصنائع الحسية وما يتعاطاه من مأكول ومشروب وغيرهما فيكون الاهتداء اليه والوصول الى معرفته أمرا عسيرا يتعجب منه فاذا حصل ذلك لاحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة يشكره عليها والحاصل أن الوصول الى معرفة الله تعالى الخاصة عناية من الله تعالى لا بطلب ولا بسبب وكذلك الولى بل معرفته أصعب من معرفة الله لانه تعالى معروف بكماله وجماله والولى مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب فاذا أراد الله تعالى أن يعرفك بولى من أوليائه لتنتفع به طوى عنك وجود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته (ولم يوصل اليهم) أى يعرف بهم ويجمع عليهم (الا من أراد أن يوصله اليه) وذلك لانهم أحبابه فيغار

وأشهدك وجود خصوصيته وقال صاحب كتاب أنوار القلوب لله سبحانه عباد ضن بهم عن العامة وأظهرهم للخاصة فلا يعرفهم الا شكل مثلهم أو محب لهم ولله تعالى عباد ضن بهم عن الخاصة والعامة وعباد أظهرهم للخاصة والعامة ولله تعالى عباد يظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية ولله عباد يظهرهم فى النهاية ويسترهم فى البداية ولله عباد لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم الى الحفظة فمن سواهم حتى يلقونه بما أودعهم منه فى قلوبهم وهم شهداء الملكوت الاعلى والصفيح الايمن من العرش الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده فتطيب أجسادهم به فلا يعدو عليها الثرى حتى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ببقاء الابد مع الباقى الاحد عز وجل اه (وقال) أبو يزيد رضى الله عنه أولياء الله تعالى عرائس ولا يرى العرائس الا من كان محرما لهم وأما غيرهم فلا وهم مخدرون عنده فى حجال الانس لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة وقال أبو على الجرجانى رضى الله عنه الولى هو الفانى فى حالة الباقى فى مشاهدة الحق تولى الله سبحانه سياسته فتوالت عليه أنوار التوالى لم يكن له عن نفسه اخبار ولا مع غير الله عز وجل قرار وفى الاشارات عن الله سبحانه انما سميت الولى وليا لانه يلينى دون ما سواى فهم منزهون بتنزيه الحق تعالى لهم من أن يوصل اليهم بغيره ولذلك صدر المؤلف كلامه بالتسبيح * (ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد) * من لطف الله تعالى اخفاء أسرار الناس بعضهم عن بعض لا سيما سر يقتضى وجود عيب وهو ظاهر ما ذكره المؤلف هنا بدليل الكلام الذى عقبه به وقد يظهر لبعض الناس ما سوى ذلك من الاسرار الملكوتية ووجه الفرق بينهما ما ذكره المؤلف الآن ويحتمل أن يريد ما هو أعم مما ذكرناه ويدخل فى ذلك أسرار الولاية اذا اختص الحق تعالى بها بعض عباده ويكون فى ذلك تنبيه على العلة الموجبة لخفاء الولى حسبما ذكره المؤلف فى المسئلة التى فرغنا منها حتى يمتنع الوصول اليه بطلب أو سبب واخفاء ذلك أيضا عن عامة المؤمنين من النعم العظيمة اذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لا وجبت على من ظهرت له حقوقا لا يقدر على القيام بها فان فرط فى ذلك وترك القيام بتلك الحقوق رأسا وقع بسبب ذلك فى محذورات لا يقوم لها شئ وقد فهمت هذا المعنى من كلام سهل بن عبد الله رضى الله عنه وقد سأله بعض تلامذته كيف تعرف أولياء الله تعالى فقال ان الله تعالى لا يعرفهم الا لاشكالهم أو من أراد أن ينفعه بهم ولو أظهرهم حتى يعرفهم الناس لكانوا حجة عليهم ومن خالفهم بعد علمه بهم كفر ومن قعد عنهم حرج ولكن الله تعالى جعل اختياره تغطية أمورهم رحمة منه لخلقه ورأفة ولكن الله تعالى قد أخبر بكرامتهم فقال جل وعز الله ولى الذين آمنوا والله ولى المؤمنين فأفردهم به ولو أظهرهم حتى يبرزهم لكان فى النظر اليهم حجة وكان الاستماع لحديثهم فرضا انتهى والمعنى الذى ذكرته فى هذه المسئلة فهمته من الكلام الذى ذكره الشيخ أبو طالب رضى الله عنه فى كتاب الشكر قال فيه ثم بعد ذلك من لطائف النعم شمول ستره لهم بعضهم من بعض وسترهم عند العلماء والصالحين منهم ولولا ذلك لما نظروا اليهم ثم حجب الصالحين عنهم ولو أظهر عليهم آيات يعرفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية الله تعالى لهم وقربه منهم لبطل ثواب المحسنين اليهم ولحرم قبول احسانهم عليهم ولحبطت أعمال المسيئين اليهم ففى حجب ذلك وستره ما يحمل العاملين لهم فى الخير والشر على الرجاء وحسن الظن من وراء حجاب اليقين وتأخرت عقوبات المؤذين لهم عن

عليهم أن يجمع عليهم غير أحبابه وهذا لبعض الاولياء وهم المسلكون فمن أراد أن يوصله اليه جمعه عليهم على وجه المحبة الخاصة وهم قسمان قسم يظهر للعامة والخاصة وقسم لا يظهر الا للخاصة وهناك عباد لا يظهر عليهم أحدا من خلقه حتى الحفظة ويتولى قبض أرواحهم بيده ولا يسلط التراب على أبدانهم (ربما أطلعك على غيب ملكوته) أى ملكوته الغائب عنك كالذى فوق السماء وتحت الارض (وحجب عنك الاستشراف) أى الاطلاع (على أسرار العباد) أى ما فى قلوبهم من خير أو شر وذلك من لطف الله بك لان

المعاجلة لما ستر عليهم من عظيم شأنهم عند الله عز وجل وجليل قدرهم ففى سترهذا نعم عظيمة على الصالحين فى نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم ونعم جليلة على المنتهكين لحرمتهم المصغرين لشعائر الله من أجلهم اذ كانوا أساؤا اليهم من وراء حجاب فهذا هو لطف خفى من لطف المنعم الوهاب كما جاء فى الخبر من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ثم أنا الثائر لوليى فقد يكون مثل ذلك من آذى نبيا وهو لا يعلم بنبوته قبل أن يخبر أنه رسول الله وأن الله عز وجل نبأه فلا يكون وزره وزر من انتهك حرمة من كان أعلمه أنه نبى الله عز وجل لعظم حرمة النبى انتهى ماذكره الشيخ أبو طالب والوجه الاول أولى فى تقرير معنى ماذكره المؤلف والله تعالى أعلم * (من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الالهية كان اطلاعه فتنة عليه وسببا لجر الوبال اليه) * المطلع على السرائر التى تقتضى وجود العيب اذا لم يتخلق صاحبه بالرحمة الالهية فيرحم المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين ويحسن الى المسيئين ويرأف بعباد الله أجمعين فانه يكون ذلك الاطلاع فتنة عليه لان ذلك يؤديه الى رؤية نفسه واستعظام أمرها والعجب بعمله والتكبر على غيره وهذا هو أعظم الفتنة ويكون ذلك سببا الى جر الوبال اليه من ادعائه لصفات ربه ومنازعته لكبريائه وعظمته وهذا هو أعظم الوبال وغاية الخزى والنكال وفى بعض الاخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما نزعت الرحمة الا من قلب شقى وفى حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء وفى الاشارات عن الله تعالى أنه قال عبدى ان استخلفتك شققت لك من الرحمة شقا فكنت أرحم بالمرء من نفسه وقد أدب الله تعالى خليله ابراهيم عليه السلام فى بعض مواطنه العظيمة المقدار وعلمه كيف يتخلق بهذا الخلق الكريم عند اطلاعه على الاسرار روى عن قسامة بن زهير رضى الله عنه أنه قال بلغنى أن ابراهيم عليه السلام حدث نفسه أنه أرحم الخلق قال فرفعه الله تعالى حتى أشرف على أهل الارض فأبصر أعمالهم وما يفعلون فقال يارب دمر هم فقال الله تعالى أنا أرحم بعبادى منك يا ابراهيم اهبط فلعلهم يتوبون ويرجعون وعن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما أرى الله ابراهيم ملكوت السموات والارض أشرف على رجل بمعصية من معاصى الله عز وجل فدعا الله عليه فهلك وكذلك على آخر وآخر فهلكوا فأوحى الله اليه أن يا ابراهيم انك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فانهم منى على ثلاث خصال اما أن يتوب العبد منهم فأتوب عليه واما أن أخرج منه نسمة تسبح لى واما أن يبعث الى فان شئت عفوت عنه وان شئت عاقبته وقيل ان سبب أمر الله له بذبح ولده هو هذا المعنى الذى ظهر منه من غلظته على العصاة وقلة رحمته لهم وقد ذكر فى بعض التفاسير أنه عليه السلام كان يعرج به كل ليلة الى السماء وهو قوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب على فاحشة فقال اللهم أهلكه يأكل رزقك ويمشى على أرضك ويخالف أمرك فأهلكه الله تعالى فاطلع على آخر فقال اللهم أهلكه فنودى كف عن عبادى رويدا رويدا فانى طالما رأيتهم عاصين فلما هبط أرى فى المنام ماذكر الله تعالى حيث يقول انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى فلما تشمر لذلك وأخذ السكين بيده قال اللهم هذا ولدى وثمرة فؤادى وأحب الناس الى فسمع قائلا يقول أما

(من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الالهية) بأن يستر على المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين ويحسن الى المسيئين ويرأف بعباد الله أجمعين فمن لم يتصف بذلك (كان اطلاعه فتنة عليه) لان ذلك يؤديه الى رؤية نفسه واستعظام أمرها والعجب بعمله والتكبر على غيره وهذا هو أعظم الفتنة (و) كان أيضا (سببا لجر الوبال اليه) من ادعائه بصفات ربه ومنازعته لكبريائه وعظمته وهذا هو أعظم الوبال وغاية الخزى والنكال * روى ان ابراهيم عليه السلام لما أراه الله ملكوت السموات والارض أشرف على رجل فى معصية من معاصى الله تعالى فدعا عليه فهلك وكذلك آخر وآخر فهلكوا فأوحى الله تعالى اليه أن يا ابراهيم انك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فانهم منى على ثلاث خصال اما أن يتوب العبد منهم الى فأتوب عليه واما أن أخرج منه نسمة تسبح لى واما أن يبعث الى فان شئت عفوت عنه وان شئت عاقبته قيل ان هذا سبب لامر الله له بذبح ولده لانه تعالى رحيم بعباده كشفقته على ولده * والحاصل ان المكاشفة نعمة من الله على المريد وشكرها الستر والصفح

تذكر الليلة التى سألت فيها اهلاك عبدى أوما تعلم أنى رحيم بعبادى كما أنت شفيق بولدك فاذا سألتنى اهلاك عبدى أسألك ذبح ولدك واحدا بواحد والبادى أظلم * (حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى وحظها فى الطاعات باطن خفى ومداواة ما يخفى صعب علاجه) * النفس من شأنها أبدا طلب الحظوظ والفرار من الحقوق فهى لا تسعى الا فى ذلك ولو فى عملها فى الطاعات فضلا عن المعاصى ومن حاسب نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا وقد تجد من النشاط واللذة فى نوع من العبادة ما لا تجده فى نوع آخر وان كان هذا النوع الآخر أتم فضيلة منه وماذاك الا من أجل أن حظها فيه أكثر من الآخر فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم اذا ألفت بابا من أبواب العبادات لمعرفتهم بخدعها ومكايدها فيشوشون ذلك عليها ويتنقلون منه * وقد حكى عن أبى محمد المرتعش رضى الله عنه أنه قال حججت كذا وكذا حجة على التجريد فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبا بحظى وذلك أن والدتى سألتنى يوما أن أستقى لها جرة ماء فثقل ذلك على نفسى فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجات كانت بشوب وحظ من نفسى اذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها ما هو حق فى الشرع فهذا مما يبين أن حظ النفس فى الطاعة موجود ولكنه خفى على العامل فلذلك تعسر مداواته لانه يحتاج الى دقة فهم ونفوذ ادراك فليتطلب بذلك آفات نفسه ولطائف خدعها وخفايا حظوظها فيعمل على تصفية عمله من ذلك فلا جرم اذ كان متعذرا يجب عليه اتهام نفسه ومخالفتها فى كل ما تدعو اليه كائنا ما كان قال الشيخ أبو بكر الخفاف رضى الله عنه سمعت بعض مشايخى يقول عن أحمد بن أرقم البلخى قال حدثتنى نفسى بالخروج الى اسبيجاب للغزو فقلت سبحان الله ان الله تعالى يقول ان النفس لأمارة بالسوء وهذه تأمرنى بالخير لا يكون هذا أبدا ولكنها استوحشت فتريد لقاء الناس فتستروح به وتتسامع الناس بها فيتقبلونها بالبر والتعظيم والاكرام فقلت لها أسلك العمران ولا أنزل على معرفة فأجابت فأسأت ظنى بها وقلت والله أصدق قولا فقلت لها أقاتل العدو حاسرا فتكونى أول قتيل فأجابت وعد أشياء مما أرادها به فأجابت الى كل ذلك قال فقلت يارب نبهنى لها فانى لها متهم ولقولك مصدق فألهمت كأنها تقول لى انك تقتلنى كل يوم مرات بمخالفتك اياى ومنع شهواتى ولا يشعر بى أحد فان قاتلت فقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقال استشهد أحمد فيكون شرفا لى وذكرا فى الناس قال فقعدت ولم أخرج ذلك العام فهكذا خدع النفس وغرورها أعاذنا الله من شرها وسيأتى من كلام المؤلف رحمه الله اذا التبس عليك أمران انظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لا يثقل عليها الا ما كان حقا * (ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق اليك) * رياء العبد بالعمل حيث يكون بمرأى من الناس ظاهر لا يحتاج الى أمارة

(حظ النفس فى المعصية) كالزنا (ظاهر جلى) وهو التذاذه بها فانها لا تطلب منك التلبس بالمعصية الا لاجل أن تلتذ بها فيحصل لك الوبال والنكال (وحظها فى الطاعة باطن خفى) لا يطلع عليه الا أرباب البصائر وذلك لان فى الطاعة مشقة عليها فاذا أمرتك بها لم تعلم حظها فيها الا بعد تفتيش فقد تريك أن حظها فيها التقرب الى الله تعالى وفى الباطن ليس لها حظ الا اقبال الناس عليك واشتهارك بينهم بالصلاح ومن حاسب نفسه وراقب خاطره تبين له مصداق هذا (ومداواة ما يخفى) أى زوال حظوظها الخفية (صعب علاجه) لانه يحتاج الى دقة وفهم ونفوذ ادراك فأهل البصائر يتهمون نفوسهم اذا مالت الى عبادة من العبادات ويفتشون عن سبب ميلهم اليها فان كان لحظ من حظوظها تركوها أو عالجوا نفوسهم فى حال فعلها حتى تكون خالصة لله تعالى كما وقع لبعضهم أنه حدثته نفسه بالخروج الى الغزو وأظهرت له ان ذلك لله تعالى ففتش فاذا هو لاجل أن تستريح من تعب المجاهدة فانه كل يوم يقتلها مرات كثيرة بمنعها من شهواتها فارادت أن تقتل مرة واحدة فتستريح وأيضا لاجل ان تتسامع الناس بانه استشهد فيكون شرفا له وذكرا فى الناس فترك الخروج الى الغزو وقد يجد الشخص من النشاط واللذة فى نوع من العبادات ما لا يجده فى نوع آخر وماذلك الا لاجل أن حظها فيه أكثر من الآخر فاذا كان من أهل البصائر انتقل عما مالت اليه نفسه الى غيره فان طاوعته لم يكن لها فى الاشتغال بذلك النوع حظ والا كان لاجل حظها (ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق اليك) أى وأنت فى مكان لا ينظر الناس اليك فيه يعنى أن الرياء كما يدخل فى العمل اذا عمله صاحبه عند الناس ويسمى الرياء الجلى يدخل فيه اذا عمله وحده بان يقصد به توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه فى المحافل ومسارعتهم فى قضاء حوائجه فاذا قصر أحدهم فى حقه الذى يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره وربما توعد من قصر فى حقه بمعاجلة الله له بالعقوبة أن الله يأخذ بثاره منه فاذا وجد العبد هذه الامارة فى نفسه فليعلم أنه مراء بعمله وان أخفاه عن الناس ويسمى هذا الرياء بالخفى ولا يسلم من الرياء الجلى والخفى الا العارفون الموحدون لان الله تعالى طهرهم من

عليه ورياؤه بعمله حيث لا يراه أحد أمر خفي لا يعرف الا بالامارات والعلامات بل هو أخفى من دبيب النمل ومن أماراته أن يلتبس بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المحافل والمجالس ومسارعتهم الى قضاء حوائجه واذا قصر أحدهم في حقه الذي يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره ويجد تفرقة بين اكرامه واكرام غيره واهانته واهانة سواه حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم فيتوعدون من قصر في حقهم بمعاجلة الله له بالعقوبة وأن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ بثارهم فاذا وجد العبد هذه الامارات من نفسه فليعلم أنه مراء بعمله وان أخفاه عن أعين الناس * وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال ان الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة ألم تكونوا يرخص لكم في السعر ألم تكونوا تبادرون بالسلام ألم تكن تقضى لكم الحوائج وفي الحديث الآخر لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم (وقال) عبد الله بن المبارك روى وهب بن منبه رضي الله عنه أن رجلا من العباد قال لاصحابه انما فارقنا الاموال والاولاد مخافة الطغيان فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الاموال في أموالهم ان أحدنا اذا لقي أحب ان يعظم لمكان دينه وان سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وان اشترى شيأ أحب أن يرخص عليه لمكان دينه فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فاذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس فقال السائح ماهذا فقيل له هذا الملك قد أتاك فقال للغلام ائتني بطعام فاتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فاقبل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا فقال الملك أين صاحبكم قالوا هذا قال كيف أنت قال كالناس وفي حديث آخر بخير فقال الملك ما عند هذا من خير فانصرف عنه فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار وعدوا أنفسهم بسببه من الاشرار كما روي عن الفضيل بن عياض رضي الله عنه أنه قال من أراد أن ينظر الى مراء فلينظر الي وسمع مالك بن دينار رضي الله عنه امرأة وهي تقول له يامراء فقال لها ياهذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة ودخل رجل على داود الطائي رضي الله عنه فقال ما حاجتك قال زيارتك فقال أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا اذا قيل لي من أنت فتزار أمن الزهاد أنت لا والله أمن العباد أنت لا والله أمن الصالحين أنت لا والله ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول كنت في الشبيبة فاسقا فلما كبرت صرت مرائيا والله للمرائي شر من الفاسق الى غير هذا مما روي عنهم في هذا المعنى ولا يسلم من الرياء الخفي والجلي الا العارفون الموحدون لان الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة فلم يرجوا منهم حصول منفعة ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة فأعمال هؤلاء خالصة وان عملوها بين أظهر الناس وبمرأى منهم ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو مراء بعمله وان عبد الله تعالى في قنة جبل بحيث لا يراه أحد ولا يسمع به وقد تقدم قول يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه أعز شيء في الدنيا الاخلاص وكم أجتهد في اسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت فيه على لون آخر * (استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك) * الخصوصية ههنا ما اختص

دقائق الشرك وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة فلم يرجوا منهم حصول منفعة ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة فأعمال هؤلاء خالصة وان عملوها بين أظهر الناس ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو المرائي بعمله وان عبد الله في جبل بحيث لا يراه أحد ولا يسمع به (استشرافك) أيها المريد أي محبتك وميلك الى (أن يعلم الخلق بخصوصيتك) أي بما خصك الله تعالى به من علم نافع أو عمل صالح أو أحوال باطنية (دليل على عدم صدقك في عبوديتك) لان الصدق في العبودية هو طرح الاغيار وعدم الالتفات اليها رأسا فلو كنت صادقا في عبودية الرب لقنعت بعلمه بك ولم تحب أن يعلمك غيره فتغار على حالك من رؤية الاغيار له قال بعضهم من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب هذا في بداية السلوك فان تحقق العبد في المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة فلا بأس بالاخبار بأعماله والاظهار لمحاسن أحواله ليؤدي حق شكرها وليقتدي به غيره فبني أمر أهل الطريق في البداية على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق واخفاء الاعمال وكتمان الاحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم وحبا في اخلاص أعمالهم لسيدهم حتى اذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا الى وجود البقاء فهنالك ان شاء الله أظهرهم وان شاء سترهم ولم تتعلق ارادتهم بظهور ولا اخفاء بل يردون الامر اليه في ذلك ثم بين حقيقة صدق العبودية بقوله

الحق

الحق تعالى به بعض عباده من عمل نافع أو علم صالح وصدق العبودية فيه أن يقنع بعلم الله تعالى فيه بحاله ولا يتطلع الى أن يعرف بذلك أحد من الخلق فيشغله حينئذ الحياء من ربه والشكر له عن الاستشراف الى معرفة الخلق بذلك ويغار على حاله من رؤية الاغيار له ولهذا افضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا كما ورد في الخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم وقال عيسى عليه السلام اذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه وليمسح شفتيه فاذا خرج الى الناس رأوا انه لم يصم واذا أعطى أحدكم فليعط بيمينه وليخفه عن شماله واذا صلى أحدكم فليسدل عليه ستر بابه فان الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة الصادق فقال كتمان الطاعة وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه من أحب أن يعرف بشيء من الخير ويذكر به فقد أشرك في عبادته لان من عبد الله على المحبة لا يحب أن يرى خدمته سوى مخدومه وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه كل من لم يقنع في أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة وقال بعضهم ما أخلص أحد قط الا أحب أن يكون في جب لا يعرف وقال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل وقال أبو الخير الاقطع رضي الله عنه من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب وقال بعضهم لمن استوصاه لا تحب أن تعرف ولا تحب أن تعرف انك ممن لا يحب أن يعرف فعلى العبد اخفاء حاله جهده وأن يبلغ في كتمانه أقصى ما عنده (قال) الحسن رضي الله عنه أدركت أقواما ما من أحد منهم يستطيع أن يسر شيأ من عمله الا أسره وان كان الرجل ليجلس مع القوم وانه لفقيه وما يعلم به حتى يقوم ولقد أدركت أقواما يأتي أحدهم الزور فيقوم فيصلي وما يشعر به الزور ولقد أدركت أقواما وما من عمل يقدرون أن يعملوه لله سرا فيكون علانية أبدا ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره ولقد أدركت أقواما يجتهدون في الدعاء وما يسمعهم أحد وقال محمد بن واسع رضي الله عنه أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي الى جنبه وفي رواية عنه ان كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم فان وقع منه اعلان واظهار في وقت ما فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصونه عن أن يعمل فيه الفرح اطلاع الناس على حاله ولينكر ذلك على نفسه وليكرهه ولا يرضه منها وليجاهد نفسه في ذلك أشد المجاهدة فان خالف هذا واستشرف الى معرفة غير الله بحاله وغفل عن مجاهدة نفسه في حال ظهور ذلك منه ولو في لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح في قلبه فيقع عند ذلك في الفتنة فان كان ضعيف الارادة لم يسلم من الوقوع في الرياء الجلي والخفي لان سببه قد استتب له وان كان قوي الارادة وسالكا سبيل المعرفة لم يسلم من السكون والركون فيفقد حينئذ الغيرة على الحال وينحط بذلك عن ذروة الكمال ولهذا كان اسقاط المنزلة عند الناس من ضروريات سالكي هذه الطريقة كما تقدم عند قوله ادفن وجودك في أرض الخمول فان تحقق العبد في المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة جاز له الاخبار بأعماله والاظهار لمحاسن أحواله بناء منه على نفي الغير وأداء الواجب حق الشكر * كان بعض السلف يصبح فيقول صليت البارحة كذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة فيقال له أما تخشى من الرياء فيقول

ويحكم وهل رأيتم من يرائى بفعل غيره وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له لم لا تكتم ذلك فيقول ألم يقل الله سبحانه وتعالى وأما بنعمة ربك فحدث وأنتم تقولون لا تحدث فان قصد من هذا حاله الى هداية عباد الله ودعائهم الى الله تعالى فأظهر أحواله وأعماله للاقتداء به والاهتداء بهديه فهو خارج عن النمط الاول كله وداخل فى حكم هذا النوع الثانى وعلانيته هذا أفضل من سره لانه سلم من الآفات التى تعرض لها غيره وحصلت منه الفوائد التى تضمنها اظهاره وجهره وقد جاء فى الخبر السر أفضل من العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وهذا أرجح الوجوه عند العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى سأله عن فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله لك أجران أجر السر وأجر العلانية وقد فضل ماذكرناه من اظهار الطاعة جماعة من الصحابة والتابعين منعنا من ذكر وقائعهم خشية الاطالة وكان ذلك منهم لاجل هذا الغرض ومقام هذا العبد مقام النصحاء لعباد الله والدعاة لهم الى الله فلاجرم كان له الدرجات العلا عند الله تعالى لانه من أئمة المتقين لله وقد أخبر الله تعالى بجزائهم وذكرهم عقيب دعائهم بذلك فقال عز من قائل أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما قال فى لطائف المنن اعلم أن مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاعتناء بشهوده قال الله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال سبحانه أليس الله بكاف عبده وقال ألم يعلم بان الله يرى وقال تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد فبنى أمرهم فى بدايتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق واخفاء الاعمال وكتمان الاحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم وحبا فى اخلاص أعمالهم لسيدهم حتى اذا تمكن اليقين وأيدوا فى الرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا الى وجود البقاء فهنالك ان شاء الحق أظهرهم وان شاء سترهم ان شاء أظهرهم هادين لعباده اليه وان شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شئ اليه فظهور الولى ليس بارادته لنفسه ولكن بارادة الله تعالى له بل مطلبه ان كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد الله سبحانه اظهارهم فاظهرهم وتولاهم فى ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سلمة لا تطلب الامارة فانك ان أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها وان أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها ومن تحقق منهم بالعبودية لله تعالى لم يطلب ظهورا ولا خفاء بل ارادته وقف على اختيار سيده له وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه انتهى * (غيب نظر الخلق اليك بنظر الله اليك وغب عن اقبالهم عليك بشهود اقباله عليك) هذا المعنى هو حقيقة صدق عبودية الله الذى أشار اليه فى المسئلة التى قبل هذه وهو أن لا يكون له شعور بما من الخلق اليه من نظر واقبال ولا تشوق اليه ولا طلب له وانما يكون شعوره وتشوقه وطلبه مقصورا على ما من الله اليه من نظره اليه واقباله عليه فيغيب أدنى الحالين باعلاهما وذلك بان يعلم أن ما من الخلق اليه أمر وهمى باطل فينقاد اليه كل ذى عقل قاصر يوجب له هذا الانقياد أنواعا من الكبائر والرذائل من الانحطاط فى أهواء الناس وتحسين مواقع نظرهم منه بالتصنع والتزين لهم وتربية الجاه والحشمة لديهم تكبرا وتعظما عليهم ومعاشرتهم بالنفاق والادهان وتخالف الاسرار والاعلان وهذا عذاب أليم استعجله فى دنياه اذ يفوته بذلك راحة قلبه وطيب

(غيب نظر الخلق اليك) أى لا تلتفت الى نظرهم اليك ولا تطلبه ولا تخطره ببالك بل اجعله غائبا عنك (بنظر الله اليك) فلا يكن التفاتك وتشوقك الا لنظر الله اليك وكذا يقال فى قوله (وغب عن اقبالهم عليك بشهود اقباله عليك) فلا تلتفت الى اقبالهم عليك ولا تطلبه بل لا يكون التفاتك وطلبك الا لاقبال الله عليك فان اقبال الخلق على المريد قبل كماله يوجب له التصنع لهم ومداهنتهم وغير ذلك من الآفات وذلك يوجب انحطاط رتبته وسقوطه من عين الحق والعياذ بالله تعالى فلا يرضى باقبالهم الا ذو عقل قاصر وهمة دنيئة لان رضا الناس غاية لا تدرك وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك وأما من كان له عقل وافر فلا يميل الا الاقبال الله من غير مبالاة بذم ذام ولا عيب معيب قال بعضهم الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب أن يطلع الناس على مثقال ذرة من صلاح عمله ولا يكره أن يطلعوا على السيئ من عمله فان كراهته لذلك دليل على انه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من اخلاص الصادقين اه

عيشه ويسلبه أثواب الغنى والعزة ويلبسه لباس الطمع والذلة فتردى بذلك همته وتقل قيمته ولعذاب الآخرة أكبر وقد قال الشاعر

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

ورأى سهل بن عبد الله رضى الله عنه رجلا من الفقراء بمكة فقال له شيأ فقال له يا أستاذ لا أقدر على هذا من أجل الناس فالتفت سهل الى أصحابه فقال لا ينال العبد حقيقة من هذا الامر حتى يكون باحد وصفين حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى فى الدنيا الا هو وخالقه فان أحدا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه أو تسقط نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه انتهى ثم من له بحصول ما أراده منهم فاغراضهم مختلفة وطباعهم متباينة فربما استحسن من نفسه شيأ لم يستحسنه غيره وربما أرضى شخصا بما لا يرضى الآخر فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وهو ساع فيما يضره عندهم وعند الله تعالى مع مقاساة التعب والنصب فى نفسه * وفى الحكاية المذكورة عن لقمان وابنه تنبيه على هذا المعنى ذكر أن لقمان دخل ذات يوم السوق وهو راكب حمارا وابنه يسوقه فقال الناس حين رأوه شيخ لم يشفق على صبى فأركبه خلفه فقالوا اثنان على حمار هلا زادا ثالثا فنزل لقمان وبقى الولد فقالوا شيخ ماش وصبى راكب فنزل الولد يمشى مع والده وساقا الحمار جميعا فقالوا حمار فارغ وهذان يسوقانه وكان غرض لقمان بهذا أن يرى ابنه شأن الناس مع من يراعى نظرهم فانه لا يسلم منهم على أى حالة تكون فرضا الناس غاية لا تدرك وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك فهذا حال من انقاد الى الاوهام من ضعفاء العقول وسخفاء الاحلام وأما من كان له عقل وافر وحلم فاخر فلا يميل الا الى ما هو حق ووجود صدق وهو ما من الله اليه من نظر واقبال وجزيل عطاء وعظيم نوال فهو يعمل فيما يؤديه الى هذه المطالب من غير اكتراث بذم ذام أو عيب عائب ويقول بلسان حاله

ان الذى تكرهون منى * هو الذى يشتهيه قلبى

ويقول أيضا ما قاله محمد بن أسلم رضى الله عنه مالى ولهذا الخلق كنت فى صلب أبى وحدى ثم صرت فى بطن أمى وحدى ثم دخلت الدنيا وحدى ثم تقبض روحى وحدى فادخل فى قبرى وحدى ويأتينى منكر ونكير فيسألانى وحدى فان صرت الى خير صرت وحدى وان صرت الى شر صرت وحدى ثم أوقف بين يدى الله وحدى ثم يوضع عملى وذنوبى فى ميزانى وحدى فان بعثت الى الجنة بعثت وحدى وان بعثت الى النار بعثت وحدى فمالى وللناس وقد سئل الحرث ابن أسد المحاسبى رضى الله عنه عن علامة الصادق فقال الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج له كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره أن يطلع الناس على السيئ من عمله فان كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصادقين * (من عرف الحق شهده فى كل شئ) فلا يستوحش من شئ ويستأنس به كل شئ كما تقدم من نعت العارفين (ومن فنى به غاب عن كل شئ) فلا يكون منه على الاشياء اعتماد ولا له اليها استناد (ومن أحبه لم يؤثر عليه شيأ) من مراداته وشهواته وهذه الامور التى ذكرها المؤلف رحمه الله هى علامات بلوغ هذه المقامات العلية وبها تصح وتكمل فمن لم يجدها فى نفسه فلا ينبغى له أن يدعى تلك المقامات وليعمل على مجاهدة نفسه فيما يصححها ويكملها * (انما حجب الحق عنك شدة قربه منك) شدة القرب

(من عرف الحق) أى من تحقق فى مقام المعرفة بالله (شهده فى كل شئ) أى رآه ظاهرا فى أعيان الموجودات فلا يستوحش من شئ ويأنس به كل شئ كما تقدم فى نعت العارفين (ومن فنى به) أى تحقق فى مقام الفناء (غاب عن كل شئ) فلا يرى فى الوجود ظاهرا الا الله ويغيب هو عن نفسه وحسه فلا يشاهد له وجودا وتحققا بخلاف العارف فانه متحقق فى مقام البقاء فيرى الخلق والحق ويرى الحق ظاهرا فى كل الاشياء وقائما بها مع عدم غيبته عن نفسه وحسه (ومن أحبه لم يؤثر عليه شيأ) أى من اراداته وشهواته فهذه علامات يعرف بها حال من ادعى بلوغ هذه المقامات (انما حجب الحق) أى الله (عنك شدة قربه منك)

انما احتجب لشدة ظهوره) ولان الحجاب كما يكون بشدة البعد يكون بشدة القرب فان اليد اذا قربت من البصر والتصقت به لم يرها بخلاف ما اذا كانت بعيدة عنه وكذلك الرب لم نره لاحاطته بنا احاطة تامة وقربه منا قربا معنويا ولا يدرك ذلك الا أرباب البصائر الذين تجلى الحق على بصائرهم فازال عنهم الحجاب حتى رأوه قائما بالاشياء ومحيطا بها (و) انما (خفى عن الابصار) فى الدنيا فلم تدركه (لعظم نوره) وذلك كالشمس فان نورها أقوى من سائر الانوار المحسوسة وقوة نورها هو الذى حجب الابصار الضعيفة عن ادراك كنهها فقد صار ظهورها الذى أوجبه وجود نورها حجابا لها وليس الحجاب منها على الحقيقة فان الظاهر لذاته لا يحتجب من ذاته وانما يطرأ الحجاب عليه من غيره وهو هنا ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور وهذا لازم لما قبله (لا يكن طلبك تسببا الى العطاء منه) أى لا تقصد بطلبك أى توجهك له بالدعاء والاعمال الصالحة حصول النوال منه وتعتقد أنه سبب مؤثر فى ذلك (فيقل فهمك عنه) (أى عن الله أى فلا تفهم السر والحكمة فى أمر الله عباده بالطلب وهو ماذكره بقوله (وليكن طلبك لاظهار العبودية) أى لاظهار كونك عبدا ذليلا ضعيفا لا غنى لك عن سيدك (وقياما بحقوق الربوبية) فان الربوبية تقتضى التذلل والخضوع من المربوب يعنى أن الله تعالى لم يأمر عباده بالطلب منه الا ليظهروا افتقارهم اليه وتذللهم بين يديه لا لأن يتسببوا به الى حصول ماطلبوه ونيل مارغبوا فيه هذا هو فهم العارفين عن الله ومن هذا حاله لا ينقطع سؤاله ولا رغبته وان أعطاه كل مطلب وأناله كل سؤل ومأرب ولا يفرق بين العطاء والمنع فيكون عبد الله فى الاحوال كلها كما أنه ربه فى الاحوال كلها وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهوته وهواه

حجاب كما أن شدة البعد حجاب لان شدة قربه منك موجبة لاضمحلالك وذهابك والمضمحل الذاهب لا مناسبة بينه وبين الثابت الموجود فكيف يراه * قال فى لطائف المنن فعظيم القرب هو الذى غيب عنك شهود القرب قال الشيخ أبو الحسن حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب العظيم القرب كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو وكلما دنا منها تزايد ريحها فلما دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه وأنشد بعض العارفين

كم ذا تموه بالشعبين والعلم * والامر أوضح من نار على علم

أراك تسأل عن نجد وأنت بها * وعن تهامة هذا فعل متهم

*(انما احتجب لشدة ظهوره وخفى عن الابصار لعظم نوره) هذه عبارة تداولها الناس وضربوا لها مثلا بالشمس وذلك أن الشمس نورها أقوى من سائر الانوار المحسوسة وقوة نورها هى التى حجبت الابصار الضعيفة عن ادراك كنهها فقد صار ظهورها الذى أوجبه وجود نورها حجابا لها وليس الحجاب على الحقيقة منها فان الظاهر لذاته لا يحجب من ذاته وانما الحجاب عليه من غيره والحجاب ههنا ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور فالحق تعالى احتجب عن الخلق بشدة ظهوره وخفى عن الابصار لعظم نوره وأنشدوا فى هذا المعنى

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد * الا على أكمه لا يعرف القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا * وكيف يعرف من بالعزة استترا

وأنشدوا أيضا

بالنور تظهر ماترى من صورة * وبه وجود الكائنات بلا امترا

لكنه يخفى لفرط ظهوره * حسا ويدركه البصير من الورى

فاذا نظرت بعين قلبك لم تجد * شيأ سواه على الذوات مصورا

واذا طلبت حقيقة من غيره * فبذيل جهلك لا تزال معثرا

*وقال رضى الله عنه *(لا يكن طلبك تسببا الى العطاء منه فيقل فهمك عنه وليكن طلبك لاظهار العبودية وقياما بحقوق الربوبية) لم يأمر الله تعالى عباده بالطلب له والسؤال منه الا ليظهر افتقارهم اليه ومثولهم بالتضرع والخضوع بين يديه ليكون ذلك اظهارا لعبوديتهم وقياما بحقوق ربوبيته لا لأن يتسببوا به الى حصول ماطلبوه ونيل مارغبوه مما لهم فيه منفعة وحظ هذا هو فهم العارفين عن الله تعالى ويدل على هذا المعنى ماذكره المؤلف الآن قال أبو نصر السراج رضى الله عنه سألت بعض المشايخ عن الدعاء ماوجهه لاهل التسليم والتفويض فقال تدعو الله على وجهين أحدهما تريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء لان الدعاء ضرب من الخدمة تريد أن تزين جوارحه بهذه الخدمة والوجه الثانى ان تدعو ائتمارا لما أمر الله تعالى من الدعاء انتهى وقد قيل فائدة الدعاء اظهار الفاقة بين يديه والا فالرب يفعل ما يشاء ومقتضى هذا أن لا ينقطع سؤاله ولا رغبته وان أعطاه كل ماطلبه وأناله

(كيف يكون طلبك اللاحق) أى الموجود فيما لا يزال (سببا فى عطائه) أى اعطائه (السابق) أى الموجود فى الازل فان الاعطاء وهو تعلق الارادة فى الازل تعلقا تنجيزيا قديما لا يكون الطلب سببا فيه لتأخره عنه والسبب لا بد من تقدمه على المسبب ولذا قال (جل حكم الازل) أى ماحكم به فى الازل وتعلقت ارادته به وهو الاعطاء (أن ينضاف الى العلل) أى أن ينسب لعلة وهو الطلب أى أن يكون سببا مؤثرا فيه ان قيل قد يكون ذلك الاعطاء معلقا على الطلب فيكون سببا فيه أجيب بان السبب فى الحقيقة هو تعلق ارادة الله فى الازل أنك تدعوه فيما لا يزال لا نفس الطلب المتأخر (عنايته فيك) أى اعطاؤه اياك ماتطلبه منه أى تعلق ارادته فى الازل بالاعطاء (لا لشئ منك) أى وقع منك اقتضى حصول تلك العناية كالدعاء والاعمال الصالحة (وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته) وهى بمعنى العناية أى انك كنت معدوما فى الازل ويلزم من ذلك عدم ما يصدر منك (لم يكن فى أزله اخلاص أعمال) أى أعمال خالصة كالدعاء والصلاة والصوم (ولا وجود أحوال) مرادف لما قبله (بل لم يكن هناك الا محض الافضال وعظيم النوال) مرادف لما قبله فالدعاء ليس سببا مؤثرا فى المطلوب والاعمال الصالحة ليست سببا مؤثرا فى عناية الله أى دخول الجنة والنجاة من النار (علم أن العباد يتشوفون الى ظهور سر العناية) السر هو الشئ المغطى لانه يخفى عنا والعناية هى تعلق الارادة بحصوله فى المستقبل فلما علم أننا نتشوف الى حصوله فنطلبه بالدعاء والاعمال الصالحة ونعتقد تأثيرها فيه (فقال يختص برحمته من يشاء) زجرا لنا وقطعا لاطماعنا لاحتمال أن سر العناية خاص ببعض الناس كما أن النبوة لما تشوف الناس الى ظهورها آخر الزمان ادعاها جماعة فزجرهم الله بقوله الله أعلم حيث يجعل رسالاته (وعلم أنه لو خلاهم وذلك) أى مع ملاحظة أن العناية الازلية خاصة ببعض الناس وليست عامة (لتركوا العمل اعتمادا على الازل) قائلين ان كان سبق فى الازل اننا من أهل العناية ومن أهل الخصوص نجونا من النار ودخلنا الجنة من غير أعمال فلا حاجة الى الاعمال ولا الى الدعاء بحصول المطالب (فقال ان رحمة الله قريب من المحسنين) بالاعمال الصالحة فهى علامة وامارة على تلك العناية الازلية وان لم تكن علة موجبة لها فلا ينبغى تركها اعتمادا على مافى الازل وان لم يكن لها تأثير فى حصول المطلوب

سؤله وأربه وأن لا يفرق بين العدم والوجود والمنع والاعطاء فيما يرجع الى اظهار الفاقة والفقر فيكون عبد الله فى الاحوال كلها كما ان ربه واسع الفضل فى الاحوال كلها وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه * قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه لا يكن همك بدعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوبا وليكن همك مناجاة مولاك * قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه شر الناس من يبتهل الى الله تعالى عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء وشدة التضرع والبكاء فاذا زالت شكايته ورفعت عنه آفته ضيع الوفاء ونسى البلاء وقابل الرفد بنقض العهد وأبدل العقد برفض الود أولئك الذين أبعدهم الله فى سابق الحكم وخرطهم فى سلك أهل الرد وقد قيل بلاء يلجئك الى الانتصاب بين يدى معبودك خير لك من عطاء ينسيك اياه ويقصيك عنه *(كيف يكون طلبك اللاحق سببا فى عطائه السابق) هذا دليل على نفى السببية المذكورة لان ماطلبه العبد أمر سابق فى الازل تقديره وطلبه أمر لاحق فيما لا يزال وكيف يكون اللاحق سببا فى وجود السابق وهل السبب أبدا الا متقدم على المسبب *(جل حكم الازل أن ينضاف الى العلل) هذا دليل آخر على ماذكره وهو أن حصول ماطلبه الداعى حكم من الله تعالى فى الازل فلا يكون سببه الدعاء والسؤال لان أحكام الله تعالى تجل عن أن تنضاف الى علة أو سبب من قبل أن له الارادة المطلقة والمشيئة النافذة فصنعه علة لكل شئ ولا علة لصنعه كما قاله العارفون المحققون *(عنايته فيك لا لشئ منك وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته لم يكن فى أزله اخلاص أعمال ولا وجود أحوال بل لم يكن هناك الا محض الافضال وعظيم النوال) عناية الله تعالى بك فى الازل حين لم تكن حين لا حين غير معللة بشئ كائن منك من اخلاص أعمال ولا وجود أحوال تتوسل بجميع ذلك اليه وأين كنت اذ ذاك وأنت عدم محض بل لم يكن هناك الا محض كرمه وافضاله وعظيم احسانه ونواله لا غير قال الواسطى رحمه الله تعالى أقسام قسمت ونعوت وأحكام أجريت كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات *(علم أن العباد يتشوفون الى ظهور سر العناية فقال يختص برحمته من يشاء وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادا على الازل فقال ان رحمة الله قريب من المحسنين) ظهور سر العناية التى مقتضاها الرحمة هو تخصيص المشيئة فى قوله عز من قائل يختص برحمة

(الى المشيئة يستند كل شئ) أى ان كل موجود يستند الى مشيئة الله من حيث تعلقها به أزلا (وليست تستند هى الى شئ) من الموجودات والمراد بالمشيئة فى مرجع الضمير ما تعلقت به أزلا وهو مطالب العباد التى سبق بها العلم فان طلبها بالدعاء والاعمال الصالحة ليس سببا مؤثرا فيها وهذه العبارات التى ذكرها المصنف فى غاية الحسن وفيها اشارة الى التعلق باحكام الازل وطرح الاسباب والعلل فعلى ١٢ العبد أن يلزم العبودية والافتقار ويطلب التدبير والاختيار * قال أبو بكر الواسطى ان الله لا يقرب فقير الاجل فقره ولا يبعد غنيا الاجل غناه وليس للاعراض عنده خطر حتى بها يصل وبها يقطع ولو بذلت له الدنيا والآخرة ما أوصلاك اليه بهما ولو أخذتهما كلهما ما قطعك بهما قرب من قرب من غير علة وأبعد من أبعد من غير علة قال تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور (ربما دلهم الادب على ترك الطلب اعتمادا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسئلته) يعنى أن بعض العارفين قد يغلب عليهم التفويض والتسليم فيترك السؤال والطلب اعتمادا على القسمة الازلية وممن رأيناه متحققا فى هذا المقام العارف بالله تعالى الغارف من بحر الحقيقة الشيخ مصطفى أفندى التركى القسطمونى الجركسى فسح الله فى مدته ورزقنا دوام مودته واختلف القوم هل الافضل الدعاء أم السكوت والرضا فمنهم من قال الدعاء أفضل لانه فى نفسه عبادة لقوله صلى الله عليه وسلم الدعاء مخ العبادة والاتيان بما هو عبادة أولى من تركه ومنهم من قال السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم وأرضى لان ما سبق من اختيار الحق لك أولى من اختيارك ابو وقد ورد فى الحديث القدسى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ومنهم من فصل فقال الاوقات مختلفة فان وجد الداعى فى قلبه اشارة الى الدعاء كالانبساط وتوجه القلب فالدعاء أولى وان وجد فيه اشارة الى السكوت كالقبض وعدم توجه القلب فالسكوت أولى فان لم يجد فى قلبه شيأ من ذلك كان الدعاء وتركه سواء نعم ان كان الغالب عليه حينئذ المعرفة كان السكوت أولى * ثم علل ما ذكره من كون الادب قد يكون فى ترك الطلب فقال

من يشاء ولا علة له من العبد والاحسان المنسوب اليه فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين أمارة وعلامة على تلك العناية وليس بعلة موجبة وانما أسند الرحمة اليه وعلقها به لئلا يتكل العباد على السابقة ويتركوا العمل الذى هو مقتضى العبودية الواجبة لله تعالى عليهم * (الى المشيئة يستند كل شئ) لان وقوع ما لم يشأ الحق تعالى محال (ولا تستند هى الى شئ) لاستحالة وجود النقص فيما يجب له الكمال وهذه العبارات التى ذكرها المؤلف رحمه الله من أول الفصل الى هنا بلغت الغاية فى الحسن واستغنت بترددها وتكرارها عن البيان والشرح وفيها اشارة الى أحكام الازل وفقد الاسباب والعلل فيجب على العبد أن يبنى عليها أعماله وأحواله فيلتزم العبودية والافتقار ويدع التدبير والاختيار لمن بيده ذلك وهذا هو أدب التوحيد جعلنا الله من أهله بمنه وكرمه وفضله * قال أبو بكر محمد بن موسى الواسطى رضى الله عنه ان الله لا يقرب فقير الاجل فقره ولا يبعد غنيا الاجل غناه وليس للاعراض عنده خطر حتى بها يصل وبها يقطع ولو بذلت له الدنيا والآخرة ما أوصلاك اليه بهما ولو أخذتهما كلهما ما قطعك بهما قرب من قرب من غير علة وقطع من قطع من غير علة كما قال تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور وقال أيضا رضى الله عنه ما خالفه أحد ولا وافقه وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته أنى يكون له الوفاق والخلاف وهو يقلب الليل والنهار بما فيهما وهو قائم على الاشياء وبالاشياء فى بقائها وفنائها لا يؤنسه وجد ولا يوحشه فقد بل لا فقد ولا وجد انما هى رسوم تحت الرسوم وقال رضى الله عنه * (ربما دلهم الادب على ترك الطلب اعتمادا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسئلته) قد يكون من الادب ترك السؤال والطلب لمن هو مستغرق فى الاذكار راض بما يجرى عليه من تصاريف الاقدار وهو أحد مذاهب القوم قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه واختلف الناس فى أى شئ أفضل الدعاء أم السكوت والرضا فمنهم من قال الدعاء فى نفسه عبادة قال النبى صلى الله عليه وسلم الدعاء مخ العبادة فالاتيان بما هو عبادة أولى من تركها ثم هو حق الحق سبحانه وتعالى فان لم يستجب للعبد ولم يصل الى حظ نفسه فلقد قام بحق الربوبية لان الدعاء اظهار فاقة العبودية وقد قال أبو حازم الاعرج لان أحرم الدعاء أشد على من أن أحرم الاجابة وطائفة قالوا السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى ولهذا قال الواسطى اختيار ما جرى لك فى الازل خير لك من معارضة الوقت وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين وقال قوم يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه وصاحب رضا بقلبه ليأتى بالامرين جميعا قال الامام

أبو القاسم والاولى أن يقال ان الاوقات مختلفة ففى بعض الاحوال الدعاء أفضل من السكوت وهو الادب وفى بعض الاحوال السكوت أفضل من الدعاء وهو الادب وانما يعرف ذلك فى الوقت لان علم الوقت يحصل فى الوقت فاذا وجد بقلبه اشارة الى الدعاء فالدعاء به أولى واذا وجد اشارة الى السكوت فالسكوت له أولى ويصح أن يقال ينبغى للعبد أن لا يكون ساهيا عن شهود ربه تعالى فى حال دعائه ثم يجب أن يراعى حاله فاذا وجد من الدعاء زيادة بسط فى وقته فالدعاء له أولى وان عاد الى قلبه فى وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض فالاولى ترك الدعاء فى هذا الوقت وان لم يجد فى قلبه لا زيادة بسط ولا حصول زجر فالدعاء وتركه ههنا سيان وان كان الغالب عليه فى هذا الوقت العلم فالدعاء أولى لكونه عبادة وان كان الغالب عليه فى هذا الوقت المعرفة والحال فالسكوت أولى ويصح أن يقال ما كان للمسلمين فيه نصيب أو للحق سبحانه وتعالى فيه حق فالدعاء أولى وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم وأولى وفى الخبر المروى ان العبد ليدعو الله عز وجل وهو يحبه فيقول الله يا جبريل أخر حاجة عبدى فانى أحب أن أسمع صوته وان العبد ليدعو وهو يبغضه فيقول الله يا جبريل اقض لعبدى حاجته فانى أكره أن أسمع صوته انتهى كلام الامام أبى القاسم القشيرى وهو حسن بديع وهو أوفى مما ذكره المؤلف رحمه الله فلذلك أوردته هنا بكماله * (انما يذكر من يجوز عليه الاغفال وانما ينبه من يمكن منه الاهمال) * أورد هذا كالدليل على ما ذكره من أن ترك الطلب قد يكون من الادب وذلك لان فى الطلب اشعارا بتجويز الاغفال عليه فيقع بذلك التذكير له وتلويحا باحتمال وجود الاهمال منه فيكون ذلك تنبيها له وجميع ذلك محال على الحق تعالى عن ذلك علوا كبيرا فلاجل هذه العلل كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبا وقد سئل الواسطى رضى الله عنه أن يدعو فقال أخشى ان دعوت أن يقال لى ان سألتنا ما لك عندنا فقد اتهمتنا وان سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا وان رضيت أجرينا لك من الامور ما قضينا لك فى الدهور وروى عن عبد الله بن منازل رضى الله عنه أنه قال ما دعوت الله منذ خمسين سنة وما أريد أن يدعو لى أحد لانه ماض على ما سبق * (ورود الفاقات أعياد المريدين) * الاعياد عبارة عن الاوقات العائدة على الناس بالمسرات والافراح وهم مختلفون فى ذلك فمنهم من مسرته وفرحه بوجود حظه ونيل شهواته وغرضه وهذا هو حال عامة المسلمين ومنهم من مسرته وفرحه بفقدان حظوظه واعواز أمانيه واغراضه وهذا هو حال الخاصة من المريدين لان مدار أمرهم انما هو على مراعاة قلوبهم وتصفية أسرارهم من كدورات الاغيار والآثار ولا يتأتى لهم ذلك الا بوجدانهم لما يقهرهم من ضروب الفاقات وأنواع الحاجات والضرورات فتراهم يؤثرون الفقر على الغنى والشدة على الرخاء والذل على العز والمرض على الصحة اذ يحصل لهم بذلك رقة وحلاوة لا يعرف قدرها الا هم لانها من وجودهم لقرب ربهم ورؤيتهم له فى حال فقدان حظهم وكلما ازدادوا فاقة وبلاء زادهم مولاهم قربة وولاء كان بعضهم يطوف حول الكعبة الشريفة وهو يقول

مؤتزر بشملتى كما ترى * وصبيتى باكية كما ترى
وامرأتى عريانة كما ترى * يا من يرى الذى بنا ولا يرى
أما ترى ما حل بى أما ترى * اما ترى الذى بنا أما ترى

(انما يذكر) بالدعاء (من يجوز عليه الاغفال) أى السهو بان يكون عنده غفلة وعدم علم بحال السائل فيذكره بالسؤال (وانما ينبه) يعنى يذكر (من يمكن منه الاهمال) أى عدم الاعتناء بحال السائل مع علمه بحاله فهذا مستحيل على الله تعالى ولذا كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبا وقد سئل الواسطى أن يدعو فقال أخشى ان دعوت أن يقال لى ان سألتنا ما لك عندنا فقد اتهمتنا وان سألتنا ما ليس لك فقد أسأت الثناء علينا وان رضيت أجرينا لك من الامور ما قضينا لك فى الدهور اهـ (ورود الفاقات أعياد المريدين) الاعياد جمع عيد وهى الاوقات العائدة على الناس بالمسرات والافراح فالمريدون يسرون بالفاقات لانها تسرع بوصولهم لمقصودهم لما فيها من الذل وقهر النفس كما تسر العوام بالاعياد لما فيها من نيل شهواتهم من ملابس وغيرها

فسمعه بعضهم فجمع له كسرا ودفعها اليه فقال له اليك عنى لو كان معى شئ لما أمكننى أن أقول هذا القول * قال فى التنوير وفى البلايا والفاقات من أسرار الالطاف مالا يفهمه الا أولوا البصائر ألم تر أن البلايا تخمد النفوس وتذهلها وتدهشها عن طلب حظوظها ويقع مع البلايا وجدان الذلة ومع الذلة تكون النصرة ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة وقال أبو اسحق ابراهيم الهروى رضى الله عنه من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعا على سبع فان الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير أن يختار الفقر على الغنى والجوع على الشبع والدون على الرفع والذل على العز والتواضع على الكبر والحزن على الفرح والموت على الحياة وقد تقدم عند قول المؤلف رحمه الله من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذاك لقصور نظره الشفاء فى هذا المعنى فواجب اذا أن يكون ورود الفاقات أعياد المريدين كما قال فاذا فقدوا ذلك بمؤاتاة الاسباب استشعروا بذلك وجود الحجاب وبعدهم عن محل الاقتراب فحزنوا لذلك وتأسفوا وودوا لو عاد اليهم الحال الاول ومن هذا المعنى ما حكى عن خير النساج رضى الله عنه قال دخلت بعض المساجد فاذا فيه فقير فلما رآنى تعلق بى وقال أيها الشيخ تعطف على فان محنتى عظيمة فقلت وما هى قال فقدت البلاء وقرنت بالعافية فنظرت فاذا هو قد فتح عليه شئ من الدنيا وقال بعضهم ان الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذرا أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره كما أن الغنى يحترز من الفقر حذرا أن يدخل عليه الفقر فيفسد غناه عليه وقد تقدم من حكايات عطاء السلمى وفتح الموصلى والفضيل بن عياض والربيع بن خيثم رضى الله عنهم ما يوافق ما ذكرناه وأنشدوا فى ذكر أعياد المريدين والعارفين وقيل انها لابى على الروذبارى رضى الله عنه

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه * فقلت خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباى تحتهما * قلب يرى الفه الاعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به * يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا
الدهر لى مأتم ان غبت يا أملى * والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا

* (ربما وجدت من المزيد فى الفاقات ما لا تجده فى الصوم والصلاة) ورود الفاقات يحصل للمريد بها مزيد كثير من صفاء القلب وطهارة السريرة وقد لا يحصل له ذلك بالصوم والصلاة لان الصوم والصلاة قد يكون له فيهما شهوة وهوى كما تقدم وما كان هذا سبيله لا يؤمن عليه فيه من دخول الآفات فلا يفيده تحلية ولا تزكية بخلاف ورود الفاقات فانها مباينة للهوى والشهوة على كل حال وقد تقدم نحو من هذا المعنى عند قوله اذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قل عملك الى آخره * (الفاقات بسط المواهب) الفاقات تحضره مع الحق وتجلسه على بساط الصدق وتاهيك بما يكون فى تلك المحاضرة والمجالسة من المواهب الربانية والنفحات الرحمانية * (ان أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك انما الصدقات للفقراء) هذا مثل ما ذكره الآن وذكر الآية عقيبه اشارة بديعة وتصحيح الفاقة والفقر هو التحقق بأوصاف العبودية المذكورة فى المسئلة التى تأتى باثر هذه ومما يتعلق بظاهر الآية التى استشهد بها المؤلف رحمه الله على طريقة القوم ما قال بعضهم صدق الفقير أخذه الصدقة ممن يعطيه لا ممن يقبل اليه على يده فالحق تعالى هو

(ربما وجدت) أيها المريد (من المزيد) أى الزيادة فى حالك من طهارة السر وحصول أنوار ومعارف (فى الفاقات) أى فى حال ورودها عليك (ما لا تجده فى الصوم والصلاة) لانه قد يكون قيامك بهما لشهوة نفسك وحظوظها ومن كان هذا سبيله فلا يؤمن فيه دخول الآفات فلا يفيدك تزكية ولا تحلية بخلاف ورود الفاقات فانها مباينة للهوى والشهوة على كل حال (الفاقات بسط المواهب) أى كالبسط التى ترد عليها المواهب الالهية لكل من جلس عليها كما أن الملك اذا جلس أحد على بساطه أعطاه شيأ من مواهب الدنيا فالفاقات تحضرك مع الحق وتجلسك على بساط الصدق وناهيك بما يكون فى تلك الحضرة والمجالسة من المواهب الربانية والنفحات الرحمانية ولذا قال (ان أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك) بان تتحقق بهما فى نفسك تحققا تاما فلا يكون عندك استغناء بغيره بوجه من الوجوه فحينئذ ترد المواهب الالهية عليك لقوله تعالى (انما الصدقات للفقراء)

المعطى على الحقيقة لانه جعلها لهم فان قبلها من الحق فهو الصادق فى فقره لعلو همته ومن قبلها من الوسائط فهو المتوسم بالفقر مع رداءة همته * (تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه تحقق بذلك يمدك بعزه تحقق بعجزك يمدك بقدرته تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته) هذا مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا * قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه بعد كلام ذكره وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذل لله تعالى واضدادها أوصاف الربوبية فمالك ولها فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه وقل من بساط الفقر الحقيقى يا غنى من للفقير غيرك ومن بساط الضعف يا قوى من للضعيف غيرك ومن بساط العجز يا قادر من للعاجز غيرك ومن بساط الذل يا عزيز من للذليل غيرك تجد الاجابة كأنها طوع يدك واستعينوا بالله واصبروا ان الله مع الصابرين انتهى كلام سيدى أبى الحسن وهو معنى ما ذكره المؤلف ههنا وأكثر كلام المؤلف جار على منهاج كلام أبى الحسن رضى الله عنهما ونفع بهما وقال رضى الله عنه * (ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة) الكرامة الحقيقية انما هى حصول الاستقامة والوصول الى كمالها ومرجعها الى أمرين صحة الايمان بالله عز وجل واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا فالواجب على العبد أن لا يحرص الا عليهما ولا تكون له همة الا فى الوصول اليهما وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين اذ قد يرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة * قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه انما هما كرامتان جامعتان محيطتان كرامة الايمان بمزيد الايقان وشهود العيان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق الى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب ليس ذا حظ فى العلم والعمل بالصواب كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق الى سياسة الدواب وخلع الرضا وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور وناقص أو هالك مثبور * وقال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه ليس الشأن من تطوى له الارض فاذا هو بمكة وغيرها من البلدان انما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فاذا هو عند ربه * وذكر عند سهل بن عبد الله رضى الله عنه الكرامات فقال وما الآيات وما الكرامات هى شئ تنقضى لوقتها ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود وقال بعض المشايخ لا تعجبوا ممن لم يضع فى جيبه شيأ فيدخل يده فى جيبه فيخرج منه ما يريد ولكن تعجبوا ممن يضع فى جيبه شيأ فيدخل يده فى جيبه فلا يجده فلا يتغير وقيل لابى محمد المرتعش رضى الله عنه ان فلانا يمشى على الماء فقال عندى من مكنه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى على الماء والهواء * وقال أبو يزيد رضى الله عنه لو أن رجلا بسط مصلاه على الماء وتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الامر والنهى وقيل له ان فلانا يقال انه يمر فى ليلة الى مكة فقال الشيطان يمر فى لحظة من المشرق الى المغرب وهو فى لعنة الله وقيل له يقال ان فلانا يمشى على الماء فقال الحيتان فى الماء والطير فى الهواء أعجب من ذلك وقال الجنيد رضى الله عنه حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون الى الكرامات وقد تقدم مثل هذا عند قوله

(تحقق بأوصافك يمدك) بضم الياء وفتحها مع كسر الميم على الاول وضمها على الثانى (بأوصافه) ثم فصل ذلك بقوله (تحقق بذلك يمدك بعزه) فتصير عزيزا به لا بنفسك (تحقق بعجزك يمدك بقدرته) فتصير قادرا به لا بنفسك (تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته) فتصير قويا به وكذا ان تحققت بفقرك يمدك بغناه فاذا جلست على بساط الذل وقلت يا عزيز من للذليل غيرك وعلى بساط العجز وقلت يا قادر من للعاجز غيرك وعلى بساط الضعف وقلت يا قوى من للضعيف غيرك وعلى بساط الفقر والفاقة وقلت يا غنى من للفقير غيرك وجدت الاجابة كأنها طوع يدك فقوله تحقق بأوصافك الخ مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب لان من جملة المواهب الامداد بضد الوصف الذى تحققت به (ربما رزق الكرامة) أى الامر الخارق للعادة (من لم تكمل له الاستقامة) فلا ينبغى للمريد أن يعتنى بها ويغتر بظهورها على يده لانها حينئذ ربما كانت معونة أو استدراجا لا كرامة فالكرامة الحقيقية هى كمال الاستقامة ومرجعها الى أمرين صحة الايمان بالله واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا فالواجب على المريد أن لا يحرص الا عليها ولا يكون له همة الا فى الوصول اليها وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين

ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه * (من علامات اقامة الحق لك فى الشئ اقامته اياك فيه مع حصول النتائج) * لا اعتبار بما يقوم فيه العبد بنفسه من عمل أو حال وانما العبرة بما يقيمه فيه ربه وعلامة اقامة الله عبده فى الشئ أن يديمه عليه و يحصل له ثمرته ونتيجته و ينبنى على هذا آداب ومعاملات وقد أشرنا الى نحو من هذا عند قول المؤلف رحمه الله ارادتك التجريد مع اقامة الله اياك فى الاسباب الى آخره * (من عبر من بساط احسانه أصمتته الاساءة ومن عبر من بساط احسان الله اليه لم يصمت اذا أساء) من شاهد احسان نفسه وعمل بطاعة ربه انبسط لسانه بالنصيحة والموعظة لعباد الله فان وقعت منه اساءة ومخالفة انقبض عن ذلك وصمت لما يعتريه من الخجل والحياء وهذه طريقة أهل التكليف الذين ينظرون الى ما منهم الى الله تعالى من عمل صالح أو طالح ومن شاهد احسان الله اليه وغاب عن رؤية احسانه هو انبسط لسانه فى الحالين من غير فرق لان مشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته فى الحالين أوجبت جراءته على ذلك وقد قيل جراءة الجنان تنطق اللسان و تطلق العنان وهذه طريقة أهل التعريف الذين ينظرون الى ما من الله تعالى اليهم قلت وماذكرته هنا من لفظى التعريف والتكليف ومانبهت به عليهما من الكلام اللطيف أشرت به الى مسئلة عظيمة مهمة ينبنى عليها آداب وأحكام جمة وهى مسئلة اختلاف الناس فى معاملاتهم لربهم بحسب نياتهم فى مراتب قربهم ومن أحكامها مسئلة التعبير التى اقتصر المؤلف عليها فى هذا الفصل ولم يذكر معها سواها مما ينبنى على ذلك الاصل وقد نبه عليها فى لطائف المنن وأتى فيها بكلام مستوعب حسن فرأينا أن ننقله ههنا بكماله ليتبين به مقصدنا فى تفصيله واجماله قال فيه * وقال رضى الله عنه يعنى شيخه أبا العباس الناس على ثلاثة أقسام عبد هو بشهود ما منه الى الله وعبد هو بشهود ما من الله اليه وعبد هو بشهود ما من الله الى الله قال ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره واساءته فيقوم مقام المعتذر بين يدى الله تعالى وتلازمه الاحزان وتحالفه الاشجان و يستولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله اليه من الفضل والاحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله قال الله سبحانه قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون فالاول حال العباد والزهاد والثانى حال أهل العناية والوداد الاول شأن أهل التكليف والثانى شأن أهل التعريف الاول حال أهل اليقظة والثانى حال أهل المعرفة فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه العارف من عرف شدائد الزمان فى الالطاف الجارية من الله عليه وعرف اساءته فى احسان الله اليه فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون وقال رضى الله عنه قليل العمل مع شهود المنة من الله خير من كثرة العمل مع رؤية التقصير من النفس وقال بعض أهل المعرفة لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه قرأت ليلة من الليالى قل أعوذ برب الناس الى أن انتهيت الى قوله تعالى من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس فقيل لى شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ينسيك ألطافه الحسنة ويذكرك أفعالك السيئة ويقلل عندك ذات اليمين ويكثر عندك ذات الشمال ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله الى سوء الظن بالله

(من علامات اقامة الحق) أى الله (لك فى الشئ) كالاكتساب أو التجريد (اقامته اياك فيه) أى تيسر أسبابه لك وادامته عليك (مع حصول النتائج) أى ثمرات ذلك الشئ كسلامة الدين ووجود الربح من الكسب كامر (من عبر) أى تكلم فى علوم القوم وأفادها للمريدين (من بساط احسانه) أى ملاحظا أن تعبيره وافادته تلك العلوم نشأ من احسانه أى أعماله الصالحة الشبيهة بالبساط الذى يجلس عليه عند ورود المواهب (أصمتته الاساءة) أى أسكتته اساءته ومخالفته للرب فينقبض عن ذلك التعبير لما يعتريه من الخجل والحياء بسبب المعصية التى صدرت منه وسبب ذلك مشاهدته احسان نفسه (ومن عبر من بساط احسان الله اليه) أى ملاحظا أن تعبيره وافادته تلك العلوم ناشئ من احسان الله اليه غائبا عن رؤية نفسه (لم يصمت اذا أساء) أى لم يسكت عن ذلك التعبير اذا صدرت منه معصية لان غيبته عن نفسه ومشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته أوجبت جراءته على ذلك ولذا قيل جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان

ورسوله

ورسوله فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجد والاجتهاد ولذلك قل أن تجد الزاهد والعابد الا مكمودا حزينا لانه علم أن الله تعالى طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشفقت السموات والارض والجبال من حمله قال الله سبحانه وتعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا فعاين الزهاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا الى شهود لطف الحامل للاثقال عن عباده المتوكلين عليه فلذلك لزمهم الكمد واستولى عليهم الحزن وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكليف أمرا عظيما وعلموا ضعفهم عن حمله والقيام به متى وكلوا الى نفوسهم قال الله عز وجل وخلق الانسان ضعيفا وعلموا أنهم اذا رجعوا الى الله تعالى حمل عنهم ما حملهم قال الله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه فرجعوا اليه بصدق اللجأ فحمل عنهم الاثقال فساروا الى الله محمولين فى محفات المنن تروح عليهم نفحات اللطف والآخرون ساروا الى الله حاملين لاثقال التكاليف فتلازمهم المشقات وتطول بهم المسافات فان شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم الى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الاوقات وأشرقت فيهم العنايات وأما القسم الثالث وهم الذين أمدهم الله تعالى بشهود ما من الله الى الله هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون فى ميدان التفريد وأهل القسم الاول وهم الذين غلب عليهم شهود ما منهم الى الله لم يخرجوا عن باطن الشرك وان خرجوا عن ظاهره لانهم أقبلوا على أنفسهم موبخين لها شاهدين لتقصيرهم واساءتهم فلولم يشهدوا الفعل لها أو منها ماتوجهوا اليها بالتوبيخ اذا قصرت فلذلك قال ذلك العارف الذى سبق قوله لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير فان قلت اذا كان توبيخ النفس وذمها يستلزم دقيقة الشرك فكيف نصنع والله تعالى قد ذم النفس وأمرنا بتوبيخها اذا قصرت ووبخها هو اذا كانت كذلك فالجواب أن ذمها لان الله تعالى أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف اليها فعلا فلا ترا ها هى الفاعلة له وأما القسم الثانى وهو الذى يشهد ما من الله اليه فهو وان كان خيرا من القسم الاول لكنه ما سلم من اثبات لنفسه اذ رأى نفسه مهداة اليها هدايا الحق فلولا اثباته لنفسه ما شهد ذلك فلاجل هذين المعنيين آثر أهل الله تعالى القسم الثالث وهو أن يكون بشهود ما من الله الى الله فافهم اهـ كلامه رحمه الله تعالى ولاجل ما تضمنه من الفوائد الجليلة والمقاصد النبيلة دعانا قرب المناسبة الى ذكره على ما هو عليه فى هذا الموضع والله الموفق لا رب غيره * (تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير) الحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به والانوار المنسوبة اليهم هى أنوار معرفتهم وهى قوة يقينهم فان الامور كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها فاذا أرادوا ارشاد عباد الله تعالى ونصيحتهم باذن الله تعالى سبقت أنوار قلوبهم الى الله تعالى باللجأ والافتقار اليه فى أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بان يجعل فيها أهلية واستعداد القبول ما يريدون ايراده عليهم من كلام الحكمة فيجيبهم الى ذلك فاذا تكلموا به تلقته قلوبهم التى وصل اليها أنوار أسرار الحكماء كما تتلقى الارض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم انتفاع وقد أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال يا بنى ما بلغت من حكمتك قال لا أتكلف ما لا يعنينى قال يا بنى انه قد بقى شئ آخر جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيى القلوب الميتة بنور

(تسبق أنوار الحكماء) وهم العارفون بالله تعالى العالمون به (أقوالهم) وأنوارهم هى أنوار معرفتهم وهى قوة يقينهم بان الامور كلها بيد الله تعالى لا شريك له فيها فاذا أرادوا ارشاد عباد الله ونصيحتهم باذن من الله تعالى توجهوا الى الله والتجؤا اليه فى أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بان يجعل فيها أهلية واستعدادا لقبول ما يرد عليها فيخرج من قلوبهم حينئذ نور ناشئ من نور سرائرهم يصل الى تلك القلوب (فحيث صار) أى حصل (التنوير) أى النور أى استقر فى قلوب عباد الله الذين يريدون ارشادهم (وصل التعبير) أى تلقته تلك القلوب بالقبول كما تتلقى الارض الميتة وبل المطر فينتفعون بذلك أتم انتفاع ثم علل ذلك بقوله

الحكمة كما يحيى الارض الميتة بوابل السماء وانما قلنا ان الحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به لانهم خائفون من الله تعالى وفى بعض الآثار رأس الحكمة مخافة الله والخوف من ثمرات العلم بالله وقال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء والعلم الموجب للخشية هو العلم بالله فقط فالحكماء هم العالمون بالله تعالى وان كانوا ضعفاء فى سائر العلوم الرسمية كليلة ألسنتهم فى البيان عنها * (كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز) اللسان ترجمان القلب فاذا صفا من الاكدار وتزكى من الاغيار وأشرقت فيه الانوار كانت ترجمانية لسانه على حسب ذلك فيتكلم بالكلام النورانى الذى يلج آذان السامعين فتنفتح بسببه اذ ذاك أقفال قلوبهم ويستجيبون به لنداء الحق حبيبهم وروى الحافظ أبو نعيم رحمه الله عن سعيد بن عاصم قال كان قاص يجلس قريبا من مجلس محمد بن واسع فقال له يوما وهو يوبخ جلساءه مالى أرى القلوب لا تخشع ومالى أرى العيون لا تدمع ومالى أرى الجلود لا تقشعر فقال محمد بن واسع يا عبد الله ما أرى القوم أوتوا الا من قبلك ان الذكر اذا خرج من القلب وقع على القلب قلت وقد حاز المؤلف قصب السبق فى هذا المعنى الذى ذكره ومن مارس كلامه فى هذا الكتاب وفى غيره وحصل له منه التأثير المحمود سلم ما قلناه وكفى بشهادة شيخه أبى العباس المرسى رضى الله عنه على عظم قدره ودعائه له برهانا على ذلك قال فى لطائف المنن وكنت قد قلت لبعض تلامذة الشيخ يعنى أبا العباس أريد لو نظر الى الشيخ برعايته وجعلنى فى خاطره فقال ذلك للشيخ فلما دخلت على الشيخ قال رضى الله عنه لا تطالبوا الشيخ بان تكونوا فى خاطره بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده ثم قال أى شئ تريد أن تكون والله ليكونن لك شأن عظيم والله ليكونن لك كذا وكذا والله ليكونن لك كذا وكذا لم أثبت منه الا قوله ليكونن لك شأن عظيم قال فكان من فضل الله سبحانه ما لا أنكره قال فاخبرنى سيدى جمال الدين ولد الشيخ قال قلت للشيخ يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله فى الفقه فقال الشيخ هم يصدرونه فى الفقه وأنا أصدره فى التصوف قال ودخلت عليه فقال اذا عوفى الفقيه ناصر الدين نجلسك فى موضع جدك ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية وتتكلم ان شاء الله فى العلمين فكان ما أخبر به رضى الله عنه قال وسمعته يقول أريد أن استنسخ كتاب التهذيب لولدى جمال الدين فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ وأتيته بالجزء الاول فقال ما هذا فقلت كتاب التهذيب استنسخته لكم فاخذه فلما نهض ليقوم قال اجعل بالك الولى لا يتفضل عليه أحد تجد هذا ان شاء الله فى ميزانك فلما أتيته بالجزء الثانى لقينى بعض أصحابه عند نزولى من عنده فقال قال الشيخ عنك والله لاجعلنه عينا من عيون الله يقتدى به فى علم الظاهر والباطن فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقينى بعض أصحابه وقال طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء فقال هذا الكتاب استنسخه لى ابن عطاء الله والله ما أرضى له بجلسة جده ولكن بزيادة التصوف قال وأخبرنى بعض أصحابه قال قال لى الشيخ يوما اذا جاء ابن فقيه الاسكندرية فاعلمونى به فلما أتيت الشيخ أعلمنا الشيخ بذلك فقال تقدم فتقدمت بين يديه ثم قال جاء جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش فقال له هذا ملك الجبال قد أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش فسلم عليه ملك الجبال ثم قال يا محمد ان شئت أن أطبق

(كل كلام يبرز وعليه) الواو للحال وفى بعض النسخ اسقاطها (كسوة القلب الذى منه برز) فاذا كان القلب منورا اكتسى الكلام نورا فلا تمجه الاسماع ولا تنكره القلوب فكسوته هو ذلك النور وكلام الحكماء يبرز مكسوا بكسوة الانوار فتنفتح به أقفال القلوب ويستجيبون لنداء حبيبهم وكلام المدعين يبرز وعليه الظلمة فلا ينتفع به أتم انتفاع وقد ينتفع به من جهة حقيقته ومضمونه لا من جهة قائله ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر

عليهم الاخشبين فعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله تعالى ولا يشرك به شيأ فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يخرج من أصلابهم كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه لاجل هذا الفقيه قال وخرجت يوما من عند الفقيه المكين الاسمر وخرج معى أبو الحسن الجوهرى وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن فسلمت عليه وسلم على ببشاشة واقبال فقلت له من أين تعرفنى فقال وكيف لا أعرفك كنت يوما جالسا عند الشيخ أبى العباس وكنت أنت عنده فلما نزلت قلت له يا سيدى انه ليعجبنى هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم قال فقال الشيخ يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيا يدعو الى الله فكان ما قال الشيخ رحمه الله تعالى قال وكنت كثيرا ما يطرأ على الوسواس فى الطهارة فبلغ ذلك الشيخ فقال بلغنى أن بك وسواسا فى الوضوء قلت نعم فقال رضى الله عنه هذه الطائفة تلعب بالشيطان لا الشيطان يلعب بهم ثم مكثت أياما ودخلت عليه فقال ما حال ذلك الوسواس قلت على حاله فقال ان كنت لا تترك الوسوسة لا تعد تأتينا فشق ذلك على وقطع الله ذلك الوسواس عنى قال وكان رضى الله عنه يلقن للوسواس سبحان الملك القدوس الخلاق الفعال ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز قال وعملت قصيدة أمدحه بها فقال حين أنشدت أيدك الله بروح القدس قال ثم عملت قصيدة أخرى باشارته جوابا لقصيدة مدحه بها انسان من بلاد اخميم فلما قرئت عليه قال رضى الله عنه صحبنى هذا الفقيه وبه مرضان وقد عافاه الله منهما ولا بد أن يجلس ويتحدث فى العلمين يشير الشيخ الى مرض الوسواس قال فلقد انقطع عنى ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التى أجدها قد تساهلت فى بعض الامر والمرض الآخر كان بى ألم برأسى فشكوت ذلك اليه فدعا لى فعافانى الله تعالى وشفانى (قال) وبت ليلة من الليالى مهموما فرأيت الشيخ فى المنام فشكوت اليه ما أنا فيه فقال اسكت والله لاعلمنك علما عظيما قال فلما انتبهت جئت الى الشيخ رضى الله عنه فقصصت عليه الرؤيا فقال هكذا تكون ان شاء الله تعالى قال وجاء يوما من السفر فخرجنا للقائه فلما سلمت عليه قال لى يا أحمد كان الله لك ولطف بك وسلك بك سبيل أوليائه وبهاك بين خلقه قال فلقد وجدت بركة هذا الدعاء وعلمت أنه لا يمكننى الانقطاع عن الخلق وانى مرادبهم لقوله وبهاك بين خلقه قال وكنت أنا لامره من المنكرين وعليه من المعترضين لا لشئ سمعته منه ولا لشئ صح نقله عنه حتى جرت مقاولة بينى وبين بعض أصحابه وذلك قبل صحبتى اياه وقلت لذلك الرجل ليس الا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أمورا عظاما وظاهر الشرع يأباها فقال ذلك الرجل بعد أن صحبت الشيخ تدرى ما قال لى الشيخ يوم تخاصمنا فقلت لا قال دخلت عليه فاول ما قال لى هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا ولعمرى لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عاما فما سمعت منه شيأ ينكره ظاهر الشرع من الذى كان ينقله عنه من يقصد الاذى قال وكان سبب اجتماعى معه أن قلت فى نفسى بعد أن جرت المخاصمة بينى وبين ذلك الرجل دعنى أذهب فأرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه قال فاتيت الى مجلسه فوجدته يتكلم فى الانفاس التى أمر الشارع بها فقال الاول اسلام والثانى ايمان والثالث احسان وان شئت قلت الاول عبادة والثانى عبودية والثالث عبودة وان شئت قلت الاول شريعة والثانى حقيقة والثالث تحقق ونحو

(من أذن له) من العارفين بالله تعالى (فى التعبير) عن الحقائق وهى علوم الوهب والفتح المأخوذة عن الله تعالى بلا واسطة وعلامة الاذن له فى ذلك تيسير التعبير عليه وسهولته وعدم احتياجه فى القاء المعارف الى كلفة بل يجد لسانه منطلقا بها ويجد عنده باعثا الى التعبير عنها مع السلامة من آفات النطق وعلامة ذلك بالنسبة للسامعين ماذكره بقوله (فهمت فى مسامع الخلق عبارته) فلم يفتقروا الى معاودة وتكرار وجعل الاسماع محلا للفهم مبالغة والا فمحلها حقيقة هو القلب (وجليت) بضم الجيم وتشديد اللام أى ظهرت (اليهم اشارته) وهى ألطف من العبارة التى يستعملها أهل الطريق فى الاخبار من العلوم الباطنية والحقائق العرفانية أى فلا يحتاجون الى اطناب ولا اكثار بخلاف غير المأذون له فى ذلك ثم قال (ربما برزت الحقائق) وهى العلوم العرفانية (مكسوفة الانوار) بما غشيها من ظلمة رؤية الاغيار فمجتها آذان السامعين وأنكرتها قلوبهم (اذا لم يؤذن لك فيها بالاظهار) قال أبو العباس المرسى قدس الله سره كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة وكلام غير المأذون له يخرج مكسوف الانوار حتى ان الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر

هذا فما زال يقول وان شئت قلت الى أن بهر عقلى وعلمت أن الرجل انما يغرف من فيض بحر الهى ومدد ربانى فاذهب الله ما كان عندى ثم أتيت تلك الليلة الى المنزل فلم أجد شيأ منى يقبل الاجتماع بالاهل على عادتى ووجدت معنى غريبا لا أدرى ماهو فانفردت فى مكان أنظر الى السماء والى كواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته فحملنى ذلك الى العود اليه مرة أخرى فأتيت فاستؤذن لى فلما دخلت عليه قام وتلقانى ببشاشة واقبال حتى دهشت خجلا واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك فكان أول ما قلت له يا سيدى أنا والله أحبك فقال أحبك الله كما أحببتنى ثم شكوت اليه ما أجده من هموم وأحزان فقال أحوال العبد أربعة لا خامس لها النعمة والبلية والطاعة والمعصية فان كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر وان كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر وان كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود المنة عليك وان كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار قال فقمت من عنده وكأنما كانت تلك الهموم والاحزان ثوبا نزعته قال ثم سألنى بعد ذلك بمدة كيف حالك فقلت افتش على الهم فلا أجده فقال

ليلى بوجهك مشرق * وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا * م ونحن فى ضوء النهار

الزم فوالله ان لزمت لتكونن مفتيا فى المذهبين يريد مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن انتهى ما نقلته من لطائف المنن وانما أوردت ذلك ههنا على طوله ليعرف به قدر المؤلف وليدفع بواضح برهانه طعن الطاعن وتعسف المتعسف ولنتعرض بذلك لنزول الرحمة من الله تعالى علينا وموالاة منحه وعطاياه لدينا فقد قيل عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة مع ما فى ذلك من قرب المناسبة لمعنى ما أورده المؤلف من الكلام الحائز به قصب السبق بين من عاصره من الائمة الاعلام وأما شيخه أبو العباس وشيخ شيخه أبو الحسن فحالهما أوضح من نار على علم ولقد طرزت بكلامهما الكتب والدفاتر وزهيت بمآثرهما وعلومهما الالسنة والاقلام والصحف والمحابر ولولا خشية الملالة وكراهة الاطالة لذكرنا من ذلك ما يبهر عقول السامعين والمطالعين ويرغم آناف الجاحدين والمعاندين

سيكفيك من ذاك المسمى اشارة * ودعه مصونا بالجمال محجبا

*(من أذن له فى التعبير فهمت فى مسامع الخلق عبارته وجليت اليهم اشارته) المأذون له فى التعبير هو الذى يتكلم لله وبالله وفى الله ولذلك كان كلامه صوابا قال الجنيد رضى الله عنه الصواب كل نطق عن اذن أشار بهذا والله أعلم الى قوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا واذا قرع أسماع السامعين كلامه فهمت فى مسامعهم عبارته فلم يفتقروا الى معاودة ولا تكرار وجليت اليهم اشارته فلم يحتاجوا معها الى اطناب ولا اكثار بخلاف غير المأذون له فى ذلك قيل لحمدون بن أحمد بن عمارة القصار رضى الله عنه ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا قال لانهم تكلموا لعز الاسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق *(ربما برزت الحقائق مكسوفة الانوار اذا لم يؤذن لك فيها بالاظهار) من لم يستكمل الاوصاف المذكورة لم يؤذن له فى اظهار شئ من الحقائق الربانية فان أظهرها برزت مكسوفة الانوار بما غشيها من ظلمة رؤية الاغيار فمجتها آذان السامعين وأنكرتها

(عباراتهم) التى يعبرون بها عن العلوم والمعارف التى يجدونها فى باطنهم (اما لفيضان وجد) أى لفيضان ما يجدونه فى قلوبهم من ذلك فقلوبهم ضيقة يفيض عنها ما يحل فيها فهراعهم كالاناء الضيق اذا وضع فيه ماء كثير فانه يفيض منه قهرا (أو لقصد هداية مريد) وان كانت قلوبهم متسعة يمكنهم ردما يستقر فيها فلا يفيض منها شئ ٢١ (فالاول حال السالكين) أى من أهل البداية فهم معذرون فى التعبير لوجود الغلبة عليهم (والثانى حال أرباب المكنة والمحققين) من أهل النهاية فيلزمهم ذلك لما فيه من الارشاد والهداية فان عبر السالك لا عن غلبة وجد كان فى ذلك نوع من الدعوى وان عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان فى ذلك افشاء سر لم يؤذن له فيه وأيضا فحاله يقتضى وجود الصمت وعدم النطق لانه فى حضرة الحق تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم (العبارات) التى يعبر بها أهل هذه الطريقة عن العلوم والمعارف (قوت لعائلة المستمعين) الاضافة للبيان أى هى من حيث معناها قوت لارواح العائلة وهم المستمعون المحتاجون الى ما يلقى اليهم من المواعظ والحكم كما أن الاطعمة الحسية قوت لابدان المحتاجين اليها (وليس لك الا ما أنت له آكل) أى كما أن الاقوات الحسية مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف طباعهم وأمزجتهم كذلك الاقوات المعنوية التى تفهم من العبارات مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم فقد تلقى العبارة على جماعة فيفهم كل واحد منها ما لا يفهمه الآخر وقد يفهم بعضهم من الكلام الذى يسمعه معنى لا يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك تأثرا عجيبا وربما فهم منه ضد ما قصده المتكلم به فقد سمع بعضهم قائلا يقول اذا العشرون من شعبان ولت * فواصل شرب ليلك بالنهار ولا تشرب بأقداح صغار * فان الوقت ضاق عن الصغار فخرج هائما على وجهه حتى أتى مكة ولم يزل مجاورا بها حتى مات

قلوبهم وعلامة استكمال الاوصاف المذكورة أن يفتح له باب التعبير مع وجود السلامة من آفات المنطق قال فى لطائف المنن ان من أجل مواهب الله لاوليائه وجود العبارة قال وسمعت شيخنا أبا العباس يقول الولى يكون مشحونا بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة حتى اذا أعطى العبارة كان كالاذن من الله له فى الكلام قال وسمعت شيخنا أبا العباس يقول كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الانوار حتى ان الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر *(عباراتهم اما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد فالاول حال السالكين والثانى حال أرباب المكنة والمحققين) انما يقع التعبير منهم عما يطالعون به من الامور الغيبية والعلوم الالهية لاحد معنيين اما حال غلبة الوجد عليهم وفيضانه وهم معذورون فى ذلك لوجود الغلبة وهذا حال السالكين من أهل الهداية واما القصد هداية مريد فيلزمهم ذلك لما فيه من فائدة الارشاد والهداية وهذا حال أهل التمكين والمحققين من أهل النهاية فان عبر السالك لا عن غلبة وجد كان فى ذلك نوع من الدعوى وان عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان فى ذلك افشاء سر لم يؤذن له فيه وأيضا فحاله يقتضى وجود الصمت وعدم النطق لانه فى حضرة الحق تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم فكيف يصدر منهم نطق أو تعبير على غير الوجه المذكور والصمت من آداب الحضرة قال الله عز وجل وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا *(العبارات قوت لعائلة المستمعين وليس لك الا ما أنت له آكل) المستمعون موسومون بالفقر والحاجة الى معنى ما يستمعون اليه من المواعظ والحكم وهو قوت قلوبهم وغذاء أرواحهم كما أن المستطعمين والسؤال موسومون بالفقر والحاجة الى قوت أبدانهم وكما أن أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما يصلح للآخر من الاطعمة والاشربة لاختلاف طباعهم وأمزجتهم فكذلك أقوات الآخرين مختلفة فلا يصلح لواحد منهم من العبارات التى تتضمن وجود القوت المعنوى ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم فاذا سمعت عبارة من عالم أو عارف أو أحد من أهل هذا الطريق ولم تحظ منها بشئ فاعلم أنها لا تصلح لقوتك وغذائك وهى صالحة لقوم آخرين ومما ينتظم فى هذا السلك أن تقرع أسماع بعض الناس العبارة من بعض الاشخاص فيفهم منها معنى لم يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك تأثرا عجيبا وقد يقع ذلك لجملة من الناس فيفهم كل واحد منهم ما لا يفهمه الآخر ويحصل لهم بذلك التأثر مع أن المتكلم لم يرد شيأ من ذلك وربما كان ذلك مضادا له وقد يسمع أرباب القلوب من الجمادات ويسعدون به لسئ الحالات قال فى لطائف المنن وربما فهم من اللفظ ضد ما قصد واضعه كما أخبرنا الشيخ الامام مفتى الانام تقى الدين محمد ابن على القشيرى رحمه الله قال كان ببغداد فقيه يقال له الجوزى يقرأ اثنى عشر علما فخرج

يوما قاصدا المدرسة فسمع منشدا يقول

اذا العشرون من شعبان ولت * فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب باقداح صغار * فان الوقت ضاق عن الصغار

فخرج هائما على وجهه الى مكة ولم يزل مجاورا بها حتى مات قال وقرئ على الشيخ مكين الدين الاسمر قول القائل

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى * لما انتظرت لشرب الراح افطارا
الراح شئ شريف أنت شاربه * فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية * خذ الجنان ودعنى أسكن النارا .

فقال انسان هناك لا تجوز قراءة هذه الابيات فقال الشيخ مكين الدين الاسمر للقارئ اقرأ هذا رجل محجوب والشيخ مكين الدين الاسمر هذا هو الذى شهد له الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه بانه من السبعة الابدال قال ويكفيك فى هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا ينادى يا سعتر برى ففهم كل واحد منهم مخاطبة خوطب عن الله بها فى سره فسمع الواحد اسع تربرى وسمع الآخر الساعة ترى برى وسمع الآخر ما أوسع برى فالمسموع واحد واختلفت أفهام السامعين كما قال سبحانه تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل وقال سبحانه قد علم كل أناس مشربهم فأما الذى سمع اسع تربرى فمريد دل على الله تعالى بالنهوض الى الله بالاعمال فيستقبل الطريق بالجد وقيل له اسع الينا بصدق المعاملة تربرنا بوجود المواصلة وأما الثانى فكان واصلا الى الله تعالى طاولته الاوقات فخاف أن تفوته المواصلة فقيل له تروبحا على قلبه لما أحرقته نار الشغف الساعة ترى برى وأما الآخر فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع ما أوسع برى قال وقال الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله دعانا بعض الفقراء الى دعوة بزقاق القناديل بمصر فاجتمع بها جماعة من المشايخ فقدم الطعام وعمروا الاوعية وهناك وعاء زجاج قد اتخذ للبول ولم يستعمل فقرب فيه رب المنزل الطعام فالجماعة يأكلون واذا الوعاء يقول منشدا أكرمنى الله بأكل هؤلاء السادة منى لا أرضى لنفسى أن أكون بعد ذلك اليوم محلا للاذى ثم انكسر نصفين فقال الشيخ محيى الدين فقلت للجميع سمعتم ما قال الوعاء فقالوا نعم قال فقلت ما سمعتم فاعادوا القول الذى قد تقدم قال فقلت قولا غير ذلك قالوا وما هو قلت قال كذلك قلوبكم قد أكرمها الله بالايمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلا لنجاسة المعصية وحب الدنيا جعلنا الله واياكم من أولى الفهم عنه والتلقى منه قلت وهذه المنازع كلها مما يستملح ويستظرف وتتأثر بها القلوب السليمة وتنقاد لها النفوس الكريمة وقد جرت عادة أئمة هذه الطريق باستعمالها وايرادها فى محالها فلا حرج علينا اذن فى ذكر بعض ذلك اذا كانت له مناسبة تامة ووجدت فيها فائدة خاصة أو عامة وبالله التوفيق لا رب غيره * (ربما عبر عن المقام من استشرف عليه وربما عبر عنه من وصل اليه وذلك ملتبس الا على صاحب بصيرة) كما أن الواصل الى مقام من مقامات اليقين يعبر عنه كذلك يعبر عنه من استشرف عليه ولم يتحقق فيه بالمنازلة والمواصلة والتباس ذلك على من ليس له بصيرة ظاهر وأما ذو البصيرة فلا يخفى عليه ذلك لانه يرى فى الكلام صورة المتكلم الباطنة وما هو عليه من كمال أو نقص وقد قيل تكلموا تعرفوا * (لا ينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته

(ربما عبر عن المقام) أى عن أى مقام من مقامات اليقين كمقام الزهد ومقام الورع ومقام التوكل الى غير ذلك (من استشرف عليه) أى اطلع عليه وقارب الوصول اليه ولم يظفر به ولم يتحقق فيه (وربما عبر عنه من وصل اليه) وتحقق فيه (وذلك) أى ما ذكر من الحالين (ملتبس) أى يلتبس الفرق بين حال هذا وحال هذا (الا على صاحب بصيرة) فانه لا يخفى عليه لانه يرى فى الكلام صورة المتكلم الباطنة وما هو عليه من كمال أو نقص وعلامة الاول أن يجد الفرح والاستبشار عند التعبير واستعظام الامر واستحسانه لكونه فى مباديه وقريب عهد بغيره بخلاف الثانى فانه يتكلم فيه كعادته فى كلامه بغيره وربما عبر عن المقام من نقله من كتاب وحفظ أحواله من ممارسته لكلام القوم وحفظه لعباراتهم وقد يوهم مع ذلك أنه واصل متمكن وعلامته التى تبين حاله أن يبحث معه على مقتضى قواعد فنون العلم فان صار يتكلف الاجوبة ويشم منه رائحة التعصب والانتصار للنفس والانفة من العجز فهو مدع كاذب (لا ينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته) أى ما يمنحه الله من العلوم الوهبية والاسرار التوحيدية فلا ينبغى له أن يعبر عنها اختيارا منه بل يخفيها ويصونها ولا يطلع عليها أحدا الا شيخا لا شد الله

فان ذلك يقل عملها فى قلبه ويمنعه وجود الصدق مع ربه) الواردات الالهية لا ينبغى للسالك أن يعبر عنها اختيارا منه بل يخفيها ويصونها ولا يطلع عليها أحدا الا شيخا لا شد الان نفسه تجد فى ذلك لذة وانشراحا فتقوى به صفاتها فيقل بسبب ذلك عمل الواردات فى قلبه من التأثير المحمود ولاجل غلبة أحكام نفسه وايثار حظه يمنعه ذلك من وجود صدقه مع ربه وقد تقدم هذا المعنى فى قوله استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك * (لا تمدن يدك الى الاخذ من الخلائق الا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك فاذا كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم) هذه قاعدة عظيمة يحتاج اليها السالكون المتجردون ليبنوا عليها أحوالهم فيما يصل اليهم من الرفق على أيدى الخلق وقد ذكرها المؤلف رحمه الله بعبارات بديعة محمودة موجزة جمع فيها جملة المعانى التى يحتاج اليها من ذكرناه فلنبسط كلامه فى ذلك على حسب عادتنا معه على الوجه الذى ذكرناه فى مقدمة هذا التنبيه وهذا قصدنا فى جميع ما تكلمنا عليه من مسائل كتابه ونقول على حسب ذلك أرزاق العباد المعتادة لهم تنقسم الى قسمين أحدهما رزق يصلون اليه بأسباب وأعمال وتصرفات كالتجارات والصناعات وغيرهما وهذا حال أهل الاسباب والثانى رزق يصل اليهم على أيدى الخلق من غير عمل ولا سعى وهذا حال أرباب التجريد وكل واحد من القسمين له آداب وأحكام تخصه فاحكام القسم الاول وآدابه لم يتعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى وهى مذكورة فى فن الفقه وغيره فواجب على كل من دخل فى شئ من الاسباب تحصيل علمه وطلبه من حيث هو وأحكام القسم الثانى وآدابه هى التى تعرض لها المؤلف وأجمل رحمه الله تعالى جميع ذلك فى مراعاة شرطين وجعلهما من شروط صحة الاخذ الشرط الاول أن لا يرى العطاء الا من مولاه عز وجل وهذا هو الاصل وانما اشترطه على الآخذ لانه مقتضى حاله من تحقيق التوحيد وتخليص التجريد وبه يصح له مقام القناعة والتوكل ويسقط من قلبه هم الرزق وتزول به عنه علاقات الخلق وان لم يكن على هذا الوصف كان عبدا للناس مولها قلبه اليهم فيكثر طمعه فيهم ورغبته فيما فى أيديهم واستشرافه اليهم فيقع بسبب ذلك فى كبائر الذنوب من معاصى القلب والجوارح مثل المداهنة والنفاق والرياء والتصنع والتلبيس والغش وعدم النصيحة وقلة الشفقة وغير ذلك من الصفات المذمومة المناقضة للعبودية لله عز وجل (قال) يحيى بن معاذ رضى الله عنه من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الاقدار وكل الى المخلوقين ولا يكفى فى تلك الرؤية المذكورة أن تكون علما وايمانا فقط بل لا بد أن تكون حالا وذوقا * دعا بعض الناس شقيقا البلخى رضى الله عنه وكان فى طبقته من أصحابه نحو خمسين رجلا فوضع الرجل طعاما واسعا وأنفق نفقة كثيرة فلما قعدوا قال لهم شقيق ان هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وأنى أقدمه اليه فطعامى عليه حرام قال فقاموا كلهم وخرجوا الا شابا كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم فقال صاحب المنزل لشقيق رحمك الله ما أردت بهذا قال أردت أن أختبر توحيد أصحابى أى كلهم لا يرونه فيما صنع ولا ينظرون اليه فيما قدم الا ذلك الرجل وحده وانما اشترطنا فى رؤية العطاء من الله تعالى أن يكون حالا وذوقا لان ذلك هو اللائق بحال المتجرد كما ذكرناه لان التجريد حال شريف لا يدخل فيه بالاختيار والتعمد لان ذلك من اتباع هوى النفس وطلب الحظ والراحة وانما يقيم الحق تعالى فيه من أراده به من أهل

(فان ذلك يقل عملها فى قلبه) أى فلا يحصل له كمال الانتفاع بها وهو تمكنها فى القلب وتأثره بها (ويمنعه وجود الصدق مع ربه) اذ لا يخلو التعبير عنها عن شهوة نفسانية لان النفس تجد عند التعبير عنها لذة وانشراحا وذلك يقوى صفاتها وقوة صفاتها مما يمنعها من وجود الصدق مع ربها (لا تمدن يدك) أيها المريد المتجرد (الى الاخذ من الخلائق) مما يعطونه لك من الارزاق على وجه الرفق الا بشرطين أشار الى الاول بقوله (الا أن ترى) أى الا بعد ملاحظتك (أن المعطى فيهم مولاك) فلا ترى العطاء الذى يصل اليك الا منه وأن الخلق أسباب ووسائط ولا يكفى فى تلك الرؤية أن تكون علما وايمانا فقط بل لا بد أن تكون حالا وذوقا فان ذلك هو اللائق بحال المتجرد والى الثانى بقوله (فاذا كنت كذلك) أى ملاحظا مولاك (فخذ ما وافقك العلم) على أخذه وحاصله أن لا تأخذ الا ما وافقك العلم على أخذه وأباح لك أخذه والمراد علم الظاهر بان لا تأخذ الا من يد مكلف رشيد تقى وعلم الباطن بان لا تأخذ الا ما كان على وجه الرفق والمعونة أى لا تأخذ الا ما أنت مفتقر اليه فى الحال لتنفقه فى ضرورياتك وحاجاتك من غير اسراف ولا اقتار كما كان عليه الصلاة والسلام فى

التقوى والمراقبة بعد كمال شغله بالله تعالى وجده فى الهرب عن كل ما يقطعه عن الله تعالى فحينئذ يسلبه الحق من تدبيره واختياره ويكاشفه بوحدانيته فى ايراده واصداره ويكون تركه للاسباب بحكم الوقت واشارة الحال كما روى أن أبا حفص النيسابورى رضى الله عنه كان حدادا وكان غلامه يوما ينفخ عليه الكير فادخل الشيخ يوما يده فى النار وأخرج الحديدة من النار فغشى على غلامه وترك أبو حفص الحانوت وأقبل على أمره وكان يقول رضى الله عنه تركت العمل فرجعت اليه وتركنى العمل فلم أرجع اليه (وقال) ابراهيم الخوّاص رضى الله عنه لا ينبغى للصوفى أن يتعرّض للقعود عن الكسب الا أن يكون رجلا مغلوبا قد أغنته الحال عن المكاسب وأما من كانت الحاجات به قائمة ولم يقع له عزوف يحول بينه وبين التكلف فالعمل أولى به والكسب يسعى أحل له وأبلغ لان القعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلف وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه ما دامت الاسباب قائمة بالنفس فالاكتساب أولى وقال بعض المنقطعين كنت ذا صنعة جليلة فأريد منى تركها لخالك فى صدرى من أين المعاش فهتف بى هاتف لا تراه تنقطع الىّ وتتهمنى فى رزقى علىّ أن أخدمك وليا من أوليائى أو منافقا من أعدائى وقد اشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صحة قبول العطاء عدم الاستشراف الى الناس ولا يكاد يحصل هذا الشرط لمن ذكرناه من أهل التجريد الا بهذه الرؤية المذكورة روى زيد عن خالد الجهنى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جاءه معروف من أخيه من غير مسئلة ولا استشراف نفس فليقبله فانما هو رزق ساقه الله تعالى اليه (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من وجه اليه شئ من هذا الرزق من غير مسئلة ولا استشراف فليأخذه وليوسع فى رزقه فان كان عنده غنى فليدفعه الى من هو أحوج منه (وقال) عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينى العطاء فأقول له أعطه يا رسول الله من هو أفقر اليه منى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذه فتموّله أو تصدّق به وما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك قال سالم فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيأ ولا يردّ شيأ أعطيه فالاستشراف الى الناس مذموم قادح فى التوحيد فلا ينبغى أن يأخذ المريد عطاء على هذا الوجه روى أن أحمد بن حنبل رضى الله عنه خرج ذات يوم الى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ولم يكن فى الموضع من يحمله فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع اليه أحمد أجرته فلما دخل الدار بعد اذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف فرآه أيوب وكان يصوم الدهر فقال أحمد لابنه صالح ادفع الى أيوب من الخبز فدفع له رغيفين فردّهما فقال أحمد ضعهما ثم صبر قليلا ثم قال خذهما والحقه بهما فلحقه فاخذهما فرجع صالح متعجبا فقال له أحمد أعجبت من ردّه وأخذه قال نعم قال هذا رجل صالح لما رأى الخبز استشرفت نفسه اليه فلما أعطيناه مع الاستشراف ردّه ثم أيس فرددناه اليه بعد الاياس فقبله وأما الاستشراف الى الرزق مع قطع نظره عن الخلق فلا يضره ذلك لانه خلق ضعيف ذا فاقة ورزقه معلوم لا بد منه فاستشرافه الى الرزق فى الحقيقة استشراف الى الرازق ولا ينافى ذلك حقيقة العبودية ولكن ان كثر منها الاستشراف الى الرزق وشغلت صاحبها عن دوام المحاضرة والمناجاة من الحق فليصرفها عن ذلك صرفا جميلا وليتهج لها من التعلق والتوثق بالله سبيلا (قال) الشيخ أبو محمد عبد العزيز

أكله وشربه ولباسه ومسكنه وغير ذلك فلا تأخذ ما يأتيك قبل وقتك ولا زائدا على حاجتك الا أن يكون فى خلقك سخاء ولا تأخذ ما تعطاه على جهة الاختبار من الله بان أعطيت شيأ كنت قد قصدت تركه لله من شهوة كنت مبتلى بها قد ملكتك ومنعتك القيام بحقوق ربك ولا تأخذ من منان ولا فخور ولا مظهر لعطيته ولا ممن يثقل على قلبك قبول عطيته فقد قيل لا تأكل الا ممن يرى لك الفضل عليه فى أكله

المهدوى رضى الله عنه كنت فى بدايتى واقفا بين العشاءين أصلى وأنا فارغ بلا سبب حتى جاءتنى النفس فقالت لى السلام عليك قلت لها وعليك السلام قالت العشاء فادهشتنى بداهية فتوقفت ثم ألهمنى الله تعالى أن قلت لها أتدرين له موضعا قالت لا قلت لها ايش هو ومتى هو قالت لا قلت لها أنا رب أو عبد قالت عبد قلت لها فالعبد يقدر على شئ ما هذا الكفر والشرك اللذين أتيتنى بهما اهربى الى خالقك فاطلبى منه العشاء لانه خالقك والقادر على كل شئ فيعطيك ويجيب لك ما طلبت فتطعمى وتأكلى فالك واياى وما هذه الحيرة قال فذهبت الى خالقها فجاء عشاء متمكن كثير فأكلت قال وكذلك يحتج عليها ومن هنا تثبت الاقدام * وذكر أيضا مسئلة عظيمة مفيدة تتضمن كيف يكون حال الفقير بالنسبة الى الرزق وما يحتاج اليه بنيته من الرفق وجعلها من قواعد الفقر والارادة فرأينا ذكرها فى هذا الموضع من الواجب المتعين ليتحقق فى العمل بها كل من يقف عليها من مريد مبتدئ * قال رضى الله عنه اعلم أن الفقير لا يخلو اما أن يكون جالسا أو ماشيا أما قاعدة الجالس فان جلسته موضع ألبته وهو مكانه وزمانه طرف سجادته لا يتعداها ولا يكون التفاته لوقت ولا الى سبب معلوم لانه لا يدرى الاوقات ما هى ولا يحدها ولا يدرى متى هى ولا وقتها ويعلم أن جميع الاشياء تطلبه وتحتاج اليه لانها خلقت من أجله وهو خليفة فيها وقد فرغ من جميعها فالالتفات والامل لماذا بل يكون هدفا للاقدار تجرى عليه ولا كسب له ولا سبب فى التحصيل ثم قال وأما الماشى من الفقير الذى يكون فى سفر أو غيره فلا تجاوز همته خطوته مثاله أن يكون ماشيا فخطر له التغير والالتفات اليه من بلد أو شخص أو مطعم أو مشرب فيهلك ويظفر به العدوّ وتزل قدمه فان تمادى فى التعلق بشئ من هذه القواطع والشواغل ومشى الى شئ منها وفقده ومات مات قاتل نفسه وذلك أنه يكون فى يوم صائف ووهج وقد أصابه العطش الشديد فيعرض له خيال ماء فيجئ العدوّ فيروّج عليه أن أسرع تلحق ذلك الماء فتشرب منه فيزول عطشك فان مشى راكنا لهذا الخاطر يجئ للموضع فيجد سرابا فهنالك يظفر به ويقول له الآن تموت فيقتله من ساعته فيموت قاتل نفسه اذ كان جاهلا بربه وآياته ولم يعرف دواءه من دائه ولا تعلم العلم ولا سأل العلماء لبقائه مع نفسه قال فحكمه اذا جاءه هذا الخاطر بالترويج من العدوّ فى سفره من السرعة الى الماء والركون الى الاغيار من منازل أو اشخاص أو غير ذلك أن يعرض على العدوّ ويقول ان الله تعالى يمكن أن يتوفانى قبل لحوقه فبالضرورة يطيعه فى ذلك ويسلمه ويقول له أيضا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم من مشى الى طمع فليمش رويدا وقال من تأنى أصاب أو كاد ومن تعجل أخطأ أو كاد والعجلة من الشيطان ومن هذا كثير فلا تشك أنه كما يحتج للنفس والشيطان بهذه القواعد من العلم أنهم ينقطعون ولا حجة عندهم بعد الاستعانة بالله تعالى والتعلق به ثم يقول له أيضا أتنكر أن الله تعالى قادر على أن يطعمنى ويسقينى ان شاء الله تعالى ينبع لى عينا الساعة قبل وصولى لذلك الماء فيقول الشيطان بالضرورة نعم فاذا كان هذا كذلك فالله سبحانه أعلم بمصالحى ومنافعى من كل مخلوق فاذا حصل هذا العلم رجع يمشى متانيا همته مع خطوته ناظرا لما يرد عليه من ربه فان وصل الى ما خطر له أولا أو رآه من بعد ولم يجد ما تعلق به خاطره أوّلا من صاحب أو طعام بقى على أصله لا تغير عنده ولا تردّد فظفر بالعدوّ وقتله كما فعل أيضا الشيطان بغيره الشئ أو ضده اه ما أردنا ذكره من كلام هذا الامام وهو عندى من أنفس الكلام المقرب غاية المرام لما تضمنه من المعانى

البديعة والانفاس الرفيعة ولما فيه من تجريد التوحيد والآداب المرضية مع العبيد فهو جدير بان يكتب ويرسم ويكمل به الغرض الذى تقدم والله تعالى أعلم وحكم الشرط الثانى أن لا يأخذ الا ما يوافق العلم وهذا شرط لازم للمتجرد أيضا (قال الشيخ أبو طالب المكى) رضى الله تعالى عنه وينبغى لمن لا معلوم عنده من الاسباب أن يتورع فى أخذها ويتخير المعطى لها كما يتخير أهل المكاسب فى الاكتساب لان لله تعالى فى كل شئ حكما والقعود عن المكاسب لا يسقط أحكامها والقاعد عن الطلب لا يسقط أحكام المطالب ولان ترك العمل عمل يحتاج الى علم ولم تكن سيرة الفقراء الصادقين أن يأخذوا من كل أحد ولا فى كل وقت ولا يأخذوا كل ما يعطون مما يزيد على كفايتهم الا أن يكونوا ممن يخرجونه الى غيرهم انتهى فموافقة العلم التى ذكرها المؤلف رحمه الله على قسمين موافقة العلم الظاهر وموافقة العلم الباطن أما موافقة العلم الظاهر فبان لا يأخذ الا من يد بالغ عاقل تقى وقد جاء فى الحديث لا تأكل الا طعام تقى ولا يأكل طعامك الا تقى فلا تأخذ من يد ظالم ولا عامل بالربا ولا جاهل بما يحل ويحرم من وجوه المكاسب ولا تأخذ من يد صبى ولا عبد غير مأذون له ولا معتوه وأما موافقة العلم الباطن فبأن لا يأخذ الا ما كان على وجه الرفق والمعونة فلا يأخذ الا ما هو مفتقر اليه فى الحال ولا غنى له عنه من ضرورياته وحاجاته من غير اسراف ولا اقتار ولا بأس أن يأخذ ما يزيد على ذلك بان كان فى خلقه سخاء وبذل وايثار وتخلق بمحاسن الاخلاق لا ليتوصل به الى حظ عاجل من جاه أو رياسة أو قبول عند الناس ولا يأخذ ما يعطاه على جهة الابتلاء والاختبار أما الابتلاء فأن يأتيه قبل وقته أو زائدا على حاجته فان أخذه فليخرجه فى السر ليأمن بذلك من آفة الاظهار وأما الاختبار فان لا يأخذ شيأ قد نوى تركه لله تعالى من شهوة كان مبتلى بها قد ملكته وأسرته ومنعته القيام بحقوق ربه فليوف بعهد الله تعالى وليدفع ذلك عن نفسه ان خاف انحلال عزمه وفساد نيته فان لم يخف على ذلك فليأخذه وليخرجه الى غيره وهذا أشد شئ على النفس وهو من أعظم درجات الزهد ولا يأخذ من منان ولا فخور ولا مظهر لعطيته ولا يأخذ ممن يثقل على قلبه قبول عطيته فقد قيل لا تأكل الا طعام من يرى لك الفضل عليه فى أكله ولا تأكل الا طعام من يرى أنه وديعة عنده ولا تأكل الا طعام زاهد لانه يسر بأكلك ولا تأكل الا طعاما يرى صاحبه أفضل من الطعام وقد روى أنه أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش وكان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال لقد هممت أن لا أقبل الا من قرشى أو أنصارى أو ثقفى أو دوسى قال أبو طالب المكى رضى الله عنه وفعل هذا جماعة من التابعين جاءت الى فتح الموصلى رضى الله عنه صرة فيها خمسون دينارا فقال حدثنى عطاء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من آتاه الله رزقا من غير مسئلة فرده فانما رده على الله عز وجل ثم فتح الصرة وأخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروى هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثنا عنه أن رجلا أهدى اليه كيسا فيه ألوف ورزمة فيها من دقيق خراسان فرد ذلك فقال له بعض أصحابه فى ذلك فقال من جلس مثل مجلسى هذا وقبل من الناس شيأ مثل هذا لقى الله تعالى يوم القيامة وماله عند الله من خلاق وكان الحسن رضى الله عنه يقبل من أصحابه وكان ابراهيم التيمى رضى الله عنه يسأل أصحابه الدرهم والدرهمين ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذ وكان بعض العباد اذا دفع اليه بعض أهل الدنيا الشئ قال ضعه عندك واعرض على قلبك

حالى كيف أنا عندك بعد الاخذ أفضل أو دون ذلك واصدقنى فان قال أنت عندى الآن أفضل منك قبل ذلك أو قال له أنت عندى بعد الاخذ مثل ما كنت قبل ذلك قبل منه وان أخبره بنقصانه فى قلبه لم يقبل منه وكان بعضهم يرد على أكثر الناس صلاتهم فعوتب فى ذلك فقال ما أرد عليهم الا اشفاقا عليهم ونصحا لهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم ويروى عن الاعمش أنه قال جاء شاب من العرب الى ابراهيم التيمى بالفى درهم فقال يا أبا عمران خذ هذه الدراهم والله ما هى من ذى سلطان ولا من كذا ولا من كذا فقال له ابراهيم بارك الله لك وجزاك خيرا فلما ولى قلت له يا أبا عمران ما منعك أن تأخذها والله ما لامرأتك قميص فقال صدقت يا سليمان ولكن هذا شاب من العرب لم يحنكه السن ولم تحنكه الآداب فكرهت أن يجلس فى جمعه فيقول أعطيت ابراهيم ألفى درهم فيحبط الله أجره وتذهب دراهمه وممن ذهب الى هذا سفيان الثورى رضى الله عنه كان يشترط على بعض من كان يأخذ منه أن لا يذكره لاشفاقه عليه لا من أجله بل من ذهاب أجره لانه قيل فى معنى قوله تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى قال المن أن يذكره والاذى أن يظهره وقال الجنيد للرجل الخراسانى الذى جاءه بالمال وسأله أن يأكله فقال الجنيد بل أفرقه على الفقراء فقال الرجل أنا أعلم بالفقراء منك ولم أختر هذا فقال له الجنيد وأنا أؤمل أن أعيش حتى آكل هذا فقال انى لم أقل لك أنفقه فى الخل والبقل وانما قلت أنفقه فى الطيبات وألوان الحلاوات وكلما نفد أسرع كان أحب الى فقال الجنيد ومثلك لا يحل أن يرد عليه فقبله فقال الرجل ما ببغداد أحد أعظم منة على منك فقال الجنيد وما ببغداد أحد ينبغى أن يقبل منه شئ الا من كان مثلك وكان السرى السقطى يوصل الى أحمد بن حنبل رضى الله عنهما الشئ فيرده فقال له يا أحمد احذر آفة الرد فانها أشد من آفة الاخذ فقال أحمد أعد على ما قلت فأعاده فقال له أحمد ما رددت عليك الا وعندى قوت شهر فاحبسه لى عندك فاذا كان بعد شهر فأنفذه الى وعلى الجملة فلا ينبغى أن يأخذ المريد الا من يد زاهد عارف فبذلك يسلم من الآفات ويكفى من جميع المؤنات وقال أبو بكر الدقاق رضى الله عنه منذ أربعين سنة أصحب هؤلاء فما رأيت رفقا لاصحابنا الا من بعضهم لبعض أو ممن يحبهم ومن لم تصحبه التقوى والورع فى هذا الامر أكل الحرام الصرف وان أراد أن يسأل من مثل هؤلاء فليفعل قال أبو طالب المكى رضى الله عنه كان بشر بن الحرث رضى الله عنه لا يقبل من الناس شيأ وكان بعضهم يقول أحب أن أعلم من أين يأكل فقال له من يخبر أمره أنا أدرى من أين يأكل كان له صديق عاقل يعنى نظيره فى العقل والدين لان بعضهم كان لا يقبل الا من النظراء ولا يقبل من الاتباع وهذا الصديق العاقل الذى كان يقوم بكفايته ولم يكن يظهر أمره ولا يلتقى معه هو السرى بن مغلس السقطى رضى الله عنه * قال بشر رضى الله تعالى عنه ما سألت أحدا قط شيأ من الدنيا الا سريا السقطى لانه قد صح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشئ من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون قد أعنته على ما يحب وكان سرى رضى الله عنه يوجه الى أحمد بن حنبل فى حاجاته فيقبل منه وكان اذا ذكر عند أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء انه ليعجبنى أمره وان بلغت به الحاجات كل مبلغ وأشرف على الضعف وتحققت الضرورة وسأل مولاه فلم يقدر له بشئ ووقته يضيق عن الكسب لشغله بحاله فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل من دون هؤلاء ممن جهل حاله * جاء

فى الاثر من جاع فلم يسأل فمات دخل النار وقد سأل الناس عند الحاجة والفاقة نبى الله تعالى
موسى والخضر عليهما السلام لقوله تعالى استطعما أهلها وكان أبو جعفر الحداد وهو شيخ
الجنيد رضى الله عنهما يسأل من باب أو بابين بين العشاءين ويكون ذلك معلوما عند حاجته
من يوم أو يومين وكان له مقام فى الزهد والتوكل قال أبو طالب ولم يعب هذا عليه عموم ولا
خصوص ونقل عن أبى سعيد الخراز رضى الله عنه أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول
ثم شئ لله ونقل عن ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه كان معتكفا بجامع البصرة مدة
وكان يفطر فى كل ثلاثة أيام ليلة وليلة افطاره يطلب من الابواب وكان الثورى يسأل فى
البوادى من الحجاز الى صنعاء اليمن قال كنت أذكرلهم حديثا فى الضيافة قال فيخرجون الى
طعاما فاتناول حاجتى وأترك ما بقى وليجتنب المريد الاكل بالدين وقبول ارفاق النسوان فان
قيل كيف يرد ما يعطاه فى الوجوه التى حكمتم عليه بعدم الاخذ فيها وهو انما يأخذ من ربه كما
تقدم وهل الراد لذلك الا راد على الله تعالى فكيف يستقيم ذلك فالجواب أن القيام بحق
الشريعة والطريقة لابد منه والتوحيد لا ينافى ذلك وقد قيل الكامل من لا يطفئ نور
معرفته نور ورعه وكل باطن من العلم يخالف ظاهرا من الحكم فهو مردود ووجه صحة الرد
للعطاء عند مشاهدة التوحيد ظاهر اذ لا فرق فى ذلك بين يد المعطى ويد الآخذ فكما يشهد
الآخذ يد الله تعالى فى العطاء عند يد المعطى فيأخذ ما يعطاه عند موافقة العلم اتباعا لاذن
الله تعالى وأمره يشهد يد الله تعالى فى المنع عند يد نفسه بالرد عند مخالفة العلم فلا يأخذه
ولا يقبله اتباعا لنهى الله تعالى عن ذلك وعدم اذنه فيه كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى الكبش الذى أهدى اليه مع السمن والاقط وكما فعله فتح الموصلى وحسن البصرى رضى
الله عنهما مع روايتهما للحديث الذى ذكر فيه ان رد الهدية رد على الله تعالى وقد تقدم ذكره
بلفظه فهذا يدفع ذلك الخيال والله تعالى الموفق لصالح الاعمال وانما أطلت الكلام فى هذه
المسئلة لان الحاجة ماسة اليها وليعلم من ذلك أن جميع تفاريعها ومسائلها داخل فى كلام
المؤلف رحمه الله تعالى على حكم الايجاز والاختصار وكلامه فيها من بديع الكلام
ومستحسنه ولشيخه أبى العباس المرسى رضى الله عنه فى معنى ما ذكره كلام بديع مختصر
منتزع من كتاب الله عز وجل نقله عنه فى لطائف المنن قال رضى الله عنه للناس أسباب
وسببنا نحن الايمان والتقوى قال الله سبحانه ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم
بركات من السماء والارض وقد جوّد المؤلف رحمه الله صناعته وأحسن سياقته فى مقصد
الارشاد والهداية والله أعلم • (ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته الى مولاه لاكتفائه
بمشيئته فكيف لا يستحى أن يرفعها الى خليقته) قد تقدم أن من الادب ترك الطلب
والسؤال من الله تعالى اكتفاء بمشيئته ورضا بسابق قسمته وان العارفين المحققين يستحيون
من الله تعالى فى ذلك فكيف لا يستحيون من مولاهم عز وجل عند سؤالهم للمخلوقين
وهل أدبهم فى ذلك واستحياؤهم من ربهم الا واجب عليهم فلا يسألون منهم شيأ ولا يرفعون
اليهم حاجة لانهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغنى الحميد وقد تقدم هذا المعنى عند قوله
لا تتعدّ نية همتك الى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال قال سهل بن عبد الله التسترى رضى الله
عنه ما من نفس ولا قلب الا والله مطلع عليه فى ساعات الليل والنهار فايما نفس أو قلب رأى

(ربما استحيا العارف) المحقق
(أن يرفع حاجته الى مولاه) فلا
يطلب منه شيأ (لاكتفائه
بمشيئته) أى بما تعلقت به
مشيئته من اعطاء أو منع أو
ضر أو نفع قال الشاذلى قدس
الله سره لما سئل عن الكيمياء
أخرج الخلق من قلبك واقطع
يأسك من ربك ان يعطيك غير
ما قسم لك (فكيف لا يستحى
أن يرفعها الى خليقته) فلا
يسألون منهم شيأ ولا يرفعون
اليهم حاجة لانهم فقراء محتاجون
ومولاهم هو الغنى الحميد فرفع
الهمة عن الخلق وعدم التعرض
لهم مما يحتاجه سالكو هذه
الطريق فان من خلعت عليه
خلعة الملك فحفظها وصانها
حرى أن تدام له ولا تسلب
عنه والمدنس لخلع المواهب
حرى أن لا تترك له فلا تدنس
ايمانك بطمعك فى المخلوقين ولا
تجعل اعتمادك الا على رب
العالمين واتبع ملة ابراهيم فى
رفع الهمة عن الخلق فانه يوم
زج به فى المنجنيق تعرّض له
جبريل وقال له ألك حاجة فقال
أما اليك فلا وأما الى الله فبلى
فقال له سل الله فقال حسبى
من سؤالى علمه بحالى وخرج
بالعارف باقى الفقراء وهم أقسام
ثلاثة منهم من يصبر فاذا احتاج
سأل الناس وقبل منهم مع كونه
لا يرى أن المعطى فيهم الا مولاه
ومنهم من لا يسأل واذا أعطى
قبل على الوجه المذكور ومنهم

فيه

فيه حاجة الى سواه سلط عليه ابليس وقال الاستاذ أبو على الدقاق رضى الله عنه من علامات
المعرفة أن لا تسأل حوائجك قلت أو كثرت الا من الله سبحانه وتعالى مثل موسى عليه الصلاة
والسلام اشتاق الى الرؤية فقال ربى أرنى أنظر اليك واحتاج مرة الى رغيف فقال رب انى لما
أنزلت الىّ من خير فقير وذكر الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه أن بعض الفقراء كان
يأتى كل يوم ويقف بحذاء الكعبة بعد ما يطوف ما شاء الله تعالى ويخرج من جيبه رقعة ينظر
فيها فلما كان بعد أيام فعل مثل ذلك ثم تباعد ومات فجاء بعض من يرمقه ونظر فى رقعته فاذا
فيها واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا قال فكأن الرجل أصابته الفاقة فصبر ولم يظهر حاله لمخلوق
حتى مات وقال أبو بكر الجوهرى رحمه الله تعالى كنت بعسقلان على برج أحرس فمرّ بى رجل
عليه جبة صوف متخرقة فقمت اليه مسلما وعانقته وأجلسته وجاريت معه فى فنون من العلم
وكان قدماه حافيتين فقلت له لم لا تسأل أصحابنا فى نعل يقيك من الحفاء فقال يا أخى لدق أمس
بالجبال وحبس عين الشمس بالعقال ونقل ماء البحر بالغربال أهون علىّ من موقف السؤال
وارتجائى من المخلوقين النوال ثم أخرجنى من باب المدينة فانتهى بى الى صخرة مدوّرة فاذا
عليها مكتوب كل من كد يمينك وعرق جبينك فان ضعف يقينك فاسأل المولى يعينك قال فى
التنوير واعلم رحمك الله أن رفع الهمة لسالكى طريق الآخرة عن الخلق وعدم التعرض
لهم أزين لهم من الحلى للعروس وهم أحوج اليه من الماء لحياة النفوس ومن خلع عليه
خلعة الملك فحفظها وصانها حرى بأن تدام له ولا تسلب عنه والمدنس لخلع المواهب حرى أن
لا تترك له فلا تدنس أيها الاخ ايمانك بطمعك فى المخلوقين ولا تجعلن اعتمادك الا على رب
العالمين وكن أيها الاخ ابراهيميا فقد قال أبوك ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه لا أحب
الآفلين وما سوى الله آفل اما وجودا واما امكانا وقد قال سبحانه ملة أبيكم ابراهيم أى اتبعوا
ملته فواجب على المؤمن أن يتبع ملة ابراهيم ومن ملته رفع همته عن الخلق فانه يوم زج به
فى المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال له ألك حاجة فقال له أما اليك فلا وأما من الله
فبلى قال فاسأله قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فانظر كيف رفع همته عن الخلق ووجهها الى
الملك الحق فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله بل رأى ربه أقرب اليه من
جبريل عليه السلام ومن سؤاله فلذلك سلمه من نمرود ونكاله وأنعم عليه بنواله وأفضاله
وخصه بوجود اقباله ومن ملة ابراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمة بالرد الى الله
لقوله تعالى فانهم عدو لى الا رب العالمين والغنى ان أردت الدلالة عليه فهو فى اليأس من
الناس ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه أيست من نفع نفسى لنفسى فكيف
لا أيأس من نفع غيرى لنفسى ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى وهذا هو
الكيمياء والاكسير الذى من حصل له يحصل له غنى لا فاقة بعده وعز لا ذل معه ولا
لا نفاد له وهو كيمياء أهل الفهم عن الله قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه صحبنى انسان
وكان ثقيلا على فبسطته يوما فانبسط فقلت له يا ولدى ما حاجتك ولم صحبتنى فقال يا سيدى
لى انك تحسن الكيمياء فصحبتك لاتعلم منك ذلك فقلت له صدقت وصدق من حدثك ولكن
اخالك لا تقبل فقال بل أقبل فقلت له نظرت الى الخلق فوجدتهم على قسمين أعداء وأحباء
فنظرت الى الاعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكونى بشوكة لم يردنى الله بها فقطعت
نظرى عنهم ثم تعلقت بالاحباء فوجدتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشئ لم يردنى الله

من لا يسأل واذا أعطى لا يقبل
قال بعضهم وهذا من الروحانيين
اذا سأل الله تعالى أعطاه وان
أقسم عليه أبر قسمه

فقطعت نظرى عنهم وتعلقت بالله تعالى فقيل لى انك لا تصل الى حقيقة هذا الامر حتى تقطع يأسك منا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمناه لك فى الازل وقال مرة أخرى لما سئل عن الكيمياء أخرج الخلق من قلبك واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك قال وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله ولا مداومته على ورده وانما يدل على نوره وفهمه غناه بربه وانحياشه اليه بقلبه وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع وبذلك تحسن الاعمال وتزكو الاحوال قال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا فحسن الاعمال انما هو بالفهم عن الله والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ورفع الحوائج اليه والدوام بين يديه وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى انتهى ما تعلق بغرضنا من كلام صاحب التنوير وهو من الكلام النفيس الخطير وأنت رحمك الله اذا تأملته بعين بصيرتك ناصحا لربك فى علانيتك وسريرتك علمت منه ان ما تضمنه عظيم المرقع وأنه مستحسن منا ايراده فى هذا الموضع اذ هو منوط بالايمان والتوحيد محتاج اليه كل سالك ومريد فمن راعاه حق رعايته وصرف الى العمل بمقتضاه عنان عنايته فقد تحقق بمحاسن الايمان وكان من ولاية الله تعالى بمكان ومن أهمله وضيعه وجهل قدره وموقعه خيف عليه الوقوع فى الشرك الخفى والجلى واستحق بذلك أن يطرد عن باب مولاه العلى فيقوى طمعه فى الخلق ويضيق عليه متسعات أبواب الرزق كما قال بعض العارفين المكاشفين رضى الله عنه قيل لى فى نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم لا تبدين فاقة الى غيرى فاضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك وخروجك عن حدك فى عبوديتك انما ابتليتك بالفاقة لتفزع الى منها وتتضرع بها لدى وتتوكل فيها على سبكتك بالفاقة لتصير ذهبا خالصا فلا تزيفن بعد السبك وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى فان وصلتها بى وصلتك بالغنى وان وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتى وحسمت أسبابك من أسبابى طردا لك عن بابى فمن وكلته الى ملك ومن وكلته اليه هلك انتهى ومنهم من يأنف من قبول الرفق على أيدى الخلق وترتفع همته عن ذلك وان لم يكن سؤال ولا طلب كما يحكى عن حماد بن سلمة رحمه الله أنه قال كان فى جوارى امرأة أرملة لها أيتام وكانت ليلة ذات مطر فسمعت صوتها تقول يا رفيق ارفق قال فخطر ببالى أنها أصابتها فاقة فصبرت حتى احتبس المطر فحملت معى عشرة دنانير ووقفت عليها الباب فقالت حماد بن سلمة فقلت نعم كيف الحال فقالت بخير وعافية احتبس المطر ودفئ الصبيان فقلت خذى هذه الدنانير وأصلحى بها بعض شأنك قال فصاحت بنية لها خماسية أتريد يا حماد أن تكون بيننا وبين معبودنا واسطة ثم قالت لامها لما رفعت صوتك بالطها رالستر علمت أن الله يؤدبنا بالطها رالرفق على يدى مخلوق وذكر الشيخ عبد الرحمن السلمى عن ابن عباس بن دهقان قال كنت عند بشر بن الحرث رضى الله عنه وهو يتكلم فى الرضا والتسليم واذا هو برجل من المتصوفة فقال له يا أبا نصر انقطعت عن أخذ البر من أيدى الخلق لاقامة الجاه فان كنت متحققا بالزهد منصرفا عن الدنيا فخذ من أيديهم ليتمعى جاهك عندهم واخرج بما يعطونك الى الفقراء وكن بعقد التوكل تأخذ قوتك من الغيب فاشتد ذلك على أصحاب بشر فقال بشر اسمع أيها الرجل الجواب الفقراء ثلاثة فقير لا يسأل وان أعطى لا يأخذ فذلك من الروحانيين اذا سأل الله تعالى أعطاه وان أقسم على الله أبر قسمه وفقير لا يسأل وان أعطى قبل فذلك من أوسط القوم عقده التوكل والسكون الى الله تعالى فهو

يمن توضع له الموائد فى حظيرة القدس وفقير اعتقد الصبر وموافقة الوقت فاذا طرقته الحاجة خرج الى عبيد الله وقلبه الى الله بالسؤال فكفارة سؤاله صدقه فقال الرجل رضيت رضى الله عنك.

وقال رضى الله عنه (اذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لا يثقل عليها الا ما كان حقا) هذا ميزان صحيح باعتبار غالب الانفس لانها مجبولة على الجهل والشره فشأنها أبدا انما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق كما تقدم عند قوله حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى وحظها فى الطاعة باطن خفى فاذا وجد المريد من نفسه ميلا وخفة عند بعض الاعمال دون البعض اتهمها وترك ما مالت اليه وخف عليها وعمل بما استثقلته قال بعض العارفين منذ عشرين سنة ما سكن قلبى الى نفسى ساعة وسكون القلب الى النفس هو اتباعه للاخف عليها دون الاثقل وهو معدود عندهم من نفاق القلب ومن بقى عليه شئ من دواعى الهوى وان قل لا يؤمن عليه من مثل هذا لخفة العمل على النفس انما تكون لاجل موافقة هواها وهواها لا يميل الا الى الباطل فاذا التبس عليك أمران واجبان أو مندوبان ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتقدمه على الآخر فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به وانما قلنا باعتبار غالب الانفس لان النفس المطمئنة لا توصف بالجهل ولا بالشره فقد يخف عليها العمل ولا يدل ذلك على أنه باطل فليكن نظر العبد حينئذ الى ما هو أكثر فائدة وأعظم مزية فليقدمه على غيره وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه حكاية عجيبة فى شره النفس وكونها لا تميل الا الى الباطل قال حدثنى بعض اخوانى عن بعض هذه الطائفة قال قدم علينا بعض الفقراء فاشترينا من جار لنا حملا مشويا ودعوناه اليه فى جماعة من أصحابنا فلما مد يده أخذ لقمة وجعلها فى فيه ثم لفظها ثم اعتزل وقال كلوا أنتم فانه قد عرض لى عارض منعنى من الاكل فقلنا لا نأكل ان لم تأكل فقال أنتم أعلم أما أنا فغير آكل ثم انصرف قال فكرهنا أن نأكل دونه فقلنا الودعونا الشواء فسألنا دعن أصل هذا الحمل فلعل له سببا مكروها فدعوناه فلم نزل به نسأله عنه حتى أقر أنه كان ميتة وأن نفسه شرهت الى بيعه حرصا على ثمنه فشواه ووافق أنكم اشتريتموه قال فرميناه للكلاب قال ثم انى لقيت الرجل بعد وقت فسألته لاى معنى تركت أكله وبأى عارض فقال أخبرك ما شرهت نفسى الى طعام منذ عشرين سنة للرياضة التى ربضتها به فلما قدمتم الى هذا شرهت نفسى اليه شرها ما عهدته قبل ذلك فعلمت أن فى الطعام علة فكرهت أكله لاجل شدة شره النفس اليه قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه فانظر رحمك الله كيف اتفقا فى شره النفس على قصة واحدة ثم اختلفا بالتوفيق والخذلان فعصم العالم بالورع والمحاسبة وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وترك المراقبة أعنى البائع للعمل وعصم الآخرون للتوفيق بحسن الادب وهو وقع شره النفس عن الاكل بعد صاحبهم ثم تدارك البائع بعد وقوعه بصدق المشترى وحسن نيته انتهى وثم ميزان آخر أصح وأكثر تحقيقا من الاول وهو أن يقدر نزول الموت به فأى عمل سره أن يكون مشغولا به اذ ذاك فهو حق وما عداه باطل قال فى لطائف المنن والموت ميزان على الافعال والاحوال كما هو ميزان فى دائرة الوقت أما الوقت فكما تقدم يعنى أنه علامة صحة مرتبة الولاية وأما الافعال والاحوال فاذا التبس عليك أمر لا تدرى هل يرضى الله فعله أو تركه أو حالة أنت بها لا تدرى هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى فاورد الموت على ما أنت فيه

(اذا التبس عليك) أيها المريد (أمران) واجبان أو مندوبان فلم تدر أيهما أولى أن تشتغل به كطلب ما لا بد منه من العلم والسعى على العيال وكطلب علم زائد على ما لا بد منه واشتغال بنوافل وكصلاة النوافل والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم (فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لا يثقل عليها الا ما كان حقا) أى أولى لانها مجبولة على الجهل فشأنها أبدا انما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق فاذا وجد المريد من نفسه خفة وميلا عند بعض الاعمال دون بعض اتهمها وترك ما خف عليها ومالت اليه وعمل بما استثقلته فان عمل بالاخف كان ذلك معدودا عندهم من نفاق القلب هذا ان لم تصر نفسه مطمئنة فان صارت كذلك عمل بما خف عليها ومالت اليه لكن ينظر حينئذ الى ما هو أكبر فائدة وأعظم مزيدا فى حاله فيقدمه على غيره وهناك ميزان آخر تميز به الاولى من غيره مما التبس عليك وهو أن تقدر نزول الموت بك فأى عمل سرك أن تكون مشغولا به اذ ذاك فهو حق وما عداه باطل فان العبد فى هذه الحالة لا يصدر منه الا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء ومما زجة حظ النفس واتباع الهوى فاذا التبس عليك الاشتغال بالعلم أو بطريق القوم فانظر أيهما تحب أن تكون عليه حال

من أفعال و أحوال فكل حالة وعمل تثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهى حق وكل حالة وعمل هزمها الموت فهى باطلة اذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدمغه لقوله عز وجل بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق قل ان ربى يقذف بالحق علام الغيوب وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وما كنت فيه فانما يحق لم يهزمه الموت اذ هو حق والموت حق والحق لا يهزم الحق (قال) وقد تجاذبت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم فى أنه ينبغى اخلاص النية فيه وأنه لا يشتغل به الا لله تعالى فقلت له الذى يقرأ العلم لله هو الذى اذا قلت له غدا تموت لا يضع الكتاب من يده اه قلت وهذا هو فصل الخطاب ونهاية الصواب فان العبد فى هذه الحالة لا يصدر منه الا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء ويمازجه حظ النفس واتباع الهوى فهذا هو المطلوب من العبد ولا يستتم له ذلك الا أن يتحقق بما يقدره من حلول الموت وحصول الفوت وهذا هو معنى قصر الامل الذى هو أصل حسن العمل وهو أن لا يقدّر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا وعند ذلك يخلص عمله من الآفات ويتطهر من أنواع الرعونات لان توقع الموت فى كل نفس ولحظة يهدم عليه جميع ذلك كما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى وكل عمل استرسل فيه صاحبه غافلا عن تقدير وقوع ذلك ان لم يكن متحققا به لم يسلم مما ذكرناه فاذا يبعد من الاخلاص من يأخذ فى علم غير متعين عليه الاخذ فيه لا يجتنى ثمرته الا فى ثانى حال ويكون فى الحالة الراهنة متمكنا من ابقاع طاعة تزيد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم فيفوز بثوابها ويتنجز له حصول التقرب بها لان فى ذلك فوت نفسه ووفارة حظه وآية ذلك أنه قد يعرض له فى حال أخذه فيه غرض دنيوى يكون احتظاء نفسه به أكثر فيقدمه على ما كان آخذا فيه ويتشاغل به من غير مبالاة بما يفوته من ذلك وانما عبرنا بلفظ الاخذ ليدخل فيه تعلم المتعلم وتعليم المعلم فان الامر فيهما واحد وكل عمل لا اخلاص فيه ليس بالله ولا لله مردود على صاحبه مضروب به وجهه وبهذا يتبين لك غرور أكثر الخلق فى علومهم وأعمالهم الا من رحم الله تعالى ولهذا نشاهد أكثر الناس عند نزول الموت بهم يندمون على ما أسلفوه من عمل ويودّون أن لو أنسئ لهم فى الاجل وهيهات هيهات فنعوذ بالله من الغفلة فى زمان المهلة فانها مبدأ كل عمل فاسد ومنشأ وجود الغرة والجهالة لكل عالم وعابد وما ذكرناه من معرفة اختلاف درجات الصالح ليقدم الفاضل فيها على المفضول لا يصلح الا لمن أيده الله بنور اليقين وجبله على النصيحة له فى الدين وكان له حظ وافر من الخوف والحذر وموافقة مولاه فى كل ورود وصدر ولا شك أن هذه المرتبة عزيزة المنال متعذر ادراكها الا على الآحاد من الرجال وسبيل من لم يصل اليها ممن ذكرناه اذا كان منصفا أن يستعين بنظر من هو أصح منه حالا وأصوب مقالا وفعالا ويفوض جميع أموره اليه ويعتمد اشارته فى كل ما يشير به عليه وعلامة انصافه وجودانهامه لنفسه وعدم اعتماده على عقله وحدسه ومن لم يكن منصفا فالكلام معه هذيان فاسد وضرب فى حديد بارد وسيأتى مزيد تنبيه على غرور الآخذين فى العلم فى موضع أليق من هذا والله ولى التوفيق *(من علامات اتباع الهوى المسارعة الى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات) هذه من الصور التى يتبين بها خفة الباطل وثقل الحق على النفس وماذكره هو حال أكثر الناس فترى الواحد منهم اذا عقد التوبة لا همة له الا فى نوافل الصيام والقيام وتكرار المشى الى بيت الله الحرام وما أشبه ذلك من النوافل وهو مع ذلك غير متدارك لما

فرط

خروج روحك فاشتغل به فان كنت تحب أن تخرج روحك وبيدك الكراس لاخلاصك فى طلب العلم وقصدك به وجه الله فاشتغل به وان كنت تكره ذلك وتحب ان تكون فى ذلك الوقت مشتغلا بذكر الله مثلا لا بطلب العلم فلا تطلب العلم بل اشتغل بغيره لان ذلك دليل على عدم اخلاصك فيه والكلام فى القدر الزائد على مالا بد منه من العلم (من علامات اتباع الهوى المسارعة الى نوافل الخيرات) أى العبادات (والتكاسل عن القيام بالواجبات) فهذا من الصور التى يخف فيها الباطل ويثقل فيها الحق وانما كانت النوافل تخف على النفس دون الفرائض لان العادة انه لا مزية فى القيام بالفرائض لاستواء الناس كلهم فيها بخلاف النوافل فانها تذكر بها ويحصل لها بها مزية وجاه ومنزلة فى القلوب وهذا هو حال أكثر الناس فتجد الواحد منهم اذا اعتقد التوبة أى صمم عليها لا همة له الا فى نوافل الصيام والقيام وتكرار المشى الى بيت الله الحرام وما أشبه هذا من النوافل ومع ذلك هو غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات ولا متحلل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات وما ذاك الا انهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التى خدعتهم ولم يعتنوا بمجاهدة أهوائهم التى أسرتهم وملكتهم

(قيد) الله تعالى (الطاعات) الواجبة عليك كالصلوات الخمس (باعيان الاوقات) أى بأوقات معينة ولم يطلق وقتها (كى لا يمنعك عنها وجود التسويف) فانه تعالى لو أطلقها ولم يعين لها أوقاتا لحملك التسويف على تركها فانك تتكاسل وتقول حتى أفرغ من حاجتى أصلى لاتساع وقتها فربما مضى يومك أو ليلتك ولم تفعلها بخلاف تقييدها بأوقات معينة فان ذلك يلجئك الى تحصيلها ويحجزك عن تفويتها (ووسع عليك الوقت) أى وسع أوقاتها عليك ولم يضيقها (كى تبقى لك حصة الاختيار) فيمكنك فعلها فى أول وقتها أو وسطه أو آخره ولا تعد من المضيعين لها اذا أتيت بها فى آخر وقتها مثلا ولتتمكن أيضا من الاتيان بها على الوجه الاكمل وهو مواطأة القلب للجوارح فان الوقت اذا كان متسعا يمكنك أن تتخلى عن الشواغل والقواطع المانعة من استجماع الفكر والحضور مع الله تعالى حال العبادة واستعمال الآداب اللائقة بين يدى الله تعالى حينئذ (علم قلة نهوض العباد الى معاملته) أى الاقبال عليه بطاعته والقيام بحقوق ربوبيته طوعا منهم لما هم عليه من وجود الضعف ولما فى نفوسهم من وجود الكسل (فأوجب عليهم وجود طاعته) أى ألزمهم بذلك قهرا عنهم وخوفهم بدخول النار ان لم يفعلوها (فساقهم اليه) أى الى الاقبال عليه بطاعته وفى نسخة اليها أى الى الطاعة (بسلاسل الايجاب) أى الايجاب الشبيه بالسلاسل اللاتى توضع فى عنق الاسير يجره بها قهرا عنه من أسره الى الموضع الذى يريده وكذلك الايجاب يسوقهم الله تعالى به الى الطاعة التى يحصل لهم بها ما يسرهم فى المستقبل وان كانت شاقة عليهم فى الحال فهو يفعل بهم كما يفعل الولى بالصبى ألا تراه كيف يؤدبه ويضربه على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته ويلزمه

فرط فيه من الواجبات ولا متحلل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات وما ذاك الا انهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التى خدعتهم ولم يحظوا بمجاهدة أهوائهم التى استرقتهم وملكتهم ولو أخذوا فى ذلك لكان لهم فيه أعظم شغل ولم يجدوا فسحة لشئ من الطاعات والنفل قال بعض العلماء من كانت الفضائل أهم اليه من أداء الفرائض فهو مخدوع وقال محمد بن أبى الورد رضى الله عنه هلاك الناس فى حرفتين اشتغال بنافلة وتضييع فريضة وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه وانما حرموا الوصول بتضييعهم الاصول (وقال) الخواص رضى الله عنه انقطع الخلق عن الله بخصلتين احداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض والثانية أنهم عملوا أعمالا بالظاهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها وأبى الله أن يقبل من عامل عملا الا بالصدق واصابة الحق * قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه فأفضل شئ للعبد معرفته بنفسه ووقوفه على حده واحكامه لحالته التى أقيم فيها وابتداؤه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه لما نهى عنه بعلم يدبره فى جميع ذلك وورع يحجزه عن الهوى فى ذلك ولا يشتغل بطلب نفل حتى يفرغ من فرض لان النفل لا يصح الا بعد حوز السلامة كما لا يخلص الربح للتاجر الا بعد حوز رأس المال فمتى تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد والى الاغترار أقرب انتهى وقال رضى الله عنه *(قيد الطاعات باعيان الاوقات كى لا يمنعك عنها وجود التسويف ووسع عليك الوقت كى تبقى لك حصة الاختيار) أنعم الله عليك فيما أمرك به من الطاعات المؤقتة بالاوقات بنعمتين عظيمتين احداهما تقييدها لك باعيان الاوقات لتوقعها فيها فتفوز بثوابها ولو لم يفعل هذا لسوفت بها ولم تعمل بها حتى تفوت فيفوتك ثوابها والنعمة الثانية توسيع أوقاتها عليك ليبقى لك نصيب من الاختيار حتى تأتى بالطاعات فى حال سكون وتمهل من غير حرج ولا ضيق فلله الحمد على نعمه *(علم قلة نهوض العباد الى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته فساقهم اليها بسلاسل الايجاب عجب ربك من قوم يساقون الى الجنة بالسلاسل) لما علم الله تعالى قلة نهوض العباد الى معاملته الواجبة له

 أمورا شاقة عليه فيفعلها وهو كاره لذلك لاجل تحصيل منافعه فى المستقبل الذى هو جاهل بها الآن فاذا كبر وعقل عرف ذلك عيانا (عجب ربك من قوم يساقون الى الجنة بالسلاسل) كما يفعل باسارى الكفار حين يراد منهم الدخول فى الاسلام فيقادون الى الجنة بالسلاسل فى رقابهم وهذا معنى حديث قاله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر ولفظه عجب الله من أقوام يقادون الى الجنة بالسلاسل والعجب والتعجب استعظام أمر خفى سببه وهو مستحيل عليه تعالى ففيه المذهبان السلف يقولون ان لله عجبا ولا نعلم حقيقته وهو منزه عن معناه المشهور والخلف يؤولون ذلك فيقولون معنى التعجب المنسوب الى الله اظهار عجب هذا الامر لخلقه لانه بديع الشان وهو أن الجنة شأنها أن يسارع اليها لنفاستها وهؤلاء يرغبون عنها ويمتنعون منها حتى يقادون اليها بالسلاسل كما يقادون الى الامر المكروه وقيل المراد بالتعجب لازمه وهو الاحسان الى المتعجب منه فانك اذا قلت ما أعلم زيدا يلزمه أنك تريد الاحسان اليه واكرامه فالمعنى أحسن ربك الى هؤلاء القوم حيث دعاهم الى الجنة وساقهم

عليهم من اقامة العبودية لمشاهدة الربوبية فى حال طواعية منهم اذ فى ذلك قرة أعينهم وغاية نعيمهم أوجب عليهم وجود طاعته على حال كراهية منهم لاجل ما خوفهم به ان لم يفعلو فساقهم بسلاسل تخويفه وتحذيره اليهم واستدرجهم بذلك الى ما فيه نعيمهم مما لا علم لهم به وفعل بهم ما يفعل بالصبى ألا تراه كيف يؤدب و يضرب على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته ويلزم أمورا شاقة عليه فيفعلها وهو كاره لذلك والغرض انما هو حصوله على منافعه التى هو جاهل بها فاذا كبر وعقل عرف ذلك عيانا وقد عجب ربك من قوم يساقون الى الجنة بالسلاسل كما فعل باسارى الكفار حين يراد بهم الدخول فى الاسلام فيقادون الى الجنة بالسلاسل فى رقابهم وهذا حديث يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا عجب الله من أقوام يقادون الى الجنة بالسلاسل قلت وتعبير المؤلف رحمه الله بالسلاسل والسوق بها واستعماله ذلك فى التكاليف الواجبة التى ألزم العباد القيام بها من بديع الاستعارات كما قال الشاعر وهو أبو خراش الهذلى

وليس كعهد الدار يا أم مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وكذلك تمثيله بالحديث المذكور فيه ذلك والاشارة به الى مقصوده فى غاية الحسن * قال بعض العلماء يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب الى الله تعالى فيه اظهار عجب هذا الامر لخلقه لانه بديع الشأن وهو أن الجنة التى أخبر الله تعالى بما فيها من النعيم المقيم والعيش الدائم والخلود فيها الذى من حكم من سمع به من ذوى العقول أن يسارع اليها ويبذل مجهوده فى الوصول اليها ويتحمل المكاره والمشقات لينالها هؤلاء يمتنعون عنها ويرغبون عنها ويزهدون فيها حتى يقادوا اليها بالسلاسل كما يقاد الى المكروه العظيم الذى تنفر منه الطباع وتألم الابدان وتكرهه النفوس وقد قرأ جماعة من القراء بل عجبت ويسخرون بضم التاء وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد عجب الله من فلان وفلانة فى قصة الانصارى الذى قال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث صحيح مشهور فالعجب منسوب الى الله تعالى وقد ورد فى الكتاب والسنة فهو اذا من الصفات السمعية * (أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك الا دخول جنته) هذه عبارة حسنة موافقة لمعنى ما تقدم والمقصود من هذا كله الاعلام بان الله تعالى غنى عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم وأن التكاليف كلها انما أوجبها عليهم لما يرجع اليهم من مصالحهم لا غير قلت وما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى هو حال عامة الناس الذين من شأنهم التأبى وعدم الانقياد للاوامر والنواهى ولذلك احتاجوا الى التخويف والتحذير والموالاة للحض والمبالغة فى التكبير وأما الخاصة منهم فلم يحتاجوا الى شئ من ذلك لان الله تعالى شرح صدورهم ونور بصائرهم وكتب فى قلوبهم الايمان وحبب اليهم الطاعة وبغض اليهم العصيان فلم يقتصروا على ما اقتصر عليه المذكورون من فعل الواجبات واجتناب المحظورات فقط بل أضافوا الى ذلك المبادرة الى أعمال الطاعات والمسارعة الى نوافل الخيرات وبالجملة صارت أعمالهم كلها قربات وذلك لتمام حريتهم وصحة عبوديتهم نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه (قال) فى التنوير وانما جعل الحق سبحانه الايجاب على العباد علما منه بما هم عليه من وجود الضعف وبما نفوسهم متصفة به من وجود الكسل فأوجب

اليها كرها وهذا فى حق العامة أما الخاصة فلا يحتاجون الى الايجاب والتخويف والتحذير لان الله تعالى شرح صدورهم ونور بصائرهم وكتب فى قلوبهم الايمان وحبب اليهم الطاعات وبغض اليهم العصيان فلم يحتاجوا الى شئ من ذلك لتمام حريتهم من الاغيار التى تملك القلوب فهم ملازمون لطاعته طوعا بل لو أكرهوا على تركها لم يستطيعوا الصبر عنها وفائدة تكليفهم حينئذ اظهار محبتهم كما يأمر الملك وزراءه الملازمين لحضرته بخدمته زيادة فى القرب والتشريف (أوجب عليك وجود خدمته) فى الظاهر (وما أوجب عليك) فى الحقيقة ونفس الامر (الا دخول جنته) لانه تعالى غنى عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم وانما أوجب الاعمال عليهم لما يرجع اليهم من مصالحهم وهو دخول الجنة لا يحصل له شرف بذلك وهذا تصريح بما علم قبله لان حاصله أنه تعالى انما أوجب على عباده طاعته لقلة نهوضهم اليها فساقهم اليها بسلاسل الايجاب وسوقهم اليها بذلك انما هو لامر يرجع اليهم وهو دخول الجنة بدليل الحديث وهو عجب ربك الخ فيؤل المعنى الى أن سوقهم الى طاعته وهو ايجابها عليهم سوق الى الجنة فلم يوجب عليهم الا دخولها وهو ما صرح به هنا

عليهم ما أوجبه لانه لو خيرهم فيما أوجب عليهم لم يكونوا به قائمين الا قليلا وقليل ما هم فأوجب عليهم وجود طاعته وفى التحقيق ما أوجب عليهم الا دخول جنته فساقهم الى الجنة بسلاسل الايجاب عجب ربك من قوم يساقون الى الجنة بالسلاسل قال واعلم رحمك الله أنا تأملنا الواجبات فرأينا الحق سبحانه جعل فى كل ما أوجبه تطوعا من جنسه فى أى الانواع كان ليكون ذلك التطوع من ذلك الجنس جابرا لما عساه أن يقع من الخلل فى قيام العبد بالواجبات وكذلك جاء فى الحديث أنه ينظر فى مفروض صلاة العبد فان نقص منها شئ كمل من النوافل فافهم رحمك الله هذا ولا تكن مقتصرا على ما فرض الله عليك بل لتكن قبلك ناهضة حب توجب اكبابك على معاملة الله تعالى فيما لم يوجبه عليك ولو كان العباد لا يجدون فى موازينهم الا فعل الواجبات وثواب ترك المحرمات لفاتهم من الخير والمنة ما لا يحصره حاصر ولا يحزره حازر فسبحان الفاتح للعباد باب المعاملة والمهيئ لهم أسباب المواصلة قال واعلم أن الحق سبحانه علم أن فى عباده ضعفاء وأقوياء فأوجب الواجبات وبين المحرمات فالضعفاء اقتصروا على القيام بما أوجب والترك لما حرم وليس فى قلوبهم من سلطان الحب ووجود الشغف ما يحملهم على المعاملة من غير ايجاب فمثلهم كمثل العبد يعلم السيد منه أنه ان لم يخارجه لم يهد اليه شيأ فلذلك وقت سبحانه الاوراد ووظف وظائف العبودية وعرف ذلك بالطالع والغارب والزوال وصير ورة ظل كل شئ مثله فى الصلاة وبالحول فى الاموال النامية العين والماشية وبوقت حصول المنفعة فى الزرع وآتوا حقه يوم حصاده وبعشر ذى الحجة فى الحج وبشهر رمضان فى الصيام فوظف الوظائف ووقتها وجعل للنفوس فيها فسحة الحظوظ والسعى فى الاسباب وأهل الله هم أهل الفهم عنه جعلوا الاوقات كلها وقتا واحدا والعمر كله نهجا الى الله تعالى قاصدا فعلموا أن الوقت كله له فلم يجعلوا شيأ منه لغيره ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه عليك بورد واحد وهو اسقاط الهوى ومحبة المولى أبت المحبة أن تستعمل محبا الا فيما يوافق محبوبه وعلموا أن الانفاس أمانات الحق عندهم وودائعه لديهم فعلموا أنهم مطالبون برعايتها فوجهوا هممهم لذلك وكما أن له الربوبية الدائمة كذلك حقوق ربوبيته عليك دائمة فربوبيته غير مؤقتة بالاوقات فحقوق ربوبيته عليك ينبغى أن تكون أيضا كذلك ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ان لكل وقت سهما يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية انتهى * (من استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الالهية وكان الله على كل شئ مقتدرا) من استرقته الشهوة واستولت عليه الغفلة فلا ينبغى له أن يستغرب أن ينقذه الله من أسر شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته لما يشاهد من استحكام ذلك فيه فان فى ذلك نسبة العجز الى القدرة الالهية والله تعالى متصف بالاقتدار على كل شئ وهذا من الاشياء وليعلم العبد أن قلوب العباد ونواصيهم بيده فلا يقنط ولا ييأس وليقصد باب مولاه بالذلة والانكسار والافتقار فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغرب به وما ذلك على الله بعزيز وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التى تروى عن الصالحين الذين تقدمت لهم فى بدايتهم الزلات ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات فتداركهم الله تعالى بلطفه واستنقذهم بجوده وعطفه فاصلح أعمالهم وصفى أحوالهم وأبدل سيآتهم حسنات ورفعهم من أسفل سافلين الى أعلى الدرجات كل ذلك فى أقرب زمان

(من استغرب أن ينقذه الله من شهوته) التى استرقته (وأن يخرجه من وجود غفلته) التى استولت عليه أى من استحكمت فيه الشهوة والغفلة واستغرب أن يخرجه الله منهما (فقد استعجز) أى فكأنه استعجز (القدرة الالهية) أى المنسوبة الى الاله وفى بعض النسخ قدرة الهية أى نسبها الى العجز (وكان الله على كل شئ مقتدرا) أى مع أنه تعالى وصف نفسه بالاقتدار على كل شئ واخراجه من ذلك من جملة الاشياء فينبغى له أن يقصد باب مولاه بالذلة والافتقار فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغرب به وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التى تؤثر عن الصالحين الذين تقدمت لهم فى بدايتهم الزلات ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات فتداركهم الله بلطفه وأصلح أعمالهم وصفى أحوالهم كفضيل ابن عياض وعبد الله بن المبارك وأبى عقال بن علوان وغيرهم رضى الله عنهم

وأقصر مدة وأوان والحكايات فى هذا المعنى عن الشيوخ مثل سيدى الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وأبى عقال بن علوان وغيرهم رضى الله تعالى عنهم معروفة مشهورة ومن أغرب ما رأيته فى هذا المعنى ما رواه عبد الصمد بن مغفل عن عمه وهب بن منبه رضى الله عنهما أن رجلا قتل نفسا فجاء الى سائح من سائحى بنى اسرائيل فسأله عن ذلك قال فرفع له السائح من الارض عرجونا أبيض قد يبس حائلا ثم قال له اذا اخضر هذا العرجون قبلت توبتك وأراد السائح بذلك أن يؤيسه من التوبة لعظم ذنبه فأخذ الرجل العرجون وهو يطمع فى التوبة ويعزم فتاب وجعل يعبد الله تعالى زمانا ويدعو حتى اخضر ذلك العرجون باذن الله تعالى وقدرته وأغرب من هذا وأعجب ما خرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعبد أهل الارض فدل على راهب فأتاه فقال قتلت تسعة وتسعين نفسا فهل لى من توبة فقال لا فقتله فكمل به المائة ثم سأل عن أعلم أهل الارض فدل على رجل عالم فقال انه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع الى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى اذا أتى نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله وقالت ملائكة العذاب انه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم حكما فقال قيسوا ما بين الارضين فالى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى الى الارض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة قال قتادة قال الحسن ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره * (وقال عيسى) بن دينار كان يقال ما وفق الله عبدا العمل الا وهو يريد أن يقبله منه ولا وفق الله عبدا النزوع عن ذنب الا وهو يريد أن يغفره له * وقد ذكر القاضى يونس بن عبد الله المعروف بابن الصفار رحمه الله فى كتاب التسبب والتيسير لصالح العمل أنه أخبره ثقة من أهل العلم قال كان رجل من أهل الادب له أصحاب تجمعه بهم مجالس مكروهة فدعوه ذات يوم فلم يجبهم فقالوا له ما يمنعك من اجابتنا فقال دخلت البارحة فى الاربعين وأنا أستحى من سنى ثم لزم الخير والعبادة (قال) وروى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه قال وجبت حجة الله على ابن الاربعين وذكر فيه أيضا عن مغيث بن سمى قال كان رجل من بنى اسرائيل يعمل بالخطايا فبينما هو يسير ذات يوم ذكر ما سلف من عمله فقال اللهم غفرانك فمات على ذلك الحال فغفر له وذكر فيه أيضا عن رجل من العلماء أنه رأى فى منامه شيخا وجماعة من الشعراء قد أحدقوا به يسألونه قال فقلت له أيها الشيخ أخبرنى باحكم بيت قالته العرب فانشدنى

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه * فلما علاه قال للباطل ابعد

قال فوالله لقد نفعنى الله عز وجل بهذا البيت ماذكرته بعد ذلك عند شهوة أو خطيئة الا ارتدعت عنها وأرجو أن لا يفارقنى الانتفاع به ما بقيت ان شاء الله تعالى وفى الكتاب المذكور حكايات مستحسنات فى هذا المعنى فطالع ذلك فيه والله المستعان الموفق لا رب غيره * (ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما من به عليك) الظلم أضداد الانوار فما من نور الا وفى مقابلته ظلمة وكل ظلمة على قدر نورها والشئ يعرف بضده كما قيل

(ربما وردت الظلم) أى الشهوات والمعاصى والغفلات (عليك ليعرفك) حال ورودها (قدر ما من) الله (به عليك) أى ما كان قد من الله به عليك سابقا من الانوار والاقبال على مولاك فتحمده عليها واذا رجعت الى حالك عرفت أن ذلك نعمة عظيمة فيكثر منك الحمد والشكر فقد صارت النقمة نعمة وقد يكون سبب ورودها ما حصل منك من الاعجاب بطاعتك فيوردها عليك لتعرف قدرك ولا تتعدى طورك فلا تتكبر ولا ترى نفسك على أبناء جنسك وهذه نعمة أيضا وقد ترد عليك عقوبة وامتحانا وعلامة ذلك أنك كلما خرجت من معصية وقعت فى أخرى وهكذا ولا توفق للتوبة ولا تعتقد التقصير من نفسك

وبضدها تتبين الاشياء * فما أورد عليك من ظلمات الحجبة والغيبة فى ليالى الهجر والفرقة فانما ذلك ليعرفك قدر ما من به عليك من أنوار التجلى والحضور فى نهاية القربة والوصلة فجميع ذلك نعم سابغة عليك من غير علم منك بذلك * (من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها) أكثر الناس لا يعرفون قدر النعم الا اذا فقدوها وذلك لاجل غلبة الغفلة عليهم حين وجودها عندهم قال سرى السقطى رضى الله عنه من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم * وقال الفضيل رضى الله عنه عليكم بمداومة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم وقال بعض البلغاء اذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة وقال آخر شكر النعمة عصمة من حلول النقمة وفى معنى هذا قيل انما يعرف قدر الماء من بلى بالعطش فى البادية لا من كان على شاطئ الانهار الجارية وقيل أيضا الولد العاق المصر على تأبيه انما يعرف قدر الاب يوم وفاة أبيه وقيل نعم الله مجهولة وتعرف اذا فقدت ومن دعاء بعض الصالحين اللهم عرفنا نعمك بدوامها ولا تعرفها لنا بزوالها قلت ولاجل غلبة الجهل بالنعم الا عند الفقد وتضييع الشكر عليها من العبد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنظر الى من هو أسفل منا لئلا نزدرى نعمة الله علينا والسعيد من وعظ بغيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم وروى أيضا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه قال الشيخ أبو حامد رضى الله عنه وكان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى فيشاهدهم ويشاهد عللهم ومحنهم ويحضر حبس السلطان ويشاهد أرباب الجنايات ومحنهم فى التعرض لاقامة العقوبات ويحضر المقابر فيشاهد أصحاب العزاء وتأسفهم على ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه وكان يعود الى بيته ويشتغل بالشكر طول النهار على نعم الله عليه فى تخليصه من تلك البلايا انتهى وكان الربيع بن خثيم رضى الله عنه حفر فى داره قبرا وكان يضع فى عنقه غلا وينام فى لحده ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم يقوم ويقول يا ربيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد وهذا كله موافق لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديثين المذكورين ولا طريق للعبد الغافل الى تعرف النعم الموجودة لديه أبلغ منه فاذا عرف نعم الله تعالى عليه اشتغل بالشكر عليها من قبل أن تزال عنه فلا يكون له سبيل اليها وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها * (لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فان ذلك مما يحط من وجود قدرك) اذا ترادفت نعم الله تعالى عليك فلا ينبغى أن تدهشك عن القيام بشكرها من حيث ترى عجز نفسك عن توفية ذلك وأن لا قبل لك به فتتركه فان الله تعالى رفع قدرك وأعلى أمرك وجعل القليل منك كثيرا وأشهدك من حسن توليه لك ونسبة أفعالك اليه ما يؤذن بعظم سيادتك ورفعة قدرك فلم تبخس نفسك حقها وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر والقيام بمقتضى الامر لا على وجه الادب والاتيان من الشكر بما وجب كأن الامر فى ذلك اليها * قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه ما من نعمة الا والحمد أفضل منها والنعمة التى

(من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها) هذا تعليل لما قبله كأنه قال انما كان ورود الظلم معرفا بقدر النعم لان الاشياء انما تتبين باضدادها فعند وجود النقيض يظهر فضل المناقض فانما يعرف قدر نعمة البصر مثلا من ابتلى بالعمى وقد قيل انما يعرف قدر الماء من ابتلى بعطش البادية لا من كان على شاطئ الانهار والاودية الجارية (لا تدهشك واردات النعم) أى النعم الواردة أى المترادفة عليك (عن القيام بحقوق شكرك) أى شكرك المولى عليها بان ترى عجز نفسك عن توفية ذلك فتترك الشكر (فان ذلك مما يحط من وجود قدرك) أى ان الله تعالى قد رفع قدرك وجعل القليل منك كثيرا قال تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها فلا تبخس نفسك حقها وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر بسبب كثرة النعم وذلك من الجهل كما لو تركت الشكر عليها الاستقلالها فى نظرك فالحامل على ترك الشكر على النعمة أحد أمرين وكل منهما مذموم ومن شكر اللسان ذكر الله ومنه الباقيات الصالحات التى تذكر عقب الصلوات

(تمكن حلاوة الهوى) الهوى ميل النفس والمراد به المهوى وهو الشهوات أى تمكن حب شهوات الدنيا (من القلب هو الداء العضال) أى الذى لا تنفع فيه الحيل والاسباب والادوية كالايمان والمعرفة واليقين فان الداء اذا تمكن من القلب لم يبق للدواء محل فلذا أعضل أمره وتعذر برؤه فلا يفيد فيه الا وارد الهى كما أشار اليه بقوله (لا يخرج الشهوة من القلب الا خوف مزعج) يرد على القلب من شهود صفات الجلال ومنشؤه النظر فى الآيات المحتوية على ما أعد للعصاة وتذكره نزول الموت به ودخوله للقبر وحيدا وسؤال الملكين مع أهوال الحشر والمعاد الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ويجعل الولدان شيبا الى غير ذلك (أو شوق مقلق) يرد على القلب من شهود صفات الجمال ومنشؤه النظر فى الآيات المحتوية على ما أعد لاهل الطاعات وتذكره ما أعد لاوليائه من النعيم مما ٣٨ لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر الى غير ذلك والمواظبة على حضور مجالس الذكر والمذكر علاج كبير ونفع كبير فى حصول ذلك اذ لا يزال ذلك يعمل فى القلب شيأ فشيأ الى أن يسكنه الخوف أو الشوق أما اذا لم يكن الاول مزعجا والثانى مقلقا فلا يفيدان تركا ولا توجها (كما لا يحب العمل المشترك) وهو المشوب بالرياء والتصنع (كذلك لا يحب القلب المشترك) وهو الذى فيه محبة غير الله والسكون اليه والاعتماد عليه ولما كانت المحبة بمعنى ميل القلب مستحيلة فى حقه تعالى أولها على طريقة الخلف بقوله (العمل المشترك لا يقبله) أى لا يثيب عليه لعدم الاخلاص فيه فعدم محبته بمعنى عدم اثابته عليه (والقلب المشترك لا يقبل عليه) أى لا يرضى عن صاحبه ولا يثيبه لعدم وجود الصدق منه فعدم محبته بمعنى عدم الرضا عن صاحبه وعدم اثابته فمن صحح أعماله بالاخلاص وأحواله بالصدق كان محبوبا لله أى متنابا مرضيا عنه والا فلا أما السالك فيتمنون لله محبة لكن الغيوب لا تعلم حقيقتها (أنوار أذن لها فى الوصول وأنوار أذن لها فى الدخول) أى الانوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب وهى معارف وأسرار الهية تنقسم الى قسمين أنوار أذن لها فى الوصول الى ظاهر القلب فقط وأنوار أذن لها فى الدخول الى صميم القلب وسويدائه فالانوار الواصلة الى ظاهر القلب يشاهد القلب معها نفسه وربه ودنياه وآخرته فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربه وتارة يحب آخرته وتارة يحب دنياه والانوار الداخلة الى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها الا وجود الله عز وجل فلذلك لا يحب سواه ولا يعبد الا اياه قال بعض العارفين اذا كان الايمان فى ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة والدنيا وكان مرة مع ربه ومرة مع نفسه فاذا دخل الايمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه اه ثم فرع على ما تقدم بقوله

ألهمها الحمد أفضل من الاولى لان بالشكر يستوجب المزيد وفى أخبار داود عليه السلام الهى ابن آدم ليس فيه شعرة الا وتحتها نعمة وفوقها نعمة فمن أين يكافئك فاوحى الله تعالى اليه يا داود انى أعطى الكثير وأرضى باليسير وان شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمنى وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اليه انى بارض قد كثرت فيها النعم حتى لقد اشفقت على من قبلى ضعف الشكر فكتب اليه عمر انى كنت أراك أنك أعلم بالله فانت ان الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله تعالى عليها الا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك الا فى كتاب الله المنزل قال الله ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وقال تعالى وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده الخ وأى نعمة أعظم من دخول الجنة * (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال) القلب محل الايمان والمعرفة واليقين وهذه هى الادوية لامراضه التى أوجبها وجود الهوى والشهوة فاذا تمكن الداء من القلب لم يبق للدواء محل فلذلك أعضل أمره وتعذر برؤه * (لا يخرج الشهوة من القلب الا خوف مزعج أو شوق مقلق) الشهوة المتمكنة من القلب لا يخرجها الا وارد قوى قاهر غالب يرد عليه وذلك اما خوف مزعج أو شوق مقلق وما عدا هذين الامرين لا استقلال له بذلك * (كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يقبل عليه) العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع والقلب المشترك هو الذى فيه محبة غير الله تعالى والسكون اليه والاعتماد عليه فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه الى الناس والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه الى نفسه فالعمل المشترك لا يحبه ولا يقبله ولا يثيب عليه لفقد الاخلاص منه والقلب المشترك لا يحبه ولا يقبل عليه ولا يرضى عنه لعدم وجود الصدق فيه فمن صحح أعماله بالاخلاص وأحواله بالصدق كان محبوبا لله تعالى متنابا مرضيا عنه والا فلا وقال رضى الله عنه * (أنوار أذن لها فى الوصول وأنوار أذن لها فى الدخول) الانوار الواردة على القلوب من خزائن

(ربما وردت عليك الانوار) أى العلوم والمعارف الالهية (فوجدت القلب محشوا بصور الآثار) أى معلقا بصور المكونات من أموال وأولاد وغيرهما (فارتحلت من حيث نزلت) أى من المكان الذى نزلت فيه وهو القلب لانها مطهرة مقدسة فلا تحل فى القلب المدنس بالاغيار (فرغ قلبك من الاغيار) أى التعلق بغير مولاك وامح عنه صور الآثار بأن لا تتوجه بسرك الى غير ربك فلا يكون لك أنس الا به ولا اعتماد الا عليه (يملأه بالمعارف والاسرار) قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وتقدم فى كلام المصنف كيف يشرق قلب صور الاكوان منطبعة فى مرآته ٣٩ واذا كان كذلك فـ(لا تستبطئ منه النوال) أى اعطاء المعارف والاسرار (ولكن استبطئ من نفسك وجود الاقبال) عليه بمحو صور الاغيار من مرآة قلبك بالمجاهدة والرياضة ثم قال (حقوق) كائنة (فى الاوقات) أى الازمنة وتلك الحقوق هى وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما (يمكن قضاؤها) أى ان من فاته شئ من ذلك فى وقته المعين له أمكنه قضاؤه فى وقت آخر (وحقوق الاوقات) ما يرد على العبد من قبل الرب من الاحوال فوقت كل عبد ما هو عليه من تلك الاحوال وأوقاته أربعة لا خامس لها النعمة والبلية والطاعة والمعصية وسمى ما ذكر وقتا لانه يرد فى وقت مخصوص تسمية للشئ باسم زمنه وحقوقها الواجبة عليك فيها هى المعاملات الباطنية التى تقتضيها تلك الاحوال فحقه عليك فى النعمة الحمد والشكر وفى البلية الصبر والرضا وفى الطاعة شهود المنة وفى المعصية الاستغفار والتوبة ولذا يقولون الفقير ابن وقته أى يتأدب معه ويعطيه حقه كما يتأدب الولد مع أبيه وتلك الحقوق (لا يمكن قضاؤها) اذا فاتت (اذ ما من وقت) أى حال (يرد الا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد) هو بمعنى ما قبله أى فلا يسعك الا أن توفى حقه فيمنعك اشتغالك بحقه عن اشتغالك بحق ما فاتك ولذا قال (فكيف تقضى فيه حق غيره) مما فاتك (وأنت لم تقض حق الله فيه) وهو الحق المتعلق بذلك الوقت ولو قال وأنت لم تقض حق ذلك الوقت لكان أوضح وحينئذ فيجب عليك أن تكون مراقبا لقلبك حتى تقوم بمراعاة تلك الحقوق التى لا يمكنك قضاؤها ان فاتت ولا تشغل أوقاتك بشهوات نفسك ورعونات بشريتك حتى تضيع حقوق الله الواجبة عليك التى ليس لها خلف يقوم مقامها واذا فاتت لا يمكن قضاؤها ولذا قال

الغيوب تنقسم الى قسمين أنوار أذن لها فى الوصول الى ظاهر القلب فقط وأنوار أذن لها فى الدخول الى صميم القلب وسويدائه فالانوار الواصلة الى ظاهر القلب يشاهد العبد معها نفسه وربه ودنياه وآخرته فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربه وطورا يسعى فى العمل لآخرته وطورا يعمل فى أمور دنياه والانوار الداخلة الى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها الا وجود الله عز وجل فلذلك لا يحب سواه ولا يعبد الا اياه * قال بعض العارفين اذا كان الايمان فى ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة والدنيا وكان مرة مع الله تعالى ومرة مع نفسه فاذا دخل الايمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه وفى لفظ آخر اذا كان الايمان فى ظاهر القلب يعنى أعلى الفؤاد كان المؤمن يحب الله حبا متوسطا فاذا دخل الايمان فى باطن القلب وكان فى سويدائه أحبه الحب البالغ * قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه ومحبة العبد ذلك أن ينظر فان كان يؤثر الله تعالى على جميع هواه ويغلب محبته على هواه حتى تصير محبة الله هى محبة العبد من كل شئ فهو محب لله تعالى حقا كما أنه مؤمن به حقا وان رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك * وقال بعض العلماء ظاهر القلب محل الاسلام وباطنه مكان الايمان فمن ههنا تفاوت المحبون فى المحبة لفضل الايمان على الاسلام وفضل الباطن على الظاهر * (ربما وردت عليك الانوار فوجدت القلب محشوا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت فرغ قلبك من الاغيار يملأه بالمعارف والاسرار) الانوار الالهية قد ترد على القلب فلا تجد فيه موضعا لاستقرارها لما غلب عليه من رعونات البشرية واستحكم فيه من صور الآثار الكونية فترتحل من حيث تنزل لانها مقدسة مطهرة فاذا أردت حلول الانوار فيه وتجلى المعارف والاسرار له ففرغه من الاغيار وامح عنه صور الآثار قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى كيف يشرق قلب صور الاكوان منطبعة فى مرآته * (لا تستبطئ منه النوال ولكن استبطئ من نفسك وجود الاقبال) تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله لا تطالب ربك بتأخير مطلبك ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك والعبارتان متفقتان معنى وان اختلفتا لفظا * (حقوق فى الاوقات يمكن قضاؤها وحقوق الاوقات لا يمكن قضاؤها اذ ما من وقت يرد الا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه) الحقوق الكائنة فى الاوقات هى وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما فمن

فانه شئ منها فى وقته المعين له أمكنه قضاؤه فى وقت آخر اذ قد جعل له فى ذلك مجال رحب فيستدرك فيه ما يفوته من تلك الحقوق والحقوق المضافة الى الاوقات هى المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه المتلونة عليه ووقت كل عبد ما هو عليه من ذلك فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك عند وروده عليه اذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به وارد يرد عليه حق جديد وأمر أكيد ولا يسعه الا أن يوفيه اذ ذاك فانه لم يجد مجالا لقضائه ولا يمكنه ذلك فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التى لا يمكنه قضاؤها ان فاتت ٭ قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه أوقات العبد أربعة لا خامس لها النعمة والبلية والطاعة والمعصية ولله تعالى عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر والرضا رضا النفس عن الله والصبر مشتق من الاصبار وهو نصب الغرض للسهام وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء فان ثبت لها فهو صابر والصبر ثبات القلب بين يدى الرب وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعطى فشكروا بتلى فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر ثم سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ماذا له يا رسول الله فقال أولئك لهم الامن وهم مهتدون أى لهم الامن فى الآخرة وهم المهتدون فى الدنيا ٭ (ما فات من عمرك لا عوض له وما حصل لك منه لا قيمة له) عمر العبد ميدان لاعماله الصالحة المقربة له من الله تعالى والموجبة له جزيل الثواب فى الدار الآخرة وهذه هى السعادة التى لها يكدح العبد ويسعى من أجلها وليس له منها الا ما سعى كما قال تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى فكل جزء يفوته من العمر خاليا من عمل صالح يفوته من السعادة بقدره ولا عوض له منه قال الجنيد رضى الله عنه الوقت اذا فات لا يستدرك وليس شئ أعز من الوقت وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من ذلك يتوصل به الى ملك كبير لا يفنى ولا قيمة لما يوصل الى ذلك لانه فى غاية الشرف والنفاسة ولاجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضى الله عنهم لانفاسهم ولحظاتهم وبادروا الى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم فى البطالة والتقصير ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم الا بالجد والتشمير وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بقية عمر المرء ما لها ثمن يدرك فيها ما فات ويحيى ما أمات وقد نظم بعض الشعراء فى المعنى رحمه الله وأرضاه فقال

بقية العمر عندى ما لها ثمن ٭ وان غدا غير محبوب من الزمن
يستدرك المرء فيها كل فائتة ٭ من الزمان ويمحو السوء بالحسن

وقال رجل لعامر بن عبد الله بن قيس رضى الله عنه وهو يريد الجمعة قف حتى أكلمك فقال له لولا أنى أبادر لوقفت لك قال له وما تبادر قال أبادر خروج روحى ٭ وقال الحسن البصرى رضى الله عنه أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم يقول كما لا يخرج أحدكم دينارا ولا درهما الا فيما يعود عليه نفعه فكذلك لا يحبون أن تخرج ساعة من أعمارهم الا فيما يعود عليهم نفعه ٭ وقال السرى السقطى رضى الله عنه جزت من

(ما فات من عمرك لا عوض له) أى لا عودة ولا رجوع له فاذا خليته من العمل الصالح الذى هو وظيفة ذلك الوقت فاتك من السعادة بقدره ولا يمكنك تداركه (وما حصل لك منه لا قيمة له) أى لا يمكن أن يقاوم بشئ لعظم قدره لانك تتوصل به اذا اشتغلت بحق الله فيه الى ملك كبير فى الآخرة وشرف عظيم كبير لا يفنى ولذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضى الله عنهم لانفاسهم ولحظاتهم وبادروا الى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم فى البطالة والتقصير ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم الا بالجد والتشمير وفى الحديث ما من ساعة تأتى على العبد لا يذكر الله فيها الا كانت عليه حسرة وندامة ويقال ان العبد يوم القيامة تعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعا وعشرين خزانة فيرى فى كل خزانة نعيما ولذة جزاء لما كان أودعه فى تلك الخزانة من الاعمال الصالحة والتى لم يعمل فيها شيأ يراها فارغة فيتحسر ويندم حيث لا ينفعه الندم ثم يلقى عليه الرضا والسكون

بغداد أريد الرباط الى عبادان لاصوم بها رجب وشعبان فاتفق لى فى طريقى على الجرجانى وكان من الزهاد الكبار فدنا وقت افطارى وكان معى ملح مدقوق وأقراص فقال ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام لن تفلح ولن تدخل فى سنن المحبين فنظرت الى مزود كان معه فيه سويق الشعير فسف منه فقلت ما دعاك الى هذا قال انى حسبت ما بين المضغ والسف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة وفى الخبر ما من ساعة تأتى على العبد لا يذكر الله تعالى فيها الا كانت عليه حسرة ويقال ان العبد تعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعا وعشرين خزانة فيرى فى كل خزانة نعيما ولذة وعطاء وجزاء لما كان أودع خزائنه من ساعاته فى الدنيا من الحسنات فيسره ذلك ويغتبط به واذا مرت به فى الدنيا ساعاته التى لم يذكر الله فيها رآها فى الآخرة خزائن فارغة لا عطاء فيها ولا جزاء عليها فيسوءه ذلك ويتحسر عليه كيف فاته حيث لم يدخر فيها شيأ فيرى جزاءه مدخورا ثم يلقى فى نفسه الرضا والسكون وجاء فى الخبر أن أهل الجنة بينما هم فى نعيمهم اذ سطع لهم نور من فوق أضاءت منه منازلهم كما يضئ الشمس والقمر لاهل الدنيا فينظرون الى رجال من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يرون الكوكب الدرى فى أفق السماء وقد فضلوا عليهم فى الانوار والجمال والنعيم المقيم كما فضل القمر على سائر النجوم فينظرون اليهم يطيرون على نجب تسرح بهم فى الهواء يزورون ذا الجلال والاكرام فينادونهم هؤلاء يا اخواننا ما أنصفتمونا كنا نصلى كما تصلون ونصوم كما تصومون فما هذا الذى فضلتم به علينا فاذا النداء من قبل الله تعالى انهم كانوا يجوعون حين تشبعون ويعطشون حين تروون ويعرون حين تكتسون ويذكرون حين تسكتون ويبكون حين تضحكون ويقومون حين تنامون ويخافون حين تأمنون فلذلك فضلوا عليكم اليوم فذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وقال أبو على الدقاق رضى الله عنه رؤى بعضهم مجتهدا فقيل له فى ذلك فقال ومن أولى منى بالجهد وأنا أطمع أن ألحق الابرار والكبار من السلف قال الله تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون وفى معناه أنشدوا

السباق السباق قولا وفعلا ٭ حذر النفس حسرة المسبوق

٭ (ما أحببت شيأ الا كنت له عبدا وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا) المحبة للشئ تقتضى الانقياد له وشدة العلاقة به وأن لا يبغى به بدلا كما قيل حبك للشئ يعمى ويصم وذلك معنى استعباده للمحب له فمن أحب غير الله عز وجل فقد استعبده ذلك الغير كائنا ما كان والله لا يحب أن تكون لغيره عبدا ولا يرضى بذلك تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم والخميصة والقطيفة والزوجة وقال محمد بن السماك كتب الى أخ ان استطعت أن لا تكون لغير الله عبدا ما وجدت للعبودية بدا فافعل وقال الجنيد رضى الله عنه انك لن تكون على الحقيقة له عبدا وشئ مما دونه لك مسترق وانك لن تصل الى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية وسئل عمن لم يبق عليه من الدنيا الا مقدار مص نواة فقال المكاتب عبد ما بقى عليه درهم ٭ ومن الحكايات فى هذا المعنى ما ذكر عن أبى عبد الله الرازى نزيل نيسابور قال كسانى ابن الانبارى صوفا ورأيت على رأس الشبلى قلنسوة ظريفة تليق بذلك الصوف فتمنيت فى نفسى أن يكونا جميعا لى فلما قام الشبلى من مجلسه التفت الى فتبعته وكان من عادته

(ما أحببت شيأ) من أمور الدنيا (الا كنت له عبدا) لان محبتك للشئ تقتضى انقيادك له وشدة علاقتك به وأن لا تبغى به بدلا كما قيل حبك للشئ يعمى ويصم وهذا معنى استعباده لك فان أحببت غير الله فقد استعبدك ذلك الغير كائنا ما كان (وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا) أى لا يرضى بذلك وفى الحديث تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم والزوجة والخميصة تعس وانتكس وقال الجنيد انك لن تكون على الحقيقة له عبدا وشئ مما دونه لك مسترق وانك لن تصل الى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية المكاتب عبد ما بقى عليه درهم

(لا تنفعه طاعتك) لانه غنى عن العالمين وأعمالهم (ولا تضره معصيتك) لتنزهه تعالى عن أن يصل اليه مكروه من خلقه (وانما أمرك بهذه) أى الطاعة (ونهاك عن هذه) أى المعصية (لما يعود عليك) من المنافع والمصالح فى الدارين وذلك على سبيل التفضل منه لا على وجه الايجاب عليه (لا يزيد فى عزه اقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزه ادبار من أدبر عنه) لان عزه صفة من صفاته الجامعة كالالوهية والكبرياء والعظمة وصفاته تعالى فى غاية الكمال والتمام فهى منزهة عن الزيادة والنقصان وهذا تعليل لما قبله من كونه لا يعود عليه نفع من عبيده ولا يلحقه ضرر منهم (وصولك الى الله) الذى يشير اليه أهل هذه الطريقة هو (وصولك الى العلم به) أى الى مشاهدته بعين بصيرتك مشاهدة تغنيك عن الدليل والبرهان ويعبر عن ذلك العلم بالمشاهدة وبعلم اليقين وبالتجلى وبالفيض الرحمانى والتعرف العيانى والذوق الوجدانى وأهل الشهود متفاوتون فمنهم من يحصل له تجلى الافعال وهو أول التجليات عندهم فيفنى فعله وفعل غيره فى فعل الله تعالى فلا يرى فاعلا الا هو ويخرج فى هذه الحالة عن التدبير والاختيار وهذه أول مراتب الوصول ومنهم من يحصل له تجلى الصفات فيقف فى مقام الهيبة والانس بما يشاهده قلبه من الجلال والجمال وهذه رتبة ثانية من رتب الوصول ومنهم من يرقى الى مقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة فيغيب فى شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهو أيضا رتبة فى الوصول وفوق هذا رتبة حق اليقين ويكون من ذلك فى الدنيا لمح وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه رتبة حتى قالبه وهو من أعلى رتب الوصول قال فى عوارف المعارف فاذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الاحوال الشريفة انه فى أول المنزل فاين الوصول هيهات منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الابدى فكيف فى العمر القصير الدنيوى اه (والا) ترد بالوصول ما ذكر وهو العلم الحقيقى بالله تعالى بطريق الذوق والوجدان بان أردت به الوصول المتعارف وهو وصول الذوات والاجسام فلا يصح (فجل) أى لانه تعالى (ربنا أن يتصل به شئ أو يتصل هو بشئ) لا حسا وهو ظاهر ولا معنى اذ كيف يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير وشرط الاتصال المداناة فى الوصف ولا نسبة بين كامل على

اذا أراد أن أتبعه أن يلتفت الى فلما دخل داره دخلت فقال انزع الصوف فنزعته فلفه وطرح عليه القلنسوة ودعا بنار فاحرقهما ومثل هذا انما كان ينكر عليه من لم يعرف مقصوده وفى ذلك شئ كثير ورد عنه * (لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك وانما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك) الحق تعالى غنى عن أعمال العاملين لانه منزه عن الاعواض والاغراض فلا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك وانما أمرك ونهاك لما يعود عليك من المصالح والمنافع فى الدارين لا غير وذلك على سبيل التفضل منه من غير ايجاب عليه وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله عجب ربك من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل قال فى لطائف المنن اعلم رحمك الله أن الله لم يأمر العباد بشئ وجوبا أو يقتضيه منهم ندبا الا والمصلحة لهم فى فعل ذلك الامر ولم ينقض منهم ترك شئ تحريما أو كراهة الا والمصلحة لهم فى ترك ما أمرهم بتركه وجوبا أو ندبا ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى انه يجب على الله رعاية مصالح عباده بل انما نقول ذلك عادة الحق وشرعته المستمر فعلها مع عباده على سبيل التفضل فليت شعرى اذا كان الواجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه ثم انا نظرنا فرأينا كل ما هو واجب أو مندوب اليه يستلزم الجمع على الله وكل منهى عنه أو مكروه يتضمن التفرقة عنه فاذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه لكن الطاعات هى أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها والمعصية هى أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها انتهى * (لا يزيد فى عزه اقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزه ادبار من أدبر عنه) عزة الله تعالى صفة من صفات ذاته وصفاته فى غاية الكمال والتمام فهى منزهة عن الزيادة والنقصان وسبقية العلل وقال رضى الله عنه * (وصولك الى الله وصولك الى العلم به والا فجل ربنا أن يتصل به شئ أو يتصل هو بشئ) الوصول الى الله تعالى الذى يشير اليه أهل هذه الطريقة هو الوصول الى العلم الحقيقى بالله تعالى وهذا هو غاية السالكين ومنتهى سير السائرين وأما الوصول المفهوم بين الذوات فهو متعال عنه وقال الجنيد رضى الله عنه متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير هيهات هذا ظن عجيب الا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا احاطة الا اشارة اليقين وتحقيق الايمان قال الشيخ أبو حفص عمر ابن محمد بن عبد الله السهروردى صاحب كتاب عوارف المعارف رحمه الله واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار اليهما الشيوخ وكل من وصل الى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو

الاطلاق وناقص على الاطلاق (قربك منه) الذى تشير اليه أهل هذه الطريقة هو (أن تكون مشاهدا لقربه) منك قربا معنويا فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة فى التأدب بآداب الحضرة (والا) نقل ذلك بل أردنا القرب الذى هو من صفات الاجسام (فمن أين أنت ووجود قربه) قربا حسيا فهذا لا يصح (الحقائق) أى العلوم اللدنية التى يقذفها الله تعالى فى أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحررهم من رق الاغيار وتعرضهم بسرهم الى نفحات الحق (ترد فى حال التجلى) أى تجلى الله على قلوبهم (مجملة) لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها لعظم التجلى على قلوبهم (وبعد الوعى) بزوال ذلك التجلى (يكون البيان) أى تتصرف فيها أذهانهم بالاعتبار والتأمل فيتبين لهم معناها ويظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية حتى انه ربما يجرى على لسان بعضهم كلام كثير لا يلقى له بالا فاذا فرغ من ذكره وتأمله وجده صحيحا مثال ذلك ما وقع من الحلاج من قوله ما فى الجبة الا الله فان هذا قاله لعظم التجلى عليه فاذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحا لان معناه أنه لا قائم بالاشياء الا هو سبحانه وهذا معنى صحيح يوافق الشريعة وكذا قول بعضهم أنا اللوح أنا القلم فان ذلك لعظم التجلى عليه وغيبته عن حسه يرى أن نفسه عين تلك الاشياء فاذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحا أى ان المتجلى عليه هو الله سار سره فى اللوح والقلم وغيرهما وأشار بذلك الى المسئلة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة حيث قالوا حقيقة بلا شريعة باطلة وشريعة بلا حقيقة عاطلة * ثم استدل على ذلك بقوله تعالى (فاذا قرأناه) أى أقرأناه لك على لسان جبريل (فاتبع قرآنه) أى فاستمع لقراءته ثم اقرأه بعد ذلك (ثم ان علينا بيانه) أى بيان معانيه لك فقد جعل بيان

رتبة فى الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الافعال وهو رتبة فى التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى ويخرج فى هذه الحالة عن التدبير والاختيار وهذه رتبة فى الوصول ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والانس بما يكاشفه قلبه من مطالعة الجلال والجمال وهذا تجل بطريق الصفات وهو رتبة فى الوصول ومنهم من يرتقى الى مقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغمى فى شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهذه رتبة فى الوصول وفوق هذا رتبة حق اليقين ويكون من ذلك فى الدنيا لمح وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى مراتب الوصول فاذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الاحوال الشريفة أنه فى أول المنزل فاين الوصول هيهات منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى فكيف بالعمر القصير الدنيوى * (قربك منه أن تكون مشاهدا لقربه والا فمن أين أنت ووجود قربه) القرب الحقيقى قرب الله منك قال الله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب وقال تعالى ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون وقال عز من قائل ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وحظك من ذلك انما هو مشاهدتك لقربه فقط فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة وغلبة الهيبة والتأدب بآداب الحضرة وأما أنت فلا يليق بك الا وصف البعد وشهوده من نفسك كما يقول المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا الهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك * (الحقائق ترد فى حال التجلى مجملة وبعد الوعى يكون البيان فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه) حقائق العلوم اللدنية التى يقذفها الحق تعالى فى أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحررهم من رق الاشياء وتعرضهم باللجأ والافتقار لما يفتح عليهم المولى يكرمهم الحق تعالى بها تحقيقا لوعده لهم من غير تعلم ولا دراسة وعند ورودها عليهم وتجليها لهم تكون مجملة لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها فاذا وعوها وتصرفت فيها أذهانهم بالاعتبار والتأمل تبين لهم معناها وظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية من غير مخالفة حتى ان بعضهم ربما يجرى على لسانه وبنانه كلام كثير من غير أن يلقى له بالا فاذا فرغ من ذكره أو رسمه يتصفحه ويتأمله فيجده صحيحا مستقيما وقد أخبرنى بنحو ذلك من له قدم صدق فى هذا الطريق عن نفسه قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه وأصحاب الحقائق يجرى بحكم التصرف عليهم شئ لا علم لهم به على التفصيل وبعد ذلك يكشف لهم وجهه فربما يجرى على لسانهم شئ لا يدرون وجهه ثم بعد فراغهم عن النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم اذ تحقيق ذلك بجريان الحال فى ثانى الوقت انتهى كلام الامام أبى القاسم وهو موافق لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى والله تعالى أعلم وكأنهما أشارا بذلك الى المسئلة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة وقد عبروا عن ذلك بعبارات فقد سئل عبد الله بن طاهر الابهرى رضى الله عنه عن الحقيقة فقال الحقيقة كلها علم فسئل عن العلم فقال العلم كله حقيقة وقال الشبلى رضى الله

المعنى بعد قراءته المقارنة للتجلي الالهى (متى وردت الواردات) وهى التجليات (الالهية) ويعبر عنها بالاحوال أيضا وقوله (اليك) متعلق بوردت أى وردت على قلبك من قبل الحق فاحدثت فيه أحوالا سنية (هدمت) أى أزالت (العوائد عليك) أى الامور التى كنت معتادا لها وهى رعونات نفسك لان لها سلطنة عظيمة فاذا وردت على قلب مشحون بانواع الخبائث والرذائل أزالت ذلك وأثبتت عوضا منه أحوالا علية وأوصافا مرضية (ان) أى لان (الملوك) أى جنودهم (اذا دخلوا قرية أفسدوها) أى أزالوا ما تلبس به أهلها من النعيم وكذلك الواردات الالهية شبيهة بجنود الملك اذا حلت قلبا قهرت ما فيه وأزالته وهذا جواب عما يقال ان العوائد مما جبلت عليه الطبائع فكيف تزيلها الواردات وحاصل الجواب أن الوارد له القهر كجند الملك

ووضح ذلك بقوله (الوارد يأتى من حضرة قهار) أى ان له القهر والغلبة لوروده من حضرة اسمه القهار والقهار هو الغالب الذى لا يغلب (لاجل ذلك لا يصادمه شئ) من رعونات البشرية (الادمغه) أى أزاله ومعناه فى الاصل أصاب دماغه بالضرب ويلزم منه اتلافه واذهابه وهو أيضا حق ورد على باطل والباطل لا ثبات له مع الحق قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق كيف يحتجب الحق) أى الله (بشئ) من الموجودات العلوية والسفلية (والذى) أى والحال أن الذى (يحتجب) الله تعالى (به هو) أى الله (فيه ظاهر) أى ظاهر فيه تشاهده أرباب البصائر (وموجود حاضر) مدرك لهم فكيف يكون ما هو ظاهر فيه حجابا له حتى يستدل عليه به هل ذلك الا من عمى البصائر وعدم رؤيته فى كل شئ كما تقدم (لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور) بقلبك مع الله حال فعله بان تكون ملاحظا أنك حاضر بين يديه غير غائب عنه كأنك تراه كما فى الحديث فان ذلك دليل على قبوله ولا يلزم من فقد الدليل فقد المدلول ولذلك قال (فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته) أى ثمرة قبوله أى علامته (عاجلا) أى حال فعله ومن علامة قبوله أيضا وجدان حلاوته واستلذاذ قلبه به حال فعله كما مر وقوله كيف يحتجب الحق الى هنا معترض بين الكلام على الوارد ثم تممه بقوله (لا تزكين واردا) أى لا تفرح به وتمدحه فى سرك (لا تعلم ثمرته) فاذا أورد عليك وارد الهى أى تجل الهى ملك قلبك ويعبر عنه بالحال لكن لم يتأثر قلبك به بحيث تحب الاقبال على المولى وتنهض لطاعته وتقوم بحقوق ربوبيته فلا تفرح بذلك الوارد لان ثمرته انما هى تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما مر فان لم يوجد هذا

عنه الالسنة ثلاثة لسان علم ولسان حقيقة ولسان حق فلسان العلم ما نادى الينا بالوسائط ولسان الحقيقة ما أوصله الله الى الاسرار بلا واسطة ولسان الحق ليس اليه طريق وقال رويم رضى الله عنه أصح الحقائق ما قارن العلم وقال أبو بكر الوراق رضى الله عنه كنت فى تيه بنى اسرائيل فوقع فى قلبى أن علم الحقيقة يخالف علم الشريعة فاذا شخص تحت شجرة أم غيلان صاح بى وقال يا أبا بكر كل حقيقة تخالف الشريعة فهى كفر * واشارة المؤلف رحمه الله بالآية التى ذكرها الى هذا المعنى بينة * (متى وردت الواردات الالهية عليك هدمت العوائد عليك ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها) الواردات الالهية على العبد تمحو عنه جميع رعوناته وتهدم عليه مستمر عاداته ولها سلطنة عظيمة على ذلك فاذا وردت على قلب مشحون بانواع الخبائث والرذائل أزالت ذلك عنه بمرة وأثبتت عوضا عن ذلك أحوالا علية وأوصافا مرضية أنشدنى سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى هذا المعنى

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت * أرض النفوس ودكت الجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها * حين التزلزل والرجال رجال

الارض أرض النفوس والجبال جبال العقل والشمس شمس المعرفة والاشارة بالآية الى هذا المعنى بينة * (الوارد يأتى من حضرة قهار لاجل ذلك لا يصادمه شئ الا دمغه بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) الوارد موسوم بسمة القهر والغلبة لوروده من حضرة القهار الغالب على أمره لاجل ذلك لا يصادمه شئ من رعونات البشرية الا دمغه وأزاله وهو أيضا حق ورد على باطل والباطل لا ثبات له مع الحق والاشارة بالآية الى هذا المعنى بينة (كيف يحتجب الحق بشئ والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر) قد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى الكلام على هذا المعنى فى أول الكتاب وأتى فيه بالعجب العجاب وقد نبهنا عليه هنالك * (لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا) العمل الذى لا يجد صاحبه حضورا فيه ينبغى له أن لا ييأس من قبوله فان ذلك الى الله تعالى فقد يقبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا من وجدان حضور أو حلاوة أو غير ذلك ولو لم يكن الا قصد التقرب به وسقوطه عن نظره وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله لا عمل أرجى للقلوب * (لا تزكين واردا لا تعلم ثمرته

عندك فلا تفرح به فان فى ذلك نوعا من الاغترار (فليس المراد من السحابة الامطار وانما المراد منها وجود الاثمار) أى انها مرادة لوجود الاثمار الذى اقتضاه وجود امطارها لا لمجرد وجود امطارها وكذلك الوارد مراد لثمرته لا لوجود حظ

نفسك فيه فان كثيرا ممن يحصل عندهم تلك الاحوال القلبية يغترون بها ويتاركوا الاعمال الظاهرة مع وجود عقلهم (لا تطلبن بقاء الواردات) أى التجليات والاحوال القلبية (بعد أن بسطت أنوارها) عليك وأنوارها هى تكيف ظاهرك وباطنك بكيفيات العبودية (وأودعت) قلبك (أسرارها) وهى ما لاح فى قلبك من عظمة الربوبية فاذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبن بقاءه حال وجودها ولا تحزن على فقده اذا فقدته (فلك فى الله غنى عن كل شئ وليس يغنيك عنه شئ) كما قيل

لكل شئ اذا فارقته عوض
وليس لله ان فارقت من عوض

فالله تعالى انما أدخلك فى الحال لتأخذ منها الا لتأخذ منك لانها جاءت حاملة هدية التعريف من الله اليك فاذا أوصلت اليك ما كان فيها فلا تطلب بقاءها اذ لا يطلب بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته ولا أمين بعد أن أدى أمانته فان طلبت بقاءها كنت عبد الحامل لا عبد المحمول * ثم أقام دليلا على ذلك بقوله (تطلعك الى بقاء غيره) من الواردات المذكورة وغيرها كالانوار والمقامات والنعم الباطنة والظاهرة (دليل على عدم وجدانك له) اذ لو وجدته فى قلبك واجتمع عليه سرك لم تطلب بقاء غيره (واستيحاشك لفقدان ما سواه) كالواردات المذكورة (دليل على عدم وصلتك به) أى وصولك اليه اذ لو وصلت اليه لثبت كل محبوب ولم تستوحش عند فقد شئ سواه فالسالك اذا وردت على قلبه واردات الهية وبسطت فيه

فليس المراد من السحابة الامطار وانما المراد منها وجود الاثمار) الوارد مراد لثمرته لا لوجدان حظ نفسك منه كما أن السحابة مرادة لوجدان الاثمار الذى اقتضاه وجود امطارها لا لمجرد وجود امطارها وثمرة الوارد انما هى تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما تقدم فان لم تعلم وجود هذا فيك فلا تزك الوارد ولا تفرح به فان فى ذلك نوعا من الاغترار وانخداعا بلبسة الاظهار فكن على حذر منه * (لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها فلك فى الله غنى عن كل شئ وليس يغنيك عنه شئ) أنوار الواردات المنبسطة على العبد هى تكيف ظاهره وباطنه بكيفيات العبودية وأسرارها المودعة فيه بما لاح له من عظمة الربوبية فاذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبن بقاءه فى حال كونه ولا تأس على فقده اذا فقدته فان لك فى الله غنى عنه وعن غيره وليس لك غنى عن الله تعالى فى شئ من الاشياء كما قال الشاعر

لكل شئ اذا فارقته عوض * وليس لله ان فارقت من عوض

قال أبو عبد الله بن عطاء الله رضى الله عنه اياك أن تلاحظ مخلوقا وأنت تجد الى ملاحظة الحق سبيلا ويدخل فى هذا المعنى الذى ذكره ابن عطاء الله رضى الله عنه جميع الاغيار والانوار والمقامات والاحوال والدنيا والآخرة والنعم الباطنة والظاهرة فلا تلاحظ شيئا من ذلك ولا تركن اليه ولا تعتمد عليه بقى أو ذهب فان ذلك قادح فى اخلاص التوحيد قال فى التنوير واعلم أن البارى سبحانه انما يدخلك فى الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك وانما جاءت تحمل هدية التعريف من الله اليك فيها فتوجه اليها باسمه المبدئ فأبداها وأبقاها حتى اذا أوصلت اليك ما كان لك فيها فلما أدت الامانة توجه اليها باسمه المعيد فأرجعها وتوفاها فلا تطلبن بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته ولا أمين بعد أن بلغ أمانته وانما يفتضح المدعون بزوال الاحوال ويعزلهم عن مراتب الانزال هنالك يبدو انعوارهم تنك الاستار فكم من مدع الغنى بالله وانما غناه بطاعته أو بنوره أو فتحه وكم من مدع العز بالله وانما اعتزازه بمنزلته وصولته على الخلق معتمدا على ما ثبت عندهم من معرفته فكن عبد الله لا عبد العلل وكما كان الله لك ربا ولا علة فكن عبده ولا علة لتكون له كما كان لك اهـ * وقال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه عبد هو فى الحال بالحال وعبد هو فى الحال بالمحول فالذى هو فى الحال بالحال عبد الحال والذى هو فى الحال بالمحول عبد المحول وأمارة من هو فى الحال بالحال أن يأسى عليها اذا فقدها ويفرح بها اذا وجدها والذى هو فى الحال بالمحول لا يفرح بها اذا وجدت ولا يحزن عليها اذا فقدت وفى الاشارات عن الله سبحانه لا تركن الى شئ دوننا فانه وبال عليك وقاتل لك فان ركنت الى العلم تتبعناه عليك وان أويت الى العمل رددناه عليك وان وثقت بالحال وقفناك معه وان أنست بالوجد استدرجناك فيه وان لحظت الى الخلق وكلناك اليهم وان اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك فاى حيلة لك وأى قوة معك فارض بنا لك ربا حتى نرضاك لنا عبدا * (تطلعك الى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به) وجدان العبد

لربه ووصوله اليه هو غاية مطالبه ومنتهى آماله ومآربه وبه يفوز بالنعيم ويحظى بالملك العظيم وعند ذلك ينسى كل محبوب ويلهى عن كل مفروح به ومرغوب وهذه هي صفة أهل التفريد الذين استتروا في ذكر الله المجيد كما روى عن أبي عبد الله البسرى رضى الله عنه قال سألت رجلا بالكام ما الذى أجلسك في هذا الموضع فقال لى وما سؤالك عن شئ ان طلبته لم تدركه وان لحقته لم تقع عليه قلت تخبرنى ماهو قال علمى بان مجالسة الله تستغرق نعيم الجنان ثم قال آوّاه فقد كنت أظن أن نفسى ظفرت ومن الخلق هربت فاذا أنا كذاب في مقالى لو كنت محبا لله صادقا ما اطلع على أحد فقلت أما علمت أن المحبين خلفاء الله في أرضه مستأنسين بخلقه يدعونهم على طاعته نصاح صحيحة وقال لى يا مخدوع لو شممت رائحة الحب وعاينت ما وراء ذلك من القرب ما احتجت أن ترى فوق ما رأيت ثم قال يا سماء ويا أرض اشهدا أنى ما خطر على قلبى ذكر الجنة والنار قط ان كنت صادقا فامتنى فوالله ما سمعت له كلاما بعدها وخفت أن يسئ الى الظن من الناس من قتله فتركته ومضيت فبينما أنا على ذلك واذا أنا بجماعة فقالوا ما فعل الفتى فكنيت عن ذلك فقالوا ارجع فان الله قد قبضه فصليت معهم عليه فقلت لهم من هذا الرجل ومن أنتم قالوا ويحك هذا رجل به كان قد يمطر المطر قلبه على قلب ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أما رأيته يخبر عن نفسه أن ذكر الجنة والنار ما خطر على قلبه فهل كان أحد كذا الا ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فقلت من أنتم قالوا نحن السبعة المخصوصون من الابدال قلت علمونى شيأ قالوا لا نحب أن نعرف ولا نحب أن يعرف أنك ممن يحب أن لا يعرف وفي مثل هذا الحال أنشدوا

كانت لقلبى أهواء مفرقة * فاستجمعت اذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده * وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم * شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

وقد سئل أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه عن أقرب ما يتقرب به العبد الى الله تبارك وتعالى فقال أقرب ما يتقرب به اليه أن يطلع الله على قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره فهذه هي العلامة الصادقة والدلالة القاطعة على التحقق بهذا المقام العظيم فان كان له شعور بشئ من الاغيار المحبوبة فتطلع الى بقائها أو استوحش لفقدانها فذلك دليل على عدم تحققه بذلك فليعرف منزلته وحده وليعمل في تصحيح هذا المقام جهده وقال رضى الله عنه *(النعيم وان تنوعت مظاهره انما هو لشهوده واقترابه والعذاب وان تنوعت مظاهره انما هو لوجود حجابه فسبب العذاب وجود الحجاب واتمام النعيم بالنظر الى وجهه الكريم) مظاهر النعيم المتنوعة هي ما ورد من أنواع الثواب في الدار الآخرة من الحور والقصور والولدان والغلمان والمآكل والمشارب والملابس الى غير ذلك من أنواع المسرات واللذات ومظاهر العذاب المتنوعة هي ما ورد من أنواع العقاب فيها من الجحيم والحميم والزقوم والحيات والعقارب والسلاسل والاغلال والانكال وغير ذلك من أنواع الآلام والعقوبات وليس وجود النعيم

أنوارها وأودعت فيه أسرارها وحدثته نفسه بانه من الواصلين فان كان يتطلع ويتشوف الى شئ من الاغيار المحبوبة أو يستوحش لفقدانه فذلك دليل على عدم تحققه بهذا المقام الشريف قال الجنيد قدس سره انك لن تكون له على الحقيقة عبدا وشئ مما سواه لك مسترق وانك لن تصل الى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية (النعيم) أى نعيم الدنيا والآخرة أى التنعم والتلذذ بما فيهما من الملابس والمطاعم والحور والولدان والقصور (وان تنوعت مظاهره) أى مواضع ظهوره وهى الامور المذكورة التى يتنعم بها ظاهرا (فانما هو) أى النعيم بمعنى التنعم والتلذذ (بشهوده) تعالى (واقترابه) أى انما يكون نعيما حقيقيا اذا كنت حال ملابستك لتلك الاشياء مشاهدا له وحاضرا معه فان لم تكن بتلك الحالة فليس ذلك بنعيم حقيقة بل هو عذاب (والعذاب) أى التألم (وان تنوعت مظاهره) من الضرب والجحيم والسلاسل وغيرها (انما هو) أى العذاب بمعنى التألم (بوجود حجابه) تعالى أى انما يكون تألما حقيقة اذا كنت حال ملابستك لتلك الاشياء محجوبا عنه وكان غائبا عنك فان كنت مشاهدا له فليس ما أنت فيه عذابا حقيقة بل هو نعيم (فسبب العذاب) أى التألم (وجود الحجاب واتمام النعيم) أى النعيم التام أى التلذذ والتنعم (بالنظر الى وجهه الكريم) أى مشاهدته بعين البصيرة في الدنيا وبالبصر في الآخرة وحاصله أن النعيم محصور في شهود الرب والتألم في الحجاب عنه وأما ما يتنعم به ظاهرا أو يعذب والعذاب به ظاهرا فليس بنعيم ولا عذاب بالنظر الى ذاته

والعذاب بسبب وجود هذه الاشياء ومباشرتها للمنعم والمعذب وانما ذلك لما تضمنته وظهر فيها من وجود قرب الله تعالى وشهوده للمنعم أو وجود حجابه واعراضه عن المعذب فهذان الامران بهما يقع النعيم والعذاب على التحقيق *(ما تجد القلوب من الهموم والاحزان فلاجل ما منعت من وجود العيان) وجود الهموم والاحزان الدنيوية والاخروية من نتائج رؤية النفس واعتبارها وبقاء حظها وهو الذى منع العبد من وجود العيان فلو فقد في عن رؤية نفسه وذهب عن مراعاة حظه لظفر بوجود العيان ولم يكن له هم ولا حزن البتة بل يكون متصل الحبور دائم الفرح والسرور كما قال تعالى لا تحزن ان الله معنا فالمعية المذكورة لا يجتمع معها حزن وهم وهى ما قلناه من وجود العيان والعيان والله أعلم درجة فوق درجة اليقين كما قال الشاعر

كبر العيان على حتى انه * صار اليقين من العيان توهما

(قال) الشبلى رضى الله عنه من عرف الله لا يكون له غم أبدا وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام يا داود ان محبتى في خلقى أن يكونوا روحانيين والروحانية علم هو أن لا يغتموا وأنا مصباح قلوبهم يا داود لا تمزج الهم قلبك فينقص ميراث حلاوة الروحانيين وسيأتى في كلام المؤلف رحمه الله أوحى الله الى داود عليه السلام بى فافرح وبذكرى فتنعم فباستنارة القلب بنور المعرفة واحتظائه بوجود العيان والرؤية يخرج منه الهم ويحل محل الروحانية على أن في وجود الهموم والاحزان لمن لم يبلغ هذا المقام اذا لم يقدر على دفعها عن نفسه فوائد جزيلة لا ينبغى أن تستحقر من قبل أنها موجبة لخمود النفس وصفاء القلب وزوال الاشر والبطر والفرح بالدنيا ثم هى كفارات ان كانت في الامور الدنيوية ودرجات ان كانت في الامور الاخروية والهم متعلق بما يكون في المستقبل والحزن متعلق بما يكون في الماضى *(من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك) وجدان الكفاية من الرزق وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة على العبد لما له في ذلك من حصول جميع المصالح الدينية والدنيوية أما مصالح الدين في عدم الزيادة على الكفاية فظاهر اذ لو وجدها ربما أوجب له ذلك طغيانا كما قال الله تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فالاستغناء هو وجود الزيادة على الكفاية وهو سبب الطغيان والطغيان أصل كل معصية لله عز وجل وقصة ثعلبة بن حاطب حين طلب الدعاء من النبى صلى الله عليه وسلم أن يرزقه الله مالا وما آل اليه أمره أمر مشهور * وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى وفي حديث أبى الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما طلعت شمس ولا غربت الا بجنبيها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الثقلين يا أيها الناس هلموا الى ربكم فان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى أو كما قال صلى الله عليه وسلم وأما مصالح الدنيا في ذلك فسيأتى التنبيه عليها في قول المؤلف رحمه الله تعالى ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه وأما مصالح الدين عند وجود الكفاية وعدم النقصان منها فمن أجل توصله بذلك الى الاستعانة بها على طاعة الله تعالى ولاجل ذلك عظمت النعمة بها على العبد قال الله تعالى وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا أى لا تنس نصيبك في الآخرة أن تتوصل اليه بما

(ما تجده القلوب من الهموم والاحزان) الدنيوية (فلاجل ما منعت من وجود العيان) أى معاينة الرب ومشاهدته بعين البصيرة والا لم يحصل عندها هم ولا حزن على فوات شئ من الدنيا فوجدانهما من نتائج رؤية النفس واعتبارها وبقاء حظها فلو غاب الشخص عن رؤية نفسه بمعاينة سيده لكان دائم الفرح والسرور كما قال تعالى لا تحزن ان الله معنا فمن استنار قلبه بنور المعرفة لا يكون عنده غم أبدا لكن في وجود الهموم والاحزان لمن لم يبلغ هذا المقام اذا لم يقدر على دفعها عنه فوائد جليلة لانها توجب خمود النفس وصفاء القلب وزوال الاشر والبطر والفرح بالدنيا والهم ما يتعلق بما يكون في المستقبل والحزن ما يتعلق بما يكون في الماضى ويصح أن يكون هذا شاملا للامور الاخروية أيضا فأهل النار لا يحصل للواحد منهم هم ولا حزن الا اذا لم يشاهد مولاه فان شاهده لم يحصل عنده ذلك بل يكون العذاب في حقه عذوبة (من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك) من غير زيادة ولا نقصان (ويمنعك ما يطغيك) أى يوقعك في الطغيان وهو كثرة المال قال تعالى كلا ان الانسان ليطغى

آتاك الله من الدنيا وأما مصالح الدنيا فى ذلك فظاهر لا يحتاج الى التنبيه عليه اذ بذلك يحصل له طيب العيش وراحة القلب والبدن وصيانة الوجه عن ذل المسئلة عند وجود الحاجة والفاقة فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة ويقنع بما أباح له من هذه المنة الجسيمة فيستعمل بذلك راحة نفسه والاستغناء عن بنى جنسه ويحصل له بذلك حلاوة الزهد فى الامور العاجلة وتجافى القلب عن زهراتها فان طلب الزيادة من الدنيا ولم يقنع بما قسم له منها خيف عليه من اقتحام المهالك اذ يجره الحرص والطمع الى ذلك (قال) بعض العارفين كل من لا يعرف قدر ما زوى عنه من الدنيا ابتلى بأحد وجهين اما بحرص مع فقر ينقطع به حسرات أو رغبة فى غنى نفسه شكر ما أنعم به عليه وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس وغنى النفس عن الدنيا شرف الاولياء المختارين وعز أهل التقوى من المؤمنين المحسنين ولقد صدق الشاعر فى قوله

غنى النفس ما يكفيك من سد خلة * فان زدت شيأ عاد ذاك الغنى فقرا

(يحكى) عن بنان الحمال رضى الله عنه أنه قال كنت مطروحا وباعلى باب بنى شيبة سبعة أيام لم أذق شيأ فنوديت فى سرى ان من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عينى قلبه وقال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه ذكر لى ان فى خراب أبلة جارية مجنونة تنطق بالحكمة فلم أزل أطلبها حتى وجدتها فى خربة جالسة على حجر وعليها جبة صوف وهى محلوقة الرأس فلما نظرت الى قالت لى من غير أن أكلمها مرحبا بك يا عبد الواحد قال فقلت لها رحب الله بك وعجبت من معرفتها بى ولم ترنى قبل ذلك فقالت ما الذى جاء بك ههنا قلت جئت لتعظينى قالت واعجبا لواعظ يوعظ ثم قالت يا عبد الواحد اعلم أن العبد اذا كان فى كفاية ثم مال الى الدنيا سلبه الله سبحانه وتعالى حلاوة الزهد فيظل حيران والها فان كان له عند الله نصيب عاتبه وحيا فى سره فقال عبدى أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى وأجعلك دليلا لاوليائى وأهل طاعتى فى أرضى فملت الى عرض من أعراض الدنيا وتركتنى فورثتك بذلك الوحشة بعد الانس والذل بعد العز والفقر بعد الغنى عبدى ارجع الى ما كنت عليه أرجع اليك ما كنت تعرفه من نفسك قال ثم تركتنى وولت عنى فانصرفت وبقلبى حسرة منها وفى بعض الكتب ان أهون ما أصنع بالعالم اذا مال الى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتى * وذكر أبو ابراهيم اسحق بن ابراهيم التجيبى القرطبى المالكى رحمه الله فى كتاب النصائح له عن أبى عبد ربه الشامى ثم الدمشقى انه كان من أكثر أهل دمشق مالا فخرج مسافرا فامسى الى جانب نهر ومرعى فنزل به قال فسمعت صوتا يكثر حمد الله تعالى فى ناحية المرج فاتبعته فوافيت رجلا ملفوفا فى حصير فسلمت عليه فقلت من أنت يا عبد الله فقال رجل من المسلمين فقلت فما حالك هذه قال حال نعمة يجب على حمد الله عليها قال فقلت وكيف وانما أنت فى حصير قال ومالى لا أحمد الله تعالى وقد خلقنى فأحسن خلقى وجعل منشئى ومولدى فى الاسلام وألبسنى العافية فى أركانى وستر على ما أكره ذكره ونشره فمن أعظم نعمة ممن أمسى فى مثل ما أنا فيه فقلت له ان رأيت رحمك الله أن تقوم معى الى المنزل فانا نزول على النهر ههنا قال ولم قلت لتصيب من الطعام ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير قال مالى فيه من حاجة قرادونه على أن يتبعنى فأبى فانصرفت وقد تقاصرت فى نفسى ومقتها اذ لم أخلف بدمشق رجلا يكاثرنى فى غنى وأنا ألتمس الزيادة فقلت اللهم انى أتوب اليك من سوء ما أنا فيه فبت لا يعلم اخوانى ما أجمعت عليه فلما

أن رآه استغنى وفى الحديث ما قل وكفى خير مما كثر وألهى أما ما نقص عن الكفاية فقد يكون معه اشتغال عن طاعة الرب فليس ذلك من تمام النعمة ولما كان ذلك هو المناسب لحال المريد الصادق لم يقل ويمنعك ما يطغيك أو يقلل رزقك عن كفايتك

كان

كان من السحر رحلوا كنحو رحلتهم فيما مضى وقدموا الى دابتى فصرفتها الى دمشق فقلت ما أنا بصادق فى التوبة ان مضيت الى متجرى فسألنى القوم فأخبرتهم وعاتبونى على المضى فأبيت فلما قدم دمشق وضع يده يتصدق بماله فما زال يفرقه فى سبيل الخيرات حتى احتضر فما وجدوا عنده الا قدر ثمن الكفن زاد غير أبى ابراهيم وكان يقول يعنى أبا عبد ربه المذكور والله لو أن نهركم يعنى نهر دمشق سال ذهبا ما خرجت اليه ولا أخذت شيأ منه ولو قيل لى من مس هذا العمود مات لقمت اليه وعانقته شوقا الى الله ورسوله * (ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه) درء المفاسد عند العقلاء أهم من جلب المصالح فمن زوى الله تعالى عنه فضول الدنيا فرضى بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلع الى زيادة من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه لانه دفع عن نفسه مفسدة وجود الحزن بتركه لما يفيد حصول مصلحة الفرح الذى يزول عن قرب واعتاض من ذلك الراحة الدائمة كما قيل

ومن سره أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيأ يخاف له فقدا
فان صلاح المرء يرجع كله * فسادا اذا الانسان جاز به الحدا

وقيل لبعضهم لم لا تغتم فقال لانى لا أقتنى ما يغمنى فقده فالمفروح به هو المحزون عليه ان قليلا فقليل وان كثيرا فكثير كما قيل

على قدر ما أولعت بالشئ حزنه * ويصعب نزع السهم مهما تمكنا

يحكى أن رجلا حمل الى بعض الملوك قدحا من فيروزج مرصعا بالجوهر لم ير له نظير ففرح الملك به فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا قال أراه مصيبة وفقرا قال وكيف ذلك قال ان انكسر كانت مصيبة لا جبر لها وان سرق صرت فقيرا اليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل اليك فى أمن من المصيبة والفقر فاتفق أنه انكسر القدح يوما فعظمت مصيبة الملك فيه وقال صدق الحكيم ليته لم يحمل الينا وأمثال هذه المصيبة وأعظم منها نازلة بكل من له علاقة بشئ من أسباب الدنيا فانها ان لم تؤخذ منه بغصب أو سرقة أو جائحة نازلة فلا بد أن يؤخذ هو عنها بالموت الهاذم للذات المنغص للشهوات فان كان له ألف محبوب مثلا نزل به عند الموت ألف مصيبة فى وقت واحد لانه كان يحبها كلها وقد سلبت منه فى كرة واحدة ولذلك كان الزهد فى الدنيا من قضايا العقل * وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه للعقل ألف اسم ولكل اسم منها ألف اسم وأول كل اسم منها ترك الدنيا وقال الحسن رضى الله عنه كيف يسمى عاقلا وهو يمسى ويصبح فى الدنيا ومباهاة أهلها فى المطاعم والمشارب والملابس والمراكب أولئك هم الخاسرون وأولئك هم الغافلون وأولئك هم الجاهلون وأنشدوا

أيها المرء ان دنياك بحر * طافح موجه فلا تأمنها
وسبيل النجاة فيها مبين * وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وقال أبو على الثقفى رضى الله عنه أف من أشغال الدنيا اذا أقبلت وأف من حسراتها اذا أدبرت والعاقل من لا يركن الى شئ اذا أقبل كان شغلا واذا أدبر كان حسرة وقد قيل فى معناه

ومن يحمد الدنيا لشئ يسره * فسوف لعمرى عن قليل يلومها
اذا أدبرت كانت على المرء حسرة * وان أقبلت كانت كثيرا همومها

(ليقل ما تفرح به) من المال وغيره (يقل ما تحزن عليه) فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضى بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلع الى زيادة من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه لانه دفع عنها مفسدة وجود الحزن بتركه ولم ينظر الى حصول مصلحة الفرح بوجود الذى يزول عن قريب ودرء المفاسد مقدم عند العقلاء على جلب المصالح فالمفروح به هو المحزون عليه ان قليلا فقليل وان كثيرا فكثير

وقيل لابى القاسم الجنيد رضى الله عنه متى يكون الرجل موصوفا بالعقل فقال اذا كان للامور مميزا ولها متصفحا وعما يوجبه عليه العقل باحثا يلتمس بذلك طلب الذى هو أولى ليعمل به ويؤثره على ماسواه فاذا كان كذلك فمن صفته ركوب الفضل فى كل أحواله بعد احكام العمل بما فرض الله عليه وليس من صفة العقلاء اغفال النظر لما هو أحق وأولى ولا من صفتهم الرضا بالنقص والتقصير فمن كانت هذه صفته بعد احكامه لما يجب عليه من عمله وترك التشاغل بما يزول وترك العمل بما يفنى وينقضى وذلك صفة لكل ما احتوت عليه الدنيا وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل يصده التشاغل به والعمل له عن أمور الآخرة التى يدوم نعيمها ونفعها ويتأبد سرورها ويتصل بقاؤها وذلك أن الذين يدوم نفعه ويبقى على العامل له حظه وماسوى ذلك زائل متروك ومفارق موروث يخاف مع تركه سوء العاقبة فيه ومحاسبة الله عليه كذلك صفة العاقل لتصفحه الامور بعقله والاخذ منها باوفرها قال الله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب بذلك وصفهم الله تعالى وذووا الالباب هم ذووا العقول وانما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للاخذ باحسن الامور عند استماعها وأحسن الامور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعا فى العاجل والآجل والى ذلك ندب الله عز وجل من عقل فى كتابه انتهى كلام الجنيد رضى الله عنه وهو فى غاية الحسن ونهاية التحقيق وفيه مناسبة لما كنا بصدده من التنبيه على كلام المؤلف رحمه الله تعالى فرأيت ذكره ههنا لا ئقا والله تعالى الموفق للعمل بمنه وكرمه ٭ (ان أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك) هذه من أمثلة ما تقدم لان الولاية مآلها الى الحزن بسبب وقوع العزل عنها ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا يقع فى العزل المحزون به ٭ (ان رغبتك البدايات زهدتك النهايات ان دعاك اليها ظاهر نهاك عنها باطن) بدايات الامور وظواهرها ترغب الجاهل فيها وتدعوه اليها لانها رائقة الحسن مابجة الظاهر فيغتر الجاهل بذلك فتقوده الى ما فيه ضرره وهلاكه ونهايات الامور وبواطنها تزهد العاقل وتنهاه عنها لما تشهده من سماجتها وقبح باطنها فيعتبر العاقل بذلك فيهرب منها ويسلم من شرها وقد تقدم هذا المعنى عند قوله الا كوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة قال وهب بن منبه رضى الله عنه صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيأ فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ثم التفت فى اليوم السابع فقال يا هذا قد علمت ما تريد حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد فيها رأس كل خير والتوفيق فيها نجاح كل بر فاحذر رأس كل خطيئة وارغب فى رأس كل خير وتضرع الى ربك أن يهب لك نجاح كل بر قال وكيف أعرف ذلك قال كان جدى رجلا من الحكماء فشبه الدنيا بسبعة أشياء شبهها بالماء المالح يغر ولا يروى ويضر ولا ينفع وبظل الغمام يغر ويخذل وبالبرق الخلب يضر ولا ينفع وبسحاب الصيف يضر ولا ينفع وبزهر الربيع يغر بنضرته ثم يصفر فتراه هشيما وباحلام النائم يرى السرور فى منامه فاذا استيقظ لم يجد فى يده شيأ الا الحسرة وبالعسل المشوب بالسم الزعاف يغر ويقتل فدبرت هذه الاحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت فيها حرفا واحدا فشبهتها بالغول التى تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها فرأيت جدى فى النوم فقال لى يا بنى أنت منى وأنا منك قال فبأى شئ يكون الزهد فى الدنيا قال

(ان أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك) هذه من أفراد ما قبلها لان الولاية مآلها الى الحزن بسبب وقوع العزل عنها بموت أو غيره ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا تقع فى العزل عنها فيحصل عندك غاية الهم والحزن (ان رغبتك) فى الولاية (البدايات) أى بداياتها من كونها رائقة الحسن مابجة الظاهر وأن كل من تلبس بها حسن حاله ومنظره بين الناس وتيسر معاشه (زهدتك) فيها (النهايات) فان نهايتها مفارقتها بعزل أو موت فيحصل لك مزيد الضرر دنيا وأخرى لان الولايات قل من يسلم فيها بدينه وذلك مما يحمل العاقل على الزهد فيها والهرب منها (ان دعاك اليها ظاهر) أى ظاهر حالها من تيسر الملابس والمآكل عند التلبس بها (نهاك عنها باطن) أى باطن حالها من كونها شاغلة عن الله ومن حصول الضرر لكل من تلبس بها وهذا فى المعنى يرجع لما قبله فالظاهر يرجع للبدايات والباطن للنهايات

باليقين واليقين بالصبر والصبر بالعبر والعبر بالفكر ثم وقف الراهب وقال خذها ولا أراك خلق الا متجردا بفعل دون قول فكان ذلك آخر العهد به ٭ وقال محمد بن على الترمذى رضى الله عنه لم تزل الدنيا مذمومة فى الامم السالفة عند العقلاء منهم وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضين وما قام داع فى أمة الا وقد حذر من متابعة الدنيا وجمعها والحب لها ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد وقال انما هذه الحياة الدنيا متاع أى لن تصل الى سبيل الرشاد وفى قلبك محبة الدنيا وطلب لها والحكايات والآثار فى أحوال الدنيا وغرورها وشرورها أكثر من أن تحصى ولا شئ أبين فى ذلك من قول الله تعالى فى صفتها اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ٭ (انما جعلها محلا للاغيار ومعدنا للاكدار تزهيدا لك فيها) وورود الاغيار والاكدار الدنيوية على العبد نعم من الله تعالى عليه لان ذلك لا محالة يدعوه الى الزهادة فى الدنيا والتجافى عنها ويصرف عنه وجود الغباوة والجهالة لاجل تمسكه بالحبال وما يستضر به فى الحال والمآل لان الموجب لرغبته فيها وحرصه على نيلها انما هو ما يتوهمه فيها من الحصول على منيته وبغيته وقضاء غرضه من شهوته ونهمته من غير مكدر ولا منغص ولو تصور له حصوله على هذه الاشياء على حسب ما يحبه ويهواه كان ينبغى له أن يرغب عنها عوضا عن الرغبة فيها ان كان عاقلا لان مآل أمرها الى الفناء والزوال والافتقار والانقضاء والارتحال وقد قالوا شر لا يدوم خير من خير لا يدوم وقال الشاعر

أشد الغم عندى فى سرور ٭ تيقن عنه صاحبه ارتحالا
أرى الدنيا على من كان فيها ٭ تدور فلا تديم عليه حالا

ثم هى مانعة له من سعادة الآخرة والقرب من الله عز وجل الذى هو غاية طلب الطالبين ونهاية رغبة الراغبين فكيف وهو معترض فيها لانواع المصائب والفجائع ووقوع الاغيار والاكدار فما من أحد فيها الا وهو فى كل حال ووقت غرض لأسهم ثلاثة سهم بلية وسهم رزية وسهم منية فاذا نزل به ذلك عادت النعمة نقمة وانقلبت الحبرة عبرة وصارت الفرحة ترحة وهكذا شأن الدنيا أبدا فلا يبقى مرجوها بمخوفها ولا يقوم خيرها بشرها ولقد صدق الشاعر فى قوله

ان الليالى لم تحسن الى أحد ٭ الا أساءت اليه بعد احسان

وصدق أيضا من قال

ما قام خيرك يا زمان بشره ٭ أولى بنا ما قل منك وما كفى
زمن اذا أعطى استرد عطاءه ٭ واذا استقام بدا له متحرفا

وقد كتب على بن أبى طالب الى سلمان رضى الله عنهما انما مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها قاتل سمها فأعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون فيها فان صاحبها كلما اطمأن فيها الى سرور أشخص منها الى مكروه ٭ وقال بعض البلغاء دار الدنيا كاحلام المنام وسرورها كظل

(انما جعلها) أى الدنيا (محلا للاغيار) كالامراض والمحن والبلايا وقوله (ومعدنا للاكدار) بمعنى ما قبله (ليزهدك فيها) لان الموجب لرغبتك فيها انما هو ما تتوهم من حصول أغراضك ومطلوباتك فيها من غير تكدير ولا تنغيص وهو لا يكون أبدا حتى لو فرض ذلك لكان اللائق بك الزهد فيها والرغبة عنها لان مآل أمرها الى الفناء والزوال واشتغالها اياك غالبا عن الله تعالى لا يقال الزهد فيها يحصل بنصح الواعظ وتذكيره لانا نقول

(علم) الله (أنك لا تقبل النصح المجرد) عن الامراض والبلايا والمحن لان النصح المجرد لا يقبله الا من لم يستحكم فيه حب العاجلة والانس بلذاتها الفانية أما من كان كذلك فلا بد في قصد هدايته من زيادة على النصح والوعظ (فذوقك من ذواقها)

أي مما شأنه أن يذاق فيها وهو تلك الامراض والبلايا والمحن (ما يسهل عليك فراقها) فان العبد اذا نزل به شئ من ذلك يتمنى الموت ومفارقته الدنيا فهو نعمة من الله عليه وان لم يعرف ذلك لغلبة طبعه عليه وقد تقدم مثل هذا عند قوله من لم يقبل على الله بملاطفات الاحسان قيد اليه بسلاسل الامتحان (العلم النافع) وهو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه فهذا هو العلم (الذى ينبسط فى الصدر شعاعه) فينفسح وينشرح للاسلام (وينكشف به عن القلب قناعه) أى غطاؤه وغشاوته فتزول عنه الشكوك والاوهام قال مالك بن أنس رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية انما العلم نور يقذفه الله تعالى فى القلوب وانما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه ويبعده عن رؤية نفسه وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه وارادته وقال المهدوى قدس سره العلم النافع هو علم الوقت وصفاء القلب والزهد فى الدنيا وما يقرب الى الجنة ويبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها وهو النور المشار اليه أنه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء

دون علم اللسان والمعقول والمنقول انتهى وجمع ذلك الجنيد قدس سره فى قوله العلم أن تعرف ربك ولا تعدو النافع
قدرك أى هو معرفة الله وحسن الادب بين يديه ثم ذكر المصنف عبارة أخرى فى بيان العلم النافع وتعريفه بلازمه فقال

الغمام وأحداثها كصوائب السهام وشهواتها كسموم السمام وفتنها كالامواج الطوام وقال أبو العتاهية

هى الدار دار الاذى والقذى * ودار الفناء ودار الغير
ولو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول البقا * وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وفات الشباب * فلا خير فى العيش بعد الكبر

وأنشد أبو منصور الثعالبى رحمه الله فى ذم الدنيا

تنح عن الدنيا فلا تخطبنها * ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس يفى مرجوها بمخوفها * ومكروهها ان ما تأملت راجح
لقد قال فيها الواصفون فاكثروا * وعندى لها وصف لعمرى صالح
سلاف قصاراها زعاف ومركب * شهى اذا استلذذته فهو جامح
وشخص جميل يؤنس الناس حسنه * ولكن له أسرار سوء قبائح

واذا علم العبد هذا كله علم اليقين وتمكن من قلبه غاية التمكين لم يتصور منه مع ذلك وجود رغبة البتة لانه اذ ذاك يجمع بين خيبتين وخسارتين ويأتيه الموت وهو صفر اليدين من منافع الدارين وذلك هو الخسران المبين * قال أبو هاشم الزاهد رضى الله عنه ان الله وسم الدنيا بالوحشة ليكون أنس المريدين به دونها وليقبل المطيعون اليه بالاعراض عنها وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون والى الآخرة مشتاقون وقيل أوحى الله تعالى الى الدنيا تضيقى وتشددى على أوليائى وترفهى وتوسعى على أعدائى تضيقى على أوليائى حتى لا يتعرفوا بك عنى وتوسعى على أعدائى حتى يشتغلوا بك عنى فلا يتفرغوا الذكرى * (علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك من ذواقها ما يسهل عليك وجود فراقها) النصح المجرد لا يقبله الا من لم يستحكم فيه حب العاجلة والانس بلذاتها الفانية وكان كريم الطبع سهل القياد وأما من رسخت فيه تلك الخبائث وتمكنت من باطنه وكان لئيم السجية صعب المقادة فلا بد فى قصد هدايته وارشاده من زيادة على النصح والوعظ وهو وجود ما يقهره ويجبره وليس ذلك الا ما ذكرناه فاعرف قدر النعمة عليك بذلك واعمل بمقتضاها وسلم لربك فى حكمته وقدرته وحسن ظنك به وقد تقدم هذا المعنى عند قوله من لم يقبل على الله بملاطفة الاحسان قيد اليه بسلاسل الامتحان * (العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه ويكشف عن القلب قناعه) العلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه فهذا هو العلم الذى ينبسط فى الصدر شعاعه فينفسح وينشرح للاسلام ويكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والاوهام وفى حكمة داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام العلم فى الصدر كالمصباح فى البيت وقال محمد بن على الترمذى رضى الله عنه العلم النافع هو الذى قد تمكن فى الصدور وتصور وذلك ان النور اذا أشرق فى الصدور وتصورت الامور حسنها وسيئها ووقع بذلك ظل فى الصدور فهو صورة الامور فيأتى حسنها ويجتنب سيئها فذلك العلم

النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم الى الصدور وهى علامات الهدى والعلم الذى قد تعلمه فذلك علم اللسان انما هو شئ قد استودع الحفظ والشهوة غالبة عليه قد أحاطت به وأذهبت بظلمتها ضوءه وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه والعلم النافع هو علم الوقت وصفاء القلب والزهد فى الدنيا وما يقرب من الجنة وما يبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها وهو النور المشار اليه انه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء دون علم اللسان المنقول والمعقول وقال مالك بن أنس رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية وانما هو نور يقذفه الله تعالى فى القلوب انتهى وانما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه ويبعده عن رؤية نفسه وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه وارادته قال الجنيد رضى الله عنه العلم أن تعرف ربك ولا تعدو قدرك وهذه عبارة مختصرة وجيزة جمع فيها رحمه الله مقصود علم الصوفية وهى معرفة الله تعالى وحسن الآداب بين يديه وهذه هى العلوم التى ينبغى للانسان أن يستغرق فيها عمره الطويل ولا يقنع منها بكثير ولا قليل وقد قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه من لم يتغلغل فى هذه العلوم يعنى علوم الصوفية مات مصرا على الكبائر وهو لا يعلم وما سوى هذه العلوم قد لا يحتاج اليها وربما أضر بصاحبها مداومته عليها وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخبر المشهور عنه من علم لا ينفع ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى عبارة أخرى فى بيان العلم النافع وتعريفه بلازمه فقال * (خير العلم ما كانت الخشية معه) خير العلوم ما يلزم وجود الخشية لله تعالى لان الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال عز من قائل انما يخشى الله من عباده العلماء فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه بل لا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة قال الربيع بن أنس رحمه الله فى قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء من لم يخش الله فليس بعالم ألا ترى أن داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك والحكمة الايمان بك فما علم من لم يخشك وما حكمة من لم يؤمن بك قال فى لطائف المنن فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية لله تعالى وشاهد الخشية موافقة الامر أما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا والتملق لاربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والمباهاة والاستكثار وطول الامل ونسيان الآخرة فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الانبياء وهل ينتقل الشئ الموروث الى الوارث الا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه ومثل من هذه الاوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضئ على غيرها وهى تحرق نفسها جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه حجة عليه وسببا فى تكثير العقوبة لديه انتهى وكان سهل بن عبد الله رضى الله عنه يقول لا تقطعوا أمرا من أمور الدنيا والدين الا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله تعالى قيل يا أبا محمد من العلماء قال الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصيته وشاور فى أمرك الذين يخشون الله تعالى وقال الواسطى رضى الله عنه أرحم الناس العلماء لخشيتهم من الله تعالى واشفاقهم مما علمهم الله عز وجل وقال فى التنوير فى قوله صلى الله عليه وسلم طالب العلم تكفل الله له برزقه اعلم أن العلم حيثما تكرر فى الكتاب العزيز أو فى السنة انما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية وتكتنفه المخافة قال الله سبحانه انما يخشى الله

(خير العلم ما كانت الخشية معه) والخشية الخوف مع الاجلال وقيل هى الاجلال مع التعظيم وقيل الخوف مع العمل أى خير العلوم ما تلزمه خشية الله تعالى وتصاحبه وهو العلم المتقدم لان الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فكل علم لا خشية معه لا خير فيه ولا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة ويلزم من مصاحبة الخشية له الوقوف على حدود الله وملازمة طاعته والوثوق به والاعراض عن الدنيا وعن طالبيها والتقليل منها ومجانبة أبواب أربابها والنصيحة للخلق وحسن الخلق معهم والتواضع ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى بخلاف العلم الذى لا تصاحبه الخشية فانه يكون معه الرغبة فى الدنيا والتملق لاربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والمباهاة والاستكثار وطول الامل ونسيان الآخرة فان العالم اذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله بقدر ذلك ثم ذكر عبارة أخرى من معنى ما تقدم فقال

من عباده العلماء فبين أن الخشية تلازم العلم وفهم من هذا أن العلماء انما هم أهل الخشية وكذلك قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والراسخون فى العلم وقل رب زدنى علما وقوله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وقوله العلماء ورثة الانبياء وقوله هنا طالب العلم تكفل الله له برزقه انما المراد بالعلم فى هذه المواطن العلم النافع القاهر للهوى القامع للنفس وذلك يتعين بالضرورة لان كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أجل من أن يحمل على غير هذا وقد بينا ذلك فى غير هذا الكتاب والعلم النافع هو الذى يستعان به على طاعة الله تعالى ويلزمك المخافة من الله تعالى والوقوف على حدود الله وهو علم المعرفة بالله ويشمل العلم النافع العلم بالله والعلم بما أمر الله به اذا كان تعلمه لله تعالى انتهى وقد تقدم المعيار الصادق على صحة دعوى التعلم والتعليم لله عند قوله اذا التبس عليك أمران وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه كل علم لا يورث صاحبه الخشية والتواضع والنصيحة للخلق والشفقة عليهم ولا يحمله على حسن معاملة الله تعالى ودوام مراقبته وطلب الحلال وحفظ الجوارح وأداء الامانة ومخالفة النفس ومباينة الشهوات فذلك العلم الذى لا ينفع وهو الذى استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم فقال أعوذ بك من علم لا ينفع ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال رجل للشعبى أيها العالم فقال انما العالم من يخشى الله تعالى وقال بعض السلف من ازداد علما فليزدد خشوعا وقال رجل للجنيد أى العلم أنفع قال ما دلك على الله تعالى وأبعدك عن نفسك قال والعلم النافع ما يدل صاحبه على التواضع ودوام المجاهدة ورعاية السر ومراقبة الظاهر والخوف من الله والاعراض عن الدنيا وعن طالبيها والتقلل منها ومجانبة أبواب أربابها وترك ما فيها على من فيها من أهلها والنصيحة للخلق وحسن الخلق معهم ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى والاقبال على ما يعنيه فان العالم اذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله تعالى بقدر ذلك قال الله عز وجل يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقال النبى صلى الله عليه وسلم من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه ألا فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقال فضيل بن عياض العالم طبيب الدين ودواء الدنيا داء الدين فاذا كان الطبيب يجر الداء الى نفسه فمتى يبرئ غيره فاذا وفق الله العالم من العلماء للاقبال على الله وعلى أوامره والاعراض عن الدنيا وما فيها ومن فيها فأول ما يلزمه أن يعرف نعم الله عليه فى ذلك ويقوم بواجب الشكر ويزيد تواضعا واجتهادا ويعلم أنه محمول على ذلك وأن ذلك بتوفيق من الله تعالى لا بمجاهدة منه فان مجاهدته أيضا ومعرفته لنعم الله عليه بزيادة توفيق الله فاذا كان العالم بهذا المحل من الدين كان اماما يقتدى به فى أحكام الظاهر وأحوال الباطن يهتدى بنوره كل من صحبه ويستضىء بعلمه كل من اتبعه ويكون حجة لله على عباده وبركة فى بلاده ومن قاده علمه الى طلب الدنيا وطلب العلو فيها وطلب اتباع الرياسة واستتباع الخلق فهو العلم الذى هو غير نافع وهو العلم المغتر به ولا حسرة أعظم من أن يهلك العالم بما يرجو به نجاته ونحن نعوذ بالله من الخذلان

انتهى ثم عبر المؤلف رحمه الله تعالى بعبارة أخرى من معنى ما تقدم فقال (العلم ان قارنته الخشية فلك والا فعليك) العلم الذى تلازمه الخشية لك لانك تنتفع به فى دنياك وآخرتك وليس

(العلم ان قارنته الخشية فلك) منفعته فى الدنيا والآخرة (والا فعليك) مضرته فيهما قال سفيان الثورى انما يتعلم العلم ليتقى به الله وانما فضل العلم على غيره لانه يتقى الله به فان اختل هذا القصد وفسدت نية طالبه بان استشعر به التوصل الى منال دنيوى من مال أو جاه فقد بطل أجره وحبط عمله وخسر خسرانا مبينا قال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه الآية انتهى

ذلك الا ما ذكرناه والعلم الذى لا خشية فيه عليك لانك تستضر به فيهما وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا من حيث ان علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة وعلماء الدنيا موسومون بالامن والعزة وقد بين علماؤنا رضى الله عنهم حال الفريقين وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات وأطالوا فى ذلك النفس لما شاهدوا من انتشار الفساد فى الارض بسبب جهل الناس بالعلم النافع أى شئ هو فمن أراد الشفاء فى ذلك واستيفاء الكلام عليه وما فى ذلك من الاخبار والآثار فعليه بالنظر فى كتاب العلم من كتاب احياء علوم الدين لابى حامد الغزالى رضى الله عنه ولباب ذلك ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ههنا وقد قال الفضيل ابن عياض رضى الله عنه كان العلماء ربيع الناس اذا نظر اليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحا واذا نظر اليهم الفقير لم يود أن يكون غنيا وقد صاروا اليوم فتنة على الناس قال هذا فى زمانه الصالح فكيف لو أدرك زماننا هذا فانا لله وانا اليه راجعون واعلم أنه قد ورد فى الكتاب والسنة من فضل العلم والعلماء ما لا يحصى كثرة ولا يرجى حصول ذلك الا لمن صحت فيه نيته وصحة نيته فى ذلك أن يكون غرضه فيه طلب مرضاة الله تعالى واستعماله فيما ينفع عنده وايثاره الخروج عن ظلمة الجهل الى نور العلم فهذه هى النية الصحيحة التى تحمد عاقبتها آجلا وتجتنى ثمرتها فى طاعة الله عاجلا وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كل يوم لا أزداد فيه علما يقربنى من الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم وقال الحسن رضى الله تعالى عنه كان الرجل اذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك فى تخشعه ولباسه وبصره ولسانه وصلاته وهديه وزهده وان كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيرا له من الدنيا بما فيها لو كانت له ليضعها فى الآخرة وليأتين على الناس زمان يشتبه فيه الحق والباطل فاذا كان ذلك لم ينفع فيه الا دعاء كدعاء الغريق . وقال سفيان الثورى رضى الله عنه انما يتعلم العلم ليتقى به الله وانما فضل العلم على غيره لانه يتقى الله به فان اختل هذا المقصد وفسدت نية طالبه بان يستشعر به التوصل الى منال دنيوى من مال أو جاه فقد بطل أجره وحبط عمله وخسر خسرانا مبينا قال الله عز وجل من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه من تعلم علما لا يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه الا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعنى ريحها وكان الحسن رضى الله عنه يقول والله ما طلب هذا العلم أحد الا كان حظه منه ما أراده به وقال الحسن عقوبة العالم موت القلب فقيل له وما موت القلب قال طلب الدنيا بعمل الآخرة فاذا انضاف الى هذا الغرض أن يتصدى به الى تولى الاعمال السلطانية كائنة ما كانت أو يتوصل به الى اكتساب مال من حرام أو شبهة فقد تعرض لغضب الله تعالى وسخطه وباء باثمه وآثام المقتدين به وكان الجهل اذ ذاك خيرا له من العلم وأحمد عاقبة وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى وروينا عن الاوزاعى رضى الله عنه قال شكت النواويس الى الله عز وجل ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله تعالى اليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه قال وروينا عن الفضيل بن عياض وأسد بن الفرات قال بلغنى أن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الاوثان قال فضيل بن عياض رضى الله عنه لان من علم ليس كمن لم يعلم قلت والغالب على طلبة العلم فى هذه الاعصار هذا الوصف المذموم لان

حب الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم والحرص على التقدم والترؤس قد ملكهم فاصمهم وأعماهم ولذلك أمارات وعلامات لا تحصى ولا تخفى وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يخرج فى آخر الزمان رجال يختلسون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله تبارك وتعالى أبى تغترون أم على تجترؤن فبى حلفت لابعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيران رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه وروى أبو الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أنزل الله تعالى فى بعض الكتب أو أوحى الله تعالى الى بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك الكبوش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر اياى يخادعون وبى يستهزؤن لأتيحن لهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران وفى بعض الاخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى على الناس زمان لا يبقى من القرآن الا رسمه ولا من الاسلام الا اسمه قلوبهم خربة من الهدى ومساجدهم عامرة من أبدانهم شر من تظل السماء يومئذ علماؤهم منهم تخرج الفتنة واليهم تعود واعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف انما هو العلم الذى يؤدى صاحبه الى الخوف والخشية وملازمة التواضع والذلة والتخلق باخلاق الايمان وتوافق الاسرار والاعلان الى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها وايثار الآخرة عليها والموالاة فى الله والمعاداة فيه والحرص على التفطن للاسباب الباعثة له على الاستقامة ولزوم الادب بين يدى الله تعالى فيراعيها حفظا وطلبا ومعرفة الاسباب المضادة له عن ذلك فيرفضها رفضا ويهرب الى غير ذلك من الصفات العلية والمناحى السنية فبهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والاخروية فاذا خلا طالب العلم عنها أو عن بعضها فان كان ما يطلبه علما حقيقيا كان حجة عليه وان كان رسميا كان وبالا ووبالا عليه والعياذ بالله من ذلك ✲ قال فى لطائف المنن ربما غر الغافل من طلبة العلم من قال طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله وليس فى قول هذا القائل ما يستروح اليه من طلب العلم للرياسة والمنافسة به وانما أخبر هذا القائل عن أمر من به عليه وفتنة سلمه الله منها لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك بمثابة من به مرض مزمن فى المعى أعيا علاجه الاطباء وضاق عليه خلقه فأخذ خنجرا وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعى فقطعه فخرج الداء منه فهذا لا يستصوب العقلاء فعله وان نجحت عاقبته وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم الى التهلكة ✲ ليس المخاطر محمودا وان سلما ✲ وقال فى مواضع أخر ولا يغرنك أن يكون به انتفاع للبادى والحاضر فقد قال صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل اليه ومثل من قطع الاوقات فى طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة فلم يصل صلاة واحدة اذ مقصود العلم العمل كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة ولقد سأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه عن مسئلة فافتاه فيها فقال الرجل للحسن قد خالفك الفقهاء فزجره الحسن وقال ويحك وهل رأيت فقيها انما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه قال وسمعت شيخنا أبا العباس يقول الفقيه

من انفتق الحجاب عن عين قلبه والرجل الذى سأل الحسن البصرى هو فرقد السنجى والله أعلم وقد روى عنه فى صفة الفقهاء كلام أتم مما ذكره صاحب كتاب لطائف المنن ✲ قال فرقد السنجى سألت الحسن عن مسئلة فأجابنى عنها فقلت له ان الفقهاء يخالفونك فقال لى ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك انما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم المجتهد فى العبادة المقيم على سنة المصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا يهنذ من هو فوقه ولا يسخر ممن هو دونه ولا يأخذ على علم علمه الله له حطاما فقلت وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه فلا يبذل علمه الا لمن يتوسم فيه الخير والصلاح اذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد التى ذكرناها ولا يبذل لمن سوى هذا ممن علم حاله أو جهله قال رجل لسفيان الثورى رضى الله عنه انك ان نشرت ما معك من العلم رجوت أن ينفع الله به بعض عباده وتؤجر على ذلك فقال سفيان الثورى والله لو أعلم بالذى يطلب هذا العلم لا يريد به الا ما عند الله لكنت أنا الذى آتيه فى منزله فأحدثه بما عندى ممن أرجو أن ينفعه الله به وقد سئل بعض العلماء عن شئ فلم يجب فقال له السائل أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من النار فقال له اترك اللجام واذهب فان جاء من يستحقه وكتمته فليلجمنى به وفى قوله عز من قائل ولا تؤتوا السفهاء أموالكم تنبيه على أن حفظ العلم ممن يفسده ويستضر به أولى كما قيل

ومن منح الجهال علما أضاعه ✲ ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد حكى عن بعض الامم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة فى أخلاقه فان وجدوا فيه خلقا رديا منعوه من العلم أشد المنع وقالوا انه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردىء فيصير العلم آلة شر فى حقه وقد قالت الحكماء زيادة العلم فى الرجل السوء كزيادة الماء فى أصول الحنظل كلما ازداد ريا ازداد مرارة وهذا كله صحيح مجرب فينبغى اذا للعالم أن لا يهمله بل يراعيه ويمتثله ولا اعتبار بما يتوهمه فى تعليمهم من وجود المصالح على تقدير حصول توفيق الله تعالى لهم لأن يعملوا ببعض ما يتعلمونه من العلم الصحيح ان كانت لهم ولاية حكم أو غير ذلك فان المفاسد التى تقع بسبب ذلك لهم فى خاصة أنفسهم والمفاسد التى تتعدى منهم الى غيرهم أكثر ودرء المفاسد أهم عند العقلاء من جلب المصالح أما المفاسد التى تختص بهم فهى تقوية صفاتهم الذميمة وأخلاقهم اللئيمة بما يطلبونه من العلم لانهم يستشعرون بذلك التوصل الى جميع مطالبهم الدنيوية على غاية الكمال والتمام فاذا استشعروا بذلك توجهوا بهممهم اليه وعكفوا بالجد والاجتهاد عليه ولولا هذا الاستشعار لم يتصور منهم ذلك فاذا حصلوا على شئ من ذلك وظهرت لهم مخايل وصولهم الى أغراضهم المذكورة فرحوا بذلك واغتبطوا به وكلما ازدادوا علما ازدادوا فرحا واغتباطا بما هم فيه وهذا الفرح والاغتباط فى غاية الذم منهم لان ذلك متعلق بأسباب الدنيا وهى بمنزلة السم القاتل الذى يوجب موت قلوبهم وقسوتها وبعدها عن التأثر بالمواعظ والحكم كما قيل

اذا قسا القلب لم تنفعه موعظة ✲ كالارض ان سبخت لم ينفع المطر

وعند ذلك تنتعش نفوسهم وتتقوى صفاتها وتظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا والركون الى من هى عنده من أبنائها المترفين وليس لهم ما يتوسلون به اليهم سوى

علمهم فيحتالون على تحصيل اقبالهم عليهم وصرف وجوههم اليهم بالتفنن عندهم بأنواع من الحيل ولا يسلمون فى ذلك من الرياء والتصنع والنفاق والدهان ويجرهم ذلك الى أنواع من المحظورات وضروب من العصيان مع ما يحل بهم فى ذلك من الذل والهوان فاذا نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم وتمكنوا من جميع حظوظهم فخرجوا من الحرية الى استعباد الاغيار واستبدلوا بالجهل النافع العلم الضار وقد قال الفضيل بن عياض رضى الله عنه لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحوا على دينهم وأعزوا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعا وعز الاسلام وأهله ولكنهم أذلوا أنفسهم ولم يبالوا بما نقص من دينهم اذ سلمت لهم دنياهم فبذلوا علمهم لابناء الدنيا ليصيبوا بذلك ما فى أيدى الناس فذلوا وهانوا على الناس انتهى ولله در الشاعر رحمه الله حيث يقول

يقولون لى فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
اذا قيل هذا مورد قلت قد أرى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى * لاخدم من لاقيت الا لأخدما
أأغرسه عزا وأجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا * محياه بالاطماع حتى تجهما

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه لعطاء الخراسانى كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم وكانوا لا يلتفتون الى دنيا غيرهم وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة فى علمهم فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لاهل الدنيا علمهم رغبة فى دنياهم فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبا ولها طلبا وكان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب الرجل اليوم بعلمه مالا وكان يرى على طالب العلم زيادة فى باطنه وظاهره فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد فى الباطن والظاهر فانظر رحمك الله الى ما ذكره هؤلاء الفضلاء تجده لازما لطلبة هذا الزمان وليس الخبر كالعيان ثم بعد وقوع هذه المفاسد بهم وتوغلهم بها فى سوء أدبهم يتعذر عليهم بعد ذلك سلوك طريق الحق لما استحكم فى قلوبهم من علامات سوء الخلق فقد قيل انتعمق فى الباطل قطع لآمال الرجوع عنه فكل ما كان بعد المسافة من الحق أتم كان اليأس من الرجعة أوجب وأعظم الوبال عليهم اغترارهم بحالهم واستحسانهم لسيئ أعمالهم واعتقادهم أنهم سالكون سبيل النجاة فى الدار الآخرة ونيل الثواب فيها وأنهم هم الذين حازوا الرتب الشريفة والمناقب المنيفة التى اختص بنيلها العلماء الذين هم ورثة الانبياء وليس عندهم من المعرفة وعلوم التحقيق ما يخرجون به من هذا الغرور لانهم لم يسلكوا طريق ذلك ولم يهتدوا لما هنالك فهذا هو الفساد الذى يختص بهم ولا يشاركون غيرهم فيه وأما الفساد الذى يتعدى الى غيرهم فظاهر من كل ظاهر وناهيك بمن ملكته نفسه أشد تملك واستعبدته أشد استعباد هل يبقى عليه شئ من الشر أو نوع من أنواع الفساد الا ويقع فيه اذا تمكن منه ومن دقيق ما يسرى عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك وقوع الاغترار للجهلة والاغمار بمشاهدة

حالهم فانهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ما أرادوه ويتوهمونهم نالوا شرف الآخرة بما أفادوه واستفادوه فيحملهم ذلك على الاقتداء بهم فى طلب العلم ان كانوا ممن فيه قابلية لذلك فيقعوا فيما وقعوا فيه من المهالك أو يؤديهم ذلك الى محبتهم وموالاتهم واتخاذهم أربابا يسمعون منهم ويطيعونهم فى أوامرهم ونواهيهم ثم يخرج بهم استحسان حالهم الى الداء الدفين وهو مسارقة طباعهم الدنيئة وأخلاقهم الرديئة فان نفوس العامة قابلة لذلك ومهيئة له بمنزلة الصبى الذى ترسخ فيه أخلاق آبائه ومنازعهم ومذاهبهم وعند ذلك يبطل فى حقهم ما هو مقصود من بعثة الرسل من التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة وحب الفقر والمسكنة وايثار التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الايمان والاسلام وشدة الحذر من ارتكاب المناهى والآثام ثم يؤول ذلك بهم الى الشرك الخفى والجلى ثم يحيق بهم المكر السيئ والعياذ بالله تعالى ويكون وبال جميع ذلك راجعا الى العالم لتيسير أسباب ذلك على يديه ولقد صدق ابن المبارك رحمه الله حيث يقول

وهل أفسد الدين الا الملوك * وأحبار سوء ورهبانها
فباعوا النفوس ولم يربحوا * ولم تغل فى البيع أثمانها
لقد رتع القوم فى جيفة * يبين لذى العقل انتانها

وروى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها فى كفه ثم قال ان الدين قد استضاء اضاءة هذه ثم أخذ كفا من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ثم قال والذى نفسى بيده ليجيئن أقوام يدفنون العلم هكذا كما دفنت هذه الحصاة ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدم بالقدم والنعل بالنعل قلت ومنشأ وجود هذه المفاسد خراب بواطنهم وظلمة قلوبهم بسبب فقد اليقين منها وانكساف أنوار الايمان فيها وافلاسهم من حقائق ذلك وعدم اختصاصهم بشئ منه فصاروا بذلك مأسورين لاهوائهم منقادين لاغراضهم وآرائهم ففسدت بذلك نياتهم ومقاصدهم والاعمال بالنيات فاذا كانت النيات صالحة كانت الاعمال صالحة وترتب عليها آثار الصلاح وانعطف من ذلك على القلوب مزيد اشراق وحميد أخلاق يؤذن ذلك بوجود القرب من الله ونيل درجة الحب منه فاذا كانت النيات فاسدة كانت الاعمال أيضا فاسدة وترتب عليها آثار فاسدة وانعطف من ذلك على القلوب زيادة ظلمة ورداءة همة تقتضى البعد من الله تعالى وحصول المقت منه وطلب العلم عمل من الاعمال معرض للصحة والاعتلال وليت شعرى هؤلاء الذين استغرقوا أعمارهم فى طلب العلم والاثر وأتعبوا أنفسهم بالدراسة والنظر وقطعوا أيامهم ولياليهم بالجوع والسهر وسمحت نفوسهم بفراق ملذوذاتها والبعد عن جميع مألوفاتها هل بعثهم على ذلك باعث الدين أو باعث الهوى ولا شك أن باعث الدين غير متصور منهم بل هو محال فى حقهم لما قدمناه من خراب البواطن وظلمة القلوب وكيف يتصور ذلك منهم وهم لم يعملوا على تخلصهم من التكاليف الواجبة عليهم فى ظواهرهم وبواطنهم بل لم يعرفوا ذلك البتة وان ادعوا أنهم على أحوال لا يجب عليهم فيها حكم يحتاجون الى تعرفه والقيام به فهم مخدوعون ومن أين لهم ذلك والعلم به لا يحصل ضرورة فلا بد لهم من استفادته ولا عناية لهم بهذا أيضا وانما كان يتصور منهم باعث الدين لو توفرت أغراضهم كلها عليهم ووصلوا الى ما يمكنهم الوصول اليه من شهواتهم ولذاتهم بسبب تام من أسباب الدنيا ثم يصرفون ما فضل من أوقاتهم عن

محاولة هذه المطالب ونيلها الى طلب العلم عوضا عن البطالة التى يتبرم بها صاحبها ويدعوه فراغه من أشغال دنياه الى قطع ذلك الوقت بلهو ولعب أو ارتكاب معصية وذنب لا البطالة التى يكون فيها استراحة لنفسه واستجمام لعقله وحسه ففى هذه الحال قد يصح باعث الدين من أمثال هؤلاء، وأما الحال التى وصفناها فلا يتصور عليها باعث الا الدنيا المجردة المجاوزة للحد فى الذم والمقت بمنزلة من هو حريص على الاتساع فى الدنيا والحصول على غاية ملاذها فانه يعمل فيما يوصله الى ذلك وان كان فيه هلاكه فتراه يرتكب الاخطار ويخوض لجج البحار ويجوب البرارى والقفار ويهون عليه فى جنب ما يأمله كل مشقة تصيبه وبلية تنزل به ولو لم يفعل هذا لم يحصل الا على سد الرمق والاقتصار على البلغ والعلق فكذلك هؤلاء الذين كلامنا فيهم لو لم يتصور وافى خواطرهم الحصول على كليات أغراضهم من اتساع مالهم وجاههم فى دنياهم ووصولهم مع ذلك الى رفيع الدرجات فى عقباهم لم يبلغوا ذلك المبلغ فى الاجتهاد والاقتصر واعلى بعضه وهذه كلها أمور بينة لا اشكال فيها عند من له أدنى تمييز وفهم وليس المانع لا كثر من ينتسب الى العلم من العمل بمقتضى ما ذكرناه خفاءه عليهم كيف وهم يعتقدون صحته ويسلمون حاصله وحقيقته فى الاحايين عندما ينجلى عن قلوبهم بعض ظلماتها وتتزحزح عن عظيم غمراتها اما بتذكر مذكر من الخلق أو وعظ واعظ فى قلوبهم من قبل الحق ثم يرجعون فى سائر أوقاتهم الى مألوفاتهم ومعتاداتهم وانما المانع لهم من ذلك انفراد الله تعالى بالمشيئة والقدرة واستئثاره بالخذلان والنصرة فاذا أراد الله تعالى أن يضل عبدا من عباده لم ينصره عقل ولم ينفعه علم قال الله عز وجل ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيأ وفى مثل هذا الموطن تبطل أحكام الاسباب ويتحقق أرباب الحقائق العظمة والجلال والعزة والكمال لرب الارباب فليعتبر بما ذكرناه أرباب الابصار وليسلموا أحكام الواحد القهار لعلهم بذلك يهتدون الى منهج التحقيق حين يضل غيرهم عن سواء الطريق * مصائب قوم عند قوم فوائد * وليقل العبد المؤمن اذا نظر اليهم واعتبر بما جرى من سوء القضاء عليهم الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاهم به وفضلنى عليهم تفضيلا فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من رأى مبتلى فقال الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به هذا وفضلنى عليه وعلى كثير ممن خلق تفضيلا عافاه الله من ذلك البلاء كائنا ما كان فعلى المعلم الناصح لنفسه السالم فى عقله وحدسه العامل على تصحيح أعماله وهمه المشفق على دينه الذى هو منوط بلحمه ودمه أن يتأمل هذه المفاسد ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه ويدقق النظر فى ذلك كما يدققه فى أكثر المسائل التى لا يحتاج اليها ولا يقدم على التعليم فى هذه الازمنة ذوات العلل المزمنة حتى يقطع بوجوب ذلك عليه من غير تردد ولا تجويز وقوع خطافى نظر ولا سبيل له الى هذا ولا يسعه خلاف ذلك اذا كان منصفا قال بعضهم رأيت سفيان الثورى حزينا فسألته عن ذلك فقال وهو ندم ما صرنا الا متجرا لابناء الدنيا قلت وكيف ذلك قال يلزمنا أحدهم حتى اذا عرف بنا وجل عنا وجعل عاملا أو حاجبا أو قهرمانا أو جابيا يقول حدثنا سفيان الثورى وعليه أيضا أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه اليه من التعليم لان كل ما تستحليه النفس ويوافق غرضها محجوب بالآفات والعلل التى تقدح فى اخلاص الاعمال واخلاص الاعمال شرط فى وجود القبول وعند ذلك يذهب عمله باطلا ولا ينال بسعيه طائلا وقد تقدم من كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم للعمل

عند قوله ما ذل عمل بر من قلب زاهد وتقدم أيضا الكلام على اتهام النفس فى دعائها الى ما ظاهره خير عند قوله اذا التبس عليك أمران ولتعلم الحزم فى ذلك من بشر بن الحرث الحافى رضى الله عنه كان يقول أنا أشتهى أن أحدث ولو ذهب عنى شهوة الحديث لحدثت وكان سبب تركه طلب الحديث أنه سمع أبا داود الطيالسى يحدث عن شعبة أنه كان يقول الاكثار من هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون فلما سمعه منه قال انتهينا انتهينا ثم ترك الرحلة فى طلب الحديث وأقبل على العبادة وروى أيضا مثل هذا الكلام عن مسعر بن كدام فاذا كان الاكثار من طلب الحديث بهذه المثابة عند امامى المحدثين فى زمانهما مع ما فيه من الفوائد الاخروية فما ظنك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها ولقد ذكر الشيخ الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله باسناده الى عبد الله بن مسلمة القعنبى رحمه الله قال دخلت على مالك بن أنس رضى الله عنه فوجدته باكيا فسلمت عليه فرد على السلام ثم سكت عنى يبكى فقلت له يا أبا عبد الله ما الذى أبكاك فقال لى يا ابن قعنب أبكى لله على ما فرط منى ليتنى جلدت بكل كلمة تكلمت بها فى هذا الامر بسوط ولم يكن فرط منى ما فرط من هذا الرأى وهذه المسائل ولقد كان لى سعة فيما سبقت اليه قال هذا فيما كان آخذا فيه من المسائل المحققة المبنية على أصول صحيحة غير ملفقة فما الظن بما انتشر بعده من الهذيان الذى صار بحكم العادة واقتضاء العصبية وتمالئ الناس على الضلال وتقليد الرؤساء الجهال دينا قويما وصراطا مستقيما وعلى كل واحد من العالم والمتعلم أن يشتغل بما هو أهم عليه مما هو مأمور به ومسؤل عنه من مراقبة ربه واصلاح نفسه وقلبه فله فى ذلك شغل شاغل عما يفرق همه ويقسى قلبه وينسيه ذكر ربه عز وجل قال وهب بن منبه ذكر طلب العلم عند مالك بن أنس فقال ان طلبه لحسن اذا صحت فيه النية ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح الى حين تمسى ومن حين تمسى الى حين تصبح فلا تؤثرن عليه شيأ وكان سفيان الثورى يقول لاهل العلم الظاهر طلب هذا ليس من زاد الآخرة وكان يقول ليس طلب الحديث من عدة الموت لكنه علة يتشاغل به الرجل وكان يقول لولا أن للشيطان فيه حظا ما ازدحمتم عليه يعنى العلم فهذه نبذة قصدت الى بثها فى الموضع اللائق بها من هذا التنبيه لينتبه بها من سبق له من الله زوال العمى عن بصره ومراجعة خوفه وحذره من المعلمين والمتعلمين وليتبين بها كلام المؤلف رحمه الله غاية التبيين وبالله الذى لا اله سواه نستعين * (متى آلمك عدم اقبال الناس عليك أو توجههم بالذم اليك فارجع الى علم الله فيك فان كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الاذى منهم) العبد لا ينبغى أن يكون مطمح نظره الا الى مولاه فلا يفرح الا باقباله عليه ولا يحزن الا لاعراضه عنه ولا ينظر الى المخلوقين فى اقبال ولا اعراض ولا مدح ولا ذم فانهم لا يغنون عنه من الله شيأ وقد تقدم هذا المعنى فى قوله رحمه الله غيب نظر الخلق اليك بنظر الله اليك وغب عن اقبالهم عليك بشهود اقباله عليك فمن آلمه عدم اقبالهم عليه أو توجههم بالذم اليه فليرجع الى ما بينه وبين ربه فان كان قانعا بعلمه راضيا بقسمته كان له فى ذلك أعظم سلوان عما يفوته من جهة المخلوقين بل لا يجد وقعا فى قلبه لما عسى أن يكون منهم من اقبال أو اعراض وان لم يكن راضيا ولا قانعا فمصيبته بذلك أعظم من مصيبته باذى الناس له بل لا مصيبة له فى أذى الناس البتة عند من عرف سر ذلك على

(متى آلمك) أى أوجد عندك الالم والغم (عدم اقبال الناس عليك أو توجههم بالذم اليك فارجع الى علم الله) أى اقنع بعلمه (فيك) واكتف به عن علمهم بحالك المقتضى لاقبالهم عليك وعدم ذمهم لك فان كنت عند الله مخلصا فى أعمالك مقبولا فاى شئ يضرك من كونك عند الخلق ليس على ذلك الوصف حتى يتوجهوا اليك بالذم والاذى وان كنت حقيرا ممقوتا لعدم اخلاصك فأى شئ ينفعك من اقبالهم عليك ورضاهم عنك وثنائهم عليك (فان كان لا يقنعك علمه) بان أحببت أن تدخل مع علمه علم غيره حتى يطلع على اخلاصك وأعمالك فيعظمك ويقبل عليك (فمصيبتك) الحاصلة لك (بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك) الحاصلة (بوجود الاذى منهم) بذمك والاعراض عنك لان عدم القناعة بعلمه تعالى يردك اليهم فهو مصيبة ولا بد واذاهم يردك اليه فهو فائدة فى الواقع ونعمة وان كان مصيبة فى الظاهر فلا ينبغى للمريد أن يكون مطمح نظره الا الى مولاه فلا يفرح الا باقباله عليه ولا يحزن الا باعراضه عنه ولا ينظر الى المخلوقين فى اقبال ولا اعراض ولا مدح ولا ذم فانهم لا يغنون عنه من الله شيأ فمن آلمه عدم اقبالهم عليه أو توجههم بالذم اليه فليرجع الى ما بينه وبين ربه وليكتف

مايذكره المؤلف الآن رحمه الله تعالى قال ابراهيم التيمي رضي الله عنه لبعض أصحابه ما يقول الناس فيّ فقال يقولون انك مراء فقال الآن طاب العمل فقال بشر رضي الله عنه اكتفى والله بعلم الله فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره وقال بشر الحافي سكون النفس الى قبول المدح لها أشد عليها من المعاصي * (انما أجرى الأذى على أيديهم كي لا تكون ساكنا اليهم أراد أن يزعجك عن كل شئ حتى لا يشغلك عنه شئ) وجود أذى الناس للعبد نعمة عظيمة عليه لا سيما من اعتاد منه الملاطفة والاكرام والمبرة والاحترام لان ذلك يفيده عدم السكون اليهم وترك الاعتماد عليهم وفقد الانس بهم فيتحقق بذلك عبوديته لربه عز وجل قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه آذاني انسان مرة فضقت ذرعا بذلك فنمت فرأيت يقال لي من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم وقال بعض العارفين الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب اذا ساكنت غيره ولولا ذلك لرقد العبد في ظل العز والجاه وهو حجاب عن الله عظيم وقال سيدي أبو محمد عبد السلام شيخ سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما في دعائه اللهم ان قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك اللهم اني أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتى لا يكون لي ملجأ الا اليك وقال أبو الحسن الوراق النيسابوري رضي الله عنه الانس بالخلق وحشة والطمأنينة اليهم حمق والسكون اليهم عجز والاعتماد عليهم وهن والثقة بهم ضياع واذا أراد الله بعبد خيرا جعل أنسه به وبذكره وتوكله عليه وصان سره عن النظر اليهم وظاهره عن الاعتماد عليهم وقد قالوا الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقربا الى الله تعالى وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا بالله عز وجل قال في لطائف المنن اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم في بداياتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا وكي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا اليهم باستناد ومن أحسن اليك فقد استرقك بوجود امتنانه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من أسدى اليكم معروفا فكافؤه فان لم تقدروا فادعوا الله له كل ذلك ليتخلص القلب من رق احسان الخلق وليتعلق بالملك الحق قال وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم فان خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك ولعدو تصل به الى الله خير لك من حبيب يقطعك عن الله ومن اقبالهم عليك ليلا واعراضهم عنك نهارا ألا تراهم اذا أقبلوا فتنوا قال وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدإ طرقهم سنة الله في أحبابه وأصفيائه قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه اللهم ان القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك قال ومما يدلك على أن ذلك سنة الله في أحبابه وأصفيائه قوله تعالى وزلزلوا الآية وقوله تعالى حتى اذا استيأس الرسل الآية وقوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا الآيتين وقوله أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى اه وكذلك من استحلى حالا أو ساكن مقاما فمن سنة الله تعالى مع أوليائه تشويش ذلك عليهم وهو من غيرته على قلوبهم لئلا تستأنس بغيره ولئلا تتقيد بسواه قال الامام أبو القاسم القشيري رضي

بعلمه بحاله ولا يحب أن يدخل مع علمه علم المخلوقين حتى يعظموه قال ابراهيم التيمي لبعض أصحابه ما يقول الناس فيّ قال يقولون انك مراء فقال الآن طاب العمل قال بشر اكتفى والله بعلم الله فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره وقال بشر الحافي سكون القلب الى قبول المدح له أشد عليه من المعاصي (انما أجرى الأذى على أيديهم) اليك أيها المريد (كي لا تكون ساكنا اليهم) أي معتمدا عليهم في تحصيل نفع أو دفع ضر تاركا لجناب مولاك وقوله (أراد أن يزعجك عن كل شئ) بتوجه الخلق اليك بالأذى (حتى لا يشغلك عنه شئ) هو بمعنى ما قبله قال في لطائف المنن اعلم أن أولياء الله حكمهم في بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا وتتكمل فيهم المزايا ولئلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا اليهم باستناد ومن آذاك فقد أعتقك من رق احسانه ومن أحسن اليك فقد استرقك بوجود امتنانه ثم قال وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدإ ظهورهم سنة الله في أحبابه وأصفيائه اه وقال الاستاذ أبو الحسن الشاذلي قدس الله سره آذاني انسان مرة فضقت ذرعا بذلك فنمت فرأيت يقال لي من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم اه

الله عنه ومن المقاطع المشكلة السكون الى استحلاء ما يلاقيك به من فنون تقريبك وكأنه في خلال ما يناجيك يناغيك فانه بكل لطيفة يصطفيك ويطريك وتحتها خدع خافية ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله لا بانبائه في لطيف أحواله وما يخصصه به من افضاله واقباله وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدود عندهم من الشهوة الخفية ومن هذا المعنى ما ذكر عن سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه لما دخل على شيخه أبي محمد عبد السلام في أول ما لقيه وسأله عن حاله قال له أشكو الى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار فقال له الشيخ أبو الحسن أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلم أفهمه فقال أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله سبحانه (وقال) سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه اللطف حجاب عن اللطيف يعني السكون اليه والوقوف عنده وشدة الفرح به ولذلك قال سري السقطي رضي الله عنه لو أن رجلا دخل الى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار عليها من جميع ما خلق الله من الأطيار فخاطبه كل طائر منها بلغته وقال السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه الى ذلك كان في أيديها أسيرا وقال بعضهم لا يكون الصوفي صوفيا حتى لا تقله أرض ولا تظله سماء ولا يكون له قبول عند الخلق ويكون مرجعه في جميع أموره الى الحق وقيل الفقير من لا دنيا له ولا آخرة فان عرض على مالك قال ليس من رجالي وان سلم الى رضوان قال لا أهتدي اليه وليس من رجالي وان قلت من هو وما الذي يدعي به قال ليس ممن يدعي بشئ وقال محمد بن الحسن رضي الله تعالى عنه بينا أنا أدور في جبل لبنان اذ خرج شاب قد أحرقه السموم والرياح فلما نظر اليّ ولى هاربا فتبعته وقلت له عظني بكلمة فقال احذره فانه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه وكتب الجنيد رضي الله عنه الى بعض اخوانه من أشار الى الله وسكن الى غيره ابتلاه الله وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه فان انتبه وانقطع عمن سكن اليه ورجع الى ما أشار اليه كشف الله ما به من المحن والبلوى وان دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه وألبس لباس الطمع فتزداد رغبته فيهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم فتصير حياته عجزا وموته كمدا ومعاده أسفا ونحن نعوذ بالله من السكون لغيره * (اذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده) الشيطان عدو مسلط على الانسان ومقتضى ذلك أن لا يوجد منه غفلة ولا فترة عن التزيين والاغواء والاضلال قيل لبعضهم أينام ابليس فقال لو نام لوجدنا راحة فاذا علمت أنه لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده وهو الله عز وجل وذلك بتحقيق عبوديتك له وتوكلك عليه وافتقارك في كل أحوالك اليه واستعاذتك به من شر عدوك وعدوه فبذلك تخرج من سلطنته وتنجو من غائلته قال الله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا وقال عز وجل انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون فمن تحقق بهذه الصفات العلية من الايمان بالله تعالى والعبودية له والتوكل عليه واللجإ والافتقار اليه والاستعاذة والاستجارة به كيف يكون لعدو الله عليه سلطان والله حبيبه ووليه حفظه ونصره ولولا ما أمرهم الله تعالى بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه ومن هو حتى يستعاذ بالله منه * قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه في قوله تعالى ان

(اذا علمت) أيها المريد (أن الشيطان لا يغفل عنك) أي عن اضلالك واغوائك ومحاربتك لقوله تعالى لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقد ورد أن لكل أحد من الناس شيطانا واضعا خرطومه على قلبه فاذا غفل عن ذكر الله تعالى وسوس له واذا ذكر خنس أي تأخر واستتر (فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده) وهو الله تعالى أي عن الاعتصام والاحتماء به سبحانه وتعالى فانه يكفيك همه لقوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وقوله تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون فمن تحقق بهذه الصفات العلية من الايمان بالله تعالى والعبودية له والتوكل عليه والالتجاء والافتقار اليه والاستعاذة به كيف لا ينصره على عدوه قال ذو النون المصري ان كان هو يراك من حيث لا تراه فان الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال ابليس لربه عز وجل بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم فقال له الله عز وجل وعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني

الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه وقال أبو حازم رضى الله عنه ومن الشيطان حتى يهاب والله لقد أطيع فما نفع ولقد عصى فما ضر وقال بعضهم الشيطان منديل هذه الدار يعنى يمسح به أقذار النسب وهى نسبة الشرور وأنواع المعاصى والفساد اليه أدبا مع الله عز وجل وهذا سر ايجاده كما قال الله تعالى وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره وقوله تعالى هذا من عمل الشيطان وأما أن له حولا وقوة يضر بها أو ينفع فلا * قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه ما خلق الله عز وجل خلقا أهون عليه من ابليس ولولا أن الله أمرنى أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبدا وقيل لبعض العارفين كيف مجاهدتك للشيطان فقال وما الشيطان نحن قوم صرفنا هممنا اليه فكفانا من دونه وسئل بعضهم بم تدفع ابليس فقال لا أدفع من لا أعرف فاما ان أهملت ذلك وغفلت عنه ولم تعبأ به غلبك لا محالة لثبوت سلطنته عليك ووصوله بالوسوسة اليك قال أهل العلم ان لكل أحد من الناس وسواسا موكلا به مستبطنا قلبه واضعا رأسه أو قال خرطومه عليه فاذا غفل العبد وسوس واذا ذكر الله خنس أى تأخر واستتر وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه الشيطان قديم وأنت حديث والشيطان كبير وأنت سليم الناحية والشيطان لا ينساك وأنت لا تزال تنساه وله من نفسك عليك عون وقيل صدر ابن آدم مسكن له ومجراه من ابن آدم مجرى الدم وأنت لا تقاومه الا بعون الله تعالى وقال مالك بن دينار رضى الله عنه ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصمه الله وفيه يقول القائل

أشكو عدوا كيده يرانى * ولا أراه حيثما يرانى
وعندما أنساه لا ينسانى * ياسيدى ان لم تغث سبانى

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه ان كان هو يراك من حيث لا تراه فان الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال ابليس لربه عز وجل بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم مادامت الارواح فيهم قال له ربه وعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى (جعله لك عدوا ليحوشك به اليه وحرك عليك النفس ليدوم اقبالك عليه) عداوة الشيطان لك نعمة عظيمة من الله عليك اذ من مقتضاها كما قلناه أن لا تغفل عنك وأن تبذل جهده فى محاربتك ومقاتلتك بنفسه وبجنده وبخيله ورجله ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك لانك فى غاية الضعف والعجز فيضطرك الحال لا محالة الى الاستعانة عليه بمولاك القوى المتين فيوجد منك حينئذ الالتجاء اليه والانتصار به والتوكل عليه فى دفعه عنك فعداوة الشيطان هى التى ردتك الحق تعالى بها اليه وجمعتك بها عليه وهذا هو غاية المقصود وكذلك حركة النفس بالحمل على متابعة الهوى والشهوة بما جعل فيها من الطبع والجبلة نعمة عظيمة أيضا وان كانت أعدى الاعداء لك اذ بواسطتها يتوصلون اليك وبأمرها يعملون فيما يعود بالضرر عليك من قبل أنك لا تقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك الا بمن هو أقوى منك وليس ذلك الا مولاك فقد دعاك بهذا الى دوام الاقبال عليه والعكوف بالهم عليه وكأن

(جعله) الله (لك عدوا) قال تعالى ان الشيطان لكم عدو الآية (ليحوشك به اليه) لانك اذا عرفت أنه لا طاقة لك على مقابلته بنفسك لما أنت عليه من غاية الضعف والعجز اضطررت لا محالة الى الاستعانة عليه بمولاك القوى المتين ووجد منك الالتجاء اليه والانتصار به والتوكل عليه فى دفعه عنك فعداوة الشيطان هى التى ردتك الله بها اليه وجمعتك بها عليه وهذا هو غاية المقصود وهذا فى حق غير المحبوبين الذين صرفوا هممهم الى جناب الحق أما هم فلا يحتاجون الى عدو يحوشهم لان تعلقهم به كالطبيعى فيهم فلا يلتفتون الى ابليس ولولا أمر الله تعالى لهم بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه ومن هو حتى يستعاذ بالله منه (وحرك عليك النفس) بطلب متابعة الهوى والشهوة (ليدوم اقبالك عليه) لانك لا تقدر أيضا على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك الا بمن هو أقوى منك وليس ذلك الا مولاك فقد دعاك بهذا الى دوام الاقبال عليه والعكوف بالهم عليه لا سيما وهى أعدى أعدائك اذ بواسطتها يتوصل اليك ولانها عدو من داخل البيت وعداوة العدو الذى من داخل البيت أشد ولذا سمى صلى الله عليه وسلم جهادها بالجهاد الاكبر

المؤلف

(من أثبت لنفسه تواضعا) بان خطر بباله أنه متواضع (فهو المتكبر حقا اذ ليس ٦٥ التواضع) أى ليس اثباته ناشئا (الا عن) شهود (رفعة) كان يستحقها وأنه تنازل عنها الى مادونها (فمتى أثبت لنفسك رفعة) فى ضمن اثبات التواضع (فأنت المتكبر حقا) ولا ينتفى عنك التكبر الا بوجود الضعة حقيقة بان لا ترى لنفسك مرتبة ولا قيمة ثم قال (ليس المتواضع الذى اذا تواضع) أى فعل افعال المتواضعين بان جلس فى أسفل المجلس مثلا (رأى أنه فوق ما صنع) أى أنه يستحق الجلوس فى صدر المجلس مثلا (ولكن المتواضع) هو (الذى اذا تواضع) أى فعل أفعال المتواضعين بان جلس قريبا من صدر المجلس مثلا (رأى أنه دون ما صنع) وأنه يستحق أن يجلس فى أسفل المجلس مثلا والحاصل أن المتواضع حقيقة هو الذى لا يثبت التواضع لنفسه لانه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته ما يمنعه من ذلك ومن كان متصفا بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعا لانه يرى نفسه دون ما صنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود عليه فان أثبته لنفسه ورأى نفسه فوق ما صنع مما يقتضى وجود صفة التواضع له بزعمه فهو متكبر حقيقة ولذا قال الشبلى من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب

المؤلف رحمه الله تعالى قصد فى هذه الكلمات الى ذكر الاعداء الاربعة المذكورين فى قول الشاعر

انى بليت باربع يرميننى * بالنبل عن قوس لها توتير
ابليس والدنيا ونفسى والهوى * يارب أنت على الخلاص قدير

وبين فى كلامه وجود عداوتهم ووجوه الاحتراز منها وتمم ذلك ببيان أن تلك العداوة وان عظمت من أعظم الوسائل الى أسنى المطالب لمن أريد بذلك ووفق له وأتى بجميع ذلك فى ألفاظ بديعة مختصرة وجيزة محررة فاعرف قدر هذا الفصل واعترف لواضعه بكمال النبل والفضل وقال رضى الله عنه * (من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا اذ ليس التواضع الا عن رفعة فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر) اثبات التواضع يقتضى وجود الرفعة لا محالة اذ لو كانت معدومة لكان ضدها وهو الضعة ثابتا موجودا ولا ينتفى عن العبد التكبر الا بوجود الضعة ووجود الضعة لا يحتاج الى الاثبات من العبد لانه ثابت فى نفسه فالتواضع الذى أثبته العبد لنفسه لا ينفى عنه وجود التكبر بالضرورة وأيضا فان لفظة التواضع تؤذن بذلك فان التواضع تفاعل من الضعة وأكثر باب التفاعل موضوع لاظهار الصفة وليست كذلك كالتناوم والتناكر والتفارج والتماوت وغير ذلك فصيغة التواضع لا تقتضى حقيقة الضعة وعدم الرفعة ولا يلزم من وجودها ذلك والمطلوب من العبد انما هو أن يتصف بذلك حقيقة لا اظهارا فقط بان ينتفى عنه وجود الرفعة بالكلية وحينئذ يبرأ العبد من التكبر ولا يكون له وجود البتة * (ليس المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ولكن المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه دون ما صنع) هذا بيان آخر لما ذكره من أن العبد المتواضع حقيقة لا يثبت التواضع لنفسه لانه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته ما يمنعه من ذلك وهذا هو التواضع الحقيقى وهو شهوده لذلك ووجده به وظهور آثاره على ظاهره بل شهوده لذلك ووجده به مما يقدح فى حقيقة تواضعه كما قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه من وجد ذوق ذله فى ذله فهو متعزز وفيه بقية فهذا العبد المتصف بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ما شاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعا لانه يرى نفسه دون ما صنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود والوجد عليه فان أثبته لنفسه ورأى أن نفسه فوق ما صنع مما يقتضى وجود صفة التواضع له بزعمه فهو متكبر حقيقة ولذلك قال الشبلى رضى الله عنه يوما فى بعض كلامه ذلى عطل ذل اليهود وقال من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه لا يتواضع العبد لله حتى يعرف نفسه وقال أبو يزيد رضى الله عنه مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر قيل فمتى يكون متواضعا قال اذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل أحد على قدر معرفته بربه وبنفسه * وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه لو اجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ما قدروا عليه وقال أبو يونس بن عبيد الله رضى الله عنه وقد انصرف من عرفات لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت فيهم وقيل لمحمد بن مقاتل أدع الله لنا فبكى وقال ياليتنى لم أكن أنا سبب هلاككم ومن علامات التحقق بهذا الخلق أن لا يغضب اذا عيب أو تنقص ولا يكره أن يذم ويقذف بالكبائر ومن علامات تحققه به أيضا أن يستحسن على أن لا يكون له جاه

وقال ذلى عطل ذل اليهود ومن علامة التحقق بهذا الخلق أن لا يغضب اذا عوتب أو انتقص ولا يكره أن يذم أو يقذف بالكبائر ولا يحرص على أن يكون له عندهم قدر وجاه ولا يرى لنفسه موضعا فى قلوب الناس

وقدر عند الناس ويلتزم الصدق فى حاله بان لا يرى لنفسه موضعا فى قلوبهم وقد تقدم هذا المعنى عند قوله ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه وحكى عن أبى الحسين بن الكرنبى أستاذ الجنيد رضى الله عنهما ان رجلا دعاه ثلاث مرات الى طعامه ثم يرده فيرجع اليه بعد ذلك حتى أدخله داره فى المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد ريضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيعود ويرمى له عظم فيجيب ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لاجبتك قال أبو طالب المكى رضى الله عنه وحدثت عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل وهو يأكل فمد يده وقال ان كان ثم شئ لله تعالى فقال اجلس فكل فقال أعطنى فى كفى فأعطاه فى كفه فقعد فى مكانه يأكل فسأله عن امتناعه من الجلوس معه فقال ان حالى مع الله تعالى الذل فكرهت أن أفارق حالى قال وكان هذا ربما مد يده الى الهراس فيجعل فيها هريسة ومن أغرب ما رأيت فى التواضع ما ذكره صاحب كتاب عوارف المعارف قال رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره الى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رؤس الاسارى من الافرنج وهم فى قيودهم فلما مدت السفرة والاسارى ينتظرون الاوانى حتى تفرغ قال للخادم أحضر الاسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفا واحدا وقام الشيخ من سجادته ومشى اليهم وقعد بينهم كالواحد منهم وأكل وأكلوا وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله تعالى والانكسار فى نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بايمانه وعلمه وعمله * وأغرب من هذا ما ذكره صاحب كتاب بغية الطالب ومنية الراغب أبو الحسن على بن عتيق بن يوسف القرطبى رحمه الله عن أبيه أنه رأى الشيخ الفقيه أبا محمد بن عبد الله عبد الرحمن بن مفيد وكان من الفقهاء العلماء وهو يمشى فى يوم شات كثير الطين فاستقبله كلب يمشى على الطريق التى كان عليها قال فرأيته قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقا ووقف ينتظره ليجوز وحينئذ يمشى هو فلما قرب منه الكلب قال فرأيته قد ترك مكانه الذى كان فيه ونزل أسفل وترك الكلب يمشى فوقه قال فلما جاوزه الكلب وصلت اليه فوجدته وعليه كآبة فقلت له يا سيدى انى رأيتك صنعت الآن شيأ استغربته كيف رميت بنفسك فى الطين وتركت الكلب يمشى فى الموضع النقى فقال لى بعد أن عملت له طريقا تنحى تفكرت فقلت ترفعت على الكلب وجعلت نفسى أرفع منه بل هو والله أرفع منى وأولى بالكرامة لانى عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لا ذنب له فنزلت عن موضعى وتركته يمشى عليه وأنا الآن أخاف المقت من الله الا أن يعفو عنى لانى رفعت نفسى على من هو خير منى

*(التواضع الحقيقى هو ما كان ناشئا عن شهود عظمته وتجلى صفته) شهود عظمة الله تعالى وتجلى صفته هو الذى يوجب للعبد وجود التواضع الذى ذكرناه لان ذلك هو الذى يخمد النفس ويذيبها ويبطل أمنيتها فما تجلى الله تعالى لشئ الا خضع له فلا تنقلع من القلب شجرة الرياسة والكبر الا به لا بما يتكلفه العبد ويتعاطاه بنفسه من أعمال وأحوال قال الجنيد رضى الله عنه التواضع عند أهل التوحيد تكبر وقال الشيخ أبو حامد رضى الله عنه ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيأ حتى يضعها أو يرفعها وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه من أراد التواضع فليوجه نفسه

(التواضع الحقيقى هو ما) أى انكسار وانهضام (كان ناشئا عن شهود عظمته) تعالى (وتجلى صفته) يعنى أن شهود عظمة الله تعالى وتجلى صفاته على العبد هو الذى يوجب له وجود التواضع الحقيقى لان ذلك هو الذى يخمد النفس ويذيبها ويبطل أمانيها فما تجلى الله تعالى لشئ الا خضع له فلا ينقطع من القلب شجرة الكبر وحب الرياسة الا به وخرج بالحقيقى التواضع المتقدم وهو الذى ينشأ من النظر لنقص النفس وعيوبها فانه ليس حقيقيا لانه قد يكون مشوبا بشئ من الكبر والعجب ولذا قال الجنيد قدس الله سره التواضع عند أهل التوحيد تكبر قال الغزالى ولعل مراده ان المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيأ حتى يضعها انتهى فهو غائب عن نفسه وحسه بما شاهده من عظمة ربه قال فى عوارف المعارف لا يبلغ العبد حقيقة التواضع الا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه فعند ذلك تذوب النفس وعند ذوبانها صفاؤها عن غش الكبر والعجب انتهى ثم علل ما تقدم بقوله

(لا يخرجك عن الوصف) أى عن أوصاف نفسك كالكبر والعجب (الا شهود الوصف) أى شهود صفات ربك كعظمته فالوصف المذكور أولا هو وصف العبد والمذكور ثانيا هو وصف الرب وهذه قاعدة كلية شاملة لما تقدم ولغيره فلا خروج للعبد

الى عظمة الله فانها تذوب وتصغر ومن نظر الى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه لان النفوس كلها حقيرة عند هيبته ومن أشرف التواضع أن لا ينظر الى نفسه دون الله تعالى وفى كتاب عوارف المعارف واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع الا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه فعند ذلك تذوب النفس وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها *(لا يخرجك عن الوصف الا شهود الوصف) هذه عبارة مليحة موافقة لمعنى ما تقدم الآن والوصف المذكور أولا وصف العبد والوصف المذكور ثانيا وصف الرب تبارك وتعالى (المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرا وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا) شكر النفس رؤية نسبة الافعال الجميلة والاحوال الحميدة اليها وذلك ثناء عليها وهو مضاد للثناء على الله تعالى وذكر حظها اعتقاد أن لها حقا على ما يفعله من الطاعات وهو مضاد للقيام بحقوق الله تعالى فالمؤمن الحقيقى لا يلتفت الى نفسه فى نسبة شئ من المحاسن اليها وفى طلب حظ عاجل لها بل يشغله الثناء على الله تعالى والحرص على توفية جميع حقوقه عن جميع ذلك (ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضا أو يطلب منه غرضا فان المحب من يبذل لك ليس المحب من تبذل له) المحبة تقتضى من المحب بذل كلياته وجزئياته فى مرضاة محبوبه من غير طلب حظ يناله منه فهذا مما يلزم وجود المحبة كما قيل

ان المحب اذا أحب حبيبه * تلقاه يبذل فيه ما لا يبذل

بل يرى ما فعل من ذلك غاية الحظ وموافقة رضا محبوبه نهاية السعادة والبخت كما قال أبو حفص عمر بن الفارض رحمه الله تعالى

مالى سوى روحى وباذل روحه * فى حب من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى * يا خيبة المسعى اذا لم تسعف

ولذلك قيل المحبة الايثار وهو أن لا يدع لمحبوبه ميسورا الا بذله ولا ممكنا الا استعمله ولا يبقى لنفسه ولا لحظه نفسا ولا سكنة ولا يستثنى من كل ما لا بد منه سمسمة وأنشدوا

لئن بقيت فى العين منى قطرة * فانى اذن فى العاشقين ذليل

وقال أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منك شئ وقال أبو يعقوب السوسى رضى الله عنه حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله تعالى وينسى حوائجه اليه وقيل لبعض المحبين وكان قد بلغ المجهود فى بذل ماله ونفسه حتى لم يبق منه بقية ما كان سبب حالك هذه فى المحبة فقال كلمة سمعتها من خلق لخلق عملت فى هذا البلاء قيل وما هى قال سمعت محبا خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبى كله وأنت تعرض عنى بوجهك كله فقال له المحبوب ان كنت تحبنى فأى شئ تنفق على فقال يا سيدى أملكك ما أملك ثم انفق عليك روحى حتى أهلك فقلت هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بخلق لخالق وعبد لمعبود فكان هذا سببه فهذا الذى ذكرناه من لوازم المحبة الحقيقية وأما

عن صفات نفسه الا بشهوده لصفات ربه فمن شهد كبرياء الحق لم يبق به كبر ومن شهد غناه لم يبق له غنى ومن شهد قدرته لم تبق له قدرة فيبقى بربه لا بنفسه فان من شهد أوصاف ربه لم يبق له خبر عن نفسه (المؤمن) الكامل (يشغله الثناء على الله) أى وصفه بالاوصاف الجميلة ونسبة الاوصاف الحميدة اليه (عن أن يكون لنفسه شاكرا) أى معظما لها بنسبة الافعال الجميلة والاحوال الحميدة اليها فاذا قال أنا صليت أو صمت ونسب الافعال الجميلة اليه لم يكن مؤمنا كاملا لان ذلك فعل الله تعالى والعبد مظهر لذلك فقط ظهر فيه الفعل فلا معنى للاشتغال بالثناء على المظهر عن الثناء على الفاعل المعطى المنان فالمؤمن الكامل لا ينسب الافعال الحسنة والاحوال السنية الى نفسه ولا يلتفت اليها فيكون لها شاكرا أى معظما بل يغيب عن ذلك بنسبتها الى موجدها ومنشئها وهو الله تعالى (وتشغله حقوق الله) أى الحرص على توفية حقوقه تعالى (عن أن يكون لحظوظه ذاكرا) أى ملتفتا لها بان يعبد الله تعالى لذاته لا لطمع فى جنته أو هرب من ناره فانه (ليس المحب

الحقيقى (الذى يرجو من محبوبه عوضا) على عمل يعمله فلا يقصد بأعماله الصالحة جنة ولا نجاة من نار (أو يطلب منه غرضا) من الاغراض الدنيوية والاخروية (فان المحب) أى الحقيقى (من يبذل لك) أى يعطيك (ليس المحب) الحقيقى (من تبذل له) لان المحبة الحقيقية أخذ خصال المحبوب لمحبة القلب فلا يصبر عند المحب التفات لغير محبوبه فمن عبده تعالى لجنته فليس محبا له بل للجنة

رجاء العوض وطلب الغرض فهذا حال من مقامه الرجاء وليس من مقام المحبة المخصوصة في شئ قال الشاعر

من لم يكن بك فانيا عن حظه ۞ وعن الهوى والانس بالاحباب

فلانه بين المراتب واقف ۞ لمنال حظ أو لحسن مآب

وقال آخر

وما أنا بالباغي عن الحب رشوة ۞ ضعيف هوى يرجو عليه ثوابا

(قال) أبو محمد رويم من أحب العوض بغض العوض اليه محبوبه وقيل أوحى الله عز وجل الى عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام انى اذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبى وقال بعض المحبين كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخشن ويتثنين فنظرت اليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما قال ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال وقيل لى انظر اليهن قال فسجدت وغمضت عينى في سجودى لئلا أنظر اليهن وقلت أعوذ بك مما سواك لا حاجة لى بهن فلم أزل أتضرع الى الله تعالى حتى صرفهن عنى وذكر الشيخ الحافظ أبو نعيم رضى الله عنه قال ميسرة الخادم غزونا في بعض الغزوات فاذا فتى الى جانبى واذا هو مقنع بالحديد فحمل على الميمنة حتى ثناها وعلى الميسرة حتى ثناها وحمل على القلب حتى ثناه ثم أنشد يقول

أحسن بمولاك سعيد ظننا ۞ هذا الذى كنت له تمنى

تنحى يا حور الجنان عنا ۞ مالك قاتلنا ولا قتلنا

لكن الى سيدكن اشتقنا ۞ قد علم السر وما أعلنا

قال فحمل فقاتل حتى قتل منهم عددا كثيرا ثم رجع الى مصافه فتكالب عليه العدو فاذا هو قد حمل على الناس وأنشأ يقول

قد كنت أرجو ورجائى لم يخب ۞ أن لا يضيع اليوم كدى والطلب

يا من ملا تلك القصور باللعب ۞ لولاك ما طابت ولا طاب الطرب

فحمل وقاتل فقتل منهم عددا كثيرا ثم رجع الى مصافه فتكالب عليه العدو فحمل الثالثة على الناس ثم أنشأ يقول

يا لعبة الخلد قفى ثم اسمعى ۞ مالك قاتلنا فكفى وارجعى

ثم ارجعى الى الجنان واسرعى ۞ لا تطمعى لا تطمعى لا تطمعى

فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى ولاجل ما ذكرناه من اقتضاء مقام المحبة بذل كلية البذل من المحب لزم وقوع الابتلاآت والمطالبات به حتى يحصل له توفية حقوق هذا المقام على التمام ولهذا قال بعضهم أول ما يقول الله عز وجل للعبد اطلب العافية والجنة والاعمال وغير ذلك فان قال لا ما أريد الا أنت قال له من دخل معى فى هذا انما يدخل باسقاط الحظوظ ورفع الحدوث وثبوت القدم وذلك يوجب له العدم وقال بعض العلماء اذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك وقال بعض المريدين لاستاذه طولعت بشئ من المحبة فقال له يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرته عليه فقال لا قال لا تطمع نفسك فى المحبة فانه لا يعطيها أحدا حتى يبلوه وقال بعض علمائنا رضى الله تعالى عنهم كل أهل المقامات يرجون أن يعفو

(لولا ميادين النفوس) أى شهواتها وعاداتها ومألوفاتها الشبيهة بالميادين أى مواضع من نكض الخيل بجامع الجولان فى كل فكما ان الخيول تجول فى الميادين كذلك النفوس تجول فى مشتهياتها والمعنى لولا هذه الشهوات التى تخوض فيها النفوس وتنعشقها (ما تحقق سير السائرين) أى ما تصور سير ولا سلوك الى حضرة ملك الملوك لانه تعالى أقرب لكل أحد من نفسه قال تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد فالبعد الذى يوجب السير الى المحبوب وسلوك الطريق للوصول اليه قائم بك أيها العبد وهو شهواتك ولو عدمت منك لم تحتج الى سير ولا سلوك لان البعد الذى يحتاج الى ذلك منفى عنه سبحانه وتعالى حسيا كان أو معنويا كما أشار الى ذلك بقوله (اذ لا مسافة) حسية (بينك وبينه حتى تطويها ٦٩ رحلتك) أى ارتحالك لان المسافة الحسية لا تكون الا بين متماثلين يصل أحدهما الى صاحبه (ولا قطعة) بضم القاف أى انقطاع وعداوة (بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك) لان الانقطاع والعداوة لا يكونان الا بين متضادين متعاديين فيحتاج أحدهما الى الوصلة والمودة وأين أنت من الله حتى تعاديه والحاصل أنك عند انتفاء الشهوات منك لا تحتاج الى سير لان السير الى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثار دواعيها وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى وتصل الى سعادة لقائه ولولا معاناة هذه الاشياء لم يتحقق السير والسلوك كيف والحق أقرب اليك من نفسك فالبعد الحسى وهى المسافة التى تطويها رحلتك والبعد المعنوى وهى القطعة التى تمحوها وصلتك محالان فى حقه تعالى لنفى المثلية فى الاول وعدم الضدية فى الثانى فنفسك هى الحجاب الاعظم عن الله وبمجاهدتها وقمعها وموتها تصل الى الله وقال أبو مدين من لم يمت نفسه لم ير الحق وقال الاستاذ أبو العباس لا يدخل على الله الا من بابين باب الفناء الاكبر وهو الموت الطبيعى وباب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة وعن حاتم الاصم من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت موت أحمر وهو مخالفة النفس وموت أسود وهو احتمال أذى الناس وموت أبيض وهو الجوع وموت أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض ولا بد للمريد فى هذه الطريق من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تأديب نفسه وتخلص من هواه فيسلم نفسه اليه ويلزم طاعته والانقياد اليه فى كل ما يشير به عليه من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردد فقد قالوا من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه وقد استوفينا آداب المريد مع الشيخ وبينا من يصلح للمشيخة فى غير هذا الكتاب

عنهم ويسمح لهم الا من ادعى المعرفة والمحبة فانهم يطلبون بكل شعرة مطالبة وفى كل حركة وسكون ونظرة وخطرة لله ومع الله وقال ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه وكان له مقامات فى المحبة رفيعة قلت ذات يوم رب ان كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك فاعطنى ذلك فقد أضر بى القلق قال فرأيت فى النوم انه أوقفنى بين يديه فقال يا ابراهيم أما استحييت منى أن تسألنى ما يسكن به قلبك قبل لقائى وهل يسكن المشتاق دون لقاء حبيبه أم هل يستريح المحب الى غير معشوقه قال فقلت يا رب تهت فى حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى كيف أقول فقال قل اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر نعمائك انتهى فللمحبين دقائق خطرات ولطائف ملاحظات يظهر لهم بذلك الشوق فى صفاء حبهم والبعد فى مواطن قربهم فهم يفرون منها ويخرجون عنها مخافة أن تسترق بشئ من ذلك فلوبهم بادنى ميل أو مساكنة فيوجب لهم ذلك السقوط من مقامهم الرفيع الذى أهلهم وأهلوا له ولذلك قال محمد بن سهل بن عبد الله رضى الله عنه جناية المحب عند الله تعالى أشد من معصية العامة وهو أن يسكن الى غير الله أو يستأنس بسواه وقيل أوحى الله تعالى الى داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام يا داود انى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى مع حب غيرى ويحكى أن الله تعالى قال لموسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام نعم العبد برخ هو لى الا أن فيه عيبا قال يا رب وما عيبه قال يعجبه نسيم الاسحار فيسكن اليه ومن أحبنى لم يسكن الى شئ (ويروى) أن عابدا عبد الله فى غيضة دهرا طويلا فنظر الى طائر قد عشش فى شجرة يأوى اليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدى الى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت ذلك الطائر قال ففعل فأوحى الله الى نبى ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لاحطنك درجة لا تنالها منى بشئ من عملك أبدا ۞ (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين اذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك) السير الى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثارها ودواعيها وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى وتصل الى سعادة لقائه ولولا معاناة هذه الاشياء لم يتحقق السير والسلوك كيف والحق تعالى أقرب الى العبد من نفسه فالبعد الحسى وهو المسافة التى تطويها رحلته والبعد المعنوى وهى القطعة التى

نحوها وصلته محالان فى حقه تعالى لنفى المثلية فى الاول وعدم العندية فى الثانى وهذه الالفاظ التى عبر عنها المؤلف رحمه الله تعالى من السير والميادين والرحلة والوصلة وفى معناها السير والسلوك والذهاب والرجوع هى عبارات استعملتها الصوفية فى أمور معنوية تجوزوا بها عن أمور حسية ومرجع جميع ذلك كله الى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير وهذا الكلام الذى ذكره المؤلف ههنا وما تقدم له ولنا غير مامرة من أن النفس هى الحجاب الاعظم للعبد عن الله تعالى وأن مجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالى صحيح المعنى (قال) بعضهم ما الحياة الا فى الموت أى ما حياة القلب الا فى اماتة النفس وقيل النعمة العظمى الخروج عن النفس لان النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى وقال سيدى أبو مدين رضى الله عنه من لم يمت لم ير الحق وقال سيدى أبو العباس رضى الله عنه لا يدخل على الله الا من بابين من باب الفناء الاكبر وهو الموت الطبيعى ومن باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة وعن حاتم الاصم رضى الله عنه أنه قال من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت موت أحمر وموت أسود وموت أبيض وموت أخضر فالموت الابيض الجوع والموت الاسود احتمال أذى الناس والموت الاحمر مخالفة النفس والموت الاخضر طرح الرقاع بعضها على بعض وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه للنفس سر ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه الا على فرعون فقال أنا ربكم الاعلى ولها سبعة حجب سماوية وسبعة حجب أرضية فكلما يدفن العبد نفسه أرضا أرضا سما قلبه سماء سماء فاذا دفنت النفس تحت الثرى وصل بالقلب الى العرش يعنى اذا خالفها وفارقها وسبيل المريد الى الوصول الى موت النفس انما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة الى مولاه فى أن يعينه ويقويه على أمر نفسه ويسهل عليه طريق سلوكه ويستعمل هذا فى كل حال ووقت وليجعله عمدته فيما هو سبيله وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله ما توقف مطلب أنت طالبه بربك وقال بعض العارفين لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وانما يكون الخروج من النفس بالله ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة فى ظاهره وباطنه والتزام آدابهما ولكل عبد عمل مخصوص يقتضى لا محالة حكما مخصوصا يقوم بحقه وذلك مختلف باختلاف أحوال الناس فحركات العبد وسكناته هى أعماله الظاهرة ومقصوده وهمه وارادته هى أعماله الباطنة وكل واحد من القسمين ينبغى أن يأخذ فيه بعزائم الامور ويجتنب الرخص التى هى من شأن العامة والجمهور حسبما تقدم عند قوله من جهل المريد أن يسىء الادب فتؤخر العقوبة عنه فعمل الظاهر ان كان واجبا فليبادر الى فعله ولا يتوانى عنه وليقم بجميع آدابه اللازمة له ويلتحق بذلك ما كان مندوبا اليه اذا علم فى أى مرتبة هو وانما اشترطنا هذا الشرط لان المندوبات التى تعترضه يحتاج فيها الى تقديم الاولى فالاولى والاهم فالاهم منها فان لم يعمل على هذا وقدم ما ليس بأهم كان متبعا للهوى لا لموجب العلم وليأخذ فى ذلك بالقصد من غير افراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير وفى حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلفوا من العمل ما تطيقون فان الله تعالى لا يمل حتى تملوا وان أفضل العمل أدومه وان قل وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وبشروا وان كان حراما فليبادر الى تركه واجتنابه وليقطع عن نفسه جميع أسبابه ويلتحق بذلك ما يكون مكروها وان كان

مباحا فهذا هو محل نظر المريد فعليه أن يأخذ بالعزيمة فيه وليقف على حدود الضرورة منه وليكن اجتنابه لما يشتد ميل النفس اليه ويعظم حرصها عليه أكثر من اجتنابه لما فقد منه ذلك ويختلف ذلك باختلاف الاشخاص فرب شخص تميل نفسه الى ما لا تميل اليه نفس شخص آخر فليشتغل المريد بقطع ذلك وزوال علاقته من قلبه بالرياضة والمجاهدة وليستمر على ذلك حتى يكون وقوفه على ما لا بد له منه على وجه الطاعة والقربة لا على سبيل الهوى والشهوة ومما يشتد ميل نفوس أكثر الناس اليه ما يكون سبب تناوله واستعماله مراعاة نظر الخلق والجرى على عوائدهم السيئة ومراسمهم المذمومة ومجاهدة النفس فى مثل هذا عسيرة جدا لا سيما على من ابتلى بحب الجاه والرياسة وقبول الخلق فى ولاية حكم أو نشر علم أو غير ذلك فانها أشد الشهوات علاقة بالقلب وأضرها بالمريد فيجب عليه أن يعتنى بذلك ويبالغ فى تطهير ظاهره وباطنه منه مما يتعاطاه من أعمال وأحوال وقد نبهنا على هذا المعنى فى أول الكتاب عند قول المؤلف رحمه الله تعالى ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه ويتعين على المريد فى رياضته ومجاهدته أن يمنع حواسه ويكف جوارحه عن التطلع والجولان فى مظان وجدان شهواته وسيئ عاداته وأن لا يجامعها ولا يتفق معها فان ذلك منشأ كل شر ومنبع كل فساد وضر كما قيل

ان السلامة من سلمى وجارتها * أن لا تمر على حال بواديها

فليراقب ربه وليحفظ جوارحه وقلبه فان الانسان قد يتحرك مثلا فى طلب الخير والعمل من أعمال البر فيتفق أن يقع بصره على شئ له فيه هوى وشهوة فتميل نفسه اليه بالشره والمحبة فيتكدر عليه وقته ويظلم قلبه ويختل عليه فى لحظة ما كابد أمره فى سنة مثلا وكذلك سائر حواسه وقد شبه العلماء رضى الله عنهم النفس فى مثل هذا بدابة استعارها رجل من ربها ومالكها ليتصرف بها فى حاجاته وكانت دابة جموحة صعبة المراس فجاز بها المستعير فى بعض تصرفاته على دار مولاها فنزعت الى دار سيدها فانه لا محالة يحتاج الى صرف عنانها فان تقاعست ضربها بالسوط والعصا حتى يصرفها بذلك عما نزعت اليه وقد يكون عليه فى ذلك تعب ومؤنة وسبب ذلك انما هو خطوره بها على دار مولاها الذى ألفته واعتادته ولو لم يمر بها عليه لسلم ولم يحتج الى معاناة ولا مكابدة فان تغافل عنها حتى أدخلت يديها فى عتبة الباب واستمكنت منها ثم أراد منعها من الدخول لم تطعه بوجه بل اقتحمت به باب الدار كرها وربما جرحت رأسه وآلمته وسبب ذلك انما هو تمكينها من العمل بمقتضى طبيعتها وموافقة جبلتها فكذلك حال النفس قال

فالنفس ان أعطيتها هواها * فاغرة نحو هواها فاها

فلذلك كانت الخلوة والعزلة من أوجب الواجبات على المريد فان نفسه اذ ذاك تكون ساكنة هادئة قد نسيت عوائدها وفترت دواعيها وبمداومته على ذلك يحصل له من التزكية والتحلية والاستقامة والطمأنينة ما هو المقصود بالرياضة والمجاهدة فان اعتراه شئ مما ذكرناه اختل عليه حاله واحتاج من أجل ذلك الى المجاهدة الشاقة والرياضة الصعبة وأنى له مع ذلك تلافى ما فاته وقد قالوا وقفة المريد شر من فترته (قال) الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه والفرق بين الوقفة والفترة أن الفترة رجوع عن الارادة وخروج منها والوقفة خروج عن السير باستيلاء حالات الكسل وكل مريد وقف فى ابتداء ارادته لا يجئ منه شئ

انتهى كلامه رحمه الله فبدايات الامور هى التى يجب أن يراعيها المريد والله ولى التوفيق والتسديد ولا غنى للمريد فى هذا القسم عن تحصيل ما يحتاج اليه من العلوم الشرعية على ما ينبغى وعمل الباطن يرجع حاصله الى أمر واحد وهو اخلاص التوحيد لله عز وجل باعتقاد العبودية له وذلك بان يحمل نفسه على الاستسلام لاحكام الله تعالى وترك المنازعة والتدبير والاختيار بين يديه وهذا المعنى هو الذى ضمنه المؤلف رحمه الله كتابه التنوير فى اسقاط التدبير فليستعن المريد على ذلك به ولا يقصد برياضته ومجاهدته التوصل الى شئ من الكرامات وخرق العوائد وأنواع الاجابات فان ذلك فتنة وبلية قاطعة عليه طريق العبودية (قال) أبو عثمان المغربى رضى الله عنه من اختار الخلوة على الصحبة ينبغى أن يكون خاليا من جميع الاذكار الا ذكر ربه وخاليا من جميع الارادات الا رضا ربه وخاليا من مطالبة النفس من جميع الاسباب وان لم يكن بهذه الصفة فان خلوته توقعه فى فتنة أو بلية (وقال) الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه من عمل ليجد أو يرى لم يفتح له بشئ حتى يكون قصده تحقيق العبودية والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية (قال) صاحب كتاب عوارف المعارف من دخل الخلوة معتلا فى دخوله دخل عليه الشيطان وسوّل له أنواع الطغيان وامتلأ من الغرور والمحال وظن أنه حصل على حسن الحال قال وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الاذكار واستجمعوا انفوسهم بالعزلة عن الخلق ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة والوحدة فى جمع الهم لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقا فكل ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتج تنوير القلب والزهد فى الدنيا وحلاوة الذكر والمعاملة لله بالاخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتج صفاء فى النفس يستعان به على اكتساب علوم رياضية مما يعتنى به الفلاسفة والدهريون وكلما أكثر من ذلك كثر البعد من الله تعالى ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن اليه كل الركون ويظن أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة وليست هى المقصودة من الخلوة لقول بعضهم الحق يطلب منك الاستقامة وأنت تطالبه بالكرامة وقد يفتح على الصادقين بشئ من خرق العادات وصدق الفراسة وتبين ما يستحدث فى المستقبل وقد لا يفتح عليهم ذلك ولا يقدح فى حالهم عدم ذلك وانما يقدح فى حالهم الانحراف عن حد الاستقامة وما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سبب مزيد انتفاعهم والداعى لهم الى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد فى الدنيا والتخلق بالاخلاق الحميدة وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق ولا يزال به حتى يخلع ربقة الاسلام من عنقه وينكر الحدود والاحكام والحلال والحرام ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى وترك متابعة الرسول ثم يتدرج من ذلك الى الحد وتزندق نعوذ بالله من الضلال وقد يلوح لاقوام خيالات يظنونها وقائع ويسمونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك انتهى كلامه رحمه الله وهو فى غاية الحسن ونهاية التحقيق فبمداومة العبد على مثل هذه الاساليب التى ذكرناها مشاهدا لتوفيق ربه عز وجل وتأييده له يحصل له من الله مزيد كثير وعند ذلك يتطهر باطنه

من جميع الآفات وخبائث الصفات وتستنير سريرته بانوار المكاشفات والملاطفات وقد عبر الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة فقال قتل النفس فى الحقيقة التبرى من حولها وقوتها أو شهود شئ منها ورد دواعيها اليها وتشويش تدبيرها عليها وتسليم الامور الى الحق سبحانه بجملتها وانسلاخها من اختيارها وارادتها وانمحاء آثار بشريتها عنها فأما بقاء الرسوم والهياكل فلا خطر لها ولا عبرة اه فهذه هى السبيل الى موت النفس المفضى الى حضرة القدس لكونه جاريا على مقتضى الشريعة والحقيقة اللتين بانوارهما يهتدى كل سالك ومريد ولا بد للمريد فى هذه الطريقة من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تهذيب نفسه وتخلصه من هواه فليسلم نفسه اليه وليلزم طاعته والانقياد اليه فى كل ما يشير به عليه من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردد فقد قالوا من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه وقد قال أبو على الثقفى رضى الله عنه لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال الا بالرياضة من شيخ أو امام أو مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه من آمر له وناه يريه عيوب نفسه ورعونات أعماله لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات (وقال) سيدى أبو مدين رضى الله عنه من لم يأخذ الادب من المتأدبين أفسد من يتبعه وقال المؤلف رحمه الله فى لطائف المنن انما يكون الاقتداء بولى دلك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته فألقيت اليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد يعرفك برعونات نفسك فى كائنها ودقائقها ويدلك على الجمع على الله ويعلمك الفرار عما سوى الله ويسايرك فى طريقك حتى تصل الى الله يوقفك على اساءة نفسك ويعرفك باحسان الله اليك فيفيدك معرفة اساءة نفسك الهرب عنها وعدم الركون اليها ويفيدك العلم باحسان الله اليك الاقبال عليه والقيام بالشكر اليه والدوام على ممر الساعات بين يديه قال فان قلت فأين من هذا وصفه لقد دللتنى على أغرب من عنقاء مغرب فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين وانما يعوزك وجدان الصدق فى طلبهم جد صدقا تجد مرشدا وتجد ذلك فى آيتين من كتاب الله تعالى قال الله سبحانه أمّن يجيب المضطر اذا دعاه وقال سبحانه فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم فلو اضطررت الى من يوصلك الى الله اضطرار الظمآن الى الماء والخائف الى الامن لوجدت ذلك أقرب اليك من وجود طلبك ولو اضطررت الى الله اضطرار الام لولدها اذا فقدته لوجدت الحق منك قريبا ولك مجيبا ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك انتهى وفى كلامه رحمه الله تنبيه على أن الشيخ من منح الله وهداياه للعبد المريد الصادق اذا صدق فى ارادته وبذل فى مناصحة مولاه جهد استطاعته لا على ما قد يتوهمه من لا علم عنده وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الآداب معه لما أشهده من عالى مرتبته ورفيع درجته (قال) سيدى أبو مدين الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك باطراقه وأنار باطنك باشراقه الشيخ من جمعك فى حضوره وحفظك فى مغيبه وقال المؤلف رحمه الله فى لطائف المنن وليس شيخك من سمعت منه انما شيخك من أخذت عنه وليس شيخك من واجهتك عبارته انما شيخك الذى أثرت فيك اشارته وليس شيخك من دعاك الى الباب انما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب وليس شيخك من واجهك مقاله انما شيخك الذى نهض بك حاله شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى شيخك هو الذى ما زال يجلو

مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك نهض بك الى الله فنهضت اليه وسار بك حتى وصلت اليه ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه فزج بك فى أنوار الحضرة وقال ها أنت وربك اه وآداب المريد مع الشيخ والشيخ مع المريد كثيرة مذكورة فى كتب الائمة الصوفية رضى الله عنهم ومن أبلغ ذلك وأوجزه ماذكره الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه قال فشروط المريد أن لا يتنفس نفسا الا باذن شيخه ومن خالف شيخه فى نفسه سرا أو جهرا فسوف يرى عنه من غير ما يحبه سريعا ومخالفة الشيوخ فيما يسرونه منهم أشد مما يكادونه بالجهد وأكثر لان هذا يلتحق بالخيانة ومن خالف شيخه لم يشم رائحة الصدق فان برز منه شئ من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والافصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة ليهديه شيخه الى ما فيه كفارة جرمه ويلتزم فى الغرامة ما يحكم به عليه فاذا رجع المريد الى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته فان المريدين عيال على شيوخهم فرض عليهم أن ينفقوا من قوت أحوالهم ما يكون جبرانا لتقصيرهم انتهى وقال الشيخ العارف محيى الدين أبو العباس البونى رحمه الله اياك أن تحقر فعلا يخطر لك أن لا تلقيه الى الشيخ طاعة كان أو معصية على أى نوع برز لك ولو اختلف عليك ألف مرة فى ساعة واختلفت اليك ألف ساعة فى الخاطر لعلمك الدواء الذى تزعجه به أو يحمل عنك بهمته قال ولقد رأيت تلميذا من أصحاب شيخنا الامام تاج العارفين أبى محمد عبد العزيز بن أبى بكر القرشى المهدوى رحمه الله تعالى وكنت جالسا عنده فدخل عليه فقير وفى يده باقلاة فقال له ياسيدى انى وجدت هذه الباقلاة فما أصنع بها فقال له اتركها حتى تفطر عليها فقلت ياسيدى حتى الباقلاة يعلم بها قال ياولدى لو خالفنى فى لحظة من خطر انه لم يفلح أبدا فاذا اجوهدت النفس بهذه المجاهدات وقوتلت بهذه المقاتلات رجعت عن جميع مألوفاتها الدنيئة وعاداتها الرديئة وزال عنها النفور والاستكبار ودانت لمولاها بالعبودية والافتقار وزكت أعمالها وصفت أحوالها وهذه هى خاصيتها التى خلقت لاجلها ومزيتها التى شرفت من قبلها وانما ألفت سوى هذه لمرض أصابها من الركون الى هذا العالم الادنى والانس بالشهوات التى تزول وتفنى حتى امتنع عليها ما خلقت لاجله من موجب سعادتها وغاية شرفها وافادتها فلما تعالجت بما ذكرناه عادت الى الصحة والى طبعها الاصلى فألفت العبودية والتزمتها وصارت بذلك مطمئنة صالحة لان يقال لها يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى * قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه النفس المطمئنة هى التى تخلصت من السوء ولم يبق بينها وبين السوء نسبة وكانت مباديها فى الاكتساب الايمان والرضا المكتسب فلما صفت وتطهرت من جميع المخلوقات وزال عنها الحجاب الذى هو صفة الخلق سمعت النداء من مكان قريب فأجابت لعدم الحجاب فخرجت للمواهب والرضا الوضعى الوهبى الذى قال الله فيه رضى الله عنهم ورضوا عنه فدخلت فى رضا الله المطلوب الموهوب وفى عباده وجنته لا فى جنتها بوصف كسبها وأعمالها اه وعلامة وصول المريد الى هذا المقام الحميد أن تستوى عنده الاحوال ولا يتأثر باطنه بما يواجه به من قبح الافعال والاقوال لاستغراق قلبه فى مطالعة حضرة الكمال * قال أبو عثمان الحيرى رضى الله عنه لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء فى المنع والعطاء والعز والذل * وقال محمد بن خفيف رضى الله

عنه قدم علينا بعض أصحابنا فاعتل وكان به علة البطن فكنت أخدمه وآخذ منه الطست طول مرضه فتفرت مرة فقال لى تعت لعنك الله فقيل له كيف وجدت نفسك عند قوله لعنك الله فقال كقوله رحمك الله وحكى عن ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه قال ما سررت فى الاسلام الا مرات معدودات كنت فى مركب يوما وكان به رجل يحكى الحكايات المضحكة فيضحك منه الناس وكان يقول رأيت وقتا فى معركة الترك علجا فقلت هكذا وكان يأخذ بلحيتى ويمر يده على حلقى هكذا والناس يضحكون منه ولم يكن فى ذلك المركب عنده أحد أصغر منى ولا أحقر فسررت بذلك وكان يوم آخر كنت جالسا فجاء انسان وصفعنى من غير سبب ويوم آخر كنت جالسا فجاء انسان وبال على وكان فى وقت حاتم الاصم رضى الله عنه رجل يسئ القول فيه وفى أصحابه ويواجههم كل يوم بالقبيح فوقع عليه جذع من السقف فى بعض الايام فى حال مواجهة القوم بالسب والشتم فمات فقال الحمد لله فقيل له هذا خلاف ما تأمرنا به فقال ما حمدت الله شماتة بموته بل حمدت الله اذ لم أسر بسكينته * هذا وأشباهه من أحوالهم معلوم ضرورة * وأبلغ من هذا كله محبة الموت وكراهية البقاء فى الدنيا شوقا الى لقاء المولى قال بعضهم حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله تعالى فى كل نفس من غير اختيار حالة يكون المرء عليها فاذا وجد المريد هذه العلامات فى نفسه فقد خرج من عالم جنسه ووصل الى حضرة قدسه وكان كما قال الشاعر

لك الدهر طوع والانام عبيد * فعش كل يوم من زمانك عيد

وكما قال سيدى أبو العباس بن العريف رضى الله عنه فى هذا المعنى

بدا لك سر طال عنك اكتتامه * ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سر غيبه * ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فان غبت عنه حل فيه وطنبت * على مركب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يمل سماعه * شهى الينا نثره ونظامه
اذا سمعته النفس طاب نعيمها * وزال عن القلب المعنى غرامه

وأنشدوا فى معناه أيضا رضى الله عنهم أجمعين

قولى لآمالى ألا فابعدى * قد أنجز الاحباب لى موعدى
قد كنت قبل اليوم مستأنسا * منك بخل مشفق مسعد
اذا نسيم الوصل من نحوهم * هب فلى عندك ظل ندى
وحيث لاحت لى أعلامهم * فليس لى فقر الى مرشدى

وان لم يجدها فى نفسه فليستمر على سلوكه ومجاهداته ولا يغتر بما قد يتراءى له من سئ حالاته فانه لم يصل بعد ولم يحصل له من هوى نفسه فقد وليس طريق موت النفس بقطع جميع الارفاق عنها وردها الى الاجتزاء بالخشن والنخالة والمبالغة فى التقشف والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب وهممه وقصور اراداته وترك الالتفات الى ما يحمد منها وما يذم فذلك كله غلو وبدعة وقد غلط فى ذلك طوائف من الناس عملوا عليه فى رياضاتهم ومجاهداتهم ولم يقصدوا بذلك اخلاص العبودية لربهم فأداهم ذلك الى اختلال عقولهم واختلال قوى أبدانهم ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة وذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف هذه الامة

(جعلك) أيها الانسان (فى) زائدة (العالم المتوسط بين ملكه وملكوته) أى جعلك العالم المتوسط بين عالم الملك وهو عالم الشهادة وعالم الملكوت وهو عالم الغيب فالانسان ليس من عالم الملك محضا ولا من عالم الملكوت محضا بل هو متوسط بينهما حسا ومعنى أما حسا فلان الله تعالى خلقه بين السماء والارض وغيره من الحيوانات وغيرها مخلوق لاجل انتفاعه به وأما معنى فلان الله تعالى خلقه فى أحسن تقويم وجعله متضمنا لاسرار جميع الموجودات علويها وسفليها لطيفها وكثيفها فصار بذلك روحانيا جسمانيا سماويا أرضيا ولذا يقال له العالم الاصغر ويقال انه نسخة من العوالم ففيه من صفات الملائكة العقل والمعرفة والعبادة ومن صفات الشياطين الاغواء والتمرد والطغيان ومن صفات الحيوانات أنه فى حالة الغضب يكون أسدا وفى حالة غلبة الشهوة يكون خنزيرا لا يبالى أين يلقى نفسه وفى حالة الحرص على الدنيا والشره يكون كلبا وفى حالة الاحتيال والخداع يكون ذئبا ومن صفات النبات والاشجار أنه يكون فى مبدئه غصنا طريا مترعرعا وفى آخره يابسا أسود ومن صفات السماء أنه محل الاسرار والانوار ومجمع الملائكة ومن صفات الارض أنه محل لنبات الاخلاق والطباع ومنه اللين والخشن ومن صفات العرش أن قلبه محل التجلى واللوح أنه خزانة العلوم والقلم أنه ضابط لها والجنة أنه اذا حسنت أخلاقه نعم به جليسه والنار أنه اذا قبحت أخلاقه احترق به جليسه وانما جعلك كذلك (ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته) وأنها كلها مسخرة اليك ومخلوقة لاجل انتفاعك بها فينبغى لك أن ترفع همتك عنها وتشتغل بمولاك قال أبو العباس المرسى الاكوان كلها عبيد مسخرة لك وأنت عبد الحضرة فهذا يتعلق بالتوسط الحسى على مامر وأشار الى ما يتعلق بالتوسط المعنوى بقوله (وأنك جوهرة تنطوى عليك أصداف مكوناته) أى أصداف هى مكوناته أو مكوناته الشبيهة بالاصداف جمع صدفة وهى ما فيه الجوهرة وانطواؤها عليه من حيث ان صفات جميعها فيه على مامر ولم يخلق على هذه الصفة الا الانسان فلذا خلقه الله على صفاته وجعله خليفة فى تنفيذ أمره ونهيه وجعل له وجهين وجهة الى الحق ووجهة الى الخلق وأما الملائكة ومن فى معناهم من الروحانيين فليس لهم الا الوجهة الاولى وهذا فى جملة كل انسان لكن لا يظهر له الا بعد الرياضة والمجاهدة ويسمى حينئذ الانسان الكامل وهذه أسرار لا تدرك الا بالذوق ولا تفشى لغير أربابها ثم أشار الى خاصية أخرى لذلك الانسان بقوله (انما وسعك الكون) أى العالم السفلى وهو الارض (من حيث جثمانيتك) بضم الجيم أى جسمك لان جسمك بعض الكون ومحصور فيه ومصالحه غير خارجة عنه (ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك) أى روحك لانها ليست من هذا العالم ولا مناسبة بينها وبينه فلا تصلح أن تتعلق بشئ منه بل لا تصلح أن تتعلق الا بالمولى سبحانه والحاصل أن الانسان مجموع شيئين جسم وروح وبين الجسم والكون مناسبة ومجانسة فهو متوقف

* (جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة تنطوى عليك اصداف مكوناته) خلق الله تعالى الانسان فى أحسن تقويم وأتم تسوية وتعديل وجعل بنيته متضمنة أسرار جميع الموجودات علويها وسفليها لطيفها وكثيفها فصار لذلك روحانيا جسمانيا أرضيا سماويا ولذلك يقال له العالم الاصغر وهذا هو الذى يظهر لى فى معنى جعله فى العالم المتوسط بين عالم الملك وعالم الملكوت وعالم الملك هو عالم الشهادة وعالم الملكوت هو عالم الغيب فلا جرم لما كان الانسان بهذه المثابة من كونه نخبة جميع الموجودات الجسمانيات والروحانيات كانت الاكوان كلها له باعتبار احاطتها وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذى يحفظ الشئ ويصونه وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التى تحويها الصدفة والمقصود من هذا أن يعرف الانسان جلالة قدره ونخامة أمره فيعلو بهمته الى المراتب السامية اللائقة به وذلك باخلاص العبودية لربه عز وجل وقطع النظر عن كل ما سواه وينظر فى هذا المعنى الى ما قال الشاعر

اذا كنت كرسيا وعرشا وجنة * ونارا وأفلاكا تدور وأحراكا
وكنت من السر المصون سريرة * وأدركت هذا بالحقيقة ادراكا
ففيم التأنى فى الحضيض تثبطا * مقيما مع الاسرى أما حان اسراكا

كان الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول الاكوان كلها عبيد مسخرة لك وأنت عبد الحضرة * وقد ورد فى بعض الكتب المنزلة يا ابن آدم أنا بدك اللازم فالزم بدك * وفى بعض الآثار المروية عن الله عز وجل يا ابن آدم خلقت الاشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلى فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له وقال الواسطى رضى الله عنه فى معنى قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم قال بان سخرنا لهم الكون وما فيه لئلا يكونوا فى تخير شئ ويتفرغوا الى عبادة ربهم * (انما وسعك الكون من حيث جثمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك) انما

على الكون فان تعاطى منه ما يقوم به بنى فى هذا العالم والاهلك حسبما جرت به العادة الالهية وليس بين الروح والكون مجانسة ولا مناسبة فلا تصلح أن تكون متعلقة به بل بالمكون وهو المولى جلت قدرته وحينئذ فينبغى السعى فى تكميلها بالاذكار والرياضات حتى تزول عنها الكدورات البشرية وتصلح لتعلقها بحضرة الرب الذى هو شأنها الاعظم وأما الجسم فلا ينبغى الاهتمام بما يصلحه فان الله متكفل به ولا بد ولذا قيل

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته
وتطلب الربح مما فيه خسران
عليك بالنفس فاستكمل فضائلها
فانت بالنفس لا بالجسم انسان

(الكائن فى الكون) أى الموجود فى الدنيا (ولم تفتح له ميادين الغيوب) أى لم يفتح قلبه للعلوم والمعارف الشبيهة بالميادين (مسجون بمحيطاته) أى بشهواته ولذاته وعاداته المحيطة به من المآكل والملابس والمشارب (ومحصور فى هيكل ذاته) أى هيكل هو ذاته النفسانية والمراد شهواته ولذاته فهو مرادف لما قبله (أنت مع الاكوان) أى واقف معها ومستند اليها وهى مستعبدة لك (مالم تشهد المكون) فيها (فاذا شهدته) فيها (كانت الاكوان معك) أى كنت مستغنيا عنها وما لكا لها وهى محتاجة اليك وخادمة لك فاذا طلبت منها شيأ حصل واذا قلت للشئ كن كان باذن الله تعالى ولذا كان بعض الاولياء يقول للسماء أمطرى فتمطر وللريح هبى فتهب وسبب ذلك غيبته عنها بشهود مكونها ومعلوم أن حالة الشهود يغيب فيها الولى عن حسه وعن بشريته ولا يلزم من ذلك فناؤها ولذا قال

وسعك الكون من حيث جثمانيتك لوجود المناسبة والمجانسة ووسعه لك باعتبار ما ذكرناه انما هو باكتفائك به وقضاء أوطارك منه ووقوف أملك فى نيل حاجاتك عليه ولا خاصية لك فى هذا أيها الانسان لان مرتبتك أجل من ذلك وانما لم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك لعدم المناسبة فلا يسعك حينئذ ولا يناسبك الا التعلق بالمكون وهذه هى خاصيتك التى فيها سموك وعلوك ورفعة قدرك فلم تهملها وتحط منها الى أسفل سافلين قال أبو عبد الله بن الجلاب رضى الله عنه من علت همته عن الاكوان وصل الى مكونها ومن وقف بهمته على شئ من الخلق فانه الحق لانه أعز من أن يرضى معه شريكا وسئل أحمد بن خضرويه رضى الله عنه أى الاعمال أفضل فقال رعاية السر عن الالتفات الى شئ سوى الله * (الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته) فمن لازم الكون وبقى معه وقصر همته عليه ولم تفتح له ميادين الغيوب الملكوتية ولا خلص سيره الى فضاء مشاهدة الوحدانية فهو مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته وهذه هى صفات أصحاب النار كما قال الله تعالى أحاط بهم سرادقها وليس فى جهنم عذاب أعظم من السجن والحصر والضيق والقهر كما قال الله تعالى واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا وما ذكرناه هو حال من بقى مع نفسه وعمل على نيل حظه كائنا ما كان وفى بعض الآثار المروية عن الله عز وجل عبدى اجعلنى مكان همك أكفك كل هم ما كنت بك فأنت فى محل البعد وما كنت بى فأنت فى محل القرب فاختر لنفسك * (أنت مع الاكوان مالم تشهد المكون فاذا شهدته كانت الاكوان معك) فرق ما بين كونك مع الاكوان وكون الاكوان معك فان كونك مع الاكوان يقتضى تقييدك بها وحاجتك اليها فأنت بذلك عبد لها ثم هى خاذلتك ومسلمتك احوج ما تكون اليها وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون وكون الاكوان معك يقتضى ملكك لها واستغناءك عنها فأنت حينئذ حر عنها وهى محتاجة اليك وخادمة لك ومتبركة بك حتى الجمادات والحيوانات * قال الشبلى رضى الله عنه ليس يخطر الكون ببال من عرف المكون انتهى وهذه حالة نفيسة يقتضيها شهودك للمكون قال بعض المشايخ رضى الله عنهم أنا أدخل السوق والاشياء تشتاق الى وأنا عن جميعها حر وعن المزين الكبير رضى الله عنه قال كنت مع ابراهيم الخواص فى بعض أسفاره فاذا عقرب تسعى على فخذه فقمت لاقتلها فمنعنى وقال دعها كل شئ مفتقر الينا ولسنا مفتقرين الى شئ وقال محمد ابن المبارك الصوفى رحمه الله كنت مع ابراهيم بن أدهم فى طريق بيت المقدس فنزلنا فى وقت القائلة تحت شجرة رمان فصلينا ركعتين فسمعت صوتا من أصل الرمان يا أبا اسحق أكرمنا بان تأكل منا شيأ فطأطأ ابراهيم رأسه فقال ذلك ثلاث مرات ثم قال يا محمد كن شفيعا اليه ليتناول منا شيأ فقلت يا أبا اسحق لقد سمعت فقام فأخذ منها رمانتين فأكل واحدة وناولنى الاخرى فأكلتها وفى غير هذه الحكاية أن الشجرة كانت قصيرة ورمانها حامض وأنها تطعم فى كل عام مرة فعلت وارتفعت وحلا رمانها وصارت تطعم فى كل عام مرتين وكانت السباع تجئ الى سهل بن عبد الله رضى الله عنه فيدخلهم بيتا عنده ويضيفهم ويطعمهم اللحم وقال

(لا يلزم من ثبوت الخصوصية) أى ما يخصك الله به من القوة والقدرة على التصريف فى المكونات والكشف عن أحوالها وغير ذلك (عدم وصف البشرية) كفقر وضعف وعجز وذل وجهل لان الوصف البشرى أمر ذاتى لازم للعبد والامور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها ثم ضرب لذلك مثالا من المحسوسات بقوله (انما مثل الخصوصية كاشراق شمس النهار) أى كشمس النهار المشرقة (ظهرت فى الافق) أى نواحى ٧٨ السماء (وليست منه) أى ليست من ذاتياته وكما أن شمس النهار اذا ظهرت على الآفاق المظلمة استنارت واذا غربت رجعت الى حالها من الظلمة لان النور ليس ذاتيا لها بل هو عرض والامور العرضية لا تزيل الذاتيات كما مر كذا الاوصاف البشرية القائمة بذاتك كالفقر والعجز والضعف شبيهة بالليل فاذا ظهر عليها شمس التجلى بان تجلى الله عليك بصفة الغنى والقدرة استنارت ذاتك أى حصل لها نور بالغنى والقدرة واذا قبض عنها ذلك رجعت الى حالها والى هذا أشار بقوله (تارة تشرق شموس أوصافه) تعالى أى أوصافه الشبيهة بالشموس (على ليل وجودك) أى على أوصافك الذاتية الشبيهة بالليل فتظهر خصوصيتك فتكون قادرا بالله قويا به عالما به وهكذا فاذا تجلى عليك بصفة القدرة حدث فيك قوة غطت عجزك أو بصفة العلم حدث فيك علم غطى جهلك وهكذا (وتارة يقبض ذلك عنك فيردك الى حدودك) من العجز والضعف والجهل وغير ذلك فلا تظهر خصوصيتك ولذا كان عليه الصلاة والسلام تارة يظهر عليه وصف القوة والقدرة فيطعم ألفا من صاع وتارة يظهر عليه وصف العجز فيشد الحجر على بطنه من الجوع وكذا ورثته من الاولياء (فالنهار) وهو تلك الخصوصيات التى ظهرت عليك (ليس منك واليك) أى ليس من أوصافك الذاتية (ولكنه وارد عليك) من حضرة الحق سبحانه فان شاء الله أبقاه وان شاء أزاله ولذا نرى بعض الاولياء فى بعض الاحيان عندهم قوة بطش وفى بعضها يكونون عاجزين ومع هذا شموس أنوار قلوبهم وهى المعارف والاسرار لا تغيب ولا تغرب كما مر وانما الذى يغيب هو الخصوصيات التى تظهر على ظواهرهم وهى الشموس المرادة هنا فلا تعارض ثم قال

ابراهيم الخواص رضى الله عنه كنت فى البادية مرة فسرت فى وسط النهار فوصلت الى شجرة وبالقرب منها ماء فنزلت فاذا أنا بسبع عظيم قد أقبل فلما قرب منى اذا هو يعرج فجمجم وبرك بين يدى ووضع يده فى حجرى فنظرت فاذا يده منتفخة فيها قيح ودم فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح ومسحته وشددت على يده خرقة فمضى فاذا أنا به بعد ساعة جاء ومعه شبلان يبصبصان لى وحمل الى رغيفا * وقال بعضهم أشرفت على ابراهيم بن أدهم وهو فى بستان يحفظه وقد أخذه النوم واذا حية فى فيها طاقة نرجس تروحه بها * وحكى عن أبى اسحق الصعلوكى رحمه الله تعالى قال خرجت مرة الى الحج فبينما أنا فى البادية اذ تهت فلما جن على الليل وكانت ليلة قمراء فسمعت صوت شخص ضعيف يقول يا أبا اسحق قد انتظرتك من الغداة قال فدنوت منه فاذا هو شاب نحيف قد أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة منها ما عرفته ومنها ما لم أعرفه فقلت من أين أنت فقال من مدينة سميساط كنت فى عز وثروة فطالبتنى نفسى بالعزلة فخرجت وقد أشرفت على الموت فسألت الله تعالى أن يقبض لى وليا من أوليائه فارجو أنك هو قال فقلت له ألك ولدان قال نعم واخوة وأخوات فقلت هل اشتقت اليهم والى ذكرهم فقال لا الا اليوم أردت أن أشم ريحهم فاحتوشتنى السباع والبهائم وبكين معى وحملن الى هذه الرياحين قال فبينا أنا فى تلك الحالة رق له قلبى اذا بحية أقبلت فى فمها طاقة نرجس فقالت دع شرك عنه فان الله تعالى يغار على أوليائه قال فغشى على فما أفقت حتى خرجت نفسه رحمة الله تعالى عليه ورضوانه ثم وقع على سبات فانتبهت وأنا على الجادة قال فدخلت مدينة سميساط بعدما حججت فاستقبلتنى امرأة فما رأيت أشبه بالشاب منها فلما رأتنى قالت يا أبا اسحق كيف رأيت الشاب فانى أنتظرك منذ ثلاث فذكرت لها القصة الى أن قلت قال أردت أن أشم ريحهم فصاحت وقالت آه بلغ الشم الشم وخرجت نفسها فخرجت أتراب لها عليهن المرقعات والفوط فتكفلن أمرها وتولين شأنها رضى الله عنهم أجمعين فهكذا حال من يكون عظيم الهمة شريف الارادة والنية لا يساكن أحدا من المخلوقات ولا يوطن نفسه على شئ من المصنوعات فيتكفل الله تعالى بأمره ويجعل الكون خادما له بأسره رزقنا الله تعالى واياكم ما رزقهم ووفقنا كما وفقهم بجوده وكرمه * (لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية انما مثل الخصوصية كاشراق شمس النهار ظهرت فى الافق وليست منه تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبض ذلك عنك فيردك الى حدودك فالنهار ليس منك واليك ولكنه وارد عليك) ثبوت الخصوصية للعبد لا يلزم منه عدم وصف البشرية لان الوصف البشرى أمر ذاتى لازم للعبد والامور الذاتية

اللازمة

(دل بوجود آثاره) أى مكوناته ومصنوعاته المتقنة المحكمة (على وجود أسمائه) اذ لا يصدر ذلك الا من قادر مريد عالم (وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه) من القدرة والارادة والعلم (وبثبوت أوصافه على وجود ذاته اذ محال أن يقوم الوصف بنفسه) وهذا حال السالكين فان أول ما ظهر لهم الآثار وهى الافعال فيستدلون بها على الاسماء وبالاسماء على الصفات وبالصفات على وجود الذات وهم الذين يقولون ما رأينا شيأ الا رأينا الله بعده وأما المجذوبون فبالعكس كما أشار الى ذلك بقوله (فأرباب الجذب يكشف لهم) أولا (عن كمال ذاته) أى عن ذاته الكاملة فيدركون عيانا ادراك ذوق (ثم يردهم الى شهود صفاته) بان يشاهدوا ارتباطها بالذات (ثم يرجعهم الى التعلق بأسمائه) بان يشاهدوا تعلقها بالآثار (ثم يردهم الى شهود آثاره) أى صدورها عن الاسماء فأول ما ظهر لهم عن حقيقة الذات المقدسة ثم ردوا منها الى مشاهدة الصفات ثم رجعوا الى التعلق بالاسماء ثم أنزلوا الى شهود الآثار وهم الذين يقولون ما رأينا شيأ الا رأينا الله قبله (والسالكون على عكس هذا) كما مر (فنهاية السالكين) وهى شهود الذات المقدسة والكشف عن كمالها (بداية ٧٩ المجذوبين وبداية السالكين) وهى التعلق بالآثار وشهود استنادها الى الله (نهاية المجذوبين لكن لا بمعنى واحد) أى ليسا متحدين من كل وجه فان نهاية السالكين وان كان فيها جذب لكنه مصحوب بالتمكين وعلم أحوال الطريق ومعرفة عقبات النفوس فانهم لم يصلوا الى ذلك الا بعد معاناة وتعب ومشقة بخلاف بداية المجذوبين فانها ليس معها تمكن فلهذا يحصل لهم الغيبة وتصدر منهم أفعال لا يدرون ما هى ويتركون الفرائض ويفعلون أفعالا منكرة فى الشرع ولا يعاقبون على ذلك لتغطية عقولهم التى عليها مدار التكليف بالانوار وبداية السالكين ليس معها شهود لكمال الذات ولا الاسماء والصفات بخلاف نهاية المجذوبين فانهم لم يحصل لهم حالة الصحو الا بعد مشاهدة ذلك فالسالكون عاملون فى ترقيهم على طريق الفناء والمحو والمجذوبون مسلوك بهم فى تدليهم طريق البقاء والصحو واذا كان كذلك (فربما التقيا فى الطريق هذا) أى السالك (فى ترقيه) من الخلق الى الحق (وهذا) أى المجذوب (فى تدليه) من الحق الى الخلق فربما اجتمعا فى تجلى الاسماء أو الصفات بان يكون كل منهما مشاهدا لاسمائه تعالى مثلا لكن المجذوب اذا انتقل من ذلك ينتقل الى الآثار والسالك الى الصفات والسالك أفضل من المجذوب للانتفاع به بخلاف المجذوب فاذا أراد الله تكميل حاله أصحاه وكل من علم السالك والمجذوب وهى ذوقى وان كان مبدأ علم الاول استدلاليا كما يؤخذ من قوله دل بوجود آثاره الخ فالمجذوب ما دام فى جذبه لا يصلح للمشيخة لعدم مروره على المقامات ومعرفته بغوائل النفوس ولاشتغاله بحاله عن حال غيره كما أن السالك اذا لم يصل الى درجة المشاهدة والتجلى لا يصلح للمشيخة لنقصه وانما يصلح لها من جمع بينهما سواء تقدم سلوكه على جذبه أو

اللازمة يستحيل عدمها وانقلابها وانما اللازم من ذلك عدم غلبة أحكام ذلك الوصف على العبد فقط لاجل الوارد الغالب فان قدر ذهاب هذا الوارد الغالب بقى وصف البشرية غالبا قاهرا وكان العبد فى يده أسيرا * ومثال ذلك من المحسوسات اشراق شمس النهار على الآفاق المظلمة لتزيل آثار ظلمانيتها فتستنير بذلك وتشرق فاذا غابت الشمس رجعت الى حالها من الظلمة لان النور ليس بذاتى لها وهو معنى قوله وليست منه ومعنى الخصوصية المذكورة هو ما يخص الحق تعالى به أولياءه من ظهور أوصافه العلية ونعوته القدسية عليهم ليغطى بذلك أوصاف نفوسهم الدنيئة الرديئة عنهم لئلا تظهر آثار كدوراتها فى صفاء أوقاتهم كما تقدم من قوله اذا أراد أن يوصلك اليه ستر وصفك بوصفه وغطى نعتك بنعته فاذا أشرقت أنوار ذلك الوارد على ليل وجودهم ذهبت بظلمات نفوسهم وبقوا فى نهار الوصلة والقربة من غير حول منهم ولا قوة وهو معنى قوله فالنهار ليس منك واليك وان غابت عنهم تلك الانوار المشرقة رجعوا الى أصلهم ولزموا الوقوف على حدهم وكانوا فى ليل القطيعة والحجبة كما كانوا قبل ذلك والغرض من هذا الرد على طوائف غلطت فى هذا الامر وتغالت وزعمت أن القرب من الله تعالى والوصول اليه انما يكون بعدم أوصاف البشرية وزوالها بالكلية واتصافه بصفات الربوبية بدلا منها وفسرت بهذا ما عبر به المشايخ من الفناء والبقاء فوقعوا من ذلك فى ضلال وتزندق نعوذ بالله من ذلك والمعنى الصحيح من ذلك انما هو ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ورضى عنه ههنا * (دل بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه وبثبوت أوصافه على وجود ذاته اذ محال أن يقوم الوصف بنفسه فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ثم يردهم الى شهود صفاته ثم يرجعهم الى التعلق بأسمائه ثم يردهم الى شهود آثاره والسالكون على عكس هذا فنهاية السالكين بداية المجذوبين وبداية السالكين نهاية المجذوبين لكن لا بمعنى واحد فربما التقيا فى الطريق هذا فى ترقيه وهذا فى تدليه)

بالعكس وقد يمرّ المجذوب على المقامات بسرعة و يعرف غوائل النفوس كذلك فيصلح للمشيخة مع جذبه لكن هذا فى بعض المجاذيب كالسيد أحمد البدوى نفعنا الله به لا فى كل مجذوب (لا يعلم قدر أنوار القلوب والاسرار) أى السرائر أى الانوار المشرقة عليها وهى المعلوم والمعارف اللدنية وما هو مودع فيها من أنوار الحق (الا فى غيب الملكوت) أى الملكوت الغائب عنا وهو عالم الآخرة فمن آمن بالغيب وسعى فى تهذيب نفسه حتى حصلت عنده تلك الانوار شاهد الحظ الاوفر هنالك وان كان مهانا فى الدنيا غير معتنى به فيها (كما لا تظهر أنوار السماء) وهى أنوار الكواكب (الا فى شهادة الملك) أى الملك المشاهد وهو عالم الدنيا لحصول المناسبة بين هذه الاشياء (وجدان ثمرات الطاعات) وهى الانوار التى تحصل فى قلوبهم وتشرق على ظواهرهم والتلذذ بها فى حال فعلها (عاجلا) أى فى الدنيا (بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها عاجلا) أى بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها فى الدار الآخرة وانها مقبولة عند الله وقد تقدم هذا المعنى عند قوله من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول ولما كان يفهم من هذا أن العمل قد يكون لقصد الجزاء وأنه ممدوح دفع ذلك بقوله (كيف تطلب العوض) أى الجزاء (على عمل هو متصدق به عليك) أى ان هذا غير لائق منك لان الانسان لا يطلب الجزاء من الغير الا اذا فعل معه فعلا يعود نفعه على ذلك الغير وذلك مفقود هنا لان نفع تلك الاعمال عائد عليك لا على الرب سبحانه لانه غنى عنك وعن أعمالك وكما ان الجزاء يكون على العمل يكون أيضا على الصدق أى الاخلاص فيه وهو غير لائق أيضا ولذا قال (ام كيف تطلب الجزاء على صدق) أى اخلاص فى العمل (هو مهديه اليك) وعبر بالتصدق والاهداء تنبيها على ما ذكروه وان ذلك العمل والاخلاص فيه لم يكن الا منه عنها فطلب العوض والجزاء اذن على ذلك فى غاية القبح ولذا صدر الكلام بكيف المفيدة للاستفهام التعجبى تقبيحا لذلك الوصف واستعمل لفظ الصدقة فى الاعمال الظاهرة والهدية فى الصدق الذى هو من الاعمال الباطنة وعليه مدار قبول الاعمال الظاهرة اشعارا بتباينهما فى الشرف كتباين الصدقة والهدية فان الاولى يقصد بها الفقراء والثانية الاغنياء فتدل على شرف المهدى اليه

عباد الله المخصوصون بالقرب منه والوصول اليه ينقسمون الى قسمين سالكين ومجذوبين فشأن السالكين الاستدلال بالاشياء عليه وهم الذين يقولون ما رأينا شيأ الا ورأينا الله بعده وشأن المجذوبين الاستدلال به على الاشياء وهم الذين يقولون ما رأينا شيأ الا رأينا الله قبله ولا شك أن الدليل أبدا أظهر من المدلول فأول ما ظهر للسالكين الآثار وهى الافعال فاستدلوا بها على الاسماء وبالاسماء على الصفات وبالصفات على وجود الذات فكان حالهم الترقى والصعود من أسفل الى أعلى وأول ما ظهر للمجذوبين حقيقة كمال الذات المقدسة ثم ردوا منها الى مشاهدة الصفات ثم رجعوا الى التعلق بالاسماء ثم أنزلوا الى شهود الآثار فكان حالهم التدلى والتنزل من أعلى الى أسفل فما ابتدأ به السالكون من شهود الآثار اليه انتهاء المجذوبين وما ابتدأ به المجذوبون من كشف حقيقة الذات اليه انتهاء السالكين لكن لا بمعنى واحد فان مراد السالكين شهود الاشياء لله ومراد المجذوبين شهود الاشياء بالله فالسالكون عاملون على تحقيق الفناء والمحو والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصحو ولما كان شأن الفريقين النزول فى تلك المنازل المذكورة لزم التقاؤهما فى طريق سفرهما السالك مترق والمجذوب متدل * (لا يعلم قدر أنوار القلوب والاسرار الا فى غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء الا فى شهادة الملك) أنوار القلوب والاسرار المشرقة عليها من سماء التوحيد والمعرفة لا يعرف قدرها الا فى غيب الملكوت وهو عالم الآخرة وهنالك يحصل تمام هذه الانوار فمن آمن بالغيب كان له من ذلك الحظ الاوفر كما أن أنوار السماء المشرقة على ظواهر الاجرام لا تظهر الا فى شهادة الملك وهو عالم الدنيا وذلك لحصول المناسبة بين هذه الاشياء (وجدان ثمرات الطاعة عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها عاجلا) ما يجده العاملون بطاعة الله تعالى فى أعمالهم عاجلا من مزيد الايمان واليقين وتنسم روح الانس ولذيذ القرب ولطيف الوصل بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها فى الدار الآخرة بانها مقبولة عند الله تعالى وقد تقدم هذا المعنى عند قوله من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول * (كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه اليك) العمل الذى يصح طلب العوض والجزاء عليه هو ما عملته لينتفع به غيرك ولم يحصل لك بذلك منفعة ولم يندفع عنك بسببه مضرة والاعمال الدينية المطلوبة منك ظاهرا وباطنا بخلاف هذا كله اذ هى مسلوبة عنك منسوبة الى ربك خلقها واختراعها عائد ثمرة ذلك ومنفعته عليك فى ظاهرك وباطنك وهو غنى عنك وعنها ولذلك عبر

(فوم تسبق أنوارهم أذكارهم) وهم المجذوبون المرادون فلما واجههم الانوار حصلت منهم الاذكار بلا تكلف ولا تعمل بل بسهولة وخفة (وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم) وهم المريدون السالكون وذلك لان شأنهم المجاهدة والمكابدة فيأتون بالاذكار فى حال تكلف منهم وتعمل ليحصل بها الانوار فالاولون وصلوا بكرامة الله تعالى الى طاعة الله ويصدق عليهم قوله تعالى يختص برحمته من يشاء والآخرون وصلوا بطاعة الله الى كرامة الله ويصدق عليهم قوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا الآية ثم ذكر عبارة أخرى لبيان حال الفريقين بقوله (ذاكر ذكر ليستنير قلبه) وهو السالك (وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا) وهو المجذوب فالذكر له كالنفس الطبيعى بل أسهل بخلاف الاول وتقدم أن السالك أتم من المجذوب لان الاول عرف طريقا توصل بها الى الله وناله فيها غاية التعب والمشقة والمجذوب ليس كذلك وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له وهو كذلك بالنسبة لاغلب المجاذيب والا فبعضهم له طريق طويت عناية الله تعالى له فسلكها مسرعا الى الله عاجلا كما مر فلم تفته الطريق وانما فاته متاعبها وطول أمدها ثم أشار الى ما يتعلق بالمجذوب والسالك جميعا بقوله (ما كان ظاهر ذكر) أى ذكر ظاهر (الا عن باطن شهود وفكر) أى الا عن شهود للمولى باطنا وفكر فيه فكل من المجذوب والسالك لم يذكر ظاهرا الا بعد مشاهدة الرب باطنا وفكر فيه وان كان المجذوب يدرك ذلك والسالك قد لا يدركه لغلظ بشريته فلم يفقد النور السابق بالكلية والا لما أمكن منه الذكر وقد تقدم قوله لولا وارد ما كان ورد ولولا التجلى لم يمكن التحلى والمراد بالذكر هنا سائر الاعمال الظاهرة وعبر به عنها لانه روحها ولا تتم لها عليه فكل من الشهود والتفكر يرجع للمجذوب والسالك

عنها بالتصدق والاهداء تنبيها على أن ذلك لم يكن الا منه فطلب العوض والجزاء اذا على عمل هذه صفته فى غاية القبح ولذلك صدر المؤلف رضى الله تعالى عنه كلامه بكيف ليعجبك من ذلك الوصف * قال الواسطى رضى الله تعالى عنه مطالبة الاعواض على الطاعات من نسيان الفضل وسئل أبو العباس بن عطاء الله رضى الله عنه عن أقرب شئ الى مقت الله تعالى فقال رؤية النفس وأفعالها وأشد من ذلك مطالبة الاعواض على أفعالها واستعمال المؤلف رحمه الله تعالى لفظ الصدقة فى الاعمال الظاهرة ولفظ الهدية فى الصدق وعليه مدار الاعمال الباطنة اشعار بتباينهما فى الشرف كتباين الصدقة والهدية * (قوم تسبق أنوارهم اذكارهم وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم وقوم لا أذكار ولا أنوار نعوذ بالله من ذلك ذاكر ذكر ليستنير به قلبه فكان ذاكرا وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا والذى استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدى وبنوره يقتدى) سبقية الاذكار للانوار هو حال المريدين السالكين وذلك لان شأنهم المجاهدة والمكابدة فهم يأتون بالاذكار فى حال تكلف منهم وتعمل ليحصل لهم بذلك زوائد الانوار والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وسبقية الانوار للاذكار هو حال المريدين المجذوبين لانهم مقامون فى السهولة والخفة فهم لما وجهوا بالانوار حصلت منهم الاذكار بلا تكلف ولا تعمل قال فى لطائف المنن حاكيا عن شيخه أبى العباس المرسى وقال رضى الله تعالى عنه الناس على قسمين قوم وصلوا بكرامة الله تعالى الى طاعة الله وقوم وصلوا بطاعة الله الى كرامة الله قال الله سبحانه وتعالى الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب قال ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول اليه فسار يطوى مهامه نفسه وبيداء طبعه الى أن وصل الى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ومن الناس من فاجأته عناية الله تعالى من غير طلب ولا استعداد ويشهد لذلك قوله تعالى يختص برحمته من يشاء فالاول حال السالكين والثانى حال المجذوبين فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة ومن كان مبدؤه المواصلة رد الى وجود المعاملة ولا تظن أن المجذوب لا طريق له بل له طريق طوتها عناية الله تعالى له فسلكها مسرعا الى الله تعالى عاجلا وكثيرا ما تسمع عند مراجعة المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب لان السالك عرف طريقا بها توصل اليه والمجذوب ليس كذلك وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له وليس الامر كما زعموا فان المجذوب طويت الطريق له ولم تطو عنه ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه وانما فاته متاعبها وطول أمدها والمجذوب كمن طويت له الطريق الى مكة والسالك كالسائر اليها على أكوار المطايا اه ما ذكره فى حال الجذب والسلوك وهو حسن قل أن يوجد لغيره فلذلك أوردته ههنا بكماله * (ما كان ظاهر ذكر الا عن باطن شهود وفكر) أعمال الظاهر تكون تبعا لما يكون فى الباطن وقد تقدم هذا المعنى

ويحتمل رجوع الاوّل للاوّل والثانى للثانى ثم بين ذلك المعنى بقوله (أشهدك) أى تجلى لقلبك فشهدته على حسب قدرك (من قبل أن يستشهدك) أى يطلب منك أن تشهد بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك فان الذكر والعبادة شهادة منك بعظمة المذكور والمعبود واعتراف بواحدانيته (فنطقت بالهيته) أى بما يدل على ألوهيته (الظواهر) أى الجوارح الظاهرة وهذا راجع للثانى وهو الاستشهاد وقوله (وتحققت بأحديته القلوب والسرائر) راجع للاوّل وهو الاشهاد ويحتمل أن معنى ذلك أن الله تعالى كشف للارواح فى عالم الغيب عن ألوهيته وأحديته ذاته واحاطة قيوميته ثم لما أظهرها فى عالم الشهادة بان ركبها فى الاجسام طلب منها على لسان الانبياء الشهادة له بالالوهية فشهدت بلسان حالها ومقالها فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعا لشهودها لما أشهدت فقوله أشهدك أى فى عالم الارواح وقوله من قبل أن يستشهدك أى يطلب منك الشهادة بعد أن ركبها فى الاجسام

فنطقت بألوهيته الظواهر أى الجوارح الظاهرة نطقا حقيقيا

عند قوله ما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر فالذكر الظاهر لا محالة ثمرة باطن الشهود والفكر ثم بين هذا المعنى بقوله * (أشهدك من قبل أن يستشهدك فنطقت بالهيته الظواهر وتحققت باحديته القلوب والسرائر) كاشف الله تعالى القلوب والاسرار فى غيب الغيب بحقائق وحدانيته واحاطة قيوميته فلما أشهدها ذلك اضمحلت وتدكدكت وتلاشت فتحققت بذلك الاحدية فلما أظهرها فى عالم الشهادة ملتبسة بالاجسام والهيا كل طلب منها الشهادة له بالالهية فشهدت بلسان حالها ومقالها فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعا للشهودها لما أشهدت فالعبد من حيث سره وقلبه بوصف الجمع ومن حيث ظاهره وجسمه بنعت الفرق ولا بدّ فى هذا الطريق من وجود الجمع والفرق وقد قالوا كل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل وقال الجنيد رضى الله عنه فى معنى الجمع والتفرقة

فتحققتك فى سرى فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان * وافترقنا لمعانى
ان يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد من الاحشاء دانى

ذهب الجنيد رضى الله عنه الى أن قربه بالوجد جمع وغيبه فى البشرية تفرقة * (أكرمك بكرامات ثلاث جعلك ذاكراله ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك وجعلك مذكورا به اذ حقق نسبته لديك وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك) أكرم الله تعالى عبده المؤمن بثلاث كرامات جمع له فيها كل المفاخر والمحامد أوّلها كونه ذاكراله بان أجرى ذكره على قلبه ولسانه ومن أين له ذلك وبأى وسيلة ناله لولا فضل الله تعالى وكرمه وثانيها كونه مذكورا به فيقال هذا عبد الله ووليه وصفيه ومختاره وذلك بما أكرمه الله به من تحقيق النسبة اليه وهى اثبات الخصوصية له وقد تقدم معنى الخصوصية وثالثها كونه مذكورا

فى اللسان وحالبا فى غيره وقوله فنطقت مفرع على محذوف أى فلما طلب منها الشهادة على لسان الانبياء نطقت وتحققت بأحديته أى جزمت بكونه واحدا لاشريك له القلوب والسرائر جمع سريرة كامر (أكرمك) أيها العبد الذى أشهدك مولاك ثم استشهدك فذكرته بلسانك وعباداتك ووحدته بقلبك وسرك (بكرامات ثلاث) جمع لك بها كل المفاخر والمحامد الاولى أنه (جعلك ذاكراله) بلسانك وعباداتك الظاهرية والباطنية (ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك) لانك مجبول على النقص والكسل والفتور فحصول ذلك منه وفضل عليك ومن أين أنت حتى تكون محلا لذكره وموضعا لطاعته والتعلق به (و) الثانية أنه (جعلك مذكورا به) بان يقال هذا ولى الله وصفيه ومختاره وذاكره (اذ حقق) أى أثبت (نسبته) عنده أى خصوصيته (لديك) وهى ما أظهره عليك من أنوار الذكر التى استنار به ظاهرك وباطنك فحقيق الخصوصية لديك سبب فى ذكرك به أى انتسابك له ومن كانت له أدنى نسبة عند ملك من ملوك الدنيا تراه يصونها ويحفظها ويفرح بها ويجد فى نفسه انبساطا عند تذكرها فكيف بهذه النسبة العظيمة التى صرت تذكر بها فى الملأ الاعلى وعند المؤمنين الى آخر الدهر فان من مات من العلماء والصالحين الذين كثر ذكرهم لله تعالى يبقى الثناء عليه ولا ينقطع ذكره والدعاء له ومن مات من غيرهم مات ذكره معه ويحتمل أن قوله اذ حقق فى قوة التفريع على ما قبله والمعنى جعلك مذكورا به فحقق نسبته لديك أى انتسابك له فيكون ذكرك به تحقيقا لنسبتك له (و) الثالثة أنه (جعلك مذكورا عنده) لحديث من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه (فتمم نعمته عليك) بذكرك عنده قال تعالى

ولذكر الله أكبر قيل معناه ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله (رب عمر اتسعت آماده) أى غاياته وأزمنته (وقلت أمداده) بفتح الهمزة أى فوائده وذلك كأعمال الغافلين عن الله

المشتغلين بشهوات نفوسهم فانها وان

عنده وهذه هى غاية الاكرام ومنتهى الفضل والانعام قال الله تعالى ولذكر الله أكبر قيل معناه ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله وفى حديث أبى بن كعب رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقرأ عليك القرآن قال قلت يا رسول الله سماني لك ربك قال نعم فقرأ على "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون" وفى حديث أبى حبة البدرى رضى الله عنه قال لما نزلت لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب الى آخرها قال جبريل عليه السلام ان ربك يأمرك أن تقرئها أبيا فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى ان جبريل عليه السلام أمرنى أن أقرئك هذه السورة فقال أبى أوذكرت ثم يا رسول الله قال نعم فبكى أبى وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه وان تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا وان تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة وعن أبى هريرة وأبى سعيد يشهدان به على النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما جلس قوم مسلمون مجلسا يذكرون الله فيه الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه يا غفول يا جهول لو سمعت صرير القلم حين يجرى فى اللوح المحفوظ بذكرك لمت طربا * (رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده) * الامداد الالهية التى يمد الحق تعالى بها عباده المؤمنين زيادة فى ايمانهم وتقوية لايقانهم لا أثر فيها لطول العمر ولا قصره فلا تنقص بذلك ولا تزيد به ولا تقل ولا تكثر وانما ترد عليهم من خزائن الفضل والكرم بحسب قوة استعدادهم وكمال قابليتهم وتختلف هذا باختلاف تراكيب خلقهم ومجبول فطرهم ولا مدخل للزمان فى هذا الا بالعرض وبهذا فضلت هذه الامة على سائر الامم على قصر أعمارهم وطول أعمار غيرهم * قال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه قلت لابى سليمان الدارانى رضى الله عنه قد غبطت بنى اسرائيل قال باى شئ قلت بثمانمائة سنة حتى يصيروا كالشنان البالية وكالحنايا وكالاوتار قال ما ظننت الا وقد جئت بشئ لا والله ما يريد الله لنا أن تيبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا الا صدق النية فيما عنده هذا اذا صدق فى عشرة أيام نال ما نال ذلك فى عمره * (من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الاشارة) البركة فى العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة امكانه خشية فواته فيبادر الى الاعمال القلبية والبدنية ويستفرغ فى ذلك مجهوده بالكلية وفى أثناء ذلك يصل اليه من المنح الالهية وتشرق عليه من الانوار الربانية ما تعجز العبارة عنه ولا تنتهى الاشارة اليه وكل ذلك فى زمن يسير وعمر قصير فينتفع له فى شهر مثلا ما لا ينتفع لغيره فى ألف شهر بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها خير من العمل فى ألف شهر قال بعض العلماء كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر كان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول أوقاتنا والحمد لله كلها ليلة القدر فهذا هو البركة فى العمر لا تطويله وزيادة مدته وقيل هذا المعنى فى تأويل ما روى

كانت طويلة فى الحس فهى قصيرة فى المعنى لقلة أمدادها (ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده) وذلك كأعمار الذاكرين فانها وان كانت قصيرة حسا فهى طويلة معنى لكثرة أمدادها وذلك هو معنى البركة فى العمر كما يأتى للمصنف ففوائد العمر لا يلزم أن تكون على قدر آماده أى أزمنته وبحسبها بل قد يحصل لصاحب العمر القصير من الفوائد ما لا يحصل لمن هو أطول منه باضعاف مضاعفة (من بورك له) أى من أراد الله أن ينزل البركة (فى عمره) رزقه الاقبال على مولاه ف(أدرك فى يسير من الزمن من منن الله ما لا يدخل تحت دوائر العبارة) أى تحت العبارة الشبيهة بالدوائر بجامع الاحاطة بما يحويه (ولا تلحقه الاشارة) أى لا تصل اليه والمعنى اذا أراد الله تعالى أن يبارك فى عمر ولى من أوليائه رزقه من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته فيبادر الى الاعمال الصالحة فى جميع ساعاته فيدرك فى يسير من الزمان مما يمتن به المولى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة أى ما لا تحيط به العبارة لكثرته وشرفه فتعجز عنه العبارة ولا تلحقه الاشارة أى لا تصل اليه لرقته وغاية صفائه فينتفع له فى شهر مثلا ما لا ينتفع لغيره فى ألف شهر بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها خير من العمل فى ألف شهر وقال بعضهم كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر وكان أبو العباس المرسى قدس الله سره يقول أوقاتنا كلها ليلة قدر وقيل وهذا معنى ما روى البر يزيد فى العمر

(الخذلان) هوعدم التوفيق والمعونة (كل الخذلان) أى الخذلان التام (أن تتفرغ من الشواغل) الدنيوية بان يكون عندك ما يكفيك من الدنيا (ثم لا تتوجه اليه) بالاشتغال بما يقرب من حضرته العلية (وتقل عوائقك) التى تمنعك من الاشتغال بما يقرب من مولاك بان يكون عندك ما يكفيك من القوت ولو مع الضيق (ثم لا ترحل اليه) بالاشتغال بما يقرب منه فهو بمعنى ماقبله ومقتضاه أن من لم يكن عنده ما يكفيه من الدنيا اوكان يحتاج الى التكسب فاشتغل به ولم يتوجه الى الله ولم يرحل اليه فليس عنده كل الخذلان بل بعضه وهو كذلك لان التوجه الى الله والرحلة اليه مطلوب من كافة الخلق وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فالواجب على كل أحد أن يرمى بالعوائق والشواغل خلف ظهره ويقبل على مولاه وقد قيل سيروا الى الله عرجا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فان انتظار الصحة بطالة وقال تعالى انفروا خفافا وثقالا (الفكرة سير القلب فى ميادين الاغيار) أى فى الاغيار وهى مخلوقات الله تعالى ومصنوعاته من السماء والارض وغيرهما الشبيهة بالميادين وفى نسخة ميادين الاعتبار أى جولان القلب فى صنوف المخلوقات وأنواع المكونات لاستخراج مافيها من العلوم وما انطوت عليه من العبر والآيات الموصلة الى العلم بالله تعالى وماله من صفات الكمال ونعوت الجمال وغير ذلك فاذا تفكر فى وجود المخلوقات هداه ذلك التفكر الى وجود موجدهم وهذا تفكر العامة واذا تفكر فى الحسنات وما يترتب عليها من الثواب والقرب من المولى فعلها وازداد رغبة فيها أو فى السيآت وما يترتب عليها من أنواع العذاب تركها ولم يقربها وهذا تفكر العابدين واذا تفكر فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها ازداد زهدا فيها وهذا تفكر الزاهدين واذا تفكر فى الآلاء والنعماء ازداد محبة فى المنعم بها جل جلاله وهذا تفكر العارفين وخرج بالتفكر فى مصنوعات الله التفكر فى ذاته فانه منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره (الفكرة سراج القلب) أى كالسراج الحسى أى المصباح الذى يضىء فيه فيستنير به وبالنور تتجلى حقائق الامور فيظهر به الحق حقا والباطل باطلا فيعرف به عظمته تعالى وجلاله ويطلع على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويعرف وجوه الحيل فى التحرز عنها الى غير ذلك (فاذا ذهبت فلا اضاءة له) فالقلب الخالى عن الفكرة خال من النور كالبيت المظلم ولا يكون فى القلب المظلم الا الجهل والغرور (الفكرة) وهى السير فى ميادين الاغيار (فكرتان فكرة تصديق وايمان) أى فكرة ناشئة عن أصل التصديق الذى هو الايمان بان يكون المتفكر عنده ذلك وقصده بالفكرة الترقى وزيادة اليقين ولذا تسمى فكرة الترقى وتكون للسالكين (وفكرة شهود وعيان) أى فكرة ناشئة

فى الخبر الابر يزيد فى العمر * (الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه اليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل اليه) من الخذلان أن تصدك العوائق والشواغل عن التوجه الى الله تعالى والرحيل اليه بل الواجب عليك أن تبادر الى ذلك وترمى بالعوائق والشواغل خلف ظهرك كما قيل سيروا الى الله عز وجل عرجا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فان انتظار الصحة بطالة قال الله تعالى انفروا خفافا وثقالا وقد تقدم هذا المعنى عند قوله احالتك الاعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس فان زالت شواغلك وقلت عوائقك ثم قعدت عن التوجه والرحيل فهذا هو الخذلان كل الخذلان أعاذنا الله منه * قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فراغ القلب من الاشغال نعمة عظيمة فاذا كفر عبد هذه النعمة بان فتح على نفسه باب الهوى وانجر فى قياد الشهوات شوش الله عليه نعمة قلبه وسلبه ما كان يجد من صفاء لبه * (الفكرة سير القلب فى ميادين الاغيار) الفكرة التى ألزمها العبد وحض عليها هى سير القلب فى ميادين الاغيار فقط وهى مخلوقات الله ومصنوعاته وأما الفكرة فى ذات الله تعالى فلا سبيل اليها يعتبر المتفكرون فى آياته ولا يتفكرون فى ماهية ذاته روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر قوما فقال ما لكم فقالوا نتفكر فى الخالق قال تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره * قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه التفكر نعت كل طالب وغرته الوصول بشرط العلم فاذا سلم الفكر من الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهدا فيها وفكر العابدين فى جميل الثواب فيزدادون نشاطا عليه ورغبة فيه وفكر العارفين فى الآلاء والنعماء فيزدادون محبة للخالق سبحانه وقال الجنيد رضى الله عنه أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد وفى بعض النسخ الفكرة سير القلب فى ميادين الاعتبار ومعناه ظاهر * (الفكرة سراج القلب فاذا ذهبت فلا اضاءة له) القلب الخالى من الفكرة خال من النور مظلم بوجود الجهل والغرور وقد تقدم هذا المعنى عند قوله ما نفع القلب شئ مثل عزلة يدخل بها فى ميادين فكرة * (الفكر فكرتان فكرة تصديق وايمان وفكرة شهود وعيان

عن ذلك وتسمى فكرة التدلى وتكون للمجذوبين (فالاولى لارباب الاعتبار) أى المستدلين بالآثار على المؤثر وهم السالكون فى حال ترقيهم فان فكرتهم ناشئة عن التصديق والايمان (والثانية لارباب الشهود والاستبصار) أى المستدلين بالمؤثر على الآثار وهم المجذوبون فى حال تدليهم فان فكرتهم ناشئة عن الشهود والعيان وهذا لمن أراد الله تكميل حاله منهم كاملا والا فبعضهم يدوم جذبه وعدم صحوه بل هو الأغلب فيهم وقد تقدم هذا عند ذكر المجذوب والسالك والنوعان المذكوران بالنسبة للمشتغلين بالله أما غيرهم وهم العامة ففكرتهم لتحصيل التصديق والايمان لا لزيادته (وقال رضى الله عنه مما كتبه لبعض اخوانه) وحاصل هذا الكتاب أنه يتضمن حال السالك

فى أوّل ابتداء سفره الى انتهائه وحصوله فى مستقره وذكر آداب السلوك والوصول (أما بعد فان البدايات) أى بدايات الامور (مجلات النهايات) أى يظهر فيها حال النهايات والمجلات بفتح الميم والجيم وتشديد اللام جمع مجلة كذلك أى محل التجلى والظهور كالمرآة والمجالى المظاهر التى تجلى فيها الامور والمراد أن بداية المريد تعرف منها نهايته فاذا كان عنده فى بدايته قوة توجه واجتهاد فى العبادات والرياضات كان دليلا على أنه ينتهى الى فتح عظيم وأنه يصل الى مقصوده فى أقرب مدة ومن كان عنده ضعف فى ذلك كان فتحه ووصوله على حسب حاله (وان من كانت بالله بدايته) بان تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضاته مصحوبة بالاستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه (كانت اليه نهايته) أى كانت نهايته الى الوصول الى الله تعالى بان ينكشف له انفراد الله بالقيومية وتوحده بالديمومية وأنه هو الاوّل والآخر والظاهر والباطن انكشافا يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه وتدكدكه واضمحلاله وقد تقدم هذا المعنى فى قوله من علامات النجح فى النهايات الرجوع الى الله فى البدايات (والمشتغل به هو الذى أحببته) أيها المريد الصادق (وسارعت اليه) وهو الاعمال الصالحة التى تقربك من مولاك وتوصلك الى معرفته أى فلا تحتقر ذلك الشغل بل كن قرير العين به فانه لا ينبغى الاشتغال الا به (والمشتغل عنه) أى الذى ينبغى الاشتغال عنه وعدم التوجه اليه (هو المؤثر عليه) أى هو حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة التى تركتها وآثرت عليها غيرها وهو اقبالك على مولاك واشتغالك بخدمته فينبغى لك أن تطيب نفسك بتركه ولا تندم على مفارقته لانه لا ينبغى الاشتغال به فهذا الكلام القصد منه تهييج السالك وانهاض همته بمدح ما أقبل عليه وذم ما أعرض عنه

فالاولى لارباب الاعتبار والثانية لارباب الشهود والاستبصار) تقدم الآن أن الفكرة سير القلب فى ميادين الاغيار وسيره على وجهين صعود ونزول فالصعود لارباب الاعتبار وهى فكرة ناشئة عن التصديق والايمان وهذا للسالكين وهو حال ترقيهم وهو نعت المستدلين بالآثار على المؤثر والنزول لارباب الشهود والاستبصار وفكرتهم فكرة ناشئة عن الشهود والعيان وهذا للمجذوبين وهو حال تدليهم وهو وصف المستدلين بالمؤثر على الآثار وقد تقدم هذا المعنى عند ذكر المجذوب والسالك (وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض اخوانه) هذا كتاب يتضمن ذكر حال السالك من أوّل ابتداء سيره الى انتهائه وحصوله فى مستقره وذكر آداب السلوك والوصول وقد أتى رحمه الله تعالى فى ذلك بعبارات صحيحة فصيحة واستعارات حسنة مليحة على طريقة وعظية اذا سمعها السامع طرب لها قلبه وهام فيها عقله ولبه وما ذاك الا لما علق بها من أنوار قلب المتكلم وقد قال فيما تقدم كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز * (أما بعد فان البدايات مجلات النهايات) المجلات محل التجلى والظهور فالسالك فى ابتداء سلوكه يتجلى له أمر نهايته * (وان من كانت بالله بدايته كانت اليه نهايته) هذا بيان ما ذكره ومعنى كون بدايته بالله أن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضته مصحوبة بالاستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه والانقطاع اليه فبذلك يصح له وينفذ فى توجهه وسلوكه كما تقدم عند قوله ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ومعنى كون انتهائه الى الله أن يكشف له انفراد الله تعالى بالقيومية وتوحده بالديمومية وأنه هو الاوّل والآخر والظاهر والباطن انكشافا يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه وتدككه واضمحلاله قال الله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق فاذا صحت للمريد تلك البداية بما ذكرناه وصل الى هذه النهاية وقد تقدم هذا المعنى فى قوله من علامة النجح فى النهايات الرجوع الى الله تعالى فى البدايات * (والمشتغل به هو الذى أحببته وسارعت اليه والمشتغل عنه هو المؤثر عليه) المشتغل به أيها المريد السالك انما هو عملك على التقرب

(وان من أيقن ان الله يطلبه) للقيام بخدمته والاقبال على وظائف عبوديته (صدق الطلب) أى صدق فى الطلب (اليه) أى توجه اليه بصدق واجتهد فى الاقبال على ما يرضيه أتم اجتهاد لان ثمرة ذلك الطلب عائدة عليه لا على المولى سبحانه فلم لا يصدق فى طلبه واجتهاده و يترك حظوظ نفسه ومرادانه ان كان من أهل العقل والمعرفة (ومن علم أن الامور بيد الله) ومنها ما يحاوله من القيام بخدمة المولى (انجمع) قلبه عليه (بالتوكل عليه) أى توكل عليه فى تيسير أمره وتسهيل ما يقربه الى حضرته فان ذلك لا يكون الا منه سبحانه لان الامور كلها بيده وليس للعبد مدخل فيها فالقسم الاول وهو قوله صدق الطلب اليه قيام بمقتضى الشريعة والثانى وهو كون الامور بيد الله وأنه ينبغى التوكل عليه قيام بحق الحقيقة فقوله عليه تنازع فيه كل من الفعل والمصدر (وانه) بكسر الهمزة عطفا على ان البدايات وفتحها عطفا على أن الامور الخ (لا بد لبناء هذا الوجود) أى لمبنى هو هذا الوجود (ان تنهدم دعائمه) أى أركانه فشبه الوجود بقصر له أركان وهى تخييل (وان تسلب كرائمه) أى نفائسه وما يعز منه والقصد بهذا تسليته عما يفوته فى حال سلوكه من حظوظه وشهواته لانه اذا علم أن الدنيا لا تدوم لاحد بل لا بد أن تزال عنه أو يزال عنها ولو بعد حين وكل ما هو آت قريب لم يغتبط بما يكون مآل أمره الى ذلك ويكون طيب النفس بتركه (فالعاقل من كان بما هو أبقى) وهو الدار الآخرة (أفرح منه) أى أشد فرحا من نفسه (بما هو يفنى) وهو الدنيا فاذا كانت الدنيا فانية والآخرة هى الدائمة الباقية فلا ينبغى الفرح بالاولى لفنائها ومن فرح بالفانى فنى فرحه ولا عبرة بفرح يفنى ولا يزول ومن فرح بالباقى دام فرحه وذلك هو الفرح المعتبر وحاصله أن العاقل هو الزاهد وأما الراغب فى الدنيا فليس بعاقل بل هو جاهل وفى قوله أفرح اشعار بان المطلوب كون الفرح بهذا أشد لا أن الفرح بالآخر ينتفى بالكلية لانه أمر طبيعى ثم أشار الى ثمرة التحقق فى مقام الزهد بقوله (قد أشرق نوره) أى أشرق نور زهد ذلك العاقل فى قلبه (وظهرت تباشيره) على وجهه فان النور اذا أشرق فى القلب ظهر على الجوارح وكان ذلك مبشرا له بالقبول (فصرف) أى فبسبب ذلك النور الذى أشرق فى قلبه وتبين له به ما هو حق صرف أى أعرض (عن هذه الدار مغضيا) أى غير ملتفت اليها بقلبه وأتى بذلك لان الاعراض قد يكون معه التفات وقوله (وأعرض عنها موليا) تفسير لما قبله (فلم يتخذها وطنا) أى لم يستوطنها بظاهره على جهة التمتع

من ربك عز وجل والتوسل اليه بالطاعة والعبودية له وهو الذى أحيته وسارعت الى اجابة دعوته فيحق عليك أن لا تستقل ذلك الشغل بل تكون به قرير عين والمشتغل عنه انما هو متابعة حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة وهو الذى يستحق الايثار عليه اذ هو فان مضمحل لا حقيقة له فلتطب عنه نفسا ولا تعمل فيه عقلا ولا حسا وهذا الكلام تهييج للسالك وانعاش لقوته وانهاض لهمته قال الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلى رضى الله عنه سمعت عبد الله بن اسحق الغافقى يقول ما انتفعت الا بدعاء رجل بمكة مررت الى المسجد الحرام بالسحر فاذا رجل يسف التراب فقلت مجهودا أو مجنون ثم قلت له يا هذا أتسف التراب قال فقال لى أو تراب هو ثم ناولنى قال فما شككت أنه سويق أو قند أنا أشك أيهما قال فقلت ولى الله وجثوت على ركبتى وقلت ادع الله لى فقال لى عرفك الله قدر ما تطلب حتى يهون عليك ما تترك

*(وان من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب اليه ومن علم أن الامور بيد الله انجمع بالتوكل عليه) العبد مطلوب لربه عز وجل باقامة وظائف العبودية له وذلك بما اختصه به عز وجل من العقل والفهم وما رزقه من المعرفة والعلم وثمرة ذلك الطلب عائدة الى العبد فلم لا يصدق العبد فى طلبه واجتهاده اذا أيقن بذلك والامور كلها بيد الله تعالى ومن ذلك سعيه وكدحه فلم لا يتوكل عليه فى ذلك فيجتمع همه و يتيسر أمره اذا علم بذلك فالقسم الاول قيام بمقتضى الشريعة والقسم الثانى وفاء بحق الحقيقة *(وانه لا بد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه) ذكر هذا المعنى تسلية للعبد عما يفوته فى حال سلوكه من حظوظه وشهواته لانه اذا علم أن هذه الاشياء لا بد أن تزال عنه أو يزال عنها ولو بعد حين وكل ما هو آت قريب لم يغتبط بما يكون مآل أمره الى ذلك و يكون طيب النفس بتركه وتهديم الدعائم وسلب الكرائم من الاستعارات البديعة *(فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى قد أشرق نوره وظهرت تباشيره) فرح العبد بالاشياء الفانية هو موجب للزيادة فى همه وغمه اذا افتقدها قال سيدى سهل بن عبد الله رضى الله عنه من فرح بغير مفروح به استجلب حزنا الا انقضاء له وقد تقدم هذا المعنى عند قوله ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه فالعاقل لا يفرح بذلك ولا يحبه بل يكرهه و يبغضه وانما يكون فرحه بالامور الباقية التى لا تفنى قد أشرق نور ذلك فى قلبه وظهرت تباشيره على وجهه واشراق النور وظهور التباشير نتائج تحققه فى مقام الزهد *(فصرف عن هذه الدار مغضيا وأعرض عنها موليا فلم يتخذها وطنا

والتلذذ (ولا جعلها سكنا) أى لم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها و يحتمل أن يجعل الوطن والسكن بمعنى واحد (بل أنهض الهمة فيها الى الله) أى أسرع وحرك الهمة الى الوصول اليه (وسار فيها) أى فى الدنيا (مستعينا به) أى بالله لا بأعماله المدخولة (فى القدوم عليه) أى الاقبال عليه والوصول الى حضرته قال بعضهم من توهم أن عملا من أعماله يوصله الى مأموله الاعلى أو الادنى فقد ضل عن طريقه لان النبى صلى الله عليه وسلم قال لن ينجى أحدا منكم عمله فما لا ينجى من المخوف كيف يوصل الى المأمول ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذى يرجى له الوصول اه (فما زالت مطية عزمه) أى عزمه الشبيه بالمطية (لا يقر قرارها) لعدم ما يعوقها وهو التعلق بغير الله سبحانه من الدنيا وكل ما يعوق السالك عن الوصول من الكرامات والمكاشفات والاحوال والمقامات فان ذلك يوقف مطيته عن السلوك والقرار موضع الاستقرار ومعنى كون قرارها لا يقر أنها اذا نزلت فى موضع ترتحل عنه ولا تجعله وطنا فلا يسكن قلبه الى شئ من ذلك كما هو مقتضى التحقق فى مقام الزهد وقوله (دائما تسيارها) أى سيرها كالتفسير لما قبله (الى أن أناخت) أى حصلت واستقرت (بحضرة القدس) أى التنزيه وهى حضرة الرب سبحانه (وبساط الانس) أى البساط الذى كل من جلس عليه حصل له الانس وهو تلك الحضرة فشبهها بحضرة ملك عظيم يستريح الوفود اذا وصلوا اليه وجلسوا على بساطه ثم بين صفات تلك الحضرة بقوله (محل المفاتحة) أى الفتح عن القلوب (والمواجهة) أى الاقبال من الله سبحانه (والمجالسة) بان يصير الله سبحانه حاضرا معه (والمحادثة) بان يكلمه فى سره بالمعارف والاسرار (والمشاهدة) بان يشاهده بباطنه بعد غيبته عن حسه (والمطالعة) أى بان يتمكن من المشاهدة و يطلع على علوم الغيب فان الشخص اذا دخل الى حضرة ملك عظيم من ملوك الدنيا يحصل له أولا المفاتحة بان يفاتح ذلك الملك بالسلام و يفاتحه بالرد ثم المواجهة بان يقبل عليه بوجهه فقد يكون حال السلام معرضا عنه ثم المجالسة بان يجلسه بين يديه ثم المحادثة أى التكلم معه لان ذلك ثمرة المجالسة ثم المشاهدة وذلك أن الملك قد يكون صاحب جلال فلا يلزم من الجلوس بين يديه والمحادثة معه مشاهدته بل يطرق جليسه رأسه من هيبته ثم المطالعة التى هى تمكن المشاهدة أو يراد بالمشاهدة مشاهدة الاحوال الظاهرة وبالمطالعة مشاهدة الاحوال الباطنة فانه لا يعرف حال الملك باطنا الا بعد شدة التأمل فهذا حال من وصل الى حضرة ملك من ملوك الدنيا وكذلك السالك اذا وصل الى حضرة المولى سبحانه فانه يقابله بانواع من الفتوحات والكرامات والتحف السنية والعلوم والمعارف الربانية التى لا يعرف تفاصيلها الا من وصل هناك وذاق مذاق أهل القرب والتمكين جعلنا الله واياكم منهم بمنه وكرمه آمين (فصارت الحضرة) أى حضرة الرب سبحانه (معتنش قلوبهم) أى الموضع الذى تسكن فيه قلوبهم كعش الطير (اليها يأوون) وقوله (وفيها يسكنون) كالتفسير لما قبله أى فصارت حضرة محبوبهم معتنش قلوبهم

ولا جعلها سكنا) فلما كان العبد على هذا الوصف صرف عن هذه الدار الدنيوية أى مال عنها مغضيا جفنه عن أقذائها من غير مبالاة بذلك معرضا عنها بوجه قلبه فلا هادره من غير التفات اليها وهذا مبالغة فى نبذها واطراحها فلم يتوطنها بظاهره على سبيل التمتع بها والاستبشار ولم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها والايثار بل نزلها منزلة السجن والمضيق ووطن نفسه فيها على تحمل ما يطيق وما لا يطيق وهذه علامات على تحققه بالزهد فى الامور الفانية التى هى بغيضة له فلما وصل الى ذلك حصل له من طهارة قلبه وصفاء لبه ما حمله على التعلق بمولاه الباقى الدائم فجعل دنياه معبرا يعبره اليه كما سيقوله المؤلف الآن *(بل انهض الهمة فيها الى الله تعالى وسار فيها مستعينا به فى القدوم عليه) هذا ابتداء سفره بقلبه الى الحضرة العلية وبدأ بانهاض الهمة الى ربه والاستعانة به فى القدوم عليه وهو أساس أمره كما تقدم قال الشاعر

اذا لم يعنك الله فيما تريده * فليس لمخلوق اليه سبيل
وان هو لم يرشدك فى كل مسلك * ضللت ولو أن السماك دليل

قال أبو محمد الجريرى رضى الله عنه من توهم أن عملا من أعماله يوصله الى مأموله الاعلى أو الادنى فقد ضل عن طريقه لان النبى صلى الله عليه وسلم قال لن ينجى أحدا منكم عمله فما لا ينجى من المخوف كيف يوصل الى المأمول ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذى يرجى له الوصول *(فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائما تسيارها الى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الانس محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة فصارت الحضرة معتنش قلوبهم اليها يأوون وفيها يسكنون) هذه استعارات مليحة استعملها

ومستوطنهم فى ذهابهم وايابهم وههنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو وهذا مقام الجمع هذا هو انتهاء سفرهم وصعودهم ثم بعد ذلك يتحققون بمقام البقاء وهو مقام الفرق و يؤمرون بمخاطبة الخلق وهو المراد بقوله (فاذا نزلوا الى سماء الحقوق) أى الحقوق الواجبة عليهم عند مخالطة الخلق الشبيهة بالسماء بجامع صعوبة الارتقاء الى كل (أو أرض الحظوظ) أى حظوظ أنفسهم التى تلابسهم ويحصل لهم الارتفاق بها الشبيهة بالارض بجامع سهولة الاستقرار على كل (فبالاذن والتمكين) أى لا بشهوتهم ومرادهم والا فلو خيروا بين مقامهم فى تلك الحضرة والخروج منها الى مخالطة الخلق لم يختاروا الا بقاءهم فيها ولذا لما أمر الله أبا يزيد بالخروج الى ارشاد الناس صاح صيحة عظيمة فقال الله تعالى للملائكة ردوا على عبدى فانه لا طاقة له على مفارقتى قال بعضهم وكان فى ذلك الوقت لم يحصل له قوة و رسوخ فى مقام الفرق ثم بعد ذلك قواه وأخرجه ولذا قال المصنف فبالاذن والتمكين اذ لا يلزم من مجرد الاذن التمكين أى التمكين فى مقام البقاء بان يحصل لهم القوة على مخالطة الخلق وتحمل أذاهم (والرسوخ فى اليقين) أى و بعد رسوخهم فى اليقين بالله ومعرفتهم به معرفة ذوقية (فلم ينزلوا الى الحقوق بسوء الادب والغفلة) أى فلم يخالطوا الخلق الا مع التأدب التام لانهم يرون الله فيهم ومع التيقظ وعدم الغفلة عن موجدهم فاذا آذاهم شخص تحملوه لله الذى أوجده و رأوا أن الذى سلطه عليهم هو مولاهم لذنب فعلوه لا يليق بمقامهم واذا أكرمهم شخص شكروه مع رؤيتهم أن الذى حرك قلبه للاكرام هو مولاهم فهذه وشبهها هى الحقوق الواجبة عليهم عند النزول ومخالطة الخلق (ولا الى) أى ولم ينزلوا الى (الحظوظ) ويتعاطوها (بالشهوة والمتعة) بضم الميم أى على سبيل شهوة نفوسهم لها وتمتعهم بها (بل دخلوا فى ذلك كله) من الحقوق والحظوظ (بالله) أى مستعينين به (ولله) أى لا لحظ أنفسهم (ومن الله) أى من عنده لا من عند أنفسهم (والى الله) أى متوسلين اليه فى نيل مرادهم ثم السفر الاول وهو السير الى حضرة المولى يقال له سفر الترقى والثانى وهو النزول منها الى مخالطة الخلق يقال له سفر التدلى والى ذلك أشار المصنف بقوله

فى سفر القلب الى حضرة الرب وقد تقدم معنى ذلك عند قوله لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين وحضرة القدس وبساط الانس هما موضع محط الرحال وبلوغ الاوطار والآمال من قبل أن السالك تمحى عنه رسوم بشريته وتبطل أحكام آنيته وتنكشف له اذ ذاك أوصاف معروفه كرأى العين و يكون سره مع الله تعالى بلا أين فلما وصل الى هذه الحضرة العلية ونال هذه المنقبة السنية قوبل بانواع من الكرامات والالطاف وفنون من تحف السادات والاشراف وهى معانى هذه الالفاظ السنية التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى ولا تعرف الا بالذوق وكذلك التفرقة بين معانيها فحينئذ ألقى السائرون عصا سيرهم وحمدوا عاقبة أمرهم وصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم ومستوطنهم فى ذهابهم وايابهم الى ظلها يأوون اذا اصطلى غيرهم نيران هواه وفى دار المقامة يسكنون حين يزعج سواهم عن منعة دنياه وههنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو وهذا هو انتهاء سفرهم بمعنى الصعود والترقى * (فاذا نزلوا الى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالاذن والتمكين والرسوخ فى اليقين فلم ينزلوا الى الحقوق بسوء الادب والغفلة ولا الى الحظوظ بالشهوة والمتعة بل دخلوا فى ذلك بالله ولله ومن الله والى الله) هذا هو سفر التدلى والنزول وبه يتحققون بمقام البقاء والصحو فاذا نزلوا من سدرة منتهاهم الى سماء الحقوق وهى حقوق الله عليهم مما أمرهم به أونهاهم عنه ليقوموا بذلك فعلا أوتركا أوالى أرض الحظوظ وهى حظوظ نفوسهم التى تلابسهم ويحصل لهم الارتفاق بها فانما يكون نزولهم الى ذلك بالاذن والتمكين والرسوخ فى اليقين ومعنى ذلك أن يدخلوا فى الاشياء بمراد الله تعالى لا بمراد أنفسهم ويجدون الاذن من الله تعالى لهم بما يشرق فى قلوبهم من النور الذى يجعله الله علما على ذلك وقد ذكره سيدى أبو الحسن فى بعض كلامه قال رضى الله عنه ومعنى الاذن للولى نور ينبسط على القلب يخلقه الله فيه وعليه فيمتد ذلك النور على الشئ الذى يريده فيدركه نور مع نور أو ظلمة تحت ذلك النور ينبئك أن تأخذ ان شئت أو تترك أو تختار أو تدبر أو تعطى أو تمنع أو تقوم أو تجلس أو تسافر أو تقيم هذا باب المباح المأذون فيه بالتخيير فاذا قارنه القول تأكد الفعل المباح بمراد الله تعالى فان قارنته نية صحيحة لفعل زال عنه حكم المباح وصار مندوبا وان ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب فلا يخلو أن يلوح عليه لائح الغضب بانقباض القلب فاحذر ذلك وتجنبه فانه المحظور أو يكاد ولا تقطع ذلك الا ببينة من كتاب الله تعالى أوسنة أواجماع أو خلاف لمقلد قلدته كمالك والشافعى أوغيرهما من العلماء الراسخين فاحكم اذا على أصل صحيح وان تكن الظلمة

(وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) المدخل والمخرج فى الاصل بمعنى الادخال والاخراج وقد عبر بهما هنا عن السفرين المذكورين فالمدخل هو سفر الترقى لانه دخول على الله عز وجل فى حالة فنائه عن رؤية غيره والمخرج هو سفر التدلى لانه خروج الى الخليقة لفائدتى الارشاد والهداية فى حال بقائه بربه وتحققه فى هذين المقامين أعنى مقام الفناء والبقاء هو معنى صدقيه مدخله ومخرجه فالمدخل الصدق أن يشاهد حول الله وقوته فى سفر الترقى فتنتفى عنه بذلك نسبة الاعمال الى نفسه والمخرج الصدق أن يستسلم لربه وينقاد اليه فى سفر التدلى فيرضى بما نقله اليه ولا تتشوق نفسه الى البقاء مع ما نقل عنه ولذا قال (ليكون نظرى الى حولك وقوتك اذا أدخلتنى واستسلامى وانقيادى اليك اذا أخرجتنى) أى ليحصل ذهابى عن رؤية نفسى فى النسبة والوقوف مع الحظ فى المدخل أشاهد حولك وقوتك فتنتفى عنى بذلك النسبة الى نفسى وفى المخرج استسلم اليك فتنتفى عنى بذلك مراعاة حظى (واجعل لى من لدنك) أى من عندك بلا واسطة ولا علة من نفسى (سلطانا) أى حجة قاهرة (نصيرا) أى مقويا ومعينا وهو مدد الهى يأتى من حضرة الحق سبحانه فلا يصادمه شئ الا دمغه وذهب به (ينصرنى) على نفسى (وينصر بى) أحبابى ومن تعلق بأذيالى من الاخوان والرفقاء (ولا ينصر على) نفسى ولا أحدا من أعدائى الباطنة والظاهرة ثم فسر النصرة المطلوبة فى حق نفسه بقوله (ينصرنى على شهود نفسى) بأن لا أشاهد لها فعلا ولا حركة ولا سكونا بل أشاهد أن المحرك المسكن هو أنت (ويغنينى عن دائرة حسى) أى عما يدور به حسى ويدركه وهو المكونات فلا أتعلق بها ولا أشاهد منها نفعا ولا ضرا بل أشاهد أن النافع الضار هو أنت وهؤلاء الذين نصرهم الله تعالى ونصر بهم ولم ينصر عليهم هم الضنائن الذين اذا ظهر واحد منهم فى عصر حصل به النفع التام لاهله وأمدهم الله بسببه وهم لا يشعرون ومما كتب به الى بعض الاخوان أيضا (ان كانت عين القلب) وهى البصيرة المشابهة للعين الباصرة

الظلمة شبه غيم لا يتصدع معه القلب ولا يتفرغ به الذهن فتباعد عنه فانه يكاد أن يكون مكروها ولا تحكم بعقلك ورأيك فقد ضل من ههنا خلق كثير ولا تتهم أحدا وان استقالك واعط الورع حقه ولا تقف ما ليس لك به علم فان تأدبت ههنا فعن قريب تأتيك البينة من ربك والشاهد يتلوها منه اه كلام سيدى أبى الحسن وهو مناسب لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى الا أن ما فيه من التفصيل لم يتعرض له المؤلف بل بقى الامر فى ذلك مجملا كما تراه وتقديره فاذا نزلوا الى الحقوق واستعملوا فيها لم ينزلوا اليها بسوء أدب ولا غفلة وهو أن لا يشهدوا قيامهم بها من أنفسهم أو يطلبوا ثوابا عليها من ربهم وان نزلوا الى الحظوظ لم ينزلوا اليها بشهوة غالبة قاهرة لهم ولا منفعة يقصدون الى نيلها فى دنياهم بل دخلوا فى ذلك بالله مستعينين ولله عابدين ومن الله آخذين والى الله متوسلين فتولى الله تعالى ادخالهم فى الاشياء واخراجهم منها وأوجدهم ذلك وعزل عنهم ملكية نفوسهم لهم وصاروا أحرارا كراما * (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ليكون نظرى الى حولك وقوتك اذا أدخلتنى واستسلامى وانقيادى اليك اذا أخرجتنى) المدخل والمخرج الادخال والاخراج وقد عبر بهاتين العبارتين عن السفرين المذكورين فالمدخل هو سفر الترقى لانه دخول على الله عز وجل فى حالة فنائه عن رؤية غيره والمخرج هو سفر التدلى لانه خروج الى الخليقة لفائدتى الارشاد والهداية فى حال بقائه بربه وتحققه فى هذين المقامين أعنى مقام الفناء والبقاء هو معنى صدقيه مدخله ومخرجه وانما طلب هذا ليحصل له به ذهابه عن رؤية نفسه فى النسبة والوقوف مع الحظ ففى المدخل يشاهد حول الله تعالى وقوته فينتفى عنه بذلك النسبة الى نفسه وفى المخرج يستسلم لربه وينقاد اليه فينتفى عنه بذلك مراعاة حظه *(واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ينصرنى وينصر بى ولا ينصر على ينصرنى على شهود نفسى ويغنينى عن دائرة حسى) طلب من الله تعالى النصرة له ليستقيم أمره وطلب منه النصرة به ليكمل حاله فالنصرة له هى ملاك أرباب البدايات من السالكين اذ بذلك يتيسر عليهم قطع عقبات النفس ومحو دواعى الهوى والحس والنصرة به هى مقتضى حال أرباب النهايات من المجتهدين لان بذلك يحصل لهم مرتبة الامامة ومقام الارشاد والهداية وكل واحد من القسمين نصرة على شهود النفس وفناء عن دائرة الحس وأخرج النصرة عليه من السؤال والطلب لان ذلك من الخذلان وعدم التوفيق وهو غلبة أحكام نفسه وبقاؤه مع دائرة حسه * وقال رضى الله تعالى عنه مما كتب به لبعض اخوانه *(ان كانت عين القلب

(تنظر الى أن الله واحد فى منته) أى نعمته أى هو المعطى لها وحده (فالشريعة تقتضى أنه لابد من شكر خليقته) فاذا أوصل الحق اليك نعمة على يد انسان سواء كانت دينية كالعلوم والمعارف أو دنيوية فعليك فى ذلك مراعاة الحقيقة بأن ترى أن تلك النعمة من الله وحده وأن من أجراها على يديه مقهور مجبور على ايصالها اليك فتحمد الله سبحانه على ذلك ومراعاة الشريعة بأن تشكر من وصلت اليك على يده فتدعو له وتثنى عليه امتثالا لامر الله وعملا بما جاءت به الشريعة فى الحديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله ولان الله اختصه بأن أقامه فى ذلك وأهله له (وان) أى وأخبرك أن (الناس فى ذلك) أى فى حال ورود النعمة عليهم على يد أحد (على ثلاثة أقسام غافل) عن الله (منهمك فى غفلته) أى منتاه فيها (قويت دائرة حسه) يعنى أن ملحظه ومنظره المكونات فقط مع الغفلة عن الرب (وانطمست حضرة قدسه) أى حضرة التنزيه والمراد بها بصيرته التى هى منبع تنزيه الله تعالى عن كل مالا يليق به (فنظر الاحسان) صادرا (من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين اما اعتقادا) بأن يعتقد أن المؤثر والمعطى هو العبد حقيقة (فشركه جلى) يخرجه عن دائرة الايمان الى دائرة الكفر (واما استنادا) بأن يعتقد أن المعطى هو الله تعالى ولكن اسند ذلك الى المخلوقات على جهة كونها أسبابا غير مؤثرة ولولاهم لم يحصل الاعطاء فاذا قيل له من الذى أعطاك مثلا قال الله ولكن لولا فلان الذى جاء من قبله لم يحصل اعطاء اذ لولا الاسباب ما كانت المسببات (فشركه خفى) لانه أشرك مع الله غيره وهو المخلوق ولم يغب عن الله تعالى فهو مؤمن لكن يخشى عليه قد الكفر والعياذ بالله تعالى (وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق) فلم يشعر بهم ولم يلتفت اليهم (وفنى عن الاسباب) وهم المخلوقات فلم ير لهم فعلا (بشهود مسبب الاسباب) وهو الله تعالى (فهو عبد مواجه بالحقيقة) وهى حضرة الرب سبحانه لشهوده لها (ظاهر عليه سناها) أى نورها وضياؤها (سالك للطريقة) أى طريقة القوم وسلوكه لها باعتبار الاصل والا فمواجهته بالحقيقة لا تكون الا بعد سلوكه لها ولذا قال (قد استولى على مداها) أى غايتها ونهايتها ثم هذا المستغرق فى الحقيقة على الوجه المذكور وان كان كاملا بالنسبة لاهل الغفلة فهو ناقص بالنسبة لا كمل منه من أهل المعرفة ولذا قال (غير أنه غريق الانوار) أى غريق فى بحار التوحيد (مطموس الآثار) أى مطموسة بصيرته عن رؤية الآثار والوسائط والعبيد

تنظر أن الله واحد فى منته فالشريعة تقتضى أنه لابد من شكر خليقته) اذا أوصل الحق تعالى اليك نعمة على يد انسان سواء كانت دينية أو دنيوية فعليك فى ذلك وظيفتان احداهما أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك فلا ترى النعمة الا منه وحده وترى من سواه ممن أجراها على يده مقهورا مجبورا على ذلك مسلطا عليه الدواعى والبواعث حتى لم يجد انفكاكا عنه وهذا هو حق التوحيد والثانية أن تشكر من وصلت اليك على يده بأن تدعو له وتثنى عليه امتثالا لامر الله تعالى وعملا بما جاءت به الشريعة قال الله تعالى أن اشكرلى ولوالديك وفى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله وفى حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشكرا لناس لله أشكرهم للناس ولان الله تعالى اختصه بأن أقامه فى ذلك وأهله له ومن أسمائه تعالى الشكور فليتخلق العبد بذلك وهذا هو حق الشرع (وان الناس فى ذلك على ثلاثة أقسام غافل منهمك فى غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حضرة قدسه فنظر الاحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين اما اعتقادا فشركه جلى واما استنادا فشركه خفى) هذا هو بيان أحوال الناس بالنسبة الى مشاهدة التوحيد ورؤية الوسائط والعبيد فبدأ بذكر عامة الناس وهم الغافلون المنهمكون فى غفلتهم أصحاب الظواهر والرسوم الذين قويت دائرة حسهم فقيدتهم وونفوا معها وانطمست حضرة قدسهم فابعدتهم ولم يحلوا بها فنظروا الاحسان من المخلوقين فتعبدوا لهم وطمعوا فيهم ولم يشهدوه من رب العالمين فكفروا نعمته واستوجبوا سخطه ونقمته ثم هم فى ذلك على قسمين أحدهما أن يعتقدوا ذلك بقلوبهم أنه منهم ومن قبلهم وهذا هو الشرك الجلى الذى يخرج صاحبه عن دائرة الاسلام ويوقعه فى الكفر والعياذ بالله والثانى أن يحصل ذلك منهم استنادا أى اعتمادا على غير الله وسكونا الى سواه مع سلامة عقدهم وصدورهم وهذا هو الشرك الخفى الذى يخرج صاحبه من حقائق الايمان ويدخله فى أبواب النفاق ونعوذ بالله من الشرك جليه وخفيه * (وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفنى عن الاسباب بشهود مسبب الاسباب فهو عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها سالك للطريقة قد استولى على مداها غير أنه غريق الانوار مطموس الآثار

أى غائب عن رؤية ذلك والشعور به (قد غلب سكره) وهو عدم احساسه بالآثار (على صحوه) وهو وجود احساسه بها (وجمعه) وهو رؤية الحق وحده (على فرقه) وهو رؤية الخلق مع الحق فهو فى مقام الجمع لا فى مقام الفرق (وفناؤه) وهو اضمحلاله فى وجود الحق (على بقائه) وهو شعوره بالخلق فهو فى مقام الفناء الذى هو مقام الجمع لا البقاء الذى هو مقام الفرق وقوله (وغيبته على حضوره) كالتفسير لما قبله (وأكمل منه عبد) جمع بين الامرين كالنبى صلى الله عليه وسلم وكامل ورثته وسبب ذلك أنه (شرب) من المدد الالهى ومن كؤس التوحيد (فازداد صحوا) بعد سكره (وغاب) عن رؤية الاغيار (فازداد حضورا فلا جمعه) وهو رؤية الحق يحجبه عن (فرقه) وهو رؤية الخلق (ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصده عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه يعطى كل ذى قسط قسطه) فيشكر الحق والخلق ولا يغيب عن الرب فى حال مخالطة الخلق وقوله (ويوفى كل ذى حق حقه) بمعنى ما قبله وهؤلاء هم خاصة الخلق الذين حازوا رتبة الاكملية تمكنوا فى المقامات وملكوا أحوالهم ومنهم أبو بكر رضى الله عنه ولذا قال المصنف (وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الافك) أى الكذب (على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم) أى فى القرآن العظيم (ياعائشة اشكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم) لان براءتك سببها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحصل الا ببركته فيستحق الشكر منك (فقالت والله لا أشكر الا الله) لانها فى ذلك الوقت غائبة عن احساسها منغمسة فى الانوار لم تر غير الله (دلها أبو بكر رضى الله عنه على المقام الاكمل مقام البقاء المقتضى لاثبات الآثار) أى النظر للخلق ومن جملتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتضى النظر اليهم شكرهم ثم استدل على أنه ينبغى شكرهم بقوله (وقد قال تعالى ان أشكرلى ولوالديك وقال صلى الله عليه وسلم لا يشكر الله) بالنصب وفاعل الشكر هو العبد والرفع أى لا يثيب الله (من لا يشكر الناس) ولا يرضى له ذلك فينبغى شكر الله لانه الذى حرك قلب العبد وشكر العبد لانه واسطة والضار هو الوقوف معه والغيبة عن الرب (وكانت هى) أى عائشة (فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها) أى مأخوذه عن احساسها غائبة عن حكم بشريتها والاصطلام حالة تعترى العبد من تجلى الله عليه بصفة القهر فتغيبه عن احساسه (غائبة عن الآثار) وهم المخلوقات (فلم تشهد الا الواحد

قد غلب سكره على صحوه وجمعه على فرقه وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره) هذا هو حال الخاصة من أرباب الحقائق وهم الذين غابوا عن الخلق بشهود الملك الحق فلم يقع لهم شعور بهم ولا التفات اليهم وفنوا عن الاسباب برؤية مسبب الاسباب فلم يروا لها فعلا ولا جعلا فهم مواجهون بحقيقة الحق ظاهر عليهم سناها أى نورها وضياؤها سالكون طريقة الحق قد استولوا على مداها أى وصلوا الى غايتها ومنتهاها الا أنهم غرقوا فى بحار أنوار التوحيد مطموس عليهم آثار الوسائط والعبيد أى مغلق عليهم رؤية ذلك والشعور به قد غلب سكرهم وهو عدم احساسهم بالاغيار على صحوهم وهو وجود احساسهم بها وجمعهم وهو ثبوت وجود الحق فردا على فرقهم وهو ثبوت وجود الخلق وفناؤهم وهو اضمحلالهم فى شهود الحق على بقائهم وهو شعورهم بالخلق وغيبتهم وهو ذهاب أحوال الخلق عن نظرهم على حضورهم مع الخلق ومعانى هذه الالفاظ كما تراه متقاربة وهى ألفاظ تداولها الصوفية المحققون بينهم وعبروا بها فى كتبهم ووضعوها على معان اختصوا بفهمها لتعترف بعضهم من بعض مايخاطبون به ولهم ألفاظ كثيرة غيرها وكأن المؤلف رحمه الله تعالى أراد أن لا يخلو كتابه عن ذكر شئ منها * (وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوا وغاب فازداد حضورا فلا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصده عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه يعطى كل ذى قسط قسطه ويوفى كل ذى حق حقه) هذا هو حال خاصة الخاصة الذين حازوا رتبة الاكملية وهم قوم شربوا كؤس التوحيد فازداد صحوهم وغابوا عن الاغيار فازداد حضورهم فقد ملكوا الاحوال وتمكنوا فى مقامات الرجال فلم يغلبهم محو عن طى ولم يحجبهم شئ عن شئ بل وفوا حقوق جميع المراتب وأعطوها مالها من قسط واجب وذلك لاتساع نظرهم ونفوذ بصرهم وهذه هى صفة الصديق رضى الله تعالى عنه فى القصة التى يذكرها الآن * (وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الافك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة اشكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله لا أشكر الا الله دلها أبو بكر رضى الله تعالى عنه على المقام الاكمل مقام البقاء المقتضى لاثبات الآثار وقد قال الله تعالى أن اشكرلى ولوالديك وقال صلى الله عليه وسلم لا يشكر الله من لا يشكر الناس وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد الا الواحد

القهار) وفى قوله وكانت فى ذلك الوقت اشارة الى أن ذلك ليس حالا لازما لها فى جميع أوقاتها بل ترقت عنه الى مقام الفرق وهو رؤية الخلق مع الحق * وقال رضى الله عنه لما سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عينى فى الصلاة قرة العين كناية عن غاية الفرح والسرور واللذة فكأنه يقول وجعلت غاية فرحى وسرورى ولذتى فى الصلاة لمشاهدة الرب فيها هل ذلك خاص به أم لغيره من أمته منه شرب بكسر الشين وقوله ونصيب تفسير له فاجاب (ان) بكسر الهمزة ان كانت من كلام المصنف وفتحها ان كانت من كلام غيره (قرة العين) أى غاية الفرح والسرور (بالشهود) أى شهود جلال الحق سبحانه وجماله (على قدر المعرفة بالمشهود) وهو الحق سبحانه (فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس معرفته) أحد هنالك (كمعرفته فليس قرة عين كقرته) وحاصل الجواب أن قرة العين ليست خاصة به صلى الله عليه وسلم بل كما تكون له تكون لغيره لكن قرة عينه أعظم من قرة عين غيره ومعلوم أن قرة العين لا تحصل الا لمن ذهبت عنه الوساوس النفسانية والشيطانية أما من كان معمورا فيها فقليل ان تحصل له قرة عين أو حضور قلب بين يدى الحق سبحانه وتعالى (وانما قلنا ان قرة عينه) صلى الله عليه وسلم (فى صلاته بشهوده جلال مشهوده) وهو الحق (لانه قد أشار الى ذلك بقوله فى الصلاة ولم يقل بالصلاة اذ هو صلى الله عليه وسلم لا تقر عينه بغير ربه) ومن الغير الصلاة (وكيف) تقر عينه بغير ربه (وهو) أى والحال أنه (يدل على هذا المقام) وهى المرتبة الاولى من مراتب الاحسان (ويأمر به من سواه بقوله صلى الله عليه وسلم اعبد الله كأنك تراه ومحال أن يراه ويشهد معه سواه) ومن السوى صلاته فيغيب عن نفسه وحسه وعن أفعاله ولا يراها صادرة منه بل يرى الفاعل لها هو الله تعالى (فان قال قائل قد تكون قرة العين بالصلاة لانها فضل من الله وبارزة من عين منة الله تعالى) أى لا لعلة وجعلها بارزة من نفس المنة مبالغة والا فهى بارزة من الله بعينه لا لعلة (فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال الله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) ففى ذلك اشارة الى أنه لا مانع أن يفرح الانسان بالصلاة و يكون قرة عينه بها فما المانع من كون فرحه صلى الله عليه وسلم بها (فاعلم) مرتب على ما تقدم وهو قوله فان قال قائل وفى بعض النسخ حذف قوله فان قال قائل فيحتاج الى تقديرها وترتيب الجواب عليها كأنه قال ان قيل ذلك فاعلم (أن الآية قد أومات) أى أشارت اشارة خفية (الى الجواب لمن تدبر سر الخطاب) وهو المعنى الذى يخفى على كثير من الناس (اذ قال) الله تعالى (فبذلك فليفرحوا) أى الامة (وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم فليفرحوا بالاحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل) وهو الله تعالى (كما قال الله تعالى فى الآية الاخرى قل الله) معناه المطابقى قل الله أنزله أى القرآن ومعناه الاشارى المراد هنا قل الله أى افرح به لا بغيره (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)

القهار) هذا مثال هذين القسمين وقد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى الكلام فيه والمعنى فى ذلك بين لا حاجة بنا الى مزيد تنبيه الا قوله وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة أى منقطعة عن شاهدها وهو حكم بشريتها مستوفاة عن احساسها بالكلية والاصطلام نعت الحيرة ومحل القهر وصفة الدهشة وفى قوله وكانت هى فى ذلك الوقت اشعار بان ذلك لم يكن حالا لازما لها فى جميع أوقاتها بل كان ذلك فى وقت مخصوص وواقعة مخصوصة وذلك صحيح اذ حالها رضى الله عنها هو حال الكمال فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته كنحو حال أبيها رضى الله عنهما وذلك معلوم من أخبارها وسيرها رضى الله تعالى عنها * وقال رضى الله عنه لما سئل عن قوله صلوات الله عليه وسلامه وجعلت قرة عينى فى الصلاة هل ذلك خاص به أم لغيره منه شرب ونصيب فأجاب * (ان قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود فالرسول صلوات الله عليه وسلامه ليس معرفة غيره كمعرفته فليس قرة عين كقرته وانما قلنا ان قرة عينه فى صلاته بشهوده جلال مشهوده لانه قد أشار الى ذلك بقوله فى الصلاة ولم يقل بالصلاة اذ هو صلوات الله عليه وسلامه لا تقر عينه بغير ربه وكيف وهو يدل على هذا المقام و يأمر به من سواه بقوله صلوات الله عليه وسلامه اعبد الله كأنك تراه ومحال أن يراه ويشهد معه سواه فان قال قائل قد تكون قرة العين بالصلاة لانها فضل من الله وبارزة من عين منة الله فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال سبحانه قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا الآية فاعلم أن الآية قد أومات الى الجواب لمن تدبر سر الخطاب اذ قال فبذلك فليفرحوا وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم فليفرحوا بالاحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال فى الآية الاخرى قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)

الصلاة هى أجل ما يتحف الله تعالى به عباده و يهديه اليهم وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أوتى عبد فى الدنيا خيرا من أن يؤذن له فى ركعتين يصليهما ففيها يحصل لهم الخلوة معه والانفراد بالمجالسة له والانقطاع اليه وفيها يرتفع عن قلوبهم الحجب والاستار و يتجلى فيها حقائق الاسرار وتشرق فيها شوارق الانوار وفيها تكون المناجاة والمصافاة كما تقدم وهى صلة بين العبد و بين ربه عز وجل قال محمد بن على الترمذى رحمه الله الصلاة عماد الدين وأول شئ فرضه الله على المسلمين وفى الصلاة اقبال الله على العبيد ليقبلوا اليه فى صورة العبيد تذللا وتسليما وتبذلا وتخضعا وتخشعا وترغيبا وتملقا فالوقوف تذلل والتكبير تسليم والثناء والتلاوة تبذل والركوع تخضع والسجود تخشع والجلوس ترغب والتشهد تملق فاقبل العبيد الى الله بهذه الصورة ليقبل الله عليهم بالترحم والتعطف والتقبل والتكرم والتقرب فليس شئ من أمر الدين أعظم من هذه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عماد الدين وقال فى حديث آخر الصلاة نور وقال لا يزال الله مقبلا على العبد بوجهه ما دام فى صلاته وان الله لينصب الى أحدكم وجهه ما دام مقبلا عليه انتهى ولاجل هذه الفوائد كانت الصلاة مفزع ذوى الفاقات والضرورات من أرباب القلوب فيغنيهم وجودها عن كل مرغوب و يتسلون بها عن كل محبوب قال الله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا الآية فواجب اذا أن تكون قرة أعين عباد الله فيها وبها وقرة العين عبارة عن الروح والراحة وكمال النعيم واللذة التى تحصل من غاية الموافقة والملاءمة الا أنها تختلف باختلاف أحوال الناس فى مراتبهم ومقاماتهم فمن عظمت منزلته وعلت مرتبته كانت ملاءمته وموافقته فى شهود التوحيد وكمال التجريد المشار اليه فى قوله صلى الله عليه وسلم أن تعبد الله كأنك تراه اذ محال أن يراه و يشهد معه سواه كما قال المؤلف رحمه الله تعالى وفيما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى قوله لعروة بن الزبير رضى الله عنهما انا كنا نتراءى لله بين أعيننا وكان هذا لما خطب اليه عروة ابن الزبير ابنته وهو فى الطواف فلم يكلمه ابن عمر ولم يرجع اليه بشئ ثم اعتذر له بعد ذلك بهذا الكلام فصاحب هذه الحال تكون قرة عينه فى الصلاة لانها لما تتضمنه من التجلى التام والشهود الحقيقى ومن كانت منزلته دون ذلك كانت ملاءمته وموافقته فى شهود النعم ووجود الفضل والكرم وكانت قرة عينه بها الا فيها لانها فضل من الله وبارزة من منة الله كما قال المؤلف رحمه الله تعالى فلا شك أن معنى قرة العين فى الوجه الاول أحق وبه أنسب وأليق لان صاحبه فان عن نفسه باق بربه ومن كان على هذا الوصف فهو من المخلصين الذين لا سلطنة عليهم للعدو اللعين ومن زالت سلطنته عنه فى صلاته لم يحتج الى مدافعته ومراجعته وكانت صلاته ملزومة بالحضور والخضوع والدوام والخشوع وعند فقدان العبد لحديث نفسه ووسوسة عدوه يحصل له غاية النعيم واللذة و يتحقق فى حقه معنى قرة العين بخلاف الوجه الآخر فان صاحبه لم يفن عن نفسه فضلا عن أن يرتقى الى درجة البقاء بربه فلم ينقطع عنه حديث النفس ولا وسواس العدو فيحتاج لا محالة الى مجاهدة ومدافعة فيتشوش نعيمه وتتكدر لذته فيضعف معنى قرة العين فى حقه قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه وقرة العين لا تكون لمجاهد ولا لمن يدفع الشيطان عنه بل هى لمن استراح من المجاهدة والدفع ولما كانت منزلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه عز وجل أشرف المنازل

وهو فرحهم بغير الله سبحانه ويؤخذ من ذلك أن قرة العين قد تكون بنفس الصلاة للعلة السابقة لكن ذلك لغيره صلى الله عليه وسلم لا له فان قرة عينه انما تكون بمشاهدة محبوبه وغيره يشاركه فى ذلك على حسب مقامه كما مر * وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض اخوانه (الناس فى) حال (ورود المنن) أى النعم عليهم من الله تعالى (على ثلاثة أقسام فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها) وهو الله (ولكن) فرحه (بوجود متعته فيها) أى بسبب تمتعه وقضاء وطره ونيل غرضه بها (فهذا من الغافلين) شبيه بالبهائم الذين يأكلون ويشربون غافلين عن مولاهم (يصدق عليه قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) يعنى أنه ربما كان تواردالنعم استدراجا من الله تعالى كلما أعطى نعمة ازداد غفلة ولم يشكر المولى عليها حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر (وفرح بالمنن) أى النعم (من حيث انه تشهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها) وهو الله تعالى فيشكره سبحانه عليها ولم يغب عنه لكن حاله ناقص من حيث انه ملتفت الى النعمة وعنده فرح بها وان كان ذلك من حيث بروزها عن الحق (يصدق عليه قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون وفرح بالله) عز وجل (ما شغله عنه (من المنن ظاهر متعتها) أى التمتع بها (ولا باطن منها) أى لم يلتفتوا الى ظاهر النعم من أجل أن فيها التذاذهم ولا الى باطنها من حيث كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث منّ بها عليهم كما هو حال القسمين الاولين فان القسم الاول التفت الى ظاهر النعمة من أجل أن فيها التذاذهم وغابوا عن المنعم بها والقسم الثانى التفت الى باطنها من حيث بروزها عن الله عز وجل وأن فى حصولها لهم اعتناء منه تعالى بهم (بل شغله النظر الى الله) تعالى (عما سواه والجمع عليه) أى جمعية قلبه عليه (فلا يشهد الا اياه يصدق عليه قوله تعالى قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون

ومرتبته فى المعرفة بها أرفع الرتب بحيث لا يتصور أن يشاركه فى ذلك غيره أو يحل به سواه كانت قرة عينه فى صلاته على حسب ذلك فمن قال ان ذلك خاص به لانفراده بالمرتبة العليا والخاصية الكبرى فقوله صحيح وغايته يدل ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عينى فى الصلاة بعد قوله انما حبب الى من الدنيا الطيب والنساء ولا شك أن حبه لهذين الامرين ليس على قياس حب غيره لهما وانما ذلك لوجود الخاصية التى اقتضت منه ذلك ألا ترى أنه أبيح له ما لم يبح لغيره من عدد الحرائر وأمن لاجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب اجتماع الضرائر واستعماله صلى الله عليه وسلم الطيب وحبه له انما هو للقائه الملائكة التى تناجيه والا فهو فى ذاته غنى عن الطيب واستعماله كما قال أنس بن مالك رضى الله عنه ما مسست حريرا ولا اخزا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط مسكا ولا عنبرا أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا كان حاله فى هذين الامرين على ما ذكرناه مع أنه لم يذكر فيهما سوى لفظ الحب وهما من لذات الدنيا فكيف يكون حاله فى الامر الثالث مع أنه عبر فيه بقرة العين وهى غاية المحبة وهو من أعمال الآخرة وقيل معنى قوله من الدنيا أى فى الدنيا ومن قال ان لغيره منه شربا ونصيبا على المعنى الذى يليق بهذا الغير فلقوله وجه وجواب المؤلف رحمه الله تعالى محتمل لهذين الوجهين والله أعلم بما أراد منهما أو من غيرهما وقال المؤلف رضى الله عنه فيما كتب به لبعض اخوانه * (الناس فى ورود المنن على ثلاثة أقسام فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها ولكن بوجود متعته فيها فهذا من الغافلين يصدق عليه قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وفرح بالمنن من حيث انه تشهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها يصدق عليه قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون وفرح بالله ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها بل شغله النظر الى الله عما سواه والجمع عليه فلا يشهد الا اياه يصدق عليه قوله تعالى قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) تضمن هذا الفصل بيان ما يحمد من أحوال الناس وما يذم عند ورود النعم عليهم وحصول الفرح اذذاك لهم وينبنى عليه ما يكون من ذلك شكرا لها وما لا يكون وقد قسمهم المؤلف ثلاثة أقسام وجعلهم طرفين وواسطة قسم فى غاية الدناءة والخسة وهم الذين فرحوا بالنعم من حيث ان فيها قضاء أوطار نفوسهم ونيل أغراضهم والتمتع بشهواتهم ولذاتهم فأحوال هؤلاء مذمومة جدا أشبه شئ بهم الانعام والبهائم وهذه أحوال أهل الطرد والبعد والاستدراج والمكر حسبما أشار اليه فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله فى هذا القسم وهذه الاحوال بعيدة من الشكر منافية له وقسم فى غاية الشرف والجلالة وهم الذين فرحوا بالمنعم فقط ولم يلتفتوا الى ظواهر النعم لاجل أن فيها متعتهم ولذتهم ولا الى بواطنها من كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث منّ بها عليهم فأحوال هؤلاء محمودة جدا لانهم غابوا عن الاغيار العدمية وتحققوا بحقائق الوحدانية كما أشار اليه فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف

المؤلف رحمه الله فى هذا القسم وحال هؤلاء هى الشكر الحقيقى الخالص الخالى من المزج والشوب لان المشاهد للمنعم فان عن حظوظ نفسه فهو يرى الاشياء كلها نعما فلا تفرقة عنده بين وجود ولا عدم ولا عطاء ولا منع ولا يخاف عليه من التغير والانقلاب لتغير الافعال والاسباب ما يخاف على غيره لبقاء حظه قال أبو محمد الجريرى رضى الله عنه من رأى النعم ولم ير المنعم فقد حجب عن الشكر ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكر وقال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه كل من لم يشاهد المنعم فى النعمة كانت النعمة فى حقه استدراجا لانه يؤديه الى أن يسكن اليها فاذا انتزعت منه لزمه أن يتغير عليها ومنهم من حصل له نصيب من الشرف والجلالة وحظ من الدناءة والرذالة وهم الذين فرحوا بالنعم لكونها منة من الله تعالى عليهم فمن حيث شهودهم للمنة من ربهم شرفوا وجلت أقدارهم وكانت أحوالهم محمودة وهى شكر منهم لائق بهم ومن حيث نظرهم لانفسهم وبقاؤهم مع حظوظهم كان لهم نصيب من الدناءة والخسة فانحطوا بهذا الوصف عن مراتب الاعلين وارتقوا بالوصف الاول عن أحوال الادنين نخوطبوا بما خوطب به عامة المؤمنين وأوساطهم فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله فى هذا القسم وقد ضرب الامام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الشكر لهذه الاقسام الثلاثة مثلا فقال الملك الذى يريد الخروج الى سفر فانعم بفرس على انسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه أحدها أن يفرح بالفرس من حيث انه فرس وانه مال ينتفع به وانه مركوب يوافق غرضه وانه جواد نفيس وهذا فرح من لا حظ له فى الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه به مثل هذا الفرح الوجه الثانى أن يفرح به لا من حيث انه فرس بل من جهة ما يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء أو أعطاه له غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا ولاستحقاره له بالاضافة الى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه فيخرج به فى خدمة الملك ويحتمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ويرتقى الى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بان يكون محله فى قلب الملك محل من يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لان لا ينعم الملك بشئ من ماله على أحد الا بواسطته ثم انه ليس يريد من الوزارة الوزارة نفسها بل مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات فالاولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لان نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى وهذه حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر والثانى داخل فى معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الانعام فى المستقبل وهذه حال الصالحين الذين يعبدون الله تعالى ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وانما الشكر التام فى الفرح الثالث وهو أن يكون فرح العبد بنعم الله عز وجل من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب منه والنزول فى جواره والنظر الى وجهه على الدوام فهذه هى المرتبة العليا وأمارته أن لا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة الآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لانه ليس يريد النعمة لانها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس لانه جواد ومهملج بل من حيث

وقد أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام باداود قل للصديقين) أى كثيرين الصدق فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم
(بى فليفرحوا) أى فليفرحوا بى لا بغيرى حيث كنت ربا وكانوا الى عبيدا خالصين من حكم بشريتهم ولذا قيل ان عتبة الغلام دخل
يوما على رابعة العدوية وعليه قميص جديد وهو يتبختر فى مشيته على خلاف عادته فقالت له ياعتبة ماهذا التيه
والعجب الذى لم أره فى شمائلك قبل هذا اليوم فقال يارابعة ومن أولى بهذا التيه منى وقد أصبح لى مولى وأصبحت له عبدا (وبذكرى فليتنعموا) أى لا يتنعمون الا بذكرى لا بلذات الدنيا وشهواتها فان المشتغل بذكر الله يحصل عنده من اللذة والانس بالله مالا يوازيه لذة من لذات الدنيا (والله تعالى يجعل فرحنا واياكم) أيها الاحباب الناظرين فى هذا الكتاب (به) تعالى (وبالرضا منه) أى الانعام بدوام المشاهدة (وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه) وهم الذين يفهمون عن الله مراده منهم وهو اقبالهم عليه واشتغالهم بخدمته ويفهمون عنه أنه حاضر معهم فيراقبونه فى حركاتهم وسكناتهم ويفهمون عنه أنه قائم بالاشياء وأنها عدم محض فلا يلتفتون اليها فى جلب نفع ولا دفع ضرر ويفهمون عنه أنه معهم بذاته لا بعلمه كما يفهمه المحجوبون أهل الدليل والبرهان الى غير ذلك مما هو مقرر عند أهل الشهود والعيان (وأن لا يجعلنا من الغافلين) الذين اشتغلوا بالاكوان عن المكون ولم يفهموا مراد الله منهم فلم يقبلوا على طاعته وان أقبلوا عليها فبظاهرهم دون قلوبهم (وأن يسلك بنا مسالك المتقين) الذين يتقون ماسواه سبحانه فلا يلتفتون الى غيره فى جلب ولا دفع ولا يغيبون عنه طرفة عين وهذه أعلى مراتب التقوى ودون ذلك اتقاء معاصى الجوارح وشهوات النفوس ودون ذلك اتقاء الشرك (بمنه وكرمه) أى لا بعلة تحمله على ذلك كأعمالنا المدخولة (وقال رضى الله عنه) وفى بعض النسخ ومن مناجاته (الهى أنا الفقير فى) حال (غناى فكيف

انه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلى رضى الله عنه الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ولذلك قال الخواص رضى الله عنه شكر العامة على المطعم والملبس وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس من الالوان والاصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ فى حال الصحة الا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وانما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة ويستحلى الاشياء المرة كما قيل

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فاذن هو شرط الفرح بنعمة الله عز وجل فان لم تكن له ابل فعزوان لم يكن هذا فالدرجة الثانية أما الاولى فخارجة عن كل حساب فكم فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله عز وجل لينعم عليه وبين من يريد نعم الله تعالى ليصل بها اليه انتهى كلام الامام أبى حامد الغزالى وهو فى غاية البيان والوضوح وهو كالتفسير لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ولذلك أوردته ههنا بكماله * (وقد أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام باداود قل للصديقين بى فليفرحوا وبذكرى فليتنعموا) بهذا تحققت سديقيتهم وعلا ارتفاع رتبتهم على من دونهم قيل ان عتبة الغلام دخل فى بعض الايام على رابعة العدوية رضى الله عنها وعليه قميص جديد وهو يتبختر فى مشيته بخلاف ماسبق من عادته فقالت له ياعتبة ماهذا التيه والعجب الذى لم أره فى شمائلك قبل اليوم فقال يارابعة ومن أولى بهذا التيه منى وقد أصبح لى مولى وأصبحت له عبدا * وقال بعضهم كنت مسافرا الى مكة فبينما أنا أمشى اذ رأيت شيخا بيده مصحف وهو ينظر فيه ويرقص فتقدمت اليه فقلت ياشيخ ماهذا الرقص قال دعنى عنك قلت فى نفسى عبد من أنا وكلام من أتلو وبيت من أنا قاصد فاستغرقنى الوجد فرقصت وأنشد فى هذا المعنى

قوم تخالهم زهوا بسيدهم * والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له * ياحسن رؤيتهم فى حسن ماتاهوا

ويجوز أن يكون المراد بقوله وبذكرى فليتنعموا أى بذكرى اياهم فى الازل حيث لا وجود لهم والافات الذكر المنسوب اليهم محل الآفات والعلل وهم أجل رتبة من أن يكون نعيمهم بشئ ملتبس بهم * (والله تعالى يجعل فرحنا واياكم به وبالرضا منه وان يجعلنا من أهل الفهم عنه وأن لا يجعلنا من الغافلين وأن يسلك بنا مسالك المتقين بمنه وكرمه) هذا دعاء حسن موافق لمعنى ماتقدم وهو بين لا يحتاج الى تبيين ولا تنبيه عليه فالله تعالى يحقق لنا ذلك بفضله واحسانه انه أرحم الراحمين * (وقال رضى الله عنه الهى أنا الفقير فى غناى فكيف

لاأكون

لاأكون فقيرا فى) حال (فقرى) يعنى أن صفتى الذاتية هى الفقر والاحتياج والغنى أمر عارض والعارض بصدد الزوال
(الهى أنا الجاهل فى) حال (علمى) لان ماعندى من العلم قليل فهو فى حكم العدم وأيضا فهو عارض عليها والعارض بصدد
الزوال كما مر (فكيف لا أكون جهولا) أى كثير الجهل (فى) حال (جهلى) وأتى بصيغة المبالغة لما فى ذلك من ضم جهل الى
جهل وحاصله أن العبد صفته الذاتية هى النقص والكمال عارض له والعارض نقصان فى التحقيق وتقديمه هذا التضرع
والافتقار بين يدى دعائه ليكون ذلك أرجى للاجابة قال سهل بن عبد الله ما أظهر عبد فقره الى الله فى وقت الدعاء فى شئ يحل به الا قال الملائكة لولا أن لا يحتمل كلامى لاجبته لبيك انتهى (الهى ان اختلاف تدبيرك) فقد يكون العبد فقيرا فيدبر الله له الغنى وبالعكس ويكون مريضا فيدبر الله له الصحة وبالعكس فالمراد بالتدبير المدبر أى المقدر ولذا عطف عليه للتفسير قوله (وسرعة حلول مقاديرك) أى المقدرة على العبد (منعا عبادك العارفين بك عن السكون) منك (الى عطاء) أى عن سكونهم الى عطاء يصدر منك فاذا أفيضت عليهم العطايا الدنيوية كالاموال أو الدينية كالمعارف والاسرار والمكاشفات لا يلتفتون اليها لانها بصدد الزوال لامكان زوالها واتيان ضدها كما وقع لكثير فى غابر الزمان بل لا يلتفتون الا الى المولى ولا يغيبون عنه ويكون بقاء ذلك وزواله عندهم على حد سواء (واليأس منك فى بلاء) فاذا قام بهم بلية بدنية كمرض أو فقر أو دينية كمعصية لا ييأسون من زوالها باتيان ضدها كما وقع لغيرهم (الهى منى) أى يصدر منى (مايليق بلؤمى) الذى ركبت عليه وهو مبارزتى اياك بالمعاصى التى تليق بى فان شأن الانسان عدم الوفاء بحقوق الرب (ومنك) أى ويصدر منك (مايليق بكرمك) وهو التجاوز والعفو عنى وقبول أعذارى والتفضل والاحسان ودفع الآلام (الهى وصفت نفسك باللطف والرأفة) أى شدة الرحمة (بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما) أى من قيام أثرهما بى وحصوله لدى (بعد وجود ضعفى) فاللطف والرأفة صفتان لله عز وجل اتصف بهما فى الازل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته وهما مقتضيان لوجود أثرهما فيما لايزال بعد وجود ذات العبد

لاأكون فقيرا فى فقرى الهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولا فى جهلى) العبد موصوف بصفات النقص وهى ذاتية له والكمال العارض له والمنسوب اليه نقصان على التحقيق ومن ثم كان ماذكره المؤلف رحمه الله تعالى من كونه فقيرا فى غناه وجاهلا فى علمه صحيحا مستقيما وكأنه قصد رضى الله عنه بهذا الاعتراف بدوام الاضطرار ولزوم الفاقة والافتقار وأنه لا استغناء له عن مولاه عز وجل ولا ينفك من الاحتياج اليه والتعلق به والسؤال والطلب منه فى كل حال من أحواله كما قال بعضهم

انى اليك مدا الانفاس محتاج * لو كان فى مفرقى الاكليل والتاج

وهذا منه دليل على تحققه فى مقام العبودية التى اقتضتها عظمة الربوبية وتقديمه لهذه المعانى بين يدى دعائه ومناجاته فى غاية الحسن * قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه ماطلبت من الله شيأ الا وقدمت اساءتى أمامى يريد رضى الله عنه حتى لا يطلب من الله شيأ بوصف يستحق به العطاء بل لا يكون طلبه وجود فضله الا بفضله وقال أبو عثمان رضى الله عنه فى قوله تعالى أدعوا ربكم تضرعا وخفية التضرع فى الدعاء أن لا تقدم اليه أفعالك وصلواتك وصيامك وقيامك وقراءتك ثم تدعو على أثرها انما التضرع أن تقدم اليه افتقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلة حيلتك ثم تدعو بلا علاقة ولا سبب فيرفع دعاءك * وقال الواسطى رضى الله عنه تضرعا بذل العبودية وخلع الاستطالة وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه ما أظهر عبد فقره الى الله تعالى فى وقت الدعاء فى شئ يحل به الا قال الملائكة لولا أنه لا يحتمل كلامى لاجبته لبيك * (الهى ان اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون الى عطاء واليأس منك فى بلاء) تلوين الاحكام على العباد يقتضى أن لا يساكنوا حالا سارة يكونون عليها ولا ييأسوا فى حال ضارة تنزل بهم من وجود الراحة والفرح وهذا محض تعلق بالله عز وجل وهو نعت العارفين * (الهى منى مايليق بلؤمى ومنك مايليق بكرمك) لؤم العبد الذى ركب عليه يقتضى منه مبارزة مولاه بالعظائم والكبائر وكرم المولى الذى هو متصف به يقتضى منه التجاوز والعفو عن عبده وقبول عذره وهذا الكلام من ألطف وجوه السؤال والرغبة وهو من آداب الدعاء * يحكى أن رجلا قال لبعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قل له كم أخالفه وأعصيه وهو لا يعاقبنى فأوحى الله تعالى الى ذلك النبى قل لفلان لتعلم أنى أنا أنا وأنت أنت * (الهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى) اللطف والرأفة وصفان لله عز وجل اتصف بهما فى الازل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته وهما مقتضيان لوجود آثارهما فيما لايزال

وصفاته وهو اسباغ نعمه عليه وايصال افضاله اليه فكيف يتصور اذ ذاك منعه اياهما واللطف يرجع للعلم والرأفة للارادة (الهى ان ظهرت المحاسن منى) وهى أنواع الطاعات والصفات المحمودة (فبفضلك) لا بحولى وقوتى (ولك المنة) أى الامتنان (على) لعدم استحقاقى لذلك والامتنان مذموم الامن الله أو الرسول أو الوالد أو الشيخ (وان ظهرت المساوى منى) وهى ضروب المعاصى والصفات المذمومة (فبعدلك) لا بطريق الظلم لان المالك يفعل فى ملكه ما يشاء (ولك الحجة على) بان تقول لى لم فعلت ذلك ياعبدى وليس لى حجة أقيمها عليك كان أقول لك ان ذلك بتقديرك وحكمك لان ذلك شأن الجاهل بك أما العالم بك فيقول المالك يفعل فى ملكه ما يشاء ولا

يسئل عما يفعل (الهى كيف تكلنى الى نفسى وقد توكلت لى) ومن كنت وكيله لا تحوجه الى غيرك (وكيف أضام) أى يحصل لى ضيم وذل (وأنت الناصر لى أم كيف أخيب) بعدم الظفر بآمالى (وأنت الحفى بى) أى اللطيف ولطفه بعبده علمه بدقائق مصالحه وخفيات مآربه وايصال ذلك اليه برفق فالوكيل والناصر والحفى من أسماء الله تعالى وهى مقتضية لوجود آثارها من الكفاية والمنفعة والظفر بغاية المقصود والبغية فكيف يتصور انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته كما تقدم فى اللطف والرأفة (ها أنا أتوسل اليك بفقرى اليك) أى أجعل فقرى اليك وسيلة أتشفع به عندك فى القبول لا بأعمالى المدخولة وأحوالى المعلولة ولذا سئل أبو حفص بماذا يقدم الفقير على ربه فقال وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره وقال أبو يزيد نوديت فى سرى خزائننا مملوءة من الخدمة فان أردتنا فعليك بالذلة والافتقار ثم رجع عن جعل الفقر وسيلة يتشفع بها الى المولى فقال (وكيف أتوسل اليك بما هو محال أن يصل اليك) وهو الفقر المذكور فكأنه يقول ان كان الفقر يتوسل به اليك فانا أتوسل به لكنه لا يتوسل به اليك لان المتوسل به يكون بينه وبين المتوسل اليه علقة ومناسبة كالوزير والسلطان ولا مناسبة بين الفقر الذى هو نعت العبد وبين الرب الذى له الغنى الاكبر وأيضا توسل العبد بفقره يقتضى شهوده له واعتماده عليه فيكون حينئذ من الاحوال المعلولة وهى لا تصل الى الله بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها ولذا قيل ان أبا الحسن الشاذلى قدس سره لما دخل على شيخه عبد السلام قال له يا أبا الحسن بماذا تلقى الله قال بفقرى فقال له والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصنم الاعظم ولا تصح حقيقة الفقر الا بالغيبة عن الفقر والا كنت غنيا بفقرك انتهى فاذن لا وسيلة الى الله سواه

بعد وجود ذات العبد وصفاته وهى اسباغ نعمه عليه وايصال افضاله اليه فكيف يتصور اذ ذاك منعه اياهما • (الهى ان ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة على وان ظهرت المساوى منى فبعدلك ولك الحجة على) ظهور المحاسن على العبد وهى أنواع الطاعات والحسنات والصفات المحمودات فضل من الله تعالى والمنة له عليه لعدم استحقاقه لذلك وظهور المساوى منه وهى ضروب المعاصى والسيآت والاوصاف المذمومات عدل من الله تعالى اذ له أن يفعل بعبده ما يشاء والحجة له عليه لانه رب وهو عبد ومناجاة العبد لمولاه بهذا الكلام من أحسن المناجاة وهى مقتضية لوجود اسعافه له وموالاة ألطافه عليه لما فيها من الثناء على الله تعالى على بساط قربه وذكر صفاته العلية والتعلق بها والاعتراف له بالنعم الظاهرة والباطنة ولما فيها أيضا من رؤية ضعف النفس والاقرار عليها بالنقص والقصور وانزالها منزلها من الذلة والمهانة وقد قال بعضهم تعلق شاب باستار الكعبة وقال الهى لا لك شريك فيؤتى ولا وزير لك فيرشى ان أطعتك فبفضلك ولك المنة على وان عصيتك فبعدلك ولك الحجة على فباثبات حجتك على وانقطاع حجتى لديك الا ما غفرت لى فسمع هاتفا يقول الفتى عتيق من النار • (الهى كيف تكلنى الى نفسى وقد توكلت لى وكيف أضام وأنت الناصر لى أم كيف أخيب وأنت الحفى بى) الوكيل والناصر والحفى أسماء الله عز وجل وهى مقتضية لوجود آثارها من وجود الكفاية والمنفعة والظفر بغاية المقصود والبغية فكيف يتصور انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته كما تقدم فى اللطف والرأفة والضيم فى اللغة معناه انتقاص الحق والحفى هو اللطيف ولطفه بعبده علمه بدقائق مصالحه وخفيات مآربه وايصال ذلك اليه برفق قال الله تعالى الله لطيف بعباده • (ها أنا أتوسل اليك بفقرى اليك) التوسل التقرب والوسيلة ما يتقرب به وأعظم وسائل العبد الى مولاه هو تحققه بما توجبه عبوديته وهو فقره اليه فى كل حال من أحواله فلا يرى لنفسه حسنة يقتضى بها ثوابا ولا يدلى بحجة يستدفع بها عن نفسه عقابا قال أبو يزيد رضى الله عنه نوديت فى سرى فقيل لى خزائننا مملوءة من الخدمة فان أردتنا فعليك بالذلة والافتقار وسئل أبو حفص رضى الله عنه بماذا يقدم الفقير على ربه فقال وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره • (وكيف أتوسل اليك بما هو محال أن يصل اليك) بين المتوسل به والمتوسل اليه نسبة تامة ووصلة حقيقية وهى التى اقتضت له وجود التوسل ولا نسبة ولا وصلة بين الفقر الذى هو نعت العبد وبين الرب الذى له

(أم كيف أشكو اليك حالى وهى لا تخفى عليك) وشكوى الحال لا تصح الالمن لا يعلمها والله تعالى لا يخفى عليه شئ ولذا قال الخليل عليه السلام حسبى من سؤالى علمه بحالى وقولهم لا تشكوى الا لله شأن الغافلين المحجوبين (أم كيف أترجم لك بمقالى) أى أعبر عما فى ضميرى بان أقول أعطنى كذا والترجمة فى الاصل التعبير باللسان عما فى الضمير لتفهيم المخاطب (وهو منك برز اليك) أى أنت الذى أنطقت اللسان وأطلقته بذلك فالترجمة برزت منك وترجع اليك

لانك المسؤل والعبد لا مدخل له فى ذلك فكيف تنسب اليه الترجمة وأيضا فهو تعالى عالم باحوال العبد والترجمة لا تكون الالمن لا يفهم حال المترجم والمراد بالترجمة هنا مطلق السؤال (أم كيف تخيب آمالى) أى ما أؤمله وأرجوه (وهى قد وفدت اليك) أى توجهت بالسير اليك كما يتوجه الوافدون بالسير الى الكرام وفى بعض النسخ عليك ولا شك أنه تعالى كريم جواد متفضل لا يخيب من قصده فليكن العبد على يقين بحصول مطلوبه وان لم يسأل ولم يطلب ولما كانت هذه التعجبات تقتضى نسبة النقص الى نفسه وذلك غير لائق بالعارفين المحققين لما فيه من رؤية النفس وملاحظة حالها والبقاء معها والمحقق لا يرى غير الله والاحوال كلها حسنة من حيث نسبتها اليه أتى بقوله (أم كيف لا تحسن أحوالى) الباطنية والظاهرية وهى الاعمال الصالحة (وبك قامت واليك) أى صدرت منك ورجعت اليك لانك المقصود بها فمن تحقق فى مقام المعرفة رأى أحواله كلها حسنة لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها اليه (الهى ما ألطفك) أى أكثر لطفك أى رفقك (بى مع عظيم جهلى) بعواقب الامور فقد يكون فى نزول الامراض والبلايا بى أنواع من اللطف وأنا جاهل بعاقبة ذلك فلذا أطلب الصحة والعافية (وما أرحمك بى) أى أكثر احسانك لى (مع قبيح فعلى) أى مع أفعالى القبيحة المقتضية عدم الاحسان فهذا أمر يتعجب منه (الهى ما أقربك منى) بذاتك كما يقوله أهل المعرفة والشهود أو بعلمك كما يقوله غيرهم من أهل الجحود (وما أبعدنى عنك) بصفاتى التى اقتضت عدم شهودى اياك وهذا تواضع منه قدس الله سره ثم ترقى فقال

الغنى الاكبر وأيضا توسل العبد بفقره يقتضى شهوده له واعتداده به واعتماده عليه ورؤية العبد لاحواله وسكونه اليها علة فيها والاحوال المعلولة لا تليق بالحضرة الالهية ولا تصل الى الله تعالى بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها فالفقر لا يصح التوسل به من هذا الوجه أيضا والى هذا المعنى يشير ما يحكى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى حين دخل على شيخه أبى محمد عبد السلام رضى الله عنهما فقال له يا أبا الحسن بماذا تلقى الله تعالى قال له بفقرى قال له الشيخ والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصنم الاعظم ولا تصح حقيقة الفقر الا بالغيبة عن الفقر والا كنت غنيا بفقرك انتهى فاذن لا وسيلة الى الله بسواه • (أم كيف أشكو اليك حالى وهى لا تخفى عليك) شكوى الحال لا تصح الالمن هى غائبة عنه وهو غير عالم بها والله تعالى لا يخفى عليه شئ وقد قال ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام حسبى من سؤالى علمه بحالى • (أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز اليك) الترجمة بالمقال هى التعبير باللسان عما فى الضمير ليقع التفهيم بذلك للمترجم له والله تعالى هو الذى أنطق اللسان وأطلقه بذلك فالترجمة من الله تعالى برزت واليه مآل أمرها والعبد لا مدخل له فى ذلك فكيف ينسب اليه الترجمة ونسبة ذلك الى الله تعالى دليل على احاطة علمه بأحوال العبد فكيف يصح فى حقه معنى الترجمة • (أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت اليك) الآمال الوافدة الى الله تعالى لا يخيبها من قبل أنها وافدة اليه ومتعلقة به ومنقطعة عما سواه والله تعالى كريم جواد متفضل منعم فليثق العبد بذلك وليكن على يقين منه وان لم يسأل ولم يطلب (أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت واليك) من تحقق بالمعرفة رأى أحواله كلها حسنة لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها اليه وهذه كلها أنواع من التعجب تعجب بها المؤلف رحمه الله نفسه من نفسه فيما هو بصدده من سؤاله وطلبه بسبب ترقيه فى المعرفة التى أوجبت له رؤية نفسه وقصوره فى أحواله الاولى • (الهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى وما أرحمك بى مع قبيح فعلى) شهود العبد لهذا المعنى مزيد عظيم يوجب له الحياء والانكسار فيحسن منه حينئذ الاعتراف بالنعم فقط • (الهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك) شهود المؤلف رحمه الله تعالى شدة قرب الله تعالى منه لما رأى من بعد الاغيار عنه ودفعها له اليه كما سيأتى فى قوله قد دفعتنى العوالم اليك وشهوده لبعده من الله عز وجل من حيث أقيم فى الطلب له والطلب للشئ دليل على فقد الطالب له وبعده عنه فالمشاهدة الاولى أوجبت له ملازمة باب مولاه وانقطاع طمعه عن كل ما سواه والمشاهدة الثانية أوجبت له التلطف فى سؤال التقريب والاستغناء عن طلب القرب ومن دعاء سيدى أبى العباس المرسى رضى الله عنه يا قريب أنت القريب وأنا البعيد فقربك

(الهى ما أرأفك) أى أشد رأفتك أى رحمتك (بى فما الذى يحجبنى عنك) فان من شاهد رأفة ربه به غاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفاتها فلذلك لم يظهر له سبب لوجود حجابه عنه (الهى قد علمت باختلاف الآثار) وقوله (وتنقلات الاطوار) مرادف لما قبله أى قد علمت باختلاف الآثار على وهى تنقلات أطوارى من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل والبسط والقبض والوجد والفقد وغير ذلك من شؤنك التى تنزلها بى (أن مرادك منى) بذلك (أن تتعرف الى) أى ان أعرفك (فى كل شئ) معرفة خاصة (حتى لا أجهلك فى شئ) ولو كان الامر على خلاف هذا وألزمتنى حالة واحدة أرتضيها لنفسى وأختارها لكانت معرفتى ناقصة ومشاهدتى قاصرة بيان ذلك أن الله تعالى اذا أنزل بى مرضا أوفاقة عرفت فى ذلك الوقت أنه لا يقدر على دفعه الا هو وأنه الذى أمرضنى وأفقرنى فاصبر على ذلك واذا أنزل بى صحة أوغنى عرفت أنه المنعم على والمعطى لى فاشكره وهكذا ولو فرض أنه أدام لى حالة واحدة كالصحة والغنى لم أعرف المولى فى حالة المرض أو الفقر فكنت جاهلا به من حيث المرض أو الفقر أى لم أعرف بطريق الذوق أنه لا يقدر على كشف الكربة الا هو فتكون معرفتى ناقصة فينبغى للعبد أن لا يغفل عن مولاه فى عطاء ولا منع ولا عز ولا ذل ولا غنى ولا فقر ولا قبض ولا بسط ولا فقد ولا وجد الى غير ذلك

آيستنى من غيرك وبعدى منك ردنى للطلب لك فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبى بطلبك يا قوى يا عزيز * (الهى ما أرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك) الرأفة أشد من الرحمة ولما شاهد رأفة ربه به غاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفاتها فلذلك لم يظهر له سبب لوجود حجابه عنه (الهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الاطوار أن مرادك منى أن تتعرف الى فى كل شئ حتى لا أجهلك فى شئ) كأن المؤلف رحمه الله يقول اختلاف الآثار على وتنقلات الاطوار بى من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل والقبض والبسط والطاعة والعصيان والفقد والوجد وغير ذلك من مختلفات أحوالى التى هى من شؤنك التى تنزلها بى علمت منها أن ارادتك بى أن تتعرف الى فى كل شئ تعرفا خاصا فى حالة خاصة حتى أشاهد وحدانيتك وعظمتك وجمالك وكمالك وجلالك بحيث لا يتصور منى جهل بما أنا فيه قابل لمعرفته من جميع ذلك ولو كان الامر على خلاف هذا وألزمتنى حالة واحدة أرتضيها لنفسى وأختارها لكانت معرفتى ناقصة ومشاهدتى قاصرة فانا الآن أتقلب فى جنة معجلة أتبوأ منها حيث أشاء فقد استغرقنى ما أنا فيه من عظيم النوال وشغلنى ذلك عن الدعاء والسؤال وطلب السكون على ما أرتضيه من الاحوال فلك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة والخفية والجلية قال بعضهم فى الدنيا جنة معجلة من دخلها لم يشتق الى جنة الآخرة ولا الى شئ ولم يستوحش من شئ قيل وما هى قال معرفة الله تعالى وقال مالك بن دينار رضى الله عنه خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب الاشياء قيل وما هو قال المعرفة ثم قال

ان عرفان ذى الجلال لعز * وضياء وبهجة وسرور

وعلى العارفين أيضا بهاء * وعليهم من المحبة نور

فهنيأ لمن عرفك الهى * هو والله دهره مسرور

وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتعبدين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها مكتوب اذا أحسنت كل شئ فلا تظنن أنك أحسنت شيأ حتى تعرف الله عز وجل وفى يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله عز وجل أشرب وأظمأ حتى اذا عرفته رويت بلا شرب قال فى التنوير بعد كلام ذكره وانما قلنا ان الحالة زائلة عنك لا محالة فان مراده أن ينقلك فى الاطوار ويخالف عليك الآثار ليتعرف اليك فى كل حالة خاصة بتعرف خاص فاذا أردت أن يديمك على حالة واحدة فقد أردت أن يسلك بك غير الكمال فكأنه يقول لك لا تطلب منى أن أقيمك فى حالة واحدة فانى لا أفعل ذلك معك أريد أن تبقى ربوبيتى معطلة الآثار ولكن سلنى أن أشعرك لطفى حيثما أردتك وحيثما أقمتك حتى تكون بى ولى قال الله سبحانه وتعالى يسأله من فى السموات والارض كل يوم هو فى شأن أى يمنع ويعطى ويضع ويعلى ويقبض ويبسط ويعز ويذل الى غير ذلك من مختلفات آثاره فكأنه سبحانه وتعالى يقول لك يا عبدى لا تأس على شئ ما دمت لك ولا تفرح بشئ وأنا لست لك فانا المعوض لك عما سواى وما سواى لا يغنيك عنى ولا تكن ممن يعبدنى بالعلل فتكون من عبيد الحروف بل اعبدنى لى فانى بكمال الغنى موصوف وبدوام الافضال معروف قال الله عز وجل ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة لان الذى طلبه عزلناه عنه فما دام له وهو ما طلبنا حتى نكون له ومن عبده لما سواه فهو عبد ما سواه ومن عبده لاجل جوده

ونعمائه

(الهى كلما أخرسنى لؤمى) أى مخالفتى وعصيانى فان ذلك يقتضى عدم انطلاق لسانى بالطلب منك لان الطلب لا يكون الا بعد التودد والتودد الى المولى بطاعته وذلك مفقود عندى لكن كلما خرست (أنطقنى كرمك) فانى اذا لاحظت أنك كريم والكريم لا يتوقف اعطاؤه على التودد اليه انطلق لسانى بالطلب منك (وكلما آيستنى) أى أوقعتنى فى اليأس من الاستقامة (أوصافى) الذميمة التى اقتضتها الطبيعة والجبلة فانها تقتضى اليأس من الاستقامة على طريق الحق ومن القيام بحقوق الربوبية (أطمعتنى) أى جعلتنى طامعا فى ذلك (مننك) أى امتنانك واحسانك الذى شمل البار والفاجر (الهى من كانت محاسنه) أى أعماله الصالحة (مساوى) لعدم خلوها من دقائق العجب والرياء فهى محاسن بحسب الظاهر وعند الناس مساو فى الواقع وعند الله (فكيف لا تكون مساويه) أى عيوبه وأعماله السيئة (مساوى) أى عيوبا تامة عظيمة فقد اختلف الخبر والمبتدأ بهذا الاعتبار ويحتمل أن المعنى فكيف لا تكون مساويه فى الواقع ونفس الامر مساوى عنده فهو لا يعتقد الكمال من نفسه ولا ينظر الى عيوبه بعين الاحتقار فلا يعدها عيوبا كما هو حال الغافلين (ومن كانت حقائقه) أى علومه ومعارفه التى يعرفها الناس منى (دعاوى) عندى وفى اعتقادى (فكيف لا تكون دعاويه دعاوى) فيه ما تقدم وكانه يقول أنا فى جميع الاحوال معتقد للتقصير من نفسى ومترجى العفو من الله ولبس لى حالة أعتقد بها الكمال وهذا مثل ما تقدم من أن الكمال المنسوب الى العبد نقصان على التحقيق فالحظك بنقصانه (الهى حكمك) أى قضاؤك (النافذ) وقوله (ومشيئتك القاهرة) تفسير لما قبله ووصف المشيئة بذلك لانها ان تعلقت بحصول نقمة وبلية كانت قاهرة أو بحصول نعمة وعطية كانت غير قاهرة (لم يترك الذى مقال مقالا) فاذا كان ذا قول سديد بان كان ينطق بالحقائق ويتكلم فى العلوم العرفانية لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره كبلعام بن باعورا

ونعمائه فهو عبد جوده ونعمائه لان من أحب شيأ فهو عبد ما أحبه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش فكن عبد الله فى كل شئ عطاء ومنعا وعزا وذلا وغنى وفقرا وقبضا وبسطا وفقدا ووجدا وشدة ورخاء وفناء وبقاء الى غير ذلك من مختلفات الآثار وتنقلات الاغيار انتهى كلامه رحمه الله وقد أحسن فيه غاية الاحسان كله فجزاه الله تعالى خيرا (الهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى مننك) لؤم العبد ومخالفته وعصيانه يخرس لسانه عن السؤال والطلب وكرم المولى وفضله واحسانه ينطقه بذلك وأوصاف العبد الذميمة التى اقتضتها طبيعته وجبلته تؤيسه من حصول الاستقامة على طريق الحق ومنن الله تعالى التى شملت البر والفاجر تطمعه فى ذلك (الهى من كانت محاسنه مساوى فكيف لا تكون مساويه مساوى ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى) هذا مثال ما تقدم من أن الكمال المنسوب الى العبد نقصان على التحقيق فالحظك بنقصانه (الهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالا ولا لذى حال حالا) شهود هذا المعنى يوجب للعبد مقام الخوف والتحقق فيه فان كان ذا قول سديد وحال حميد لم يقطع ببقاء ذلك ولم يغتر بما هنالك لنفوذ حكم الحق تعالى وقهر مشيئته (الهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك بل أقالنى منها فضلك) الطاعة صفة ظاهر العبد والحالة صفة باطنه وبناؤه للطاعة هو اقامتها على الوجه المأمور به من الوفاء بجميع أركانها

(ولا لذى حال حالا) فاذا كان ذا حال حميد بان كان يحصل له كشف عن أمور تحصل فى الكون أو تطيعه بعض الجمادات والعناصر لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره كما هو مشاهد كثيرا فهذا المعنى يوجب للعبد التحقق فى مقام الخوف وعدم الاغترار بشئ من أقواله وأحواله لنفوذ حكم الحق تعالى وقهر مشيئته (الهى كم من طاعة) ظاهرية (بنيتها) أى أقمتها على الوجه المأمور به فى الظاهر بان وفيت بجميع شروطها وأركانها وآدابها (وحالة شيدتها) أى زينتها وصنتها عما يكدر صفاءها بان أخلصت فيها اخلاصا تاما والحالة هى الطاعة فعطفها عليها من عطف المرادف أى ولما فعلت هذين الامرين من البناء والتشييد رأيت أنى تحصنت بحصن حصين وأويت الى ركن متين لكن (هدم اعتمادى عليها) فى النجاة من العذاب ودخول الجنة دار الثواب (عدلك) أى النظر الى عدلك فان مقتضاه أنك تفعل ما تشاء ولا تبالى باعمال العاملين فمن الجائز أنك تعاقبنى على تلك الطاعة (بل أقالنى منها) أى من الاعتماد عليها والتعلق بها (فضلك) أى النظر الى فضلك وكرمك واحسانك فصرت معتمدا عليه ومتعلقا به لا بطاعتى فصار التعلق والاعتماد على الاحسان والفضل لا على الطاعة ونعم البدل والعوض

(الهى أنت تعلم وان لم تدم الطاعة منى فعلا جزما) أى ان عدم دوامها فعلا مجزوما به لعجزى عن ذلك ومقتضى العبودية أن أداوم عليها فانا مقصر (فقد دامت محبة وعزما) أى أنا مداوم عليها من حيث محبتى لها وعزمى عليها وأنت تعلم بذلك فلا تؤاخذنى بتقصيرى بل مداومتى على هذا الوجه فضل عظيم والا فكم من شخص محروم ليس عنده فعل ولا محبة ولا عزم والواو الداخلة على أداة الشرط زائدة ومتعلق العلم هو جواب الشرط كما تقرر ثم تردد فى وقوع العزم منه بقوله (الهى كيف أعزم) أى يقع منى عزم على فعل الطاعات وترك المنهيات (وأنت القاهر) فيمكن أن يقع منى عزم على ذلك ثم يصدنى عنه قهرك فيكون العزم لا فائدة فيه ولا يعتد به (وكيف لا أعزم وأنت الآمر) لى بالعزم على ذلك ومقتضى الامر المبادرة الى العزم فأنا متحير وعاجز عن تدبير أمرى ولا يسعنى الا التسليم اليك والاعتماد عليك ولذا كان العارفون لا يجزمون بشئ من الاشياء بل يفوضون الامر الى الله تعالى فقد قالوا العارف لا قلب له (الهى ترددى فى الآثار) أى المكونات على سبيل التعلق بها والاستناد اليها أو على سبيل الاستدلال بها على الله تعالى (يوجب بعد المزار) أى الوصول اليك ومشاهدتك (فاجمعنى عليك) أى أوقفنى بين يديك (بخدمة) أى طاعة من أذكار ورياضات ومجاهدات (توصلنى اليك) وتقطع التعلق بالآثار عن قلبى فلا أتعلق بمكاشفات ولا أحوال ومقامات كما تقدم فى قوله لا ترحل من كون الى كون الخ ولا أستدل بها على موجدها كما قال (الهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده) أى ثبوته وتحققه خارجا (مفتقر اليك) وهو المكونات فانها فى ذاتها عدم محض كامر (أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك) فان الدليل يكون أظهر من المدلول حتى يستدل به عليه فأصحاب النظر والاستدلال حالهم قبيح بالنسبة الى أصحاب الشهود والعيان ويقال لهم عوام بالنسبة لهم كما تقدم عند قوله شتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه * ثم ترقى فى نفى الاستدلال بقوله (متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار) أى المكونات (هى التى توصل اليك) أى الى معرفتك ولذا قال مريد لشيخه يا أستاذ أين الله فقال ويحك وهل يطلب مع العين أين

وشرائطها وما يتعلق بها من حقوق وآداب وتشييده للعالة هو تزيينها وتطهيرها وصيانتها عما يكدر صفاءها ويكسف ضياءها وكأنه لما فعل هذين الامرين رأى أنه تحصن بحصن حصين وأوى الى ركن متين لكن لما شاهد عدل الله تعالى هدم عليه ذلك لان مقتضاه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يبالى بأعمال العاملين فلما شاهد فضله وكرمه أقاله من ذلك بأن جعل له من التعلق به والاعتماد عليه بدلا منه وعوضا عنه ونعم البدل والعوض فسبحان المتفضل المنان * (الهى أنت تعلم وان لم تدم الطاعة منى فعلا جزما فقد دامت محبة وعزما) جعل عزمه على الطاعة ومحبته لها وان لم يدم عليها فعلا احدى وسائله وذلك صحيح وكم من شخص قد طرد وأبعد فلم يكن عنده عزم ولا فعل جزم * (الهى كيف أعزم وأنت القاهر وكيف لا أعزم وأنت الآمر) استبعد من نفسه وقوع العزم منه وجعل مستند ذلك شهود القهر لان من شهد قهره بطل عزمه لانه الغالب واستبعد أيضا عدم العزم وجعل مستند ذلك شهود الامر لان من شهد أمره بادر الى امتثاله وتحرز من اغفاله واهماله * (الهى ترددى فى الآثار يوجب بعد المزار فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى اليك) شكا الى مولاه عز وجل طول تردده فى الآثار وهى الاكوان وأخبر أنه يوجب له بعد المزار وهو البعد عن شهود التوحيد وكمال المعرفة وقد تقدم هذا المعنى عند قوله لا ترحل من كون الى كون ثم سأله وطلب منه أن يختصر له طريق سلوكه ويقربه عليه ويجمعه من مفترقات الآثار بخدمة تظهر فيها عبوديته ويصل بها الى مولاه من غير تردد ولا طول * (الهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر اليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل اليك) هذا تقبيح لاحوال المستدلين على ربهم وهم أصحاب النظر والاستدلال بالنسبة الى أهل المقام الآخر وهم أرباب الشهود والعيان قال أبو بكر محمد بن على الكتانى رضى الله عنه وجود العطاء من الحق شهود الخلق بالحق لان الحق دليل على كل شئ ولا يكون شئ دونه دليلا عليه قال فى لطائف المنن وأرباب الدليل والبرهان عوام عند أهل الشهود والعيان فدسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج الى دليل عليه وكيف يحتاج الى الدليل من نصب الدليل وكيف يكون معرفا به وهو المعرف له قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف أم كيف يعرف بشئ من سبق وجوده وجود كل شئ وقال مريد لشيخه يا أستاذ أين الله فقال له ويحك أتطلب مع العين أين وقد تقدم هذا المعنى عند قوله شتان بين من يستدل به ويستدل عليه

(الهى عميت عين) المراد بها عين البصيرة وهذا يحتمل أن يكون اخبارا وأن يكون دعاء بدوام العمى لان أصله حاصل (لا تراك عليها رقيبا) أى حفيظا مراقبا لها فمن رأى الله رقيبا عليه يعلم جميع أحواله لا يخفى عليه منها شئ استحيا منه وهابه أن يراه على ما يكرهه منه ومن لم يكن على هذا الوصف عميت عين بصيرته فبارز مولاه بأنواع القبائح من غير اكتراث ولا مبالاة ولذا ورد فى الحديث أفضل ايمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان (وخسرت صفقة) أى تجارة (عبد لم يجعل له من حبك نصيبا) أى حبك له أو حبه لك والاول هو الاصل فى الثانى قال تعالى يحبهم ويحبونه وحب الله لعبده احسانه اليه وثناؤه عليه وحب العبد لله طاعته وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته وانجذابه بقلبه اليه فمن أعطاه الله من ذلك الحب نصيبا فقد فاز ومن حرمه منه وشغله بالدنيا فقد خسرت تجارته وهى تلك الامور الدنيوية التى يتقلب فيها أى خسر فى تجارته وكانت تجارته خاسرة لا عبرة بها (الهى أمرت بالرجوع الى الآثار) أى المكونات من الاموال والعيال وغيرهم أى ملابستها ومخالطتها بعد غيبتى عنها بالوصول اليك ومشاهدتك فان المريد اذا وصل الى المولى غاب عن الاكوان ثم اذا خالطها بمقتضى الامر ربما شغلته عن مولاه واحتجب بها عنه فلذا قال (فارجعنى اليها) مكسوا (بكسوة الانوار) أى بكسوة هى الانوار الالهية التى تمنع من تعلقى بها واحتجابى بها عنك (وهداية الاستبصار) أى هداية ناشئة عن الاستبصار أى الشهود بعين البصيرة (حتى أرجع اليك منها) أى أشاهدك فيها وفى بعض النسخ فيها وهى بمعنى ما قبلها (كما دخلت اليك منها) بالاستدلال بها عليك والاعتبار بها فان المريد حينئذ محجوب عن مولاه فينتقل فى الآثار حتى يصل اليه والضمير فى الموضعين للآثار لا بالمعنى المتقدم بل بمعنى الموجودات من السماء والارض وما بينهما ولو حذف ذلك هنا لكان أولى (مصون السر عن النظر اليها) أى التعلق بها فى اعتقاد نفع أو دفع ضر وقوله (ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها) بمعنى ما قبله ويحتمل أن صون السر عن النظر اليها هو عدم استحسان شئ منها فى نظره ورفع الهمة فى الاعتماد عليها هو عدم التعلق بها فيما ذكر والحاصل انه سأل المولى انه اذا أرجعه الى الاكوان والتلبس بها يرجعه اليها على حالة شريفة مضادة للحالة التى كان عليها قبل السلوك وهى كونه مكسوا بكسوة الانوار وهداية الاستبصار فانه اذا رجع اليها على هذه الحالة لم تؤثر فيه ولم تحجبه عن مولاه وهذا المعنى غير ما تقدم فى قوله واذا نزلوا الى سماء الحقوق الخ كما هو ظاهر مما قررناه سابقا (انك على كل شئ قدير)

عليه * (الهى عميت عين لا تراك عليها رقيبا) الرقيب الحفيظ فمن رأى الله تعالى رقيبا عليه يعلم جميع أحواله ولا يخفى عليه منها شئ استحيا منه وهابه أن يراه على ما يكرهه منه وقد قيل اذا عصيت مولاك فاعصه بموضع لا يراك ومن لم يكن على هذا الوصف وغفل عن نظر الله تعالى اليه عميت عين بصيرته فبارز الله تعالى بأنواع القبائح والفضائح من غير اكتراث ولا مبالاة وقد سئل بعضهم بم يستعين الرجل على حفظ بصره من المحظورات قال بعلمه بأن رؤية الحق سبحانه له تسبق نظره الى تلك المحظورات وقال الله عز وجل وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه * قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه خوفهم بما عرفهم من اطلاعه عليهم فى جميع أحوالهم ورؤيته لما يسلفونه من فنون أعمالهم والعلم بأنه يراهم يوجب استحياءهم منه وهذا هو حال المراقبة فالعبد اذا علم بأن مولاه يراه استحيا منه وترك متابعة هواه ولا يحوم حول ما نهاه عنه فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل ايمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان * (وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبا) حب الله تعالى لعبده هو رحمته له وثناؤه عليه واحسانه اليه وحب العبد له عز وجل طاعته وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته والحب المضاف الى الكاف فى قوله من حبك يحتمل أن يضاف الى الفاعل والى المفعول والظاهر كونه مضافا الى الفاعل لانه أبلغ وأمدح ولان محبة الله تعالى لعبده أصل محبة العبد له قال الله تعالى يحبهم ويحبونه فمن أعطاه الله تعالى من الحب المذكور نصيبا فقد حاز ربح الدارين وفاز بقرة العين ومن حرمه ذلك فقد خسرت صفقته وبان غبنه وخيبته وفى بعض الكتب المنزلة على بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام يا عبدى أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبا وحكى عن بعضهم أنه قال اشتريت جارية فسمعتها فى شطر الليل وهى تقول الهى بحبك اياى الا ما غفرت لى فقلت لها لا تقولى هكذا ولكن قولى بحبى اياك فقالت يا سيدى بمحبته اياى من على بالاسلام وأيقظنى لعباده وكثير من عباده نيام قال زيد بن أسلم ان الله عز وجل ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له اصنع ما شئت فقد غفرت لك * (الهى أمرت بالرجوع الى الآثار فارجعنى اليها بكسوة الانوار وهداية الاستبصار حتى أرجع اليك منها كما دخلت اليك منها مصون السر عن النظر اليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها انك على كل شئ قدير) الآثار التى أمر العبد بالرجوع اليها بعد

ومنه تحصيل تلك المطالب السنية (الهى هذا ذلى ظاهر بين يديك) وهو فى الحقيقة عين العز والفخر قال ذو النون المصرى ما أعز الله عبدا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبدا بذل هو أذل له من أن يحجبه

عن ذل نفسه انتهى وقوله (وهذا حالى لا يخفى عليك) يعنى ماقبله والقصد بذلك طلب حصول مطالبه من مولاه (منك أطلب الوصول اليك) أى أطلب منك لا من غيرك الوصول اليك لا غيره من المطالب الدنيوية والاخروية وهذا مطلب العارفين كما مر (وبك أستدل عليك) أى أستدل عليك وأعرفك بك لا بغيرك من الدليل والبرهان قيل لبعض العارفين بم عرفت ربك قال عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى وقال بعضهم لا دليل على الله سواه وانما العلم يطلب لآداب الخدمة (فاهدنى بنورك) أى بنور تقذفه فى قلبى اهتدى به (اليك) أى الى معرفتك معرفة خاصة (وأقمنى بصدق العبودية بين يديك) أى أقمنى بين يديك بان تجعلنى حاضر القلب معك حال كونى مصاحبا لصدق العبودية أى للعبودية الصادقة بان لا أظهر على شئ من أوصاف الربوبية بل أكون متصفا بغاية العجز والذل والضعف والفقر ولا أظهر على شئ من قوة أو عز أو قدرة أو غنى (الهى علمنى من علمك المخزون) اضافة ذلك العلم اليه اضافة تشريف والعلم المخزون هو العلم اللدنى الذى اختزنه عنده فلم يؤته الا للمخصوصين من أوليائه قال تعالى فى شأن الخضر عليه السلام وعلمناه من لدنا علما وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله فاذا نطقوا به لا ينكره الا أهل الغرة بالله وقال بعضهم هو أسرار الله يبديها الى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة انتهى

رسول

وصوله الى صريح المعرفة وخالص التوحيد هى المكونات التى يلزمه اذا تلبس بها حق أو يكون له فيها منفعة وحظ فسأل الله تعالى أن يرجعه اليها على حالة شريفة مضادة للحالة التى كان عليها قبل السلوك وهى كونه مكسوا بكسوة الانوار وهى أنوار اليقين ومؤيدا بهداية الاستبصار وهى العلم الراسخ المتين فاذا رجع العبد الى الآثار على هذا الاسلوب والمعيار لم تؤثر فيه ولم تأخذ منه لكمال حريته عنها وكان رجوعه الى مولاه فى مآل أمره فى مثل دخوله فيها عليه فى ابتداء أمر سلوكه مصون السر عن النظر اليها بعين الاستحسان مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها فى نوال أو احسان وقد تقدم هذا المعنى عند قوله فان نزلوا الى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ الى آخره وقال رضى الله عنه ❊ (الهى هذا ذلى ظاهر بين يديك وهذا حالى لا يخفى عليك) هذا انطراح منه على مولاه ومبالغة فى بث شكواه وتلطف فى سؤال رجاه ومثل هذا يرجى اجابة الدعاء واستحقاق جزيل العطاء ❊ وقد قالوا أبواب الملوك لا تقرع بالايدى بل بنفس المحتاج ❊ وقال بعضهم قلت للنهرجورى أجد فى قلبى قسوة وقد شاورت فلانا فاشار على بالصوم فلم تزل وشاورت آخر فاشار على بالسهر فلم تزل فقال النهرجورى رضى الله عنه خلطا بك احضر الملتزم اذا نام الناس وتضرع وقل تحيرت فى أمرى تأخذ بيدى ففعل فزالت القسوة وقال الشاعر

ومارمت الدخول عليه حتى ❊	حللت محلة العبد الذليل
وأغضيت الجفون على قذاها ❊	وصنت النفس عن قال وقيل
وذل العبد للمولى غناه ❊	وغايته الى العز الطويل

فذل العبد لمولاه غاية العز والفخر وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه ما أعز الله عبدا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبدا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه (منك أطلب الوصول اليك) هذه صفة العارفين المحققين لا يسبق نظرهم الا الى الله ولا يطلبون الا منه ولا يكون مطلبهم الا الوصول اليه لا غير (وبك استدل عليك) أى لا بغيرك لانك الظاهر قبل وجود كل شئ ظاهر بل بظهورك خفيت المظاهر وقيل لبعض العارفين بم عرفت ربك فقال عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى وقال أبو القاسم النصراباذى رضى الله عنه الاشياء أدلة منه ولا دليل عليه سواه وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه لا دليل على الله سواه وانما العلم يطلب لآداب الخدمة (فاهدنى بنورك اليك) وهو نور الايمان واليقين (وأقمنى بصدق العبودية بين يديك) حتى أكون ممتثلا لامرك مستسلما لقهرك ❊ (الهى علمنى من علمك المخزون) اضافة العلم الى الله ههنا اضافة تشريف والعلم المخزون هو العلم اللدنى الذى اختزنه عنده فلم يؤته الا للمخصوصين من الاولياء كما قال الله تعالى فى شأن الخضر عليه السلام وعلمناه من لدنا علما وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن

(وصنى) أى احفظنى عن رؤية الاغيار أو عن اباحتى بتلك العلوم والاسرار (بسر اسمك المصون) أى أسمائك المصونة أى المحفوظة عن الابتذال والاهانة فانه لا يجوز أن يدخل بها فى بيت الخلاء مثلا أو عن أن يسمى بها غيره سبحانه وسرها أنوار وتجليات تحصل لمن يذكرها (الهى حققنى بحقائق أهل القرب) أى أعطنى مقامات أهل القرب منك الذين تحققوا فى مقام الفناء فبطل فى حقهم رؤية الاسباب وزال عنهم كل حجاب فلم يروا غيرك واكتفوا بتدبيرك عن تدبير أنفسهم وبعلمك عن الشكوى لغيرك (واسلك بى مسالك أهل الجذب) وهم المحبوبون المرادون

فكأنه يقول أجذبنى اليك حتى يسهل على سلوك الطريق وأصل اليك فى أقرب مدة وأجد لذة وحلاوة فى الاعمال كما هو حال أهل الجذب الذين أخرجتهم عن حكم أنفسهم وتوليتهم بحفظك ورعايتك من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة (الهى أغننى بتدبيرك لى عن تدبيرى وباختيارك لى عن اختيارى) فان فى تدبيرى أحوال نفسى واختيارى شيأ من الاشياء بمقتضى شهوتى وميلى منازعة لك فى ربوبيتك لانك المنفرد بالتدبير والاختيار (وأوقفنى على مراكز اضطرارى) المراكز جمع مركز وهو موضع الاستقرار والثبوت أى مواضع اضطرارى كالذل والعجز والفقر شبهت بالمواضع التى يستقر فيها فهى مواضع اعتبارية ينبغى للعبد أن لا يفارقها بل يلازمها كما يلازم الشخص مكانه الذى يستقر فيه ومعنى وقوفه عليها ملاحظتها وعدم غيبته عنها أى اجعلنى ملاحظا لفقرى وعجزى وذلى التى هى مواضع اضطرارى أو ملازما لها وتحققه بها أى اجعلنى ملازما لها ومتحققا بها واضافتها الاضطرارى باعتبار كونها يحصل عندها اضطرار العبد للمولى واحتياجه له (الهى أخرجنى من ذل نفسى) من اضافة المصدر للمفعول أى من كونى أذل نفسى لغيرك بالطمع والحرص أو للفاعل أى من كون نفسى تذلنى وتوقعنى فيما لا يليق (وطهرنى من شكى وشركى) الشك ضيق الصدر عند احساسه بأمر مكروه فاذا ضاق أظلم القلب وأصابه الهم والحزن وطهارته منه بوجود ضده وهو اليقين اذ به يتسع الصدر وينشرح فيستنير القلب ويجد الروح والفرح بالله تعالى وبقدر ما يصيبه من نور اليقين يكون انشراحه واتساعه والشرك تعلق القلب بالاسباب عند غفلته عن المسبب ونسيانه له ومبدأ ذلك هيجان الشهوة عن استيلاء ظلمة الشك على القلب فيفزع حينئذ الى الاسباب التى يتوصل بها الى بغيته اذ لا يرى غيرها وطهارته منه بضده وهو نور التوحيد الذى يقذفه الحق فى قلبه فتطمئن بذلك نفسه وتسكن عن الشره والطيش الذى أصابها وكلما قوى نور التوحيد فى قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر (قبل حلول رمسى)

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان من العلوم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله تعالى فاذا نطقوا به لا ينكره الا أهل الغرة بالله قال بعضهم هى أسرار الله تعالى يبديها الى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهى من الاسرار التى لم يطلع عليها أحد الا الخواص وقال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه فى قوله تعالى والراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بارواحهم فى غيب الغيب وفى سر السر فعرفهم ما عرفهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادة فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النظر فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة (وصنى بسر اسمك المصون) المصون المطلوب هو صيانته عن رؤية الاغيار بما يتجلى لقلبه من سر الاسرار ❊ (الهى حققنى بحقائق أهل القرب) حقائق أهل القرب هى الفناء فى التوحيد والتحقق بالتجريد فيبطل فى حقهم رؤية الاسباب ويزول عن مطمح نظرهم كل ستر وحجاب كما قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه فى حزبه الكبير واقرب منى بقدرتك قربا تمحق به عنى كل حجاب محقته عن ابراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك ولا لسؤاله منك وحجبته بذلك عن نار عدوه وكيف لا يحجب عن مضرة الاعداء من غيبته عن منفعة الاحباء كلا انى أسألك أن تغيبنى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شئ ولا ببعده عنى انك على كل شئ قدير (واسلك بى مسالك أهل الجذب) أهل الجذب هم المحبوبون ومسالكهم فى غاية السهولة لا تعب عليهم فيها ولا مشقة بل يجدون اللذة والحلاوة فى أعمالهم وذلك من قبل أنه أخرجهم من أسر نفوسهم وتولاهم بكلاءته ورعايته من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة ❊ (الهى أغننى بتدبيرك عن تدبيرى وباختيارك لى عن اختيارى وأوقفنى على مراكز اضطرارى) المنفرد بالتدبير والاختيار والمشيئة والاقتدار هو الله عز وجل فمن كان له دعوى فى شئ من ذلك فقد نازع الله تعالى فى ربوبيته وخلع عن عنقه ربقة عبوديته فلذلك سأله وطلب منه أن يغنيه عن تدبيره واختياره وان يوقفه على مراكز اضطراره ليكون متحققا بصفاته ومتعلقا بصفات مولاه وقد تقدم هذا المعنى غير مرة والمراكز مواضع الاستقرار والثبوت وهى استعارة حسنة ❊ (الهى أخرجنى من ذل نفسى) ذل النفس الذى طلب الاخراج منه هو ذلها لغير الله تعالى بالطمع والحرص وقد تقدم هذا المعنى عند قوله ما بسقت أغصان ذل الا على بذر طمع (وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول رمسى) الشك والشرك هما سبب وجود الطمع

والحرص الموجبين لوقوع الذل والهوان وهذه الاوصاف كلها مجانبة لحقائق الايمان والتوحيد عافانا الله منها والشك ضيق الصدر عند احساس النفس بامر مكروه يصيبها فاذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهم والحزن وطهارته منه انما تكون بوجود ضده وهو اليقين فيه يتسع الصدر وينشرح ويزول عنه الحرج والضيق وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه وعند ذلك يجد القلب الروح والفرح بالله تعالى وبفضله وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى بقسطه وعدله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط والشرك تعلق القلب بالاسباب عند غفلته عن المسبب ونسيانه له تعلق الصيد بالشرك ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب فيحاوله حينئذ الهوى فيفزع اذ ذاك الى الاسباب التى يتوصل بها الى بغيته اذ لا يرى غيرها فيرتبك من أجل ذلك فى حبائل الشرك وطهارته منه بضده وهو نور التوحيد الذى يقذفه الحق تعالى فى قلبه فتطمئن بذلك نفسه وتسكن عن الشره والطيش الذى أصابها وكلما قوى نور التوحيد فى قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر فتمحى عنه الاسباب ويثبت فيه خالص التوحيد فاذا تطهر العبد من الشك والشرك يتولاه الله تعالى بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد وفى أخبار داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ان الله أوحى اليه يا داود هل تدرى متى أتولاهم اذا طهروا قلوبهم من الشرك ونزعوا من قلوبهم الشك (بك استنصر فانصرنى وعليك أتوكل فلا تكلنى واياك أسأل فلا تخيبنى وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى وببابك أقف فلا تطردنى) تعلق بالله تعالى فى كل مطلب من هذه المطالب وأضرب عن الوسائط والاسباب وذلك من تحققه بالتوحيد الذى سأل من مولاه أن يحققه به بتطهيره من أضداده ومعانى هذه الكلمات قريب بعضها من بعض قال أبو الحسن على بن هند الفارسى رضى الله عنه اجتهد فى أن لا تفارق باب سيدك بحال فانه ملجأ الكل فمن فارق تلك السدة لا يرى بعدها لقدميه قرارا ولا مقاما (الهى تقدس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة منى) رضا الله تعالى صفة من صفاته وصفاته قديمة ولذلك امتنع عليها سبقية العلل والقديم لا يكون مسبوقا بشئ واذا كانت صفاته العلية منزهة عن أن تكون لها علة منه فكيف يكون لها علة من غيره فرضا الله تعالى لا علة له ولا سبب بل رضاه وسخطه هما سبب أعمال العاملين حسنها وسيئها رضى عن قوم فاستعملهم باستعمال أهل الرضا وسخط على قوم فاستعملهم باستعمال أهل السخط قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه الرضا والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الابد بما جريا فى الازل يظهران الرسمين على المقبولين والمطرودين فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد المطرودين بظلامها عليهم فأنى تنفع من ذلك الالوان المصفرة والاكمام المقصرة والاقدام المنتفخة (أنت الغنى بذاتك عن أن يصل اليك النفع منك فكيف لا تكون غنيا عنى) الكلام فى الغنى كالكلام فى الرضا وكأن المؤلف رحمه الله قصد فى مناجاته بهذه الكلمات الاسترضاء والاستعطاف فطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله

أى قبرى اذ ليس بعده تطهير الا بالنار (بك استنصر) أى أطلب النصرة على نفسى وشيطانى وهواى (فانصرنى) عليها (وعليك أتوكل) فى تحصيل مطالبى (فلا تكلنى) الى غيرك وان كنت لست صادقا فى توكلى (واياك أسأل فلا تخيبنى) وان كنت أهلا للخيبة (وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى) وان كنت أهلا للحرمان أى أرغب فى فضلك لا فى فضل غيرك وقولنا وان كنت الخ جواب عما يقال ان من توكل على الله وحده كفاه فلا حاجة لقوله فلا تكلنى ومن سأله وحده لم يخيبه ومن رغب فى فضله وحده لم يحرمه فلا حاجة لقوله فلا تخيبنى ولا تحرمنى (ولجنابك) أى ذاتك والاضافة للبيان (أنتسب) لا لغيرك (فلا تبعدنى) عن بابك (وببابك أقف) بالسؤال وفيه تشبيه المولى بملك عظيم يقف الطالبون ببابه (فلا تطردنى) عنه (الهى تقدس) أى تنزه (رضاك) وهو الاحسان أو ارادته (عن أن تكون له علة) ناشئة (منك) والا لكنت محتاجا الى تلك العلة لتستكمل بها (فكيف تكون له علة منى) كاعمالى وأحوالى فرضا المولى لا يتوقف على سبب ولا علة بل رضاه وسخطه هما سبب لاعمال العاملين حسنها وسيئها رضى عن قوم فاستعملهم فى خدمته وسخط على قوم فشغلهم بما يبعد عن حضرته (أنت الغنى بذاتك عن أن يصل اليك النفع منك فكيف لا تكون غنيا عنى) هذا كالتعليل لما قبله وقصد المصنف بهذه المناجاة الاسترضاء والاستعطاف وطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة

المعلولة وذلك من أحسن المقاصد للداعى (الهى ان القضاء والقدر غلبنى وان الهوى بوثائق الشهوة أسرنى فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى وتنصر بى وأغننى بفضلك حتى استغنى بك عن طلبى) هذا اعتذار واعتراف والله تعالى أكرم من أن يرد عذر من اعتذر اليه أو يخيب أمل من اعترف بذنبه وأقر به لديه يقال ان العبد يبتهل الى الله تعالى فى الاعتذار والحق سبحانه يقول له عبدى لو لم أقبل عذرك لما وفقتك للاعتذار وقال الكتانى رضى الله عنه لم يفتح الله تعالى لسان المؤمن بالمعذرة الا لفتح باب المغفرة فلا جرم لما وثق بذلك وقوى رجاؤه فيه طلب منه النصرة له على أعدائه ولم يقتصر على ذلك بل أضاف اليه طلب النصرة به لتكون تلك النصرة بسببه وعلى يديه كما قال أبو الحسن رضى الله عنه واجعلنا سبب الغنى لاوليائك وبرزخا بينهم وبين أعدائك ثم لم يقنع بذلك حتى طلب منه أن يغنيه بما يستغنى به عن الطلب منه وهو ما يؤتيه من فضله العظيم وكرمه الجسيم وهذه هى غاية السعادة كما قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه والسعيد حقا من أغنيته عن السؤال منك (أنت الذى أشرقت الانوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذى أزلت الاغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجؤا الى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم) سبب ايحاش العوالم لهم ما هى عليه من الفاقة والافتقار والحاجة والاضطرار فكل واحد منها جالب لنفسه طالب لحظه من كمال نقصه ووفاء بخسه والله تعالى غنى حميد عزيز مجيد وهو مع ذلك لطيف بعباده عطوف عليهم متودد اليهم رؤف بهم فلما شاهدوا هذا كله مشاهدة يقين ومعاينة باشهاده اياهم لم يتمالكوا أن أحبوه وأووا اليه وقصروا هممهم عليه وجعلوه معتمد أنسهم واستغنوا به عن أبناء جنسهم فحصلوا اذ ذاك على غاية النعيم وفازوا بالحظ العظيم قال ذو النون المصرى رضى الله عنه بينما أنا أسير فى بعض البوادى اذ لقيتنى امرأة فقالت لى من أنت فقلت رجل غريب فقالت وهل توجد مع الله أحزان الغربة وكتب مطرف بن عبد الله بن الشخير الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما وليكن أنسك بالله وانقطاعك اليه فان لله عبادا استأنسوا بالله فكانوا فى وحدتهم أشد استئناسا من الناس فى كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون (وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم) لما تولى الله تعالى هدايتهم الى طريق التوحيد والمعرفة أبان لهم علامات ذلك ودلائله فعند نظرهم فى تلك العلامات والادلة انشرحت صدورهم بأنوار الايمان واليقين فلم يتداخلهم شك ولم يخالجهم ريب والمعالم جمع معلم وكأنه رحمه الله تعالى عرض فى هذه الكلمات بالمطلب الذى بحصوله له يستغنى عن الطلب وهو اشراق الانوار فى قلبه وازالة الاغيار عن سره وايناسه له وهدايته اياه وهذه الاربعة مطالب متضمنة لاسنى الرغائب (ماذا وجد من فقدك وما الذى فقد من وجدك) قد تقدم غير ما مرة أن ماسوى الله

(الهى ان القضاء) وهو ارادة الله مع التعلق (والقدر) وهو ايجاد الله الاشياء على قدر معلوم ومقدار معين (غلبنى) فكلما أعزم على طاعة أو ترك معصية لا يتيسر لى ذلك (وان الهوى) أى ميل النفس الى مرادها ومشتهياتها (بوثائق الشهوة) أى بالشهوة الشبيهة بالوثائق أى القيود (أسرنى) أى قيدنى (فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى) على أعدائى أى النفس وجنودها (وتنصر بى) أى تنصر أحبابى وأصحابى على أعدائهم بسببى قال الشاذلى قدس سره واجعلنا سبب الغنى لاوليائك وبرزخا بينهم وبين أعدائك (واغننى بفضلك) أى شهودك (حتى أستغنى بك) أى بشهودك (عن طلبى) منك لان من كان مشاهدا للحق حاضرا معه يستحى أن يطلب منه شيأ لرؤيته انه مطلع على حاله لا يخفى عليه شئ منها ومن كان كذلك لا معنى للطلب منه قال الشاذلى قدس الله سره والسعيد حقا من أغنيته عن الطلب منك (أنت الذى أشرقت الانوار) أى المعارف والاسرار (فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذى أزلت الاغيار) أى المكونات والتعلق بها (من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجؤا الى غيرك) وهم أولياؤك وهذا من عطف السبب على المسبب لان زوال الاغيار سبب فى شروق الانوار (أنت المؤنس لهم) أى المدخل للسرور على قلوبهم بتجليك (حيث أوحشتهم العوالم) التى كانوا يألفونها وتتعلق قلوبهم بها من أصحاب وأولاد وأموال وغير ذلك فان من حصل له أدنى شئ من شهود الحق وتودده لم يستوحش لشئ من ذلك بل يغيب عنه ولم يستأنس بشئ منه بل ينفر عنه بقلبه (وأنت الذى هديتهم) بنور منك (حتى استبانت) أى ظهرت (لهم المعالم) أى طرق الحق التى سلكوها فان ظهور ذلك لا يكون الا بهداية منك (ماذا وجد من فقدك) أى فقد شهودك ولم يشهد الا ذوات المكونات وهذا كناية عن كونه لم يجد الا شيأ حقيرا (وما الذى فقد من وجدك) أى لم يفقد شيأ بل حصل على غاية المقصود حيث كنت سمعه وبصره وجميع قواه

(لقد خاب من رضي دونك بدلا) كالشهوات واللذات الدنيوية والاخروية فقد رؤي الشبلي في المنام بعد وفاته فقيل له ما فعل الله بك قال لم يطالبني بالبراهين على الدعاوى الا على شئ واحد قلت يوما لا خسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار فقال وأي خسارة أعظم من خسران لقائي (ولقد خسر من بغى عنك متحوّلا) أي طلب التحوّل عن حضرتك الى التعلق بغيرك كالكرامات والمكاشفات فقد تقدم أن هذا شبيه بمن طلب منه الملك أن يكون جليسه فلم يرض الا بسياسة الدواب (الهي كيف يرجى سواك)

(وأنت ما قطعت الاحسان) بل احسانك دائم مستمر (وكيف يطلب من غيرك) أي يتعلق القلب بالطلب منه

تعالى عدم وظلمة وأن الوجود الحق والنور المحقق انما هو الله عز وجل واذا كان الامر على هذا صح ما قاله المؤلف رحمه الله تعالى ههنا وكان حقا الامر به فيه قال أبو علي الروذباري رضي الله عنه سألني أبو بكر الدقاق رضي الله عنه فقال لي يا أبا علي لم ترك الفقراء أخذ البلغة في وقت الحاجة فقلت لانهم يستغنون بالمعطي عن العطاء فقال نعم ولكن وقع لي شئ آخر فقلت هات أفدني ما وقع لك فقال لانهم قوم لا ينفعهم الوجود اذ الله فاقتهم ولا تضرهم الفاقة اذ الله وجودهم * وقال أبو حمزة البغدادي رضي الله عنه يقول في مناجاته اللهم انك تعلم أني من أفقر خلقك اليك فان كنت تعلم أن فقري اليك يعني هو غيرك فلا تسد فقري (لقد خاب من رضي دونك بدلا ولقد خسر من بغى عنك متحوّلا) هذا بين وهو مبني على ما تقدم الآن من الكلام رؤي الشبلي رضي الله عنه في المنام بعد وفاته فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطالبني بالبراهين على الدعاوى الا على شئ واحد قلت يوما لا خسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار فقال وأي خسارة أعظم من خسران لقائي وفي معناه أنشدوا

سهر العيون لغير وجهك باطل * وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

وقال بعضهم كان عندنا رجل مكث عندنا ثلاث عشرة سنة يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فاذا صلى العصر احتبى واستقبل القبلة ثم قال عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا بل عجبت للخليقة كيف استأنست بسواك ثم يسكت الى المغرب * (الهي كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الاحسان وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان) هذا تعجب ممن كان على هذا الوصف وهو أعجب من كل عجيب والمعنى في ذلك بين * (يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين) التملق هو التلطف في التودد وترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بين * (ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين) استعزازهم بعزته هو رفع هممهم عن تعليقها بغير الله تعالى تيها وتكبرا عليها ونقة منهم به وذلك لما ألبسهم من ملابس هيبته حتى لم يهابوا معه غيره ولم تتأله قلوبهم الى سواه ولذلك قالوا المعرفة حقر الاقدار سوى قدره ومحو الاذكار سوى ذكره وقال بعض المشايخ اذا عظم الرب في القلب صغر الخلق في العين وقيل في معنى قوله تعالى تعز من تشاء قال بان يكون لك بك معك بين يديك * (أنت الذاكر من قبل الذاكرين وأنت البادي بالاحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين) الحق تعالى له الاوّلية فيما ذكر كما ذكر قال أبو يزيد رضي الله عنه

أي بتوجه اليه بالطلب (وأنت ما بدّلت عادة الامتنان) أي عادة هي الامتنان أي الاحسان (يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته) المؤانسة سرور القلب بشهود جمال المحبوب شبهه بشئ له حلاوة وهي تخييل والاذاقة ترشيح (فقاموا بين يديه متملقين) التملق هو التلطف في التودد كان يقول الانسان حفظك الله سترك الله وهو هنا كناية عن الطلب من المولى بذلة وانكسار وترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بين (ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته) أي ملابس هي هيبته أو هيبته الشبيهة بالملابس الحسية والمراد بالهيبة الجلالة والعظمة التي كساها الله لاوليائه فكل من رآهم حصل له رعب منهم كأنهم أسود (فقاموا بعزته مستعزين) أي قاموا بين يديه مستعزين بعزته بان رفعوا هممهم عن تعلقها بالاغيار تيها وتكبرا عليها ونقة منهم به وذلك لما ألبسهم من ملابس هيبته حتى لم يهابوا معه غيره ولم تتأله قلوبهم الى سواه (أنت الذاكر من قبل الذاكرين) أي أنت الذي ذكرتهم بالاحسان اليهم في الازل بان تعلقت ارادتك بوجودهم فيما لا يزال فهذا ذكره لعباده قبل ذكرهم له ويحتمل أن يراد بذكره لهم توفيقه لهم لذكره اذ لولاه ما ذكروه وقوله (وأنت البادئ بالاحسان من قبل توجه العابدين) يرجع لما قبله وكذا قوله (وأنت الجواد) أي المحسن (بالعطاء من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب) أي كثير الهبة أي الاعطاء للعطايا كالاعمال الصالحة والاحوال السنية (ثم أنت لما وهبتنا) أي للشئ الذي وهبته لنا (من المستقرضين) كانك قلت أقرضوني هنا أعطيكم بدله في

غلطت

دار الآخرة قال تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا واستقراضه تعالى من عبده ما وهبه له في غاية تلطفه

غلطت في ابتداء أمري في أربعة أشياء توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري ومعرفته تقدمت معرفتي ومحبته أقدم من محبتي وطلبه لي أوّل حتى طلبته فاذا كانت له الاوّلية في ذلك لم يبق للعبد وسيلة يتوسل بها سوى فضله وكرمه * ومما يوافق ما ذكره المؤلف ما حكي عن الجنيد رضي الله عنه أنه كان يقول في مناجاته يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ويا بادئ العارفين بما به عرفوه ويا موفق العابدين لصالح ما عملوه من ذا الذي يشفع عندك الا باذنك من ذا الذي يذكرك الا بفضلك واستقراض الرب من عبده ما وهبه له غاية في ترفيعه لقدره وابانته لشرفه ووعده مع ذلك جزيل الثواب عليه نهاية في اكرامه له وتفضله عليه * قال بعضهم ملكك ثم اشترى منك ما ملكك ليثبت لك معه نسبة ثم استقرض منك ما اشتراه ثم وعدك عليه من العوض أضعافا ليبين فيه أن نعمه وعطاياه بعيدة ان أن يكونا مشوبتين بالعلل * (الهي أطلبني برحمتك حتى أصل اليك واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك) لا سبيل للعبد الى وصوله الى الله تعالى الا برحمته فلذلك طلب منه أن يطلبه بها ولا يتأتى له الاقبال عليه الا بمنته فلذلك طلب منه أن يجذبه اليه بها وذلك لتحقق الاوّلية التي ذكرناها من قبل * (الهي ان رجائي لا ينقطع عنك وان عصيتك كما أن خوفي لا يزايلني وان أطعتك) الخوف والرجاء حالان يتعاقبان على قلب العبد واعتدالهما واستواؤهما هو المطلوب سواء كان العبد في طاعة أو في معصية وقد مثلوا ذلك بكفتي الميزان وجناحي الطائر وهذا من أعلى مشاهدة العارفين والاولياء وذلك لان منشأهما عندهم انما هو شهود الصفات المخوفة والمرجوّة وصفات الله تعالى لا تفاوت فيها فكذلك مشاهدتهما لا تفاوت فيها وان وقع فيها تفاوت كانت مشاهدة ناقصة وأحوالا معلولة فلذلك يتصوّر وجود كمال الخوف مع عمل العبد بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكابه للمعصية كما وصف به المؤلف نفسه قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الاعمال لاني أجدني اعتمد في الاعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب اعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل ومن دعاء سيدي أبي العباس رضي الله عنه الهي معصيتك نادتني بالطاعة وطاعتك نادتني بالمعصية ففي أيهما أخافك وفي أيهما أرجوك ان قلت بالمعصية قابلتني بفضلك فلم تدع لي خوفا وان قلت بالطاعة قابلتني بعدلك فلم تدع لي رجاء فليت شعري كيف أرى احساني مع احسانك أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك ومن كلامه أيضا رضي الله عنه العامة اذا خوّفوا خافوا واذا رجوا رجوا والخاصة متى خوّفوا رجوا ومتى رجوا خافوا قال في لطائف المنن ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة واقفون مع ظواهر الامر فمتى خوّفوا خافوا اذ ليس لهم نفوذ الى ما وراء العبارة بنور الفهم كأهل الله وأهل الله اذا خوّفوا رجوا عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوّفوا أوصاف المرجوّ الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته ولا أن ييأس من منته فاحالوا على أوصاف كرمه علما منهم أنه ما خوّفهم الا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك اليه واذا رجوا يخافون غيب مشيئته الذي هو من وراء رجائهم وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختبارا لعقولهم هل تقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ الى خوف ما بطن في مشيئته فلذلك أثار الرجاء خوفهم * (الهي قد دفعتني العوالم اليك) انما دفعته العوالم اليه لما تضمنته من السمات الموحشة كما تقدم

به واعلائه لقدره وفيه اشارة الى أن احسانه تعالى واعطاءه ليس مشوبا بالعلل (الهي اطلبني) الى القرب منك (برحمتك) أي احسانك (حتى أصل اليك) فانه لا سبيل الى الوصول اليك الا برحمتك لا باعمالي المدخولة والطلب ان كان من الاعلى كالسلطان لم يحصل في الوصول مشقة بخلاف ما اذا كان من الادنى (واجذبني بمنتك) أي احسانك فلا يصير لي قدرة على الامتناع (حتى أقبل عليك) وهو بمعنى ما قبله (الهي ان رجائي لا ينقطع عنك وان عصيتك) لمعرفتي أنك المبتدئ بالاحسان ومن هو كذلك يرجى خيره ولو مع المعصية (كما أن خوفي لا يزايلني) أي لا يفارقني (وان أطعتك) لعلمي بانك الفعال لما تريد فالطاعة لا تقتضي رفع سخطك وزوال عقابك خصوصا وهي مدخولة معلولة ومنشأ اعتدال الخوف والرجاء عند العارفين شهود الصفات المخوفة والمرجوّة فكما أن صفاته تعالى لا تفاوت فيها كذلك شهودها لا تفاوت فيه فان وقع فيه تفاوت كان شهودا ناقصا فلذا يتصوّر عندهم كمال الخوف مع العمل بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكاب المعصية كما وصف بها المصنف نفسه (الهي قد دفعتني العوالم اليك) وذلك أني اذا توجهت الى أحد ليعطيني أو ينصرني يقول لي لا معطي الا الله ولا ناصر الا هو ويحتمل أن يراد بالعوالم جميع ما عدا الله

فاذا ظهرت لى كرامة وكشف لى عن شئ من الملكوت وأردت أن أقف عنده تقول لى حقيقته لا تتعلق بى بل تعلق بمولاك وكذا ان خاطبتنى الجمادات وأردت أن أقف عند ذلك تقول لى حقيقتها لا تتعلق بى بل تعلق بمولاك فكل شئ يدفعنى اليك (وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك) أى على بابك فالحامل على وقوفى ببابك علمى بكرمك والكريم لا تتخطاه آمال المؤملين ولا يتوجه نحو سواه طلب الطالبين (الهى كيف أخيب) أى يحصل لى خيبة وعدم ظفر بالمطلوب (وأنت أملى) أى الذى أملت العطاء منه لان عادتك الاحسان (أم كيف أهان) أى يحصل لى هوان وذل (وعليك متكلى) أى اتكالى واعتمادى (الهى كيف استعز) أى يحصل لى عز فى نفسى (وأنت

فى الذلة أركزتنى) أى أقمتنى فى الذلة وجعلتها مركزا ومكانا لى لا أفارقها (أم كيف لا أستعز) أى يحصل لى عزبك (واليك نسبتنى) أى وقد نسبتنى اليك نسبة خاصة بافاضة الانوار على ظاهرى وباطنى حتى صار كل من رآنى يقول هذا ولى الله فانا ذليل من وجه عزيز من آخر (أم كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى) فهو صفة لازمة لى ومن لازمه الذلة فيرجع لما قبله (أم كيف أفتقر وأنت الذى بوجودك) أى بشهودك وفى بعض النسخ بجودك أى احسانك الى بالشهود فيرجع لما قبله (أغنيتنى) حتى حصل لى عزبك فالافتقار يرجع للذلة والاستغناء للعزة وتلونه فى هذه الاوصاف المتضادة بحسب الظاهر لما يغلب عليه من مشاهدة ما يوجبها والذلة المثبتة هنا هى ذلة الخليقة والعبودية والنسبة التى أشار اليها هى سر الخصوصية كما تقرر (أنت الذى لا اله غيرك) يعبد أو يستند اليه فى شئ (تعرفت لكل شئ) أى جعلت نفسك معروفا لكل شئ بما أودعته فيه من النور الذى عرفك به (فما جهلك شئ) بل صار كل شئ يعرفك

ولقد أحسن من قال لا وحشة مع الله ولا راحة مع غير الله وفى هذا المعنى أنشدوا

يا قرة العين سل عينى هل اكتحلت ● بمنظر حسن مذ غبت عن عينى

(وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك) اذ الكريم لا تتخطاه آمال المؤملين ولا يتوجه نحو سواه طلب الطالبين ● (الهى كيف أخيب وأنت أملى أم كيف أهان وعليك متكلى) لما تعلق بالله تعالى وتوكل عليه استبعد أن يخيب أمله أو يناله هوان يؤده تحمله ● (الهى كيف استعز وأنت فى الذلة أركزتنى أم كيف لا أستعز واليك نسبتنى أم كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى أم كيف أفتقر وأنت الذى بجودك أغنيتنى) تلونه فى هذه الاوصاف المتضادة لما يغلب عليه من مشاهدة ما يوجبها والذلة المثبتة هنا هى ذلة الخليقة والعبودية والنسبة التى أشار اليها هى سر الخصوصية والافتقار بمعنى الذلة والاستغناء بمعنى العزة قال بعضهم رأيت ذل كل ذى ذل فزاد ذلى على ذلهم ونظرت فى عز كل ذى عز فزاد عزى على عزهم وقال الشبلى رضى الله عنه لقد ذللت حتى عز فى ذلى كل ذى ذل وعززت حتى ما تعزز أحد الا بى وعن به تعززت ● (أنت الذى لا اله غيرك تعرفت لكل شئ فما جهلك شئ وأنت الذى تعرفت الى فى كل شئ فرأيتك ظاهرا فى كل شئ فانت الظاهر لكل شئ) هذا كله قد تقدم معناه ولفظه فى كلام المؤلف على غاية الكمال والتمام والحاصل منه أن الظهور التام لله تعالى بكل اعتبار ثم انه عبر هنا عن ذلك بعبارة لم يذكرها فيما تقدم وهو قوله ● (يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبا فى رحمانيته كما صارت العوالم غيبا فى عرشه) كأنه أشار بهذا الى معنى قوله تعالى الرحمن على العرش استوى وقوله تعالى ثم استوى على العرش الرحمن ورحمانية الله تعالى كونه رحمانا والرحمن اسم لله تعالى يقتضى وجود كل موجود وهو مشتق من الرحمة والرحمة ههنا هى الرحمة العامة التى وسعت كل شئ كما وسع علمه كل شئ فى قوله تعالى مخبرا عن حملة العرش اذ قالوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ولذلك دخلت تحت مقتضى اسمه الرحمن جميع أسمائه تعالى الايجادية ويفهم من معنى الاستواء القهر والغلبة ومقتضاهما فى حق الله تعالى أن لا يكون لغيره وجود مع وجوده ولا ظهور مع ظهوره فلا جرم لما كان الحق تعالى مستويا برحمانيته على عرشه الذى العوالم كلها فى طيه كان العرش غيبا فى الرحمانية والعوالم كلها غيب فى العرش لانها فى طيه فلا ظهور اذا للعرش ولا للعوالم وانما الظهور التام لله عز وجل ● (محقت الآثار بالآثار) كما بين العوالم

والعرش

(وأنت الذى تعرفت الى فى كل شئ) بان أودعت فى نورا (فرأيتك ظاهرا فى كل شئ) بسبب ذلك النور (فانت الظاهر لكل شئ) مفرع على ما قبله (يا من استوى) أى استولى (برحمانيته) أى برحمته (على عرشه) فصار العرش تحت حكمه وقهره كاستيلاء السلطان بجنوده على أهل بلده فشبه المولى بسلطان ورحمته بالجنود وعرشه باهل القرية (فصار العرش غيبا) أى غائبا ليس له وجود (فى رحمانيته) أى بالنسبة لرحمته (كما صارت العوالم) أى السموات والارضون وما فيهما (غيبا) أى غائبة (فى عرشه) أى ليس لها وجود بالنسبة له ثم بين ذلك بقوله (محقت) يا الله (الآثار) وهى السموات والارضون وما فيهما (بالآثار)

وهو العرش لانه أثر الرحمة والعوالم بالنسبة له كلا شئ (ومحوت الاغيار) وهو العرش (بمحيطات أفلاك الانوار) أى بالانوار الشبيهة بالافلاك المحيطة بالعرش وهى تلك الرحمة والحاصل أن رحمته تعالى أى احسانه هو الذى

اقتضى وجود العوالم كلها من عرشها الى فرشها ولولا احسانه لها بالوجود لم توجد فالمراد بالرحمة الرحمة العامة التى وسعت كل شئ (يا من احتجب) أى امتنع (فى سرادقات عزه عن أن تدركه الابصار) أى فى عزه الشبيه بالسرادقات جمع سرادق بمعنى الخيمة التى تنصب على صحن الدار فالسرادقات الخيام وهو من اضافة المشبه به للمشبه فكما أن الخيمة تمنع من رؤية ما بعدها كذلك عز الله أى قوته العظيمة تمنع عن رؤيته بالابصار ثم ان أريد رؤية الاحاطة فهى ممتنعة فى الدنيا والآخرة وان أريد مطلقها فهى ممتنعة فى الدنيا واقعة فى الآخرة للمؤمنين فعزه تعالى اقتضى حجب ما سواه عن رؤيته فان العزيز معناه المنيع الذى لا يوصل اليه يقال حصن عزيز اذا تعذر الوصول اليه وقيل العزيز الذى لا يرتقى اليه وقيل العزيز الذى ضلت العقول فى عظمته وحارت الالباب عن ادراك نعته وكلت الالسن عن استيفاء مدحته (يا من تجلى) على قلوب العارفين (بكمال بهائه) أى بمحاسن صفاته أى بصفة جلاله وجماله (فتحققت عظمته) أى كونه عظيما عظما لا نهاية له (الاسرار) أى بواطن القلوب (كيف تخفى وأنت الظاهر

والعرش ● (ومحوت الاغيار بمحيطات أفلاك الانوار) كما بين العرش والرحمانية ومحيطات أفلاك الانوار هى أسماء الله الحسنى والله أعلم ● (يا من احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه الابصار) عزة الله تعالى اقتضت كون كل ما سواه محجوبا عن رؤيته لله عز وجل فان العزيز معناه المنيع الذى لا يوصل اليه يقال حصن عزيز اذا تعذر الوصول اليه وقيل العزيز الذى لا يرتقى اليه وهم طمعا فى تقديره ولا يسمو الى صمديته فهم تصدا الى تصويره وقيل العزيز من ضلت العقول فى بحار تعظيمه وحارت الالباب دون ادراك نعته وكلت الالسن عن استيفاء مدح جلاله ووصف جماله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وذكر السرادقات واضافه الى عزه واحتجابه فيها مجاز حسن ● (يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الاسرار) كمال بهائه هو محاسن صفاته وأسمائه فبظهور ذلك وتجليه بها تحققت عظمته أسرار العارفين ● (كيف تخفى وأنت الظاهر أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر والله الموفق وبه أستعين) هذا كله بين لا اشكال فيه والحمد لله وقد تقدم معناه غير ما مرة من كلام المؤلف رحمه الله ● قال مؤلف هذا الكتاب وقد نجز بحمد الله ما أردناه وبلغنا الغرض الذى قصدناه ولا حول لنا فى ذلك ولا قوة الا بالله وبذلك تبين ما عندى من مسائل الكتاب والله تعالى الهادى الى الصواب وقد تقدم فى أول هذا التنبيه أنى لم أقصد فيه الا هذا المعنى ولم نلتزم كون ما ذكرناه فيه صحيح المبنى حتى نحتاج الى نصب الادلة والبراهين على ما ادعيناه فيه وانما سقنا ذلك على سبيل حكاية مذهب من المذاهب وللمحكى له ذلك أن يصححه أو يبطله ان أحب وما وقع فيه من نزعى استدلال على مطلب من المطالب فانا فى ذلك متبرع فان صح ذلك الدليل فهو المطلوب وان بطل لم يلزم من بطلانه بطلان المدلول وبقى المذهب قابلا للتصحيح أو الابطال من غير أن تتوجه على مطالبة بذلك والذى حملنى على سلوك هذا السبيل ما فيه من وجدان السلامة لى من الخطر الذى يتعرض له كل من يتكلم على طريق التصوف ممن لا تحقق له فيه ويدعى صحة ما ينظره بعقله وفهمه أو ينسب ذلك الى القوم ولعل شيأ من ذلك لا يصح عنهم فيكون بذلك مفتريا كذابا عليهم ثم فيه من سوء الادب معهم والتقدم بين أيديهم ما لا يقوم له شئ وعند ذلك يكون الخرس والبكم وذهاب الحس والحركة أولى به وأحمد عاقبة له لتخلصه بذلك من شر لسانه وتبعاته ثم ان ما قصدناه من ذلك لا يمنع من حصول الفائدة لمن أراده الله تعالى بها ووفقه لها فعلى العبد أن يعمل على خلاص نفسه ولا يلزمه اتباع مرضاة غيره فقد قيل رضا الناس غاية لا تدرك ونحن نرغب الى من وقع بين يديه هذا التأليف وظهر له فيه خطأ أو تحريف أن يصلح منه ما ألفاه مختلا وان يتهيج من الاعتذار عنه الطريقة المثلى وان ظهر له أن يضع فى ذلك تأليفا يتضمن تنبيها وتعريفا فذلك من المذهب الذى يرتضى ومما لم يزل من شأن من تقدمنى ونحن نستغفر الله تعالى مما يعلمه منا من التعدى والمراء فيما تعرضنا له من بيان كلام الاولياء والراسخين من العلماء وتفسير عباراتهم واشاراتهم من غير اطلاع منا على كنهها ولا بصيرة فيها ونستغفره أيضا مما أقدمنا عليه من اظهار ما ستروه واعلان

بذاتك فى جميع الاشياء كما يقوله أهل الشهود أو بظهور أفعالك وتصرفاتك فى العالم كما يقول غيرهم (أم كيف تغيب وأنت الرقيب) أى المراقب لنا فى حركاتنا وسكناتنا (الحاضر) الذى ليس بغائب وأتى به لانه لا يلزم من المراقبة الحضور زاد فتحصل

ما أسروه ونستغفره أيضا مما وقع منافيه من ذكر أحوال الاوليا. رضى الله عنهم ومقاماتهم ونحريضنا على سلوك طريقهم المستقيم مع افلاسنا من جميع ذلك وعدم احتظائنا به ونسأله مع ذلك أن لا يؤاخذنا بما انطوت عليه ضمائرنا وأكننه سرائرنا من أنواع القبائح والمعايب التى يعلمها منا ولا نعلمها أو نعلمها ولا تسمح نفوسنا بالتنقى منها والتنزه عنها اغترارا منا بحلمه واستهانة بنظره وعلمه ونرغب اليه جل وعلا أن يمن علينا بتوبة تمحو عنا كل حوبة حتى تنقلب أعداؤنا عنا خائبين خاسئين داخرين صاغرين لم ينالوا من تحقق ارادتهم فينا مطلبا ولم يبلغوا من عدم اسعافه ايانا بما طلبناه منه مأربا وأن يشمل فى ذلك معنا كل من أمن على هذا الدعاء ممن سمعه وممن دعا لنا بمثله من اخواننا المسلمين ونتوسل اليه فى بلوغ الامل والوصول الى المبتغى الاجل بما انصرفنا به عن تولى كل جحود وكفور وأخرجنا على يديه من الظلمات الى النور سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين وحبيب رب العالمين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه البررة الاكرمين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أوتى جوامع الكلمات وعلى آله وأصحابه الذين تلقوا عنه الحكم الباهرات والمقتفون آثارهم ما غرد قمرى وهبت نسمات (أما بعد) فيقول المتوسل بالنبى العربى الفقير اليه تعالى أحمد المكتبى قد تم بعون الله ذى المجد والكرم طبع شرح العارف بالله ابن عباد على متن الحكم مطرزا هامشه بشرح العلامة أبى حامد الشرقاوى رحم الله تعالى الجميع وغفر لنا المساوى وذلك بالمطبعة الجديدة المسماة بالخيرية المنشأة بحوش عطى بجمالية مصر المعزية المتوفرة الادوات الزاهية الفائقة ذات الحروف البديعة الشكل المتناسقة على ذمة الامجدين صاحبى المطبعة المذكورة واسعة الرحاب حضرة السيد محمد عبد الواحد الطوبى وحضرة السيد عمر حسين الخشاب كان الله لهما عونا وذخرا وأعلى لهما فى الخافقين ذكرا وكان تمام طبعه فى شهر رمضان سنة ١٣٠٣ هجرية على صاحبها أفضل صلاة وأزكى تحية

آمين

الاحاطة بأفعال الغير وأحواله بالمكاتبة والمراسلة * وهذا آخر ما تيسر رقمه على هذا الكتاب المبارك على وجه لطيف جعله الله خالصا لوجهه الكريم بمنه وكرمه آمين تم ذلك الشرح يوم السبت المبارك لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شوال من شهور سنة أربع بعد المائتين والالف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد أفقر العباد الى الله عبد الله الشرقاوى الخلوتى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



